تطور الاستيطان من القرية إلى المدينة في المشرق العربي القديم

د. جمال كامل تموم

قسم الآثار/ جامعـــة دمشـــق

مقدمة:

ظهرت مجموعة من التغيرات في المشرق العربي خلال الحقبة الممتدة من الألف العاشر إلى الألف السادس ق. م، وكان احتلال الملاجيء الطبيعية أحد الملامح المميزة لحضارات الباليوليت الأعلى بسبب المناخ الأبرد، رغم الإقامة في العراء، والعثور على علائم ذلك كان صعباً، وفي تاريخ لم يضبط بعد بشكل مقبول. وعلى الأرجح نحو ١٠٠٠٠ق. م، تظهر في المشرق حضارة جديدة(النطوفية)، وتدوم حتى حوالي٨٣٠٠[١]، التي تميزت بالصناعات الميكروليتية ذات هندسات تغلب فيها قطع الدوائر، ومثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين وأنصال ومناجل، مكاشط، مخارز، مسننات، ومجموعة تشمل الأثاث الثقيل المتمثل في معدات الطحن أو الهرس أو الجرش والصناعة العظمية، وأحياناً تحفاً فنية من الحجر أو العظم، وظهرت في سورية ولبنان والنقب حضارة مختلفة دعيت الكباري الهندسية التي تميزت بتصنيع الأدوات الحجرية الهندسية الصغيرة، وعلى رأسها المثلث وشبه المنحرف، كما صنعوا الأدوات الثقيلة من الأحجار البازلتية مثل الرحى والأجران، وكانوا يعتمدون في حياتهم بشكل رئيسي على الصيد والالتقاط، لكنهم كانوا أول من بنى الأكواخ البسيطة، ذات الأشكال الدائرية والمحفورة في الأرض، كما دلّ على ذلك موقع عين جيف/Ain Gef/ في فلسطين. خلف النطوفيون الكباريون، نقلة نوعية مهمة على كل صعيد، وكانت أدواتهم الحجرية من النوع الميكروليتي الهندسي، وأهمها الأدوات الصغيرة التي على شكل الهلال والتي استخدمت في تصنيع الأدوات المركبة، وخاصة

المناجل. وهناك النصيلات والنصال والمقاحف والفؤوس والسكاكين وغيرها. كما استخدموا الأدوات الثقيلة كالمجاريش والأجران، والأدوات العظمية كالإبر والمخارز وعرفوا لأول مرة الفنون التي دلت عليها أنواع شتى من الخرز والتماثيل والحجارة واللوحات المزخرفة. لقد شيد النطوفيون بيوتاً دائرية أكثر تطوراً من بيوت أسلافهم الكباريين والتي وجدت في القرى النطوفية، التي انتشرت على مساحة واسعة من المشرق العربي القديم في مواقعهم المهمة مثل المريبط وأبو هريرة في سورية والواد والملاحة في فلسطين وغيرها(٢). دلت المكتشفات الأثرية التي أتت من شتى المواقع النطوفية على تجانس حضاري كبير بين مختلف أرجاء المشرق العربي القديم، وظهر هذا التجانس على مختلف الأصعدة التقنية والفنية والروحية. هكذا يُعد النطوفيون الممثلين الحقيقيين لأول وحدة حضارية امتدت من وادي النيل غرباً إلى الفرات شرقاً ومن سفوح الأناضول شمالاً حتى البحر الميت والعقبة جنوباً(٣). شكّل هؤلاء ما أصبح يعرف بقرى الصيادين الأوائل التي تألفت من بيوت نصف محفورة في الأرض مبنية من الطين والحجر والأغصان، زُودت بالمواقد والمصاطب والأعمدة، ودفنوا موتاهم تحت أرضيات بيوت سكنهم أو خارجها، وزودوها بالأضاحي فقد دفن الكلب إلى جانب صاحبه، كما كان الحال في الملّاحة. وقد ركز هؤلاء في فنونهم على الحيوانات العاشبة، وخاصة الأيل والغزال، لكنهم نادراً ما جسدوا البشر. ومارسوا مهنة الصيد والالتقاط بشكل مكثف، انتقائي ومنظم فاصطادوا الغزال الذي جسدوه في فنونهم أكثر من غيره من الحيوانات /الشكل ١/ كما التقطوا نباتات القمح التي زرعت فيما بعد أكثر من أي نبات آخر، وهكذا وضع النطوفيون الأسس الاقتصادية والاجتماعية التي نشأت عليها القرى الزراعية الأولى في المنطقة(٤) هذه القرى التي شكلّت جسراً بين قرى الصيادين الأوائل العائدة إلى العصر النطوفي وقرى المزارعين الأوائل العائدة إلى العصر الحجري الحديث. جُسّدت هذه المرحلة من خلال ما يُعرف باسم الخيامي

نسبة إلى موقع الخيام في فلسطين، وانتشرت لأول مرة رؤوس النبال، نبال الخيام ذات الفرضات الجانبية التي وجدت في العديد من المواقع الساحلية والداخلية، سواء في الساحل الفلسطيني أو البحر الميت، أو وادي الأردن ومنطقة الأزرق، أو الفرات السوري، أو جبال لبنان الشرقية وحتى سيناء.

تطورت العمارة، فأصبحت البيوت أكبر، ولم تعد كلها محفورة في الأرض، وإنما شيد بعضها فوق الأرض. وبدأ تحول حقيقي آخر في مجال الفنون التي لم تعد كذلك مقتصرة على تجسيد الحيوانات، بل صنعت التماثيل الإنسانية من الحجر أو الطين، بعضها ذو ملامح جنسية واضحة، مثلت المرأة والآخر مبسط ومختزل. كما مُورست عادة دفن قرون الثور في أرضيات وجدران منازل السكن وهكذا أسس الخياميون لعقيدتين مهمتين استمرتا زمناً طويلاً في معتقدات الشرق القديم، هما: عقيدة الإلهة الأم وعبادة الثور. بينما استمر زمناً الصيد والالتقاط البريين مصدر الغذاء الرئيس لهذه المجتمعات.

حصل في مطلع الألف التاسع ق. م تحول جذري، كان نتيجة التطور التدريجي الذي بدأ منذ العصر النطوفي، وظهر بعد الخيامي أول مجتمع زراعي في المشرق العربي القديم يعلن ما يسمى بالثورة النيوليتية /Neolitthic Revolution/، التي جسدت الانتقال من عصر التنقل والالتقاط والصيد إلى عصر الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات. وتعد المرحلة الأولى من هذا العصر هي مرحلة النيوليت ما قبل الفخارآ Pre- pottery Neolithic A وإليها تنسب الحضارات السلطانية /Sultanian/ نسبة إلى موقع تل السلطان /أريحا/ في فلسطين، والمريبطية /Mureybetiah/٩٥٠٠-٨٧٠٠ ق. م، نسبة إلى موقع المريبط في سورية. يؤرخ السلطاني على النصف الأول من الألف العاشر ق. م، وقد ظهر في أريحا فوق السويات النطوفية. حصلت فيه تطورات مهمة في ميادين كثيرة، وعلى رأسها

العمارة؛ إذ أصبحت الأبنية أكبر وأضخم، وأُقيمت على أساسات حجرية ومن اللبن المقولب والمُجفف لأول مرة. وإلى هذا العصر يعود البرج الشهير في أريحا، الذي بلغ قطره عشرة أمتار، وارتفاعه ٨,٥ م، والذي عُدّ برجاً دفاعياً وعُدت أريحا بذلك أقدم مدينة في التاريخ(٥)، باعتبار أن التحصينات والأسوار من مواصفات المدن، رغم الجدل والنقاش بين الباحثين، إذ يعدّه البعض جداراً لدرء الفيضانات، ويظن آخرون أنه لحماية قطعان المواشي أو غير ذلك؛ ما ينفي عنه الصفة الدفاعية، ومن ثم السياسية التي أعطيت لأريحا في ذلك العصر.

تميزت هذه المواقع (السلطانية)، بصناعات حجرية أصلية بينها البلطات والمناجل، والصناعات العظمية وصناعات للسلال والجلود وحجر الأوبسيديان المستورد ربما من الأناضول، الذي يدّل على علاقات تجارية بعيدة. وانتشار عادات دفن الجماجم مفصولة عن الأجساد؛ وهي عادة مهّدت لظهور عقيدة عبادة الجماجم في العصر اللاحق؛ إضافة إلى ظهور التماثيل ذات الدلالات الأنثوية، وتُعد مواقع المريبط وتل الشيخ حسن والجرف الأحمر، وموقع قرامل في منطقة حلب، المعاصرة للمواقع السلطانية، أهم القرى العائدة إلى هذا العصر، التي تميزت بتطور عمراني كبير، فقد ظهرت في المريبط البيوت الدائرية الكبيرة المقسمة، والتي تحتوي على المواقد والمصاطب وتحيط بها بيوت أصغر ومخازن مختلفة، وهناك المواقد والأفران الكبيرة؛ كل ذلك يدل على تجمعات سكانية كثيفة متطورة. وظهرت لأول مرة البيوت المستطيلة المبنية من الحجر المنحوت المتطاول، والمترابط بعضه مع بعض بواسطة الملاط الكلسي. ووجد على جدران هذه البيوت لأول مرة أيضاً في هذا العصر، زخارف هندسية، وأعطى موقع المريبط الدليل الأول على صناعة الأواني الفخارية، ثم اختفت لتعاود الظهور في منتصف الألف السابع ق.م(٦).

وكشفت التنقيبات الأثرية في موقع الجرف الأحمر الذي يُعد النموذج الأهم والفريد على تطور القرى النيوليتية الباكرة في المشرق العربي كله[٧] من خلال البيوت الدائرية الكبيرة المبنية من الحجارة المنحوتة واللبن والمقسمة، أو غير المقسمة، والتي تسندها الأعمدة والعضادات. ورغم هذا التطور في البناء، لكن بقي إنسان هذا العصر يعيش على الالتقاط البري للنباتات والثمار والصيد البري والمائي.

ظهور الزراعة:

يجمع الباحثون في الإجابة عن أسئلة عدة تتعلق بزمان الزراعة الأولى ومكانها وكيفية نشوئها، لكنهم يختلفون إلى حد كبير في تحديد الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا النمط الاقتصادي الذي فتح عصراً جديداً وأسس للحضارات الإنسانية بمعناها الشامل والمتعارف عليه. فهناك من يربط نشوء الزراعة بالتحولات المناخية، وآخرون يعدونها نتيجة للتطور التقني، بينما يرى بعضهم أنها ردّاً على التزايد السكاني، وغيرهم من يردها إلى دوافع اجتماعية – ثقافية[٨] وأياً كان الأمر فمن الواضح أن لكل هذه العوامل دوراً ما، ونشوء الزراعة هو نتيجة لتكامل هذه الأدوار وتفاعلها في إطار بيئة جغرافية مواتية، احتوت على النباتات والحيوانات التي دجُنت، إضافة إلى توافر مستوى حضاري مناسب مكّن من الاستفادة من معطيات هذه البيئة وتسخيرها في خدمة المجتمع والحاجات المادية والروحية المتنامية. انتشرت في هذه المرحلة المسماة عصر النيوليت ما قبل الفخار (ب) PPNB/ التي ابتدأت في نحو منتصف الألف التاسع ق. م، واستمرت حتى مطلع الألف السابع ق.م، في المشرق العربي القديم حضارة واحدة بكل سماتها المادية والاجتماعية، وهكذا تعززت الوحدة الحضارية لهذه المنطقة أكثر من أي وقت مضى. وتجسدت هذه الوحدة من خلال تقانات تصنيع الأسلحة والأدوات والسكن في الأبنية المستطيلة الشكل وممارسة الزراعة والتدجين وعبر ممارسات دينية واحدة تتعلق بالمرأة الأم والثور. وقد أضيفت

إليها لاحقاً عقيدة عبادة الجماجم(٩). إن أفضل شواهد متوافرة عن هذه المرحلة الباكرة، من هذا العصر أي مرحلة النيوليت ما قبل الفخار ب القديم أتت من موقع المريبط، السوية الرابعة، نحو ٨٥٠٠-٨٢٠٠ ق. م، وفي المرحلة الثانية من عصر النيوليت ما قبل الفخار ب، الوسطى ٨٢٠٠- ٧٥٠٠ ق. م، انتشرت المستوطنات إلى المشرق الجنوبي. أما المرحلة الأخيرة العائدة إلى العصر النيوليتي ما قبل الفخار الحديث المؤرخ بين ٧٥٠٠- ٧٠٠٠ ق. م فقد حصل فيها الانتشار الكبير والمكتمل لكل سمات المرحلة النيوليتية الزراعية التي شملت المنطقة كلها بما فيها منطقة الأناضول. وهكذا غطت القرى الزراعية السواحل والجبال والبوادي، بل ظهر لأول مرة نمط حياة رعوي متنقل إلى جانب النمط الزراعي المستقر؛ فتجسدت عملية تدجين الحيوانات إلى جانب النمط الزراعي المستقر؛ كزراعة القمح والشعير والذرة التي شكلت المصدر الغذائي الأهم للقرى الزراعية الأولى.

وحصلت في هذه المرحلة إنجازات وتحولات كبيرة، ليس فقط في مجال الزراعة والتدجين بل في جميع الميادين. فقد أصبحت القرى الزراعية أكبر وتنظيمها أفضل، وبُنيت وفق أفكار مسبقة وحسب مخططات دقيقة /الشكل ٢/، استخدم في بنائها الحجر والكلس واللبن وزودت بشوارع رئيسة وأخرى فرعية وبساحات عامة ومخازن ومدافن وبعضها أحيط بجدران سميكة، مثل أريحا في فلسطين وحالولة في سورية /الشكل ٣/، وزودت بأقنية تصريف وتوزيع دقيق للبيوت مثل البسطة في الأردن بما في ذلك ظهور بيوت بمخططات متميزة، مستطيلة ومن أقسام عدة لها مدخل وصالة مركزية ومحراب، بمثابة معابد، مُورست فيها مختلف الشعائر والمعتقدات. وبلغت الفنون درجة عالية من التطور، فظهرت إلى جانب الدمى الصغيرة تماثيل كبيرة تقارب الحجم الطبيعي للإنسان، كما دلت عليها مكتشفات عين غزال في الأردن /الشكل ٤/ ومن جهة أخرى مثل لأول مرة الثور إلى جانب المرأة

بعد أن اقتصر تجسيده سابقاً على قرونه، بل إن هذا الثور صور وقد اخترقت جسده رؤوس النبال(١٠) كما توثقت عقيدة عبادة الجماجم من خلال الجماجم المقولبة المطلية بالجص التي عثر على العديد منها في حوض الفرات شمالاً مروراً بغوطة دمشق، موقع تل أسود، وحتى بيسامون في فلسطين جنوباً. كما لدينا رسوم جدران جميلة لأشكال بشرية في موقع حالولة والطيور من موقع بقرص في الفرات الأوسط السوري، وعلى صعيد آخر ظهرت لأول مرة رؤوس بشرية تعود إلى رجال ذكور، نحتت سواء من الحجر أو العظم كما في موقع أريحا ووادي حمار في فلسطين وهناك الأقنعة والحلي وغير ذلك من المعطيات التي تدل على مجتمع قطع شوطاً كبيراً على طريق التطور الاقتصادي والاجتماعي.

ظهر ابتكار جديد نحو مطلع الألف السابع ق.م، ترك أثراً كبيراً في حضارات وشعوب المشرق القديم، تميز بتصنيع واستخدام الأواني الفخارية التي ميزت الجزء الثاني من عصر النيوليت الفخاري/Pottery Nwolithic/ وهكذا أصبح الفخار المصنوع من الطين بعد معالجته وشيه من الميزات الدالة على العصر والشعب والحضارة. وبدأ الحديث عن الفخار النيوليتي، أو فخار عصر ما قبل التاريخ (حلف)، وفخار العمق، والفخار اليرموكي. كما تميزت مناطق جغرافية محددة بأنواع معينة من الأواني الفخارية، والتي بدورها أخذت أشكالاً وأنواعاً متباينة حسب طبيعة الطين المستخدم والحجم والوظائف المطلوبة لهذه الأواني فهناك الأواني الناعمة والخشنة والعادية والمزخرفة سواء بالحز أو الطبع أو التشكيل أو التلوين وما إلى ذلك(١١) إلى جانب الأواني الفخارية. وفي المرحلة الأولى من معرفة الفخار استخدمت المجتمعات الزراعية المتطورة الأواني الحجرية المسماة بالأواني البيضاء /Vaisselle Blanche/ التي صنعت من الكلس أو الحوار بعد طحنه وحرقه، كما أنه صنعت أنواع عراقية من الأواني الحجرية من المرمر أو الحجارة النادرة الأخرى.

اكتشفت في ثلاثينيات القرن الماضي حضارة العمق شمال سورية واشتهرت باستعمال الأواني الفخارية ذات الشكل القاتم المسماة / Dark Face Burnished War/ وقد تطورت هذه الأواني الفخارية عبر مراحل زمنية متتالية أولها المسماة مرحلة العمق /Amuq A/ المؤرخة على نهاية الألف السابع وبداية الألف السادس ق.م، تلتها مرحلة العمق (ب) Amuq B/ نحو منتصف الألف السادس ق.م، إذ اتسع استخدام الأواني الفخارية وتراجع استخدام الفخار القاتم المصقول لمصلحة الأواني الفخارية الحمراء اللون على خلفية برتقالية. في هذه المرحلة انتقلت صناعة الفخار إلى الجنوب، فظهر على الساحل الفخار في جبيل في مرحلته القديمة، وفي موقع لبوة في الداخل. مارست مستوطنات هذا العصر الزراعة والتدجين على نطاق واسع ومتطور، لكنها كانت متباينة من حيث مساحتها وأهميتها، بينها القرى الزراعية الكبيرة، وهناك القرى الصغيرة والمحطات المؤقتة. استخدم اللبن بكثافة إلى جانب الحجر والطين، كما اتسع استخدام خامات جديدة مثل الأوبسيديان والحجارة الثمينة والمعادن /نحاس/ والإسفلت، وتطورت صناعة الأقمشة والسلال والجلود والأسلحة والأدوات بشتى أنواعها (الشكل٥)، اللافت للنظر هو اختفاء رؤوس النبال التي شكلت الأدوات الرئيسة في العصر السابق، والتي يمكن أن يكون قد استعيض عنها بحجارة المقالع الطينية والحجرية التي عثر عليها بكثرة في المواقع النيوليتية الفخارية، أو أن هذه النبال قد صنعت من مواد تالفة كالخشب والعظم، فلم يبقَ لها أثر. يدل انتشار الأختام المسطحة من الحجر أو الطين والتي تحمل أشكالاً إنسانية وحيوانية في العديد من المواقع على قيام نظام إداري سياسي معين ظهرت فيه بوادر التقسيم الاجتماعي والطبقي وبداية تفاوت في الثروة بين الناس[١٢] من جهة أخرى أصبحت المقابر جزءاً أساسياً من المستوطنات والقرى، وتدل عادات الدفن على أنهم دفنوا موتاهم بشكل مستقيم أو مثني، وقد لفّ بعض الموتى بالقماش أو الحصر وطليت أجسادهم بالمغرة

الحمراء، كما تم تزويدهم، الكبار خاصة، بالأواني الفخارية والتعاويذ وغيرها؛ ما يشير كذلك إلى بداية تمايز اجتماعي سيزداد وضوحاً في العصور اللاحقة. على صعيد آخر انتشرت عادة حرق الجثث، الصغار خاصة ضمن الأواني الفخارية ثم كسر هذه الأواني ودفنها في حفرة. أياً كان الأمر فليس لدينا من هذا العصر، من بلاد الشام، دلائل كافية على تبلور سلطة رئاسية (Chefdom)، واضحة للمجتمع، ويبدو أن إدارة شؤون هذه القرى كانت متبدلة ودورية بين الأفراد، حسب الظروف، ولا وجود لسلطة ثابتة ولا لمجتمع مقسم طبقياً ومتفاوت في حصته من الخيرات ودوره في الحقوق والواجبات، وإنما كان النمط المشاعي هو الراجح دون أن تغيب البوادر الأولى للمجتمع الطبقي الذي سيتبلور لاحقاً.

بدأت في المشرق العربي القديم نحو منتصف الألف السادس ق.م، مرحلة جديدة، يسميها البعض، العصر الحجري النحاسي، الكالكوليت(Chalcolithic)، أو يسميها البعض الآخر الحضارة الحلفية، ازدهرت في هذه المرحلة حضارات تميزت بالاستخدام المتزايد للنحاس، مطروقاً في البداية ثم مصهوراً فيما بعد. لقد أخذت هذه الحضارة اسمها من موقع تل حلف في الجزيرة السورية العليا عندما كشفت آثارها تحت أنقاض مملكة جوزن الآرامية منذ مطلع القرن الماضي(١٣).

انتشر الحلفيون على مساحة جغرافية واسعة امتدت من شمال شرقي العراق إلى سواحل المتوسط غرباً، ومن الأناضول شمالاً إلى البقاع جنوباً، وهم مروا بمراحل تطورية باكرة ووسطى وحديثة. وكان الأنجاز الأكبر لهم في مجال تصنيع الأواني الفخارية الجميلة، الرقيقة والملونة، التي حملت زخارف هندسية وطبيعية ونباتية وحيوانية وإنسانية متميزة ورائعة. تميّز الحلفيون بنمط خاص من البناء المسمى تولوس(Tholos) وهو بيت دائري سقفه مقبب، يتم الدخول إليه عن طريق ممر مستطيل. وأثار هذا البناء نقاشاً حول وظيفته، وإذا ما كانت دينية أو سكنية أو

تخزينية، مع توافر دلائل على أنه حقق كل هذه الوظائف حسب الغاية التي تفاوتت من موقع إلى آخر. وأما عن الدوافع التي أدت إلى انتشاره؛ فهناك من يعزوها إلى دوافع بيئية؛ إذ يرى فيه بناءً بسيطاً لايحتاج إلى مواد ثمينة، كالخشب، وأن مادة الطين والحجر تجعله دافئاً شتاءً وبارداً صيفاً، وهي ميزة مهمة ومطلوبة. على صعيد آخر حقق الحلفيون تطوراً ملموساً في مجال الفنون وتصنيع الأسلحة والأدوات والتجارة، التي دلَّ عليها الوجود المتزايد لخامات الأوبسيديان ذات الأصل الأناضولي، والتي قطعت مئات الأميال بعيداً عن مقالعها الأصلية(١٤). زرعت هذه القرى المتفاوتة الحجوم بالقمح والشعير والكتان والقنب ودجنت البقر والماعز والغنم والخنزير، واصطادوا الغزال والحمار الوحشي والثور البري، ومارسوا عقائد متميزة على رأسها عقيدة الآلهة الأم التي جُسدت على شكل امرأة عارية ذات أرداف عريضة وقد حملت صدرها بيديها دليل الخصوبة والأمومة (الشكل٦). كما أقام الحلفيون في جنوب بلاد الشام حضارات زراعية اختلفت تسمياتها حسب المنطقة والباحثين.، مثل الحضارة اليرموكية التي انتشرت على مساحة واسعة من فلسطين والأردن، وعرفت بفنونها وخاصة التماثيل النسائية والوجوه البشرية التي حفرت على الجص، والتي تؤكد عقيدة الآلهة الأم التي سادت في العصور السابقة.وحضارة أريحا والمعروفة باسم عصر أريحا الفخاري (أ) وعصر أريحا الفخاري (ب)(١٥).

اختفت الحضارة الحلفية في منتصف الألف الخامس دون معرفة الأسباب، ربما لأسباب اجتماعية أو مناخية أو سياسية أو غيرها. وظهرت حضارة جديدة هي حضارة العُبيد نسبة إلى موقع تل العُبيد في جنوب العراق. وانتشرت هذه الحضارة على المساحة التي شغلها الحلفيون، وزادوا عليها جنوباً حتى سواحل الخليج العربي، وتدل المؤشرات على أن الانتقال بين عصري حلف والعُبيد، قد حصل بشكل سلمي

وتدريجي، كما ظهر في العديد من المواقع السورية مثل تلال: مشنقة وحمام التركمان وبراك وزيادة[١٦].

تطورت العمارة في هذا العصر، فظهر نوع من البيوت الثلاثية الأجزاء، المؤلفة من صالة مركزية يحيط بها صفان من الغرف الجانبية، وقد بنيت من اللبن على أساسات حجرية بعضها زود بمحراب وبمنضدة تقديم أضاحي؛ ما يشير إلى استخدامها كمعابد. وقد أصبح هذا النمط من البناء النموذج الذي شُيدت وفقه معابد العصور اللاحقة، بعد أن غدا المعبد مركز السلطة الدينية والسياسية في المجتمع. أما على صعيد الأواني الفخارية، فهي وإن لم تكن بدقة العصر السابق نفسه وجودته، إلا أنه أنتجت منها كميات ضخمة تدل على أن الفخار أصبح مادة تجارية مهمة. وقد تحققت خطوة كبيرة في هذا المجال عندما استخدم الدولاب البطيء في تصنيع الفخار بعد أن كان يُصنع يدوياً، ما أسهم في زيادة الإنتاج وتنوعه (الشكل ٧). أيضاً حصل تطور في صناعة الأختام ذات الزخارف الطبيعية والهندسية. وعرفت التماثيل النسائية، والرجالية من الطين والحجر وشتى القطع الفنية وأدوات الزينة التي صنعت من الأحجار النادرة، كما تطورت صناعات النسيج والسلال، وعمّ الاستخدام الواسع للقار. وقد كشفت التنقيبات الأثرية في تل مشنقة الذي يعود لهذه الفترة، نماذج لقوارب مما يدل على ممارسة الملاحة البحرية منذ ذلك الزمن الباكر (الشكل٨). وبقيت الزراعة وتدجين الحيوانات المصدر الرئيس للعيش، طبعاً إلى جانب الصيد البري والبحري. ودفن العُبيديون موتاهم في أوضاع مختلفة الشكل، ممددين، أومستلقين على جانب باتجاه الشرق– غرب أو مثنيين، ودفن الأطفال في الجرار وزود الموتى بالأضاحي بعد أن لف بعضهم بالحصر بقبور بسيطة من الطين والحجر، رغم وجود بعض القبور الكبيرة، مما يدل على وجود فوارق وتمايز اجتماعي بين الناس.

تطورت مجتمعات المشرق العربي القديم في منتصف الألف الرابع، وظهرت حضارة جديدة، دُعيت بحضارة الوركاء نسبة إلى موقع الوركاء في جنوب بلاد الرافدين. وصلت هذه الحضارة إلى الفرات الأوسط والأعلى في سورية إلى جنوب الأناضول وغرب إيران[١٧] وأبدعت هذه الحضارة، نظام الكتابة الأولى واضعة حداً لعصور ما قبل التاريخ. ورافق ذلك انجازات كبرى في مجالات العمارة والفنون والأختام والاقتصاد ونشوء المدن الأولى التي ميزت ما سمي بالثورة العمرانية في المشرق العربي القديم. لقد تطورت العمارة وشيدت المدن الكبيرة المسورة، وفيها المعابد الرائعة العديدة التي أصبحت مركز النشاط الديني- الاقتصادي المنظم. وتقدمت الفنون بكل أنواعها وبخاصة نحت التماثيل، وصنعت لأول مرة الأختام الاسطوانية /Cylinder SealL/، ذات الأشكال والمواضيع الاقتصادية والميثولوجية الغنية والكتابة التصويرية واللوحات الإدارية وممارسات الزراعة المروية والتدجين الكثيف وأصبحنا أمام مجتمع منظم يعيش في مدن مسورة تقف على رأسها سلطة دينية واجتماعية وإدارية بسطت سيطرتها على مدن كبيرة تبعت لها مجموعات من المدن والقرى الصغيرة. وحصل تحول شامل في مجال الزراعة والحرف والتجارة مما وضع المجتمع على أعتاب مؤسسات الدولة الأولى في التاريخ. وأثبتت التنقيبات الأثرية التي جرت في الكثير من المواقع العائدة لهذا العصر وجود مجتمعات طبقية مركبة دلت عليها أيضاً، المعابد التي حافظت على الشكل الثلاثي السابق، لكنها أصبحت أكبر وأقوى واحتوت على عناصر زخرفية ومعمارية أشارت إلى مهارة حرفيين متخصصين في أكثر من مجال. والتوسع في هذه الفترة لم يكن شيئاً منظماً، بقدر ما كان هروباً من نار النزاعات المستوطنة. واستمرت المنافسة لفترة طويلة، وقد أعطت منطقة الخابور /أم قصير/ لمحات كاشفة عن الكيفية التي تم فيها التنافس والغزوات والتشرذم خلال تلك الفترة. فكانت مستوطنة أم قصير محطة صغيرة

يرتادها أحياناً، بنفوذهم وسطوتهم؛ أقوام طارئون منذ الألف الرابعة ق. م، وهذا يقدم تفسيرات مفيدة وهامة للتحولات الاجتماعية التي طرأت على مجتمعات وأقوام وافدين إليها من مناطق بعيدة عن الخابور(١٨). وكانت أوروك في نهاية الحقبة العبيدية مركزاً دينياً، وسياسياً، وإدارياً، مهماً للأراضي المحيطة بها، حيث تبرز المستوطنات الأكبر- البلدات- ومجموعات القرى الزراعية المرتبطة بها. بيد أن التغيرات الأهم جرت فيما بعد، وذلك خلال الفترة الأوروكية اللاحقة. وتبين المواد الأثرية التزايد التدريجي لدور المعابد التي أصبحت في أواسط الألف الرابع ق.م على ما يبدو المرتكز الرئيس للنشاط الاقتصادي والاجتماعي في المدن الناشئة، وبالتالي يمكن تمييز نوعين من المدن: المدينة المعبد ثم المدينة الدولة:

١- المدينة المعبد:

تطورت المستوطنات في أوروك، وأصبح المعبد المركز الرئيس للنشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. ونشوء مؤسسة المدينة – المعبد -Temple (City)، التي تشغل مساحة واسعة ويسكنها عدد كبير قُدر ب ١٠٠٠٠ نسمة، شغلت منطقة المعابد (آنو- وإنانا) ثلث مساحة المدينة، بينما الثلثين للسكان، وأصبحت في منتصف الألف الرابع ق. م، أكبر مدينة في العصور المبكرة. تعتمد على الزراعة التي تقوم على الري الاصطناعي، وذلك بحفر أقنية ونظام متشعب للري. ثم كانت المدن الناشئة تحتاج إلى تدفق كبير من المعادن، والأخشاب، والحجر لتزيين معابدها الجديدة، لذلك لابد من إقامة نظام، نقاط السيطرة، لإدارة استمرار تدفق المواد الخام. بكل الأحوال قامت بهذا الدور المستوطنات أو المدن التي قامت في شمال بلاد الرافدين، والجزيرة ووادي الفرات الأوسط. فقد شهد موقع تل براك أقصى اتساع له في أواسط الألف الرابع ق. م، ليصل إلى درجات المدينة، ولم يقتصر السكن فقط على كامل مساحة التل، ولكن أيضاً على مجموعة

من المستوطنات المحيطة بالموقع، ومن المحتمل أن تدل على تجمع مدني يغطي مساحة ١٠٠ هكتار.

إن التوسع الكبير في تل براك، وكذلك تل حموكار، ربما يفترض بدايات التمدن. وهناك مجموعة من المواقع التي ظهرت في هذا العصر في بلاد الشام مثل تل براك، وحبوبة، والشيخ حسن، وحموكار، والغسوليون، وتل أبوحامد. وتُعد مدينة حبوبة الكبيرة الأفضل من ناحية المعلومات من بين تلك المواقع، إذ تبلغ مساحتها ١٨ هكتاراً، والمساحة المسورة ١٠ هكتارات، كونت الأسوار من أهم مواصفات المدن- لكن كانت ضيقة نسبياً، إذ يبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب ١٦٠ – ١٨٠ م، لكن طولها لايقل عن كيلومتر واحد. تمتد المدينة على طول الحافة الشرقية لهضبة وادي الفرات وكان مركز المدينة يتمثل في منطقة المعبد، وباني الإدارة في موقع تل قناص الحالي. ويمتد داخل المدينة في بعض الأماكن عدد من الجروف والوديان العميقة. وأظهرت الأعمال الاستكشافية في الوديان الجافة وجود طرق من شاطئ الفرات والمنطقة الشمالية من المدينة، ويصعد الطريق في الوادي الجنوبي نحو جنوب المدينة ويتصل بالشارع الذي ينتهي في بوابة المدينة الرئيسة. والشوارع الرئيسة كانت من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وهي مرصوفة بالحجر والجص ومزودة بنظام تصريف معقد من أنابيب فخارية طويلة محشورة في داخل سواقي. وتحصينات المدينة من اللبن. أحيطت المدينة بسور ضخم، عرضه ٣ م، وقد تهدم ولم يبقَ منه سوى أساساته التي تدل على ضخامة وتقنية بنائه العالية. يحمي هذا السور المدينة من الشمال والغرب، بينما يحميها النهر من الشرق، أما من الجنوب، فلم يُعثر على أثر للسور، إذ تهدم واختفت معالمه منذ آلاف السنين، وتحولت أنقاضه إلى تربة زراعية لايمكن تمييزها عن تربة الحقول المجاورة، بلغ طول الجزء المكتشف من

السور الغربي ٥٤ م، وهو على استقامة واحدة من الشمال إلى الجنوب، وفيه بوابتان كبيرتان، تسهلان الدخول إلى المدينة،وجد بين الزاوية الشمالية الغربية والبوابة الشمالية، تسعة أبراج، يبعد الواحد عن الآخر مسافة ١٣,٥ م، ومثلها بين البوابتين وحتى يتحقق التناظر فقد افترض المهندسون وجود تسعة أبراج عالية بين البوابة الجنوبية والزاوية الجنوبي- الغربية، ومن المرجح أن يكون مثل هذا العدد في كل من الضلعين الشمالي والجنوبي وتبلغ أبعاد البرج ٣,٥ × ٥,٥ م، ويحوي كل برج حجرة[١٩]. بشكل عام يدل التخطيط المركزي في هذه المدينة على وجود إدارة موجهة من سلطة مركزية. وعلى بعد ٨ كم، باتجاه أعلى المجرى، من موقع حبوبة يوجد موقع عارودا، يختلف عن حبوبة بحجمه الصغير وبشكله. ويبدو أنه كان مركزاً دينياً وإدارياً لمستوطنة حبوبة. ويبرز في هذه المستوطنة معبدان ثلاثيان في التخطيط، تحيط بهما بيوت ذات مخطط ثلاثي، وهي كبيرة وجيدة البناء.حجم هذه البيوت وتعقيدها يشير إلى أنها استعملت كمساكن لشخصيات مهمة ذات صلة بالمعابد، وهناك مركز إداري صغير يطل على المستوطنات، عثر في أحد هذه الأبنية على كتابة تصويرية، وأختام وطبعاتها وغير ذلك من اللقى الفخارية والأدوات المختلفة. وإلى الجنوب من مدينة حبوبة يوجد تل قناص، وهو المركز الديني والإداري للمدينة، حيث كشف عن ثلاثة أبنية ضخمة، بنيت وفق المخطط الثلاثي العناصر عدّها المنقبون معابد على الرغم من عدم وجود المحاريب أو منضدات الأضاحي، ومع احتمال أن تكون أبنية مدنية أيضاً وبيوت سكن للقائمين على شؤون المدينة. زينت واجهات هذه الأبنية بمسامير طينية مخروطية الأشكال طليت نهاياتها العريضة بألوان مختلفة جعلتها نوعاً من الموزاييك على الطريقة نفسها التي استخدمت في واجهات معابد أوروك في بلاد الرافدين. عثر في هذه الأبنية على لقى متنوعة من الأواني الفخارية والأدوات

والأسلحة والصناعات النفيسة والأختام، والأهم لوحات الكتابة التصويرية المؤرخة في نهاية الألف الرابع ق. م. وسادت في بلاد المشرق الجنوبي من بلاد الشام الحضارة الغسولية، نسبة إلى موقع تليلات الغسول إلى الشرق من البحر الميت[٢٠]. عاصر الغسوليون حضارة عصر الوركاء في شمال بلاد الشام وحققوا تقدماً أيضاً في مجال العمارة والفنون واستخدام المعادن وتصنيع الفخار باستخدام الدولاب، كما دلّ على ذلك موقع أبو حامد في حوض الأردن[٢١] الذي يعد مثالاً جيداً للمستوى الاجتماعي والاقتصادي الذي توصلت إليه مجتمعات بلاد الشام في نهاية عصور ما قبل التاريخ.

كل هذه الأبنية المميزة، والتنظيم العمراني الممتاز، يدل على أن هذه المدن، حبوبة وغيرها من المدن كانت تدار من قبل السلطة المركزية في المعبد (المدينة – المعبد، قبل أن ينتقل مركز السلطات إلى القصر في العصر اللاحق.

٢- المدينة- الدولة:

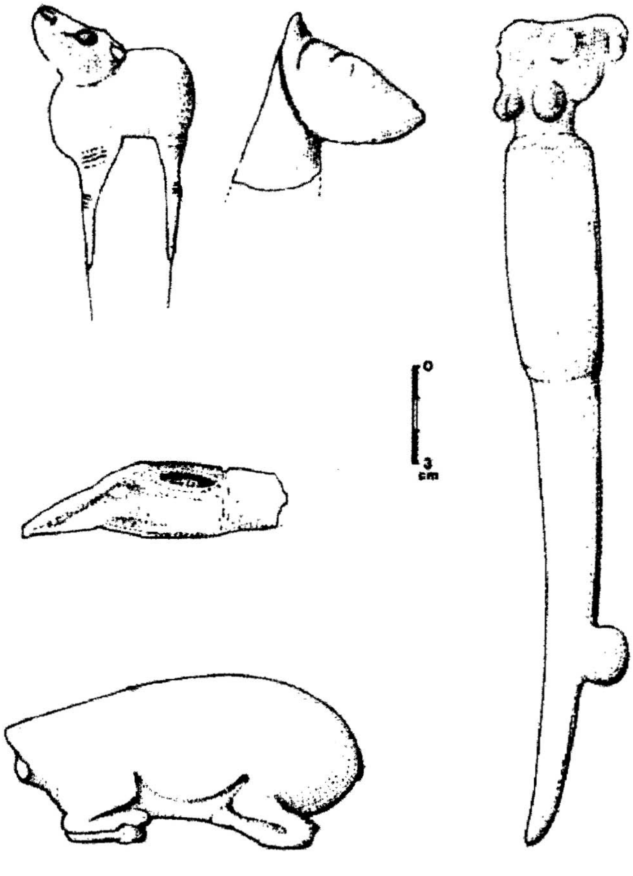
يُنظر إلى تطور المدن على انه حصل كنتيجة لتطور القوى المنتجة، وتعمق التقسيم الاجتماعي للعمل وكذلك فإن عملية نشوء المدينة ترتبط ارتباطاً لاينفصم بعملية نشوء الدولة. وينبغي مراعاة الأساس الاجتماعي والاقتصادي لنشوء المدينة – الدولة (City – State)، والدولة هي نتاج المجتمع، عند درجة معينة من تطوره، وإفصاح عن واقع المجتمع المتناقض مع ذاته، والمنقسم إلى متضادات مستعصية. ولكي لا تقوم هذه الطبقات، ذات المصالح الاقتصادية المتنافرة، بالتهام بعضها بعضاً، اقتضى الأمر وجود قوة تقف في الظاهر فوق المجتمع، وتبقيه ضمن حدود النظام، وهذه القوة هي السلطة[٢٢]، وبالتالي هي الدولة التي تميزت في هذه الفترة بسمتين:

- **السمة الأولى:** تتميز الدولة بتقسيم رعاياها بموجب تقسيم الأراضي، وأن الوحدات العشائرية القديمة، التي انبثقت وتطورت بفضل روابط الدم، لم تعد تكفي، لأن شرط وجودها، الذي هو ارتباط أعضاء العشيرة برقعة معينة من الأرض، قد زال منذ فترة وبقيت بقعة الأرض، ولكن الناس صاروا ينتقلون من مكان إلى آخر. ولهذا اتخذ تقسيم الأراضي، نقطة انطلاق، وأتيح المجال أمام المواطنين لممارسة حقوقهم، وواجباتهم العامة حيث يقيمون بصرف النظر عن العشيرة أو القبيلة.
- **السمة الثانية:** تأسيس السلطة العامة التي لم تعد تنسجم مباشرة مع سكان منظمين لأنفسهم في قوة مسلحة، وهذه السلطة العامة المميزة ضرورية، لأن منظمة السكان المسلحة العاملة من تلقاء نفسها غدت أمراً مستحيلاً بعد انقسام المجتمع إلى طبقات وهذه السلطة العامة وجدت في كل دولة.

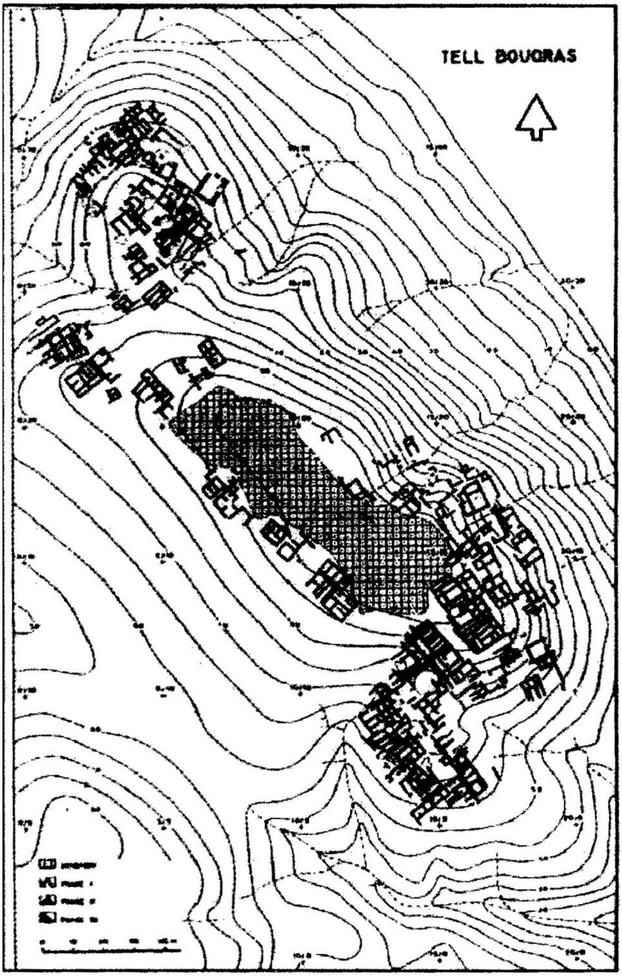
لقد تجلى في البداية، -- في هذه المدن، انقسام المجتمع إلى طبقات بين سكان المعبد، وسكان أحياء المدينة الأخرى. ونشأت الدولة من الحاجة إلى لجم تضاد الطبقات، وبما أنها قد نشأت في الوقت ذاته من ضمن الاصطدام بين هذه الطبقات فهي كقاعدة عامة دولة الطبقة الأقوى السائدة اقتصادياً، والتي ستصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسياً أيضاً، وتكتسب على هذه الصورة وسائل جديدة لقمع الطبقة المحكومة واستثمارها. وربما أسهمت التناقضات الاجتماعية والتوسع في سيطرة المدن على مناطق زراعية؛ في نشوء الدول في المناطق التي توفرت فيها الشروط الضرورية لذلك، مثل أنهار دجلة والفرات وتفرعاتهما. كما كان مرد ذلك إلى التطور العالي للإنتاج الزراعي الذي عرفته وديان الأنهار الخصبة والمروية التي سكنوها. وأخذت مدن المعابد بالتحول إلى وحدات سياسية مستقلة، وفي هذه المرحلة _ بداية العصور التاريخية - تميزت المعابد بأنها جمعت بين مكان إقامة طقوس العبادة، ومركز الحياة الاقتصادية، وبين القصر، داخل بناء واحد مثل تل خويرة وتل

ليلان. وعكست لغة هذا العصر، عملية انفصال المناصب الإدارية العليا عن المناصب الدينية، وأصبحت الألقاب تخص الحكام. وتسمى حكام المدن بأسماء لوجال وانسي، خاصة في مدن الجنوب الرافدي: كيش، لاجاش، ونيبور. هذه التسميات هي التي كانت في البداية تطلق على حكام الأراضي العائدة للمعبد والمكلفين من الكاهن- الحاكم، الذي ساعدته ثرواته الاقتصادية أن يصبح أميراً، ثم ملكاً، عبر مراحل عصر فجر السلالات الباكرة. أضف إلى ذلك دليلاً آخر على انتقال السلطة من المعبد إلى القصر، أو الانتقال من سلطة دينية إلى مدنية؛ تمثل في اكتشاف أحد الأبنية في مدينة كيش، لم يكن يحتوي هذا البناء على قاعة لممارسة العبادة. وانتشار الأبنية الكبيرة المحاطة بجدران ضخمة ضمت بداخلها باحات واسعة، وورشات للصناعات المختلفة، واتصلت بها أبنية خاصة، مثل قاعة العرش. لقد حاولت كل مدينة من المدن الصاعدة، أن تمد نفوذها على حساب المدن الأخرى، مما أدى إلى حدوث النزاعات فيما بينها. وعلى الرغم من التطورات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، لكل مدينة على حدة؛ إلا أنّ هذه المدن أنتجت فنوناً إبداعية ذات طابع موحد، سواء في النحت، أو الرسم، أو الأختام الاسطوانية، والعمارة وتطور الكتابة، رغم قلة الكتابات المكتشفة، وكانت بشكل عام تعالج نواحي اقتصادية، ونذرية. وساد في هذه المدن مبدأ المدينة الدولة (Ctate- City)، ثم انتقلت إلى مرحلة الدولة الوطنية (National state)، وبالتالي نشأت الممالك، إلى أن استطاع الأكاديون أن يتوسعوا خارج أكاد، ويشكلوا أول دولة إمبراطورية في التاريخ، بعد أن سيطروا على بلاد الرافدين، والشام، وصولا إلى البحر المتوسط في النصف الثاني من الألف الثالث ق. م.

الأشكال



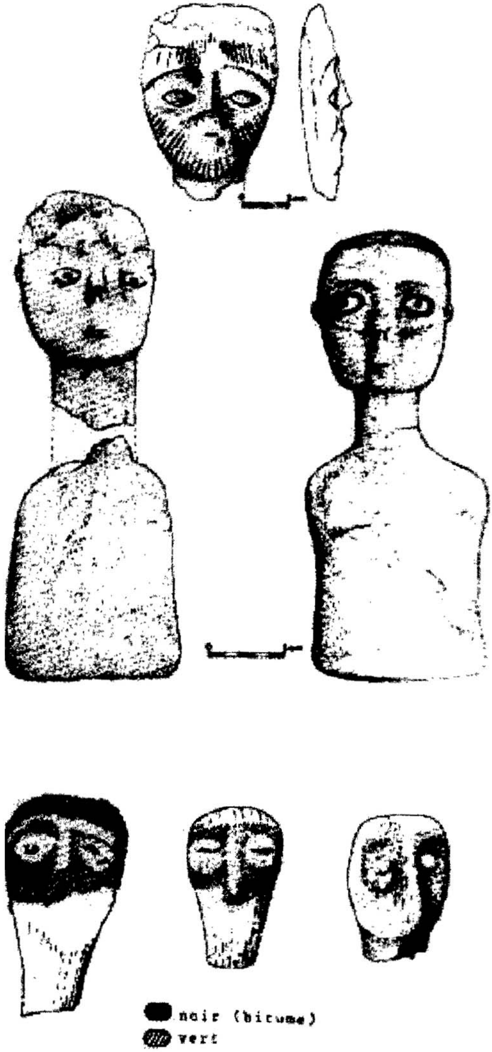
١: فنون من العصر النطوفي



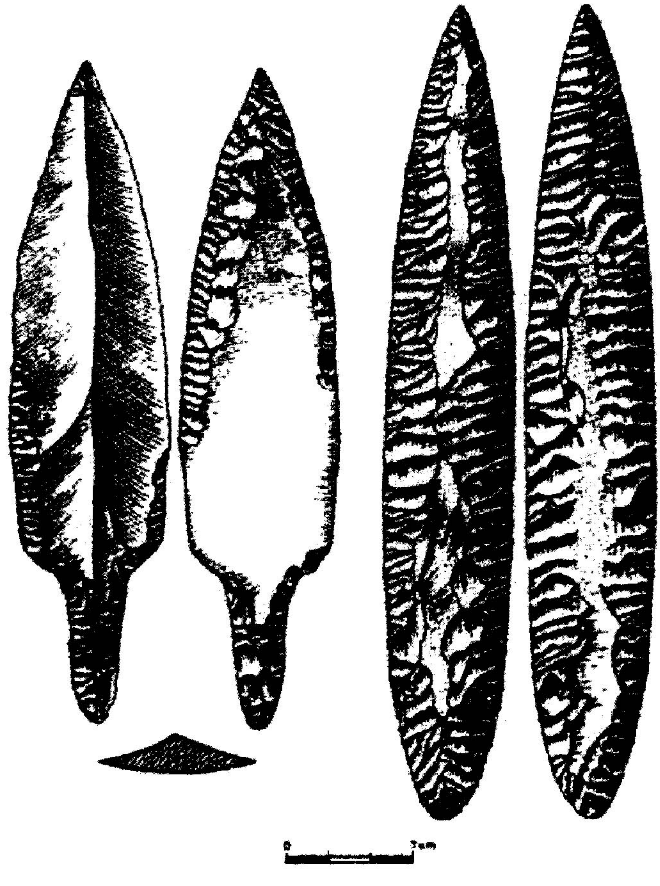
٢: مخطط تنظيم قرية بقرص



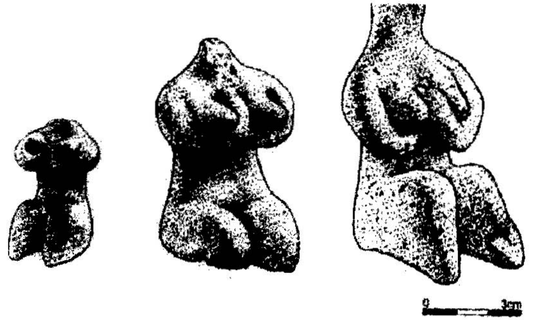
٣: مشهد تمثيل نساء



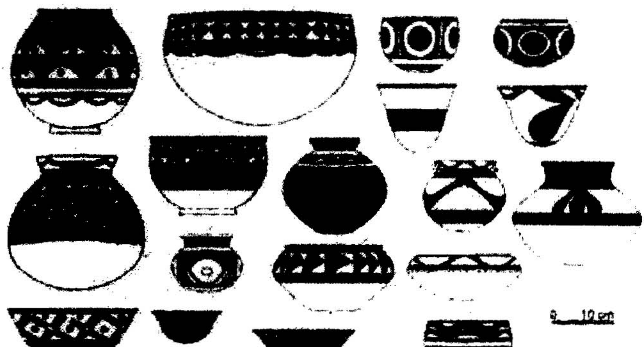
٤: تماثيل من الجص



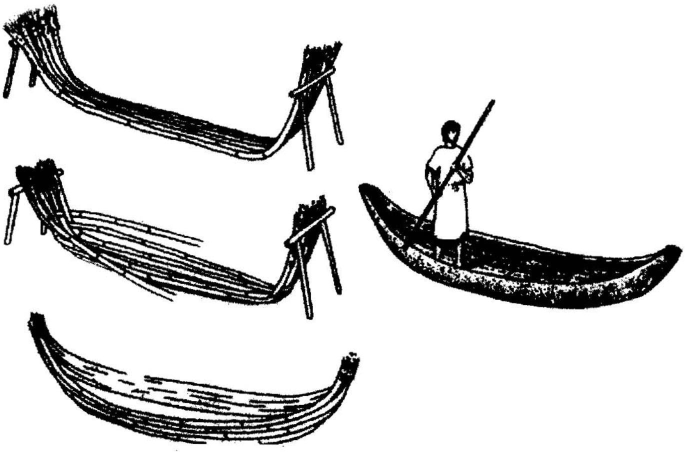
٥: رؤوس نبال جُبيل



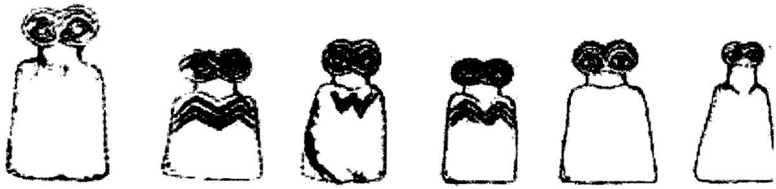
٦: تماثيل الآلهة الأم من تل حلف وتل كشكشوك



٧: فخار من عصر العبيد



٨: تشكيل فني لقارب من تل مشنقة



٩: دمى من معبد العيون – تل براك

الحواشي

(١) جاك كوفان، القرى الزراعية الأولى، ترجمة: الياس مرقص، مراجعة سلطان محيسن، ١٩٩٥ م، ص ٥٧.

(٢) Bar Yosef O. ١٩٧٣,Natufian remains in Hayonim cave. Paleorient ١٢/٢,pp٤٩-٦٨.

(٣) Couvin.١٩٧٨: Les premiers Villages de Syrie, Palestine du IX eme au VIII eme millénaire av. J..-CH. Lyon. Maison de L'Orient.

(٤) سلطان محيسن، الصيادون الأوائل، دمشق، ١٩٩٥ م، ص ٢٧.

(٥) Kenyon. K.M. ١٩٥٧. Exavations, Jerico, Palestine exploration Qurternary, Library of Congres. P,٥٠.

(٦) سلطان محيسن، عصور ما قبل التاريخ، جامعة دمشق، ٢٠٠٤ م، ص ٥٣.

(٧) Stordeur D. ٢٠٠٠. New Discoveries in Architecture and symbolisnat at Jerf el Ahmar (Syrie) ١٩٩٧-١٩٩٩, New- hics ١/١٠٠ ١-٤.

(٨) Redman.C. L. ١٩٧٨. The rise of civilization: from Early Farmers to Urban society in the Ancient Near East ,San Francisco, H. Freeman and Campaign.

(٩) Cauvin J. ١٩٩٤. Naissance des Divnitès Naissance de ١,Agriculture CNR, Paris.

(١٠) زيدان كفافي، الأردن في العصور الحجرية، منشورات لمجلة تاريخ الأردن، ١٩٩٢ م، ص ١٧٧.

(١١) Le Mièr .١٩٨٦. Les premières céramiques du Moyen Euphrate, Loyn: Université Lumière lgoh٢.

(١٢) Nissen H.I ١٩٨٨. The Early History of the Ancient Near East ٩٠٠٠-٢٠٠٠ B.C. Chicago and London Chicago University press.

(١٣) Mellart . J.١٩٧٥.The Neolithic of the Near- East. London, Thmes and Hudson.

(١٤) Cauvin. M. C. ١٩٩١. "L'Obsidienne au Levant préhistorique: Provenance et Fonction", Cahiers de I, Euphrate, ٥-٦ pp:١٦٣ ١٨٨.

(١٥) Perot.J. ١٩٦٨. Préhistoire Palestinienne, Dictionnaire de La Bible" , Supplément No٤٣ pp. ٢٨٦-٤٤٦ .

(١٦) Akkermans and Schwartz٢٠٠٣. The Archaeology of Syria, from complex Hunter- Gathers to Early Urban Society (ca ١٦٠٠٠-٣٠٠ B.C), Cambridge University Press.

(١٧) سلطان محيسن، المرجع السابق، ٢٠٠٤ م، ص ٢٥٣.

(١٨) جمال تمّوم، الجذورما قبل التاريخية للحضارات التاريخية الباكرة في المشرق العربي، وزارة الثقفة، ٢٠١١ م، ص ٣٢٩.

(١٩) Strommenger E. ١٩٨٠. Habuba Kabira Eine Stadt Vor ٥٠٠٠ Yahren. Mainz, philipp – Von Zabren.

(٢٠) Perrot J. ١٩٦٨. Ob. Cit.

(٢١) زيدان كفافي ١٩٩٢ م، المرجع السابق، ص ١٨٣.

(٢٢) جمال تموم، المرجع السابق، ص ٣٣٣.

عبادة آلهة القمر والشمس في الممالك الآرامية

د. محمود حمود
مـــدير الآثار والمتاحف

عندما استقر الآراميون في مناطق العمران، تمثلوا ثقافة سكان المناطق التـــي سكنوها، وأضافوا إليها ما كانوا يكتنزونه من تراثهم الشفهي العميق. فنشـــأت ثقافـــة منفتحة متداخلة فيها الحديث والأصيل، والمحلي والخارجي. وقد يكون هذا الشيء من أهم الأسباب التي ساهمت في استمرار الثقافة الآرامية بكل تجلياتها ردحاً طويلاً مـــن الزمن، بعد زوال الاستقلال السياسي لممالكهم الصغيرة. ولعل من أهم المظاهر التـــي يمكن أن نتلمس من خلالها هذه الثقافة المنوعة، هو الحياة الدينية، وخاصة منها الآلهة التي كان يتعبدها سكان الديار الجديدة. فالكثير من هذه الآلهة كانت معروفة في هـــذه المناطق أو في المناطق المجاورة قبل وصولهم إليها، واستمر تبجيلها من قبلهم ودامت أحياناً بعدهم. ورغم قلة المصادر الآرامية إلا أن هناك الكثير من المنحوتات والأعمال الفنية ومن ضمنها بعض النصوص التي يمكن أن تقودنا لمعرفة الكثير من المعلومات عن الحياة الدينية والآلهة التي كانت تعبد ومنها إلهي الشمس والقمر.

- **إله القمر:**

عرف هذا الإله في بلاد الرافدين وسورية منذ وقت مبكر، وكانت قـــد تمـــت الإشارة إلى إله القمر في نصوص ابلا تحت اسم" سا نو جا رو Sa-nu-ga-ru" وهو يشير بلا شك لشخصية إله القمر. كما اشتهر في ايمار حيث ذكر في الحفل الذي كان يقام عند اكتمال شكل القمر(١).

أصبح إخلاص الشعب الأرامي لإله القمر (تحت كل الاسماء) معلماً بارزاً للتدين في سورية الشمالية، في الألف الأول قبل الميلاد، ولا سيما عندما خضعت المنطقة للحكم البابلي بعد تدمير الإمبراطورية الآشورية[٢]. وقد عرف في حران باسم سين الذي هو تطوير لاحق لاسم إله القمر الرافدي (سوين). ويبدو أن الآكاديين هم الذين أطلقوا اسم إله القمر في سومر الجنوبية، حيث قرن "سوين" بإله القمر السومري "نانا"، إله مدينة أور التي انتقلت منها عبادة إله القمر إلى حران مع البدو الآراميين الرحل. اكتسبت عبادة إله القمر شهرة واسعة في حران وعبر إقليم ما بين النهرين السوري. وتصور النقوش الآرامية نموذجاً متنوعاً للحياة الدينية في هذه المناطق، فيكشف نصبا كاهني إله القمر في النيرب[٣]، أن الكاهنين حملا أسماءً أكادية مركبة تحتوي في أحد شطريها على الاسم سين. لكن هذا الإله عبد تحت اسم سهر أو شهر، كما سنرى فيما بعد.

لقد اكتشف الكثير من الأعمال الفنية والنقوش الحجرية التي تظهر مكانة هذا الإله في العديد من المناطق السورية، وكثيراً ما كان يرمز له بالهلال. ففي شمأل (زنجرلي)[٤] وعلى اللوحة التي تحمل نقش بر ركيب نجد بجانب النقش تصويراً للملك وبجانبه خادم وبالجانب الأيمن من رأس الملك تظهر رموز إلهية، هي خوذة ذات قرنين رمز الإله أدد، وجزء من عربة، رمز الإله راكب ايل، ونجمة خماسية ضمن دائرة رمز الإله شمش، وقرص الشمس المجنحة رمز الإله شمس والهلال رمز الإله سين سيد حران. و يمثل المشهد الملك جالساً على العرش، والنقش بجانبه[٥].

ما تجدر الإشارة إليه هو ورود رمز إله القمر في بعض المنحوتات التي عليها نقوش في شمأل دون أن يكون هناك ذكر لاسم هذا الإله (باستثناء بعض الحالات) بين أسماء الآلهة الأخرى المتضمنة في النقش. لكنه حظي بالتأكيد بأهمية كبيرة، كما يبين ذلك نقش براكب مع كاتبه حيث نجد رمز الإله سين على شكل هلال وضمنه دائرة

وهو يتوسط النقش المؤلف من سطر واحد هو " مري بعل حران"، ومعناه سيدي هو بعل حران.

فبعل حران هو إله القمر الشهير في حران، وهو يحتل هنا مكانة إله السلالة الحاكمة، حيث يذكر في أمكنة أخرى راكب – إيل ومن المحتمل أن التطابق بين راكب إيل وسين ما هو إلا تعبير عن ولاء براكيب للآشوريين، إذ لعبت حران وإلهها سين دوراً مهماً عندهم . إلا أنه يجب ألا يغرب عن البال سواء بالنسبة لشمأل ولحران أيضاً، الأهمية الكبيرة للقمر وإله القمر، بالنسبة للسكان الذين كانوا نصف رعاة. لذلك فمن المرجح، بناءً على هذه الخلفية، وجود علاقة نوعية لحكام شمأل الآراميين مع هذا الإله. ومن المفترض أيضاً أن سين وراكب – إيل متطابقان ولذلك يوجد على شاهدة براكيب زوجان من الآلهة، أدد وإيل وراكب – إيل (القمر) وشمش (الشمس)، لذلك تنتفي عملية الانقطاع الغريبة لإله السلالة الحاكمة لدى براكيب(٦).

لقد كان سين إله القمر وسيد حران التي صارت مدينته المقدسة فعلاً منذ بداية الألفية الثانية ق. م. كان يعبد هناك مع الآلهة نكال وابنه الإله نشك. كان لسين ونشك مكانةً بارزةً في الديانة الآرامية وشعائرها في مناطق الرافدين العليا وشمال سورية، وهذا ما يظهر من خلال الكثير من الاسماء الآرامية الشخصية الأصيلة المركبة مع عناصر تحمل أسماء آلهة.

عبد هذا الإله من قبل الآراميين تحت اسم شهر، ويبدو أنه كان من أهم الآلهة في منطقة النيرب بحلب وكان من كهنته فيها " شين زير ابني šin-zer-ibni" والكاهن " شي جبار ši gabbar"، وقد كان العمل الرسمي لهما هو "كمر شهر" بمعنى كاهن الإله شهر(٧):

"سين زير ابني، كاهن الإله شهر في نيرب ميت، وهذا تمثاله، ومدفنه. وأيـاً تكون أنت الذي ستحرك التمثال هذا، والمدفن من مكانه، ليفنِ شهر وشـمش ونكـال ونشك، اسمك وأثرك من بين الأحياء.. الخ"(٨).

أما في نقش "شا جبار" أو "شي جبار" الشهير(في النيرب جنوب شرقي حلـب) فنجد أن اسم شهر يطلق على إله القمر سين:

"شاجبار كاهن الإله شهر في نيرب، هذا تمثاله، بفضـل إخلاصـي تجاهـه، سمّاني اسماً جميلاً، وأطال أيامي، في اليوم (الذي) مُتُّ (فيه) ما توقف فمي عن نطق كلمات، وبعيني كنت مبصراً أبناء(الجيل) الرابع. لقد بكوني، واضطربوا اضـطراباً، وما وضعوا معي إناء، فضة أو نحاس، وبلباسي وضعوني، كي في آخر (الآمـر) لا تحرك مدفني. أياً تكون أنت (الذي) ستؤذيني، وتحركني، ليت شهر ونكـال ونشـك يعسرون، مماته. وتفني ذريته"(٩).

تأتي أهمية ورود اسم الإله سين في النقش السابق (سين زير ابني) لأننا نـرى معه ذكراً لمجموعة من أسماء الآلهة هي: سهر وشـمش ونكـال ونشـك. وتجـدر الملاحظة أن نكال هي زوجة إله القمر وأن نشك هو إبن هذا الزواج الإلهي(١٠). وهذا النص يوضح أن عبادة إله القمر كانت هي السائدة في النيرب.

في نقش "فنموا" المسطر على تمثال الإله حدد البازلتي المكتشف في زنجرلـي بتركيا عام ١٨٩٠، يرد ذكر اسم راكب إيل والذي يفسر بـ (سـائق مركبـة إيـل)، وبذلك يغدو لقباً ملائماً لإله القمر، حيث يمكن تخيل الهـلال كقـارب يبحـر عبـر السماوات. ويذكر شمش (إله الشمس) على النقش مباشرة بعد راكـب إيـل، كـأنهم قصدوا أن يظهر الجرمان السماويان وقد شكلا موكب حدد(١١).

ويمكن تلمس وجود عبادة نشك ونكال وسط الآراميين من خلال الأسماء الشخصية ومن خلال نقشي النيرب حيث تم ذكر الإلهين بعد ذكر شهر. وفي نقش السفيرة[١٢] ورد اسم نشك ثم سين ثم نكال (السطرين ٨ و٩):

"عهود برجأية ملك كتك مع متيع ايل بن عترسمك ملك أرفاد، وعهود/ أبناء برجأية مع أبناء متيع ايل، وعهود أبناء برجأية ونسله/ مع نسل متيع ايل بن عترسمك ملك أرفاد/ وعهود كتك مع عهود/ أرفاد/ وعهود سادة كتك مع عهود سادة أرفاد وعهود اتحاد.../ ومع آرام كلها ومع مصر ومع أبنائه الذين سيعتلون العرش بعده ومع ملوك/ كل آرام العليا والسفلى، ومع كل داخل بيت الملك. والنصب مع هذا النقش/ أقام و(كذلك) هذه العهود. والعهود هذه (هي) التي أبرمها برجأية قدام.../ وملش وقدام مردوك وزرفنت وقدام بنو وتشمت وقدام إر ونوسك/ وقدام نرجال ولص وقدام شمش ونور وقدام **سين** ونكال وقدام/ نكار وكدأه وقدام كل آلهة رحبه وأدم... وقدام حدد حلب/ وقدام سبتي وقدام إيل وعليون وقدام السموات والأرض وقدام مياه اللجة/ والينابيع وقدام النهار والليل شهوداً. (يا) كل آلهة كتك وآلهة أرفاد"/ افتحوا عيونكم لرؤية عهود برجأية مع متيع ايل ملك/ أرفاد. وإن يغدر متيع ايل بن عترسمك ملك أرفاد ببرجأية/ ملك كتك، وإن يغدر نسل متيع ايل بنسل برجأية...الخ[١٣].

ذكر نكال في وثيقة بيع آرامية غير منشورة من القرن السابع ق.م حيث تقدم فدية من الذهب عن المدينة إلى نكال[١٤]. كما ذكر نكال مع شهر في **نقش ملك حماه" زكور**" الذي عثر عليه في تل آفس:

" بنيت بيوت الآلهة في كل (مكان من) ــ أرضي وبنيت...و ــ وبنيت آفس وأسكنت ــ الآلهة في بيت إيل ور ــ بآفس وأقمت قدام إيل ور ــ النصب هذا، وكتبت ــ عليه أثر يدي مآثري...– من يزيل أثر– يدي زكور ملك حماة ولعش– من هذا النصب، ومن – يزيل هذا النصب من – قدام إيل ور، ويحركه من – مكانه، أو

من يرسل ابنه-....- ليقتل بعل شمين وإيل ور- و...وشمش وشـهر- و...وآلهـة السموات- وآلهة الأرض وبعل-....الرجل و- ابنه وكل نسله"(١٥).

كما أن الغنيمة التي أخذها الأشوريون من معبد إله القمر في مالاخا وصـفت على أنها جاءت من معبد شهر.

إن منحوتة تل أفس(١٦) البازلتية المكتشفة عام ١٩٩٤ م، ربما تعـود لـنفس الطقس، وقد نحتت مع نجم فوق هلال القمر. كما ظهر شهر أيضاً فـي وثيقـة بيـع آرامية تعود للقرن السابع ق.م المستلم لأحصنة بيضاء كانت مكرسة له فرضت كنذر على إثم مرتكب. كما جاء بصيغة اللعن على نص قضائي آرامـي، وذكـر مـؤخراً ضـمن نقـوش جـاءت مـن" كيسـي تشـيك كويـو Kesecek Koyu". وفي"غوزنيGozne"، حيث يظهر مع إله الشمس(١٧). كما يذكر نـص ديـر عـلا الطيني شاجار، إلى جانب ذلك يظهر"شجرsgr" كاسم آرامـي للقمـر علـى كـأس برونزي وجد في غرب ايران، في منطقة لورستان وتم تأريخها للقرن الثـامن ق.م. وقد زخرف داخلها بشكل كامل بالنجوم والأبراج، والتي كتبت أسماؤها أحياناً بنقوش آرامية قصيرة، مثل "شمشšmš"(شـمس)، "شـجرšgr" (قمـر)،" قـرّ تـيمن qrr tymn"(سائق الجنوب)،" ر ش شرr'š šr"(رأس الثور). وقد كتب اسم "شجر" فـوق صورة مشتركة لقمر مكتمل وهلال. ولا توجد آثار على طقوس لـ"شجر" في العـالم الآرامي القديم، باستثناء نقش دير علا، لكن هذا الطقس مثبت في العصر الاغريقـي الروماني، حيث يظهر في دورا أوروبوس، بصيغة ابن شجر(١٨).

وانتشرت عبادة هذا الإله لتصل إلى منطقة عين العرب وسهل الساروج حيث أرسلان طاش وبالقرب منه نحو الشمال الشرقي يقع تل الحاجب الذي عثر فيه ضمن أحد بيوت المدينة السفلى على كتلة عليها مشهد نحت على حجر لوزي دياباس (ارتفاعه ٢٦ سم عرضه ٣٠ سم وعمقه ٢٣-٢٨ سم). يوجد عليه هلالان كل منهما

على منصب قصير، يقومان على قاعدة متطاولة، ربما رمزت قاعدتا القمر الاثنتان إلى إله القمر ومرافقته[١٩]. كما ورد إلى متحف حلب نصبان من حجر البازلت عثر عليهما في صرين (بالقرب من عين العرب) نحت على أحدهما مشهد عربة يعتليها رجلان، والمشهد مشابه لمنحوتات الدولة الآشورية ومجموعة المنحوتات المكتشفة في أرسلان طاش (خداتو). ونشاهد على النصبين رمزاً لإله القمر (سين) وهو عبارة عن هلال يرتكز فوق رمز آخر للإله مردوخ[٢٠].

هنالك ما يرجح وجود صلات دينية بين الآراميين في حران والقبائل العربية في ديدان وتيماء في شمال الجزيرة العربية . ويذكر أحد المصادر المتعلقة بإخضاع الولايات الآرامية لسيطرة الملك الآشوري أداد نيراري الثاني (٩١١-٨٩١ ق. م) وجود ثلاثة مشايخ تيمائيين في المنطقة، كما أن الإقامة الطويلة لنابونيد (والمحتمل أنها لدافع ديني) في تيماء لا يمكن إلا أن تقوي هذه الروابط. وتثبت النقوش الآرامية من القرن السادس ق. م والمكتشفة في تيماء صحة هذا، حيث اكتشفت غالباً رؤوس ثيران مع النقوش، وهذا يبدو أنه يدل على وجود عبادة القمر بين الشعوب التي كانت تتكلم الآرامية في الصحراء العربية[٢١].

في نهاية القرن السابع ق. م وطن نابو بولا صر (٦٢٥-٦٠٥) ق. م ونبوخذ نصر (٦٠٤-٥٦٢) ق. م ص١٣٣، البابليين في البلدان المتعددة التي أخضعوها. وقد ازدهر الدين خلال هذه الفترة وخاصة خلال فترة حكم نابونيد آخر ملوك بابل حيث أعاد بناء حرم سين في حران الذي دمره الميديون عام ٦١٠ق.م عندما سحقوا البقية الآشورية في المدينة. ومن كلمات نابونيد نفسه وكلمات أمه، كاهنة الإله في الحرم، نستنتج أن سين دعي بملك الآلهة هناك، وباستثناء الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٢٧ ق. م) الذي نصب نفسه على حران، ونابونيد، لم يعرف عن ملك آشوري أو

بابلي آخر أنه منح آلهة حران هذه الصفة والتي كانت تمنح إلى الإلهين آشور ومردوك[٢٢].

ورد اسم سين في عدد من النصوص التي اكتشفت في موقع سلطان تبه الواقع إلى الشمال من حران بحدود ٢٠ كم (ربما كانت مدينة حوزيرينا المعروفة في الحوليات الأشورية)، وتدل الوثائق التي تتضمن أسماءً شخصية أن أكثرية سكانها، خلال العصر الأشوري الحديث، كانوا من الآراميين. وهذا يتوافق مع المعلومات التي جاءت فيما عرف بـ"إحصاء حران"، وهي مجموعة من النصوص لها علاقة بمدينة كانو، والتي يجب أن تكون مجاورة لحران.

هناك نصوص تعود لعصر شارو نوري، ومانو زيري، ومنها النص (S.U. ٥١/٣٦) الذي يتعلق باتفاقية بين طرفين موضوعها دفع دين بوجود شهود:(من ناشوخ غوريني.... من المرآة التي بيعت.... (أَمَتَهُ) مع ثلاثة روتو (مقياس ربما كان أقل من ذراع) هم لناشوخ غوريني، سيع – رابي، ابن سين – زكيب- كينا حق مكتسب لأربع شيقلات من الفضة). ويمكن ربط اسم سين بإله القمر في حران[٢٣]. كما يرد هذا إسم سين في النص (S.U.٥١/٤٤)[٢٤].

- إله الشمس:

كانت آلهة الشمس في أغلب الأحيان إلها ذكراً، وقد كانت تمثل السفر والجولان في السماء في سفينة تشبه القارب أو العربة أو الفنجان.

ورغم أنها ذكرت أكثر من إله القمر في النقوش الآرامية خلال الألف الأول إلا أن ذكرها أيضاً كان قليلاً، مما يدل على أنه لم يكن لها دوراً بارزاً خلال هذه المرحلة. لكننا نجد في نقش دير علا الجصي ما يفترض أن آلهة الشمس تسبب كسوف الشمس ولهذا فلها تأثيرات مشؤومة وتملك القدرة على تحدي قوانين الطبيعة على الأرض. أما في نقوش شمأل فيبدو أن إله الشمس كان ينتمي لمجمع إلهي جاء

ترتيبه بينهم متأخراً دائماً، وقد ضم هذا المجمع: حدد / أدد وايل ورشف وراكب ايل وشمش(٢٥). وفي نقش بر راكب الثاني يأتي أخيراً:" ليت حدد وايل وراكب ايل، سيد البيت، وشمش وكل آلهة يأدي يرضون عني أنا ابن فنموا"(٢٦). ولكنه كان ضمن فريق العربة السماوية المقدسة، لا بل ربما جسد العربة الشمسية نفسها، حين كانت الشمس تظهر في المنحوتات الفنية كدولاب يدور في السماوات.

ذكر إله الشمس مع إله القمر في نصوص أخرى مثل نقش زكور(٢٧) ونقوش النيرب وكيسي شيك كويوك وغوزني، بينما ورد شمش في منحوتة السفيرة ضمن مجموعة آلهة بلاد الرافدين (ملش ومردوك وزرفنت ونبو وتشمت و إر ونشك ونرجال ولص وشمش ونور وسين ونكال ونكار وكدأه). لكن لم يكشف أي من هذه النصوص عن خصوصية الشعائر المكرسة لهذه الآلهة بما فيها له الشمس والتي ما زالت غامضة (٢٨).

ظهر شمش في محيط حران نهاية القرن الثامن في عدد من أسماء الأعلام الآرامية، وقد وردت في إحصاء حران السكاني. حيث نجد "سمسي إيابي" بمعنى شمش المعطي، و"سمسي إيدي ري" بمعنى شمس هو معيني. كلا الاسمان آراميان، و"سمسي دينجير" بمعنى شمش إلهي، تبدو أنها آرامية، كما حمل هذا الاسم ابن "حدد بل أوصور" وأخو" شار إيلاني ايل" كلاهما حمل أسماءً أكادية بارزة. في أرسلان طاش وجدت منحوتة تعود للقرن التاسع صنعت من العاج والذهب وهي تمثل ولادة إله الشمس حيث نجد إلهين مجنحين حارسين يحملان الزنبق في أيديهما وبينهما نبتة اللوتس التي يجلس إله الشمس الصغير على زهرتها. وفي التصور المصري القديم يولد هذا الإله كل صباح من جديد ويتمثل بزهرة اللوتس المتفتحة. يتبين إذن أن الموضوع مصري كما أن التكوين وحركة الخطوط وغيرها مستمدة من نماذج أصلية في الفن المصري ويعد التاج المزدوج وذنب البقر الطويل لكلا الحارسين الإلهين من

علامات الأبهة والعظمة الملكية في مصر، أما المئزر فهو قطعة لباس من الشرق الأدنى[٢٩].

في خداتو (أرسلان طاش)[٣٠] سادت عبادة هذا الإله بقوة كما انتشرت الاسماء الشخصية التي يدخل في تركيبها هذا الاسم إضافة إلى الاسم ايل وهذا ما نلاحظه في أحد نقوش الموقع، حيث ينبئونا النص بأن شخصاً اسمه شمش إيلو، هو الذي بنى خداتو وجعل أبوابها من خشب الأرز الشهير. وزين بواباتها ورصف شوارعها. وقد عمد الكاتب إلى وضع كلمة (بشنته) ضمن سطر خاص بعد السطر الثالث، و تعني بأيامه أو بعهده، أي بعهد شمش إيلو أنره بنصر. وقد أمر بنصب أربعة. و في الأسطر الثلاثة الأخيرة، فقد أوكلت إلى الرب شمش حراسة وحماية المدينة إلى الأبد وقد استجار أنره بلصر بالرب آشور على كل من يمحي اسم أنره بلصر وينقش اسمه محله عندها تحل عليه لعنة وغضب الرب آشور. وقد تضرع بالسطر الأخير للرب أدد الذي بيته بكار شلمانصر، أن يبسط على المنطقة العز والفرح طيلة حياته. وهناك أسود من حجر البازلت، تزين بوابتي الدخول والخروج وتحرسها ويظن أن بوابتي الدخول والخروج هما البوابتان المتقابلتان في الشرق والغرب[٣١].

كان أدد يعبد في الشمال وحلب، وكذلك في دمشق، ولأنه إله السماء قبل كل شيء اعتبر فيما بعد نظيراً لإله الشمس. وكان يصور ممسكاً بالبرق في إحدى يديه وبفأس في الأخرى وواقفاً على ظهر ثور، وهو حيوانه المفضل المقدس. وقد دخل دنيا اليونان والرومان على أنه إله الشمس فاعتبروه نظير زيوس وجوبيتر[٣٢].

كما أصبح واضحاً أن إحدى المناطق التي انتشر فيها هذا الاسم هو جوزانا (تل حلف)[٣٣] في الجزيرة السورية، حيث عثر في تل الفخيرية[٣٤]، القريب من تل حلف، على نقش ثنائي اللغة (أشوري آرامي) ورد فيه اسم شمش نوري ملك جوزانا[٣٥]. ويرد ذكر هذا الحاكم أيضاً في أحد نصوص الملك الأشوري أشور ناصر

بال الثاني "أدد إيتي adad it'i" حاكم مدينة جوزان ابن شمش نوري (الذي كان) أيضاً حاكماً للمدينة، كان قد نذر وكرس هذه الأشياء من أجل حياته، لتكون أيامه أطول، وسنواته أكثر، ولسعادة عائلته، نسله، والناس، لطرد المرض من جسده، لعل صلواته تلقى الاستجابة ، لعل كلماته تلقى القبول (من حدد)(٣٦).

تتضمن **روايات الحكيم الآرامي** أحيقار (من القرن السابع ق.م) عدة إشارات لإله الشمس" شمش" وتشير على أنه العدالة الإلهية وهو رب الإراقة العظيم، ورب الحكمة، ورب الحراسة. هذه الملامح توازي شخصية شمش في الأدب الأكادي ونصوصه الشعائرية، وتعتبر انعكاساً لمفهوم إله الشمس الأشوري البابلي(٣٧).

زودتنا الدراسات الآرامية للعصور الأشورية الحديثة والبابلية الحديثة الإخمينية بعدد جديد من الاسماء الشخصية التي ترتبط بشمش، وهي أسماء مثبتة في النصوص المسمارية التي وجدت في العراق القديم، حيث لعب شمش في طقوس العبادة الأشورية البابلية دوراً هاماً، وقد توضح هذا الدور أكثر لاحقاً في تدمر وحضرا(٣٨).

كما وردت أسماء مثل"شمش لك ŠMŠLK"و"شمشي ŠMŠY" بشكل صريح في بعض النقوش الفينيقية، وممن حمل هذا الاسم الصانع الرئيس للسفن في ممفيس وهي المهنة التي تعزز الخلفية الفينيقية لهذا الاسم(٣٩).

وهكذا فقد ساهمت الطبيعة في صياغة الفكر المشرقي القديم على اختلاف تسميات سكانه، فانعكس ذلك في عبادة ظواهر الطبيعة والقوى المؤثرة فيه بكل تجلياتها، ومنها الشمس والقمر، إذ حظيا بمكانة مرموقة لدى جميع سكان المشرق ومنهم الآراميين، الذين استطاعوا عند قدومهم تمثل الكثير من قيم وثقافات سكان المنطقة التي أقاموا فيها وأضافوا لها الكثير من مخزونهم الاصيل لينتجوا مركباً ثقافياً غنياً ومتميزاً وفريداً، استمر تأثيره قائماً لفترة طويلة من الزمن بعد زوال كياناتهم السياسية على أيدي الأشوريين.

الحواشي

(١) Lipinski., ٢٠٠٠. p. ٦٢٣

(٢) تيكسيدور، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٤.

(٣) بلدة تقع (٧ كم) جنوبي شرقي حلب عثر فيها على شاهدتي قبرين تعودان لبداية القرن السابع ق.م وهما محفوظان بمتحف اللوفر.

(٤) موقع في شمال سورية ضمن الحدود التركية يحتوي على موقع العاصمة الآرامية الشهيرة عثر فيه على الكثير من المنشآت الدينية والمدنية والتحصينية وعلى عدد من النقوش الآرامية، نقبت في الموقع بعثة ألمانية، سابقاً فيما تتابع العمل فيه الآن بعثة أمريكية.

(٥) اسماعيل، ٢٠٠١ م، ص ٢٨١.

(٦) Kreuzer, ٢٠٠١, p ١٠١-١١٥

(٧) Lipinski, ٢٠٠٠.p. ٦٢١.

(٨) اسماعيل، ٢٠٠١ م، ص ٣١٥.

(٩) أحمد، علي، ٢٠٠٠ م، ص ٥٥، وانظر: اسماعيل، ٢٠٠١ م، ص ٣١٩.

(١٠) سومر، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٨.

(١١) تيكسيدور، ٢٠٠٧ م. ص ١٣٣.

(١٢) بلدة (٢٦ كم) شرقي حلب فيها تل أثري، عثر بالقرب من البلدة على نصبين حجريين عام ١٩٣٠ م.

(١٣) اسماعيل، ٢٠٠١ م، ص ٢٢٦.

(١٤) Lipinski. ٢٠٠٠ P ٦٢٣

(١٥) اسماعيل، ٢٠٠١ م، ص ٢١٣.

(١٦) يقع بمحافظة إدلب بالقرب من إيلا، تنقب في الموقع بعثة إيطالية. يحتوي على سويات أثرية تعود للعصر الحجري النحاسي والعصر الآرامي.

(١٧) Lipinski. ٢٠٠٠.p. ٦٢١.

(١٨) Lipinski. ٢٠٠٠.p. ٦٢٣.

(١٩) أينفاك، ٢٠٠٥ م، ص ١٥٢.

(٢٠) خياطة، ١٩٩٩ م، ص ١٣٢.

(٢١) تيكسيدور، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٤.

(٢٢) تيكسيدور، ٢٠٠٧ م، ص ١٣٤.

(٢٣) Finkelstein.J.J, , ١٩٥٧, p. ١٤١

(٢٤) Finkelstein.J.J., ١٩٥٧, p. ١٤٣

(٢٥) اسماعيل، ٢٠٠١،ص ٢٩٩.

(٢٦) اسماعيل،٢٠٠١، ص ٣٠٨.

(٢٧) زكور هو ملك حماه ولعش اكتشف نصبه سنة ١٩٠٣ م في أفس قرب سراقب (إدلب) وهو من الحجر البازلتي، يحمل نقشاً يوثق حوادث تاريخية ويبرز الملامح الآرامية للكتابة الكنعانية الفينيقية.

(٢٨) Lipinski., ٢٠٠٠. p. ٦٢٤.

(٢٩) شترومينغر: ١٩٨٥ م، ص١٥٩.

(٣٠) أرسلان طاش هي أطلال مدينة"خدو" أو "خداتو" الآرامية، تقع ٩ كم جنوب شرقي بلدة عين العرب، وسميت أرسلان طاش لوجود أسود بواباتها القديمة البازلتية الضخمة المطروحة فوق الأرض. أحيطت المدينة بسور بيضوي تتخلله البوابات بالجهات الشرقية والغربية والشمالية، وعثر فيها على مبنى عرف بمبنى العاجيات لوجود قطع من الأثاث المزخرف بالعاج فيه وهي تعود للقرن التاسع ق.م. كما كشف في الموقع معبد للرب حدد يحرس مدخله زوج من الأسود.

(٣١) أبو عساف: ٢٠٠٣ م، ص ٣٤.

(٣٢) خياطة: ١٩٩٩ م، ص ١٨٤.

(٣٣) مدينة آرامية تقع في تل حلف قرب رأس العين عثر فيها على نقبت في الموقع بعثة إلمانية منذ بدايات القرن الماضي أدارها فون ماكس أوبنهايم.

(٣٤) يبعد عن تل حلف حوالي ٢كم نقبت فيه بعثة أمريكية عام ١٩٤٠ م، ثم ألمانية عامي ١٩٥٥ و١٩٥٦ م. ربما قامت في الموقع مدينة سيكاني القديمة. عثر صدفة في هذا التل ١٩٧٩ م معلى تمثال بازلتي ضخم لرجل واقف معروض في متحف دمشق الآن.

(٣٥) اسماعيل: ٢٠٠١ م، ص ١٧١.

(٣٦) Grayson., ١٩٩٦, P. ٣٩١.
(٣٧) Lipinski., ٢٠٠٠, p. ٦٢٥.
(٣٨) Lipinski. , ٢٠٠٠, p. ٦٢٤.
(٣٩) Lipinski. , ٢٠٠٠, p. ٦٢٥.

المصادر والمراجع

أولاً- المراجع العربية والمعربة:

- **أبو عساف، ٢٠٠٣ م:**

أبو عساف، علي، ***نقوش اثرة بلصر والي خداتو*** - *أرسلان طاش*، (الحوليات الأثرية، العدد ٤٥/ ٤٦)، دمشق ٢٠٠٣ م.

- **أحمد، ٢٠٠٠ م:**

أحمد، علي، ***نقوش آرامية من القرنين السابع والسادس ق.م***، أطروحة ماجستير في اللغات السامية، جامعة حلب، ٢٠٠٠ م.

- **اسماعيل، ٢٠٠١ م:**

اسماعيل، فاروق، ***اللغة الآرامية القديمة***، حلب، ٢٠٠١ م.

- **أينفاك، ٢٠٠٥ م:**

أينفاك، برتولد، ***أمكنة وأزمنة***- ٢٥ *عاماً من الأبحاث الاثرية في سورية* ١٩٨٠-٢٠٠٥ (معهد الآثار الالماني)، دمشق ٢٠٠٥ م.

- **تيكسيدور، ٢٠٠٧ م:**

تيكسيدور، جافير، ***الديانة الآرامية***، ترجمة عبد الرزاق العلي. موسوعة تاريخ الأديان، الكتاب الثاني، مصر – سورية – بلاد الرافدين، العرب قبل الاسلام، دار علاء الدين، ط ٢، ٢٠٠٧ م.

- **خياطة، ١٩٩٩ م:**

محمد وحيد، ***الآثار الآرامية ومميزاتها في متحف حلب*** (الحوليات الأثرية السورية، العدد ٤٣)، دمشق، ١٩٩٩ م.

- **سومر، ٢٠٠٧ م:**

سومر، دوبونت، ***الآراميون***، ترجمة ألبير آبونا (مجلة سومر العدد ١٩) وأعيد نشره بدار الوراق للعام ٢٠٠٧م.

- **شترومينغر، ١٩٨٥ م:**

شترومينغر، ايفا، ***العصر السوري الحديث***، (دليل معرض الآثار السورية لمجموعة من الباحثين، تعريب نايف بلوز)، فيينا، ١٩٨٥ م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

- **Finkelstein, ١٩٥٧;**
  Finkelstein.J.J, ***Assyrian contracts from SultanTepe***, pp١٣٧-١٤٦. In(ANATOLIAN STUDIES, Vol;٧, Ankara,١٩٥٧).
- **Grayson, ١٩٩٦;**
  Grayson A. Kirk, ***Assyrian Rulers of the Early First Millennium B.C***, II, (٨٥٨-٧٤٥ B.C), Toronto, ١٩٩٦
- **Kreuzer;**

Kreuzer, Siegfried: ***Die Religion der Aramaer auf dem Hintergrnund der fruhen aramaishen Staaten***, (Oesch Josef, Die Religion Alalachs(Haider.P.W, Hutter.M. Kreuzer.S, Reliionsgeschichte Syriens), Verlag W. Kohlhammer Stuttgart Berlin Koln).

- **Lipinski, ٢٠٠٠-**

Lipinski. Edward; ***The Aramaeans, their ancient history culture religion***, Louvain(Belgium) ٢٠٠٠.

صناعة المعادن وتقنياتها في
في بلاد الرافدين خلال الألف الثالث قبل الميلاد

د. سوزان ديبو
قسم الآثار/ جامعة دمشق

بعد استقرار المجموعات البشرية في قرى زراعية تعتمد في نمط حياتها اليومي على الزراعة وتربية الحيوان، تمكن سكان هذه التجمعات السكنية من تطوير العديد من الصناعات التي كان لها دور كبير في دخول مرحلة التحضر والمدنية، فقد قاموا باستيراد المعادن منذ فترات مبكرة واستخدموها في صناعة أدواتهم الخاصة بالزراعة وحُليهم ولكن بطرق بسيطة وبدائية وبقي استخدامها في المراحل الباكرة قليلاً ومتفرقاً. عُرف استخدام المعادن وتصنيعها بالتعدين.

في الألف الرابع ق. م. الذي يترافق ببناء المدن والدخول في مرحلة المدنية، شاع استخدام المعادن وازدهرت الصناعات المعدنية وهذا ما دعا إلى تسمية الفترة التي تبدأ ببداية الألف الرابع ق. م. بعصر المعادن. أحدثت هذه الحرفة تحولاً في مختلف المجالات وأدت إلى توسيع التبادل التجاري وتطوير النظم الاجتماعية، الإدارية، السياسية والاقتصادية.

قدمت المكتشفات الأثرية في مواقع بلاد الرافدين معلومات وافرة عن صناعة المعادن وتقنياتها وورشاتها والأدوات المُصنعة بمختلف أنواعها وأثبتت وجود حرفية وإتقان وإبداع في العمل.

تشير كلمة التعدين Metallurgy إلى علم المواد الذي يدرس المعادن وتحضيرها، وخصائصها ومعالجتها. كما تأخذ هذه الكلمة معنى أوسع لتشير مجازاً إلى صناعة المعادن والسبائك المعدنية.

وقد كانت هذه الصناعة من الصناعات الأساسية التي عرفها الإنسان وساهمت في تطوير حياته عبر العصور. حيث أنها أدت إلى تطور الحضارات وازدهار النشاطات الزراعية والاقتصادية من خلال إنتاج الأدوات الزراعية(١). كما كان لها دور كبير في الثورة الأولى التي يسميها الباحثون بثورة التمدن.

وقد كان استخدام المعادن قديماً ذو صلة بأسماء المدن، فاسم مدينة سيبار يعني مدينة البرونز، وقد أُشير للنحاس والبرونز بكلمة زابار Zabar كما كان لكلمة أورود Urudu التي تعني مختص بأعمال البرونز علاقة مع مدينة اريدو(٢).

يُعد النحاس من أقدم المعادن التي استخدمها الإنسان، وهو يوجد في الطبيعة بعدة أشكال، على هيئة عروق تظهر في الصخور كما تتوفر خامات النحاس في بعض الموارد الطبيعية كالملاخيت والأوزوريت. تميّز هذا المعدن بلدونته وإمكانية طرقه دون تسخينه، استخدمه الإنسان إلى جانب الحجر في صناعة أدواته وأسلحته خلال العصر الحجري النحاسي(٣). كانت بلاد الرافدين تستورد خامات النحاس من: جزيرة ديلمون، ماجان (عُمان)، ميلوخا جنوب الباكستان، ومن بلاد الأناضول التي كانت مصدراً أساسياً للمعادن المجلوبة إلى سوريا. كان يتم استبدال معادن ديلمون وماجان بالقمح والشعير والألبسة في عصر السلالات الباكرة وعصر سلالة أور الثالثة. كانت الأدوات المعدنية تصنع في سومر من أجل تلبية الاحتياجات المحلية دون أن تُصدر بعكس المنسوجات التي لعبت دوراً هاماً في التصدير(٤).

كان النحاس من المعادن الرئيسية المستخدمة في بلاد الرافدين وسوريا إلى جانب الذهب، الفضة، الحديد، الالكتروم (خليط من الذهب والفضة)، القصدير الذي كان يخلط مع معدن آخر، الرصاص(٥) والبرونز. وهو نوع من سبائك النحاس المعدنية المكون عادةً من النحاس والخارصين (Zinc) .وقد اشتُقت تسمية العصور البرونزية من هذا المعدن وهي تمتد بين العصر الحجري النحاسي والعصر الحديدي.

ويختلف تاريخ ظهوره من منطقة لأخرى وفقاً للمرحلة الحضارية لكل منها. يتميّز البرونز بأنه أكثر صلابة وأكثر سهولة في الاستخدام لصنع الأدوات والنقود فيما بعد[٦]. وقد كان مصدر القصدير في العصور القديمة جنوب آسيا الوسطى وأفغانستان.

يُعد الذهب من أكثر المعادن أهميةً بسبب مظهره البراق وسهولة صياغته ووجوده في الطبيعة بشكل نقي، فهو يوجد على شكل عروق في الصخور أو في أعماق الأنهار. كان يستورد من مصر، السودان، إيران والأناضول.

أما الفضة، فقد كانت متوفرة أكثر من الذهب بدليل العثور عليها بكميات كبيرة في المواقع الأثرية. تم خلطها مع الذهب لإنتاج معدن الألكتروم الذي استُخدم بكثرة في جنوب بلاد الرافدين (أور)، وصُنعت منه التماثيل، الحلي، الأدوات والأواني[٧]. وقد كانت جبال طوروس في الأناضول المصدر الرئيس للحصول على خامات الفضة.

بالنسبة للحديد، فقد استُخدام منذ وقت مبكر وتم استعماله وإدخاله تدريجياً في الصناعات المعدنية. يوجد في بلاد الرافدين قطع مصنوعة من الحديد منذ الألف الثالث ق.م. وفي حوالي ٢٠٠٠ ق. م أصبح الحديد من البضائع التجارية المتبادلة بشكل منتظم. إذ كانت قيمته تضاهي قيمة الذهب آنذاك لذلك صُنعت منه في البداية قطع صغيرة للحلي والزينة. ومع حلول عصر الحديد ١٢٠٠ ق. م. أصبح هذا الأخير من أكثر المعادن استعمالاً منحيّاً خلفه البرونز، وأحدث تغيّراً تقنياً في مجال الصناعات المعدنية ولاسيما بعد أن تمكّن الإنسان من صهر الحديد وطرقه ساخناً ليصنع منه مختلف أدواته. وربما كان الفضل للحثيين أو لسكان سوريا الشمالية في تطوير صناعة الحديد فقد كانوا من السباقين في هذا المجال[٨]، وكان يتم استيراده من جبال الأناضول.

بداية استخدام المعادن:

عرف الإنسان تصنيع المعدن بعد اختراعه للفخار، وذلك لأن صناعته كانت تتطلب منه خبرات كبيرة ومقدرة على التحكم بقوة النار ومدة بقائها، وبالتالي إجراء العديد من التجارب الأمر الذي أكسبه بلا شك خبرات أخرى.

زودتنا مواقع عصور ما قبل التاريخ في بلاد الرافدين بمعلومات هامة عن بداية التعدين. وقد كانت إيران والأناضول سباقة في مجال تصنيع المعادن لوجود مناجم المعادن فيهما(٩). فقد عُرفت في إيران عملية تذويب النحاس منذ وقت مبكر ومنه انتقلت إلى بلاد الرافدين في الألف السادس قبل الميلاد (ياريم تبه وتل الصوان)(١٠). كان الذهب والنحاس من أقدم المعادن التي تم التعرف عليها من قبل الإنسان، وقد ارتبط الاستخدام التقني للمعادن بتسمية العصور. فتسمية العصر الحجري النحاسي كانت مرتبطة، كما هو معروف، باستخدام النحاس الأمر الذي يدعو للاعتقاد بأنه لم يظهر إلا في ذلك العصر. لكن تشير المعطيات الأثرية إلى أنه كان قد استُخدم بحالته الطبيعية منذ العصر الحجري الحديث خلال الألفين التاسع والسابع قبل الميلاد في الأناضول في كل من شايونو التي عُثر فيها على مجموعة من الخرزات النحاسية ومخارز(١١)، وشاتال هويوك حيث تم الكشف عن خرزة من الرصاص. لكن يُعتقد أنه ظهر في مرحلة أبكر من الألف التاسع قبل الميلاد في شمال بلاد الرافدين في كهف شانيدار الذي وجد فيه حلية نحاسية(١٢). وهنا يمكن تفسير أسباب الاستعمال المبكر للنحاس بسهولة استخدامه ولدونته أولاً، وقرب المنطقة الرافدية من الأناضول الغنية بمناجم النحاس. فضلاً عن مساهمة إيران المجاورة في تصدير المعادن إلى بلاد الرافدين، ومنها أتت القطع النحاسية الصغيرة التي عثر عليها في تل المغزلية من الألف السابع ق. م(١٣).

وبعد أن تعرّف الإنسان على خواص المعدن أثناء استخلاصه من الخامات الطبيعية قام باستعماله وتوصّل فيما بعد إلى عملية صهر النحاس التي يُفترض أنها تمت عن طريق الصُدفةً. وقد كانت معارف الإنسان بتصنيع الأدوات بدائية فصنع الأدوات البسيطة كالحلي وأدوات الزينة وأدوات أخرى صغيرة كالمخارز باستخدام تقنيات بسيطة[١٤]. وأنتجت بعض مواقع سوريا، البعيدة عن مناجم المعادن، أدوات نحاسية منذ وقت مبكر، مما يدل على أن البعد عن مناجم النحاس لم يكن حائلاً أمام استخدامه في الصناعات. إذ تم العثور على دبابيس نحاسية وقطع صغيرة من الحلي وأدوات للزينة في تل الرماد جنوبي سوريا (الألفين الثامن والسابع الميلاد [١٥]) وتل جديدة في سهل العمق (الألف الرابع قبل الميلاد[١٦]).

كما قدمت مواقع بلاد الرافدين أدوات زينة مصنوعة من الرصاص بتقنيات بسيطة في ياريم تبه (الألف السادس ق.م) ومن الذهب في تبه غورا[١٧]. على العموم، اقتصرت الصناعات النحاسية على الحلي في أغلب مواقع الألف الخامس قبل الميلاد في تل الصوان، سامراء، أرباتشية، حسونة وتبه غورا[١٨]، واستمر استخدام النحاس إلى جانب المعادن الأخرى في العصور التاريخية، ففي العصر البرونزي القديم كان يتم مزجه مع معادن أخرى لإنتاج البرونز المستخدم بكثرة خلال العصور البرونزية. كما استخدم النحاس لوحده في بعض المصنوعات، ففي مواقع وادي الديالى (تل أجرب) وفي أور وكيش تم العثور على تماثيل نحاسية إنسانية وحيوانية، وكان بعضها يستخدم كمسامير تأسيس في الأبنية كتلك التي عثر عليها في تللو[١٩]. واستمر إنتاجها في عصر سلالة أور الثالثة التي عرفت صناعة الكثير من الأدوات النحاسية وقد كان يتم استيراده على شكل سبائك من ديلمون وماجان[٢٠].

تعدين البرونز:

كان للتبادل التجاري دور في تطور صناعة المعادن وظهور حرفية في العمل، وأصبحت المعادن إحدى المواد الأساسية التي ازداد استيرادها من الأناضول في الألف الرابع ق.م(٢١). وقد لعبت المستوطنات العائدة لعصر أوروك التي تم تأسيسها في الشمال ومنها حبوبة الكبيرة، تل قناص، جبل عرودة وتل الشيخ حسن دوراً هاماً في النشاطات التجارية القائمة آنذاك بين سوريا وبلاد الرافدين والأناضول(٢٢).

لاحظ الإنسان من خلال خبراته وتجاربه أن النحاس من المعادن الطرية القابلة للتشوه عند التصنيع بسبب بقاء بعض الشوائب فيه بعد استخلاصه من فلزاته المعدنية، مما دعاه للتفكير باستخدام معدن آخر أكثر صلابةً وفعاليةً، فاستخدم البرونز الذي يتميز بسرعة الإنجاز، سهولة قولبته وإعادة استعماله(٢٣). يتكون البرونز من خليط من النحاس والزنك وبنسب تتراوح من ٥-٤٠ %(٢٤) من الزنك، أو من النحاس والقصدير(Tin) المصهور بدرجة حرارة ١١٠٠ درجة مئوية. كانت كمية القصدير المُضافة قليلة أي ما يعادل حوالي ١٠% من القصدير و ٩٠ % من النحاس. ولم يكن إنتاج سبائك البرونز مقتصراً على العناصر الآنفة الذكر بل كان يتم في بعض الأحيان خلط النحاس مع الزرنيخ للحصول على الزرنيخ البرونزي(٢٥).

وقد استخدم الإنسان القصدير المخلوط بالنحاس أكثر من الزرنيخ، لأن خلط هذا الأخير بالنحاس كان يُطلق غازات سامة أثناء المعالجة، لذلك كان لا بُد من اتخاذ إجراءات وقائية لعدم استنشاق هذه الغازات خلال عملية التصنيع ويُفترض أن الحرفيين القدماء لم يغفلوا هذا الأمر(٢٦).

شهدت المنطقة السورية الرافدية تطوراً في مجال التعدين في عصر أوروك نتيجةً لاتصالها الجغرافي مع الأناضول الغنية بالمعادن التي كانت تُصدّر إلى بلاد الرافدين

والجزيرة السورية. وربما كان التواصل مع حرفيي المناطق المجاورة ذوي الخبرة الكبيرة والقديمة في صناعة التعدين أحد أسباب التطور السريع لهذه الصناعة[٢٧]. حيث استُخدم معدن البرونز منذ الألف الرابع قبل الميلاد وصُنعت منه الأسلحة والأدوات القاسية والحادة. وقد صنع سكان حبوبة الكبيرة أدواتهم المعدنية من خليط النحاس والزرنيخ منذ النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد[٢٨]، كما عثر في نفس الفترة على أقدم أدلة لتعدين البرونز في سهل العمق المرحلة F، حيث كُشف عن دبابيس وسكاكين مصنوعة من معدني النحاس والزرنيخ أو النحاس والنيكل[٢٩]. بلغت هذه الصناعات قمة تطورها في الألف الثالث ق. م. التي تظهر في التماثيل البشرية المصنوعة من البرونز الذي يحتوي على قصدير في تل جديدة في سهل العمق (مرحلة H أو G من بداية الألف الثالث ق.م)[٣٠]. تنوعت أحجام هذه التماثيل وتميزت بأنها كانت موشاة بحلي ذهبية أو فضية ربما كانت قد صُنعت في سوريا في عصر البرونز القديم II[٣١]. وكُشف عن أدوات من البرونز القصديري من النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. في منطقة الفرات[٣٢]. لكن يبدو أن صناعة البرونز المخلوط بالقصدير، الذي كان مصدره من الشرق حسب نصوص إبلا[٣٣]، لم تتطور في سوريا قبل عصر البرونز الوسيط، ربما كان سبب الاستخدام المبكر للبرونز المخلوط بالقصدير في بعض المواقع هو وقوعها على طريق التجارة المؤدي إلى الغرب[٣٤]. وفي بلاد الرافدين، تعود أقدم الأدلة على استعمال البرونز القصديري[٣٥] إلى الألف الرابع قبل الميلاد وذلك من خلال اللقى المعدنية التي وجدت في تبه غورا مستوى VIII. كما عُثر في كيش على جرة تحتوي على ٦,٢ % من القصدير.

أما فيما يخص تراكيب البرونز المستخدم في بداية الألف الثالث ق. م، فقد كان البرونز الزرنيخي يستخدم في جنوب بلاد الرافدين، الأناضول وفلسطين بينما شاع البرونز القصديري في سوريا، إيران وبلاد الرافدين التي ساد فيها البرونز

بمختلف تراكيبه[٣٦] بسبب موقعها على مفترق الطرق التجارية، إذ كان يصلها القصدير والذهب من أفغانستان عن طريق إيران[٣٧]. بدأ البرونز القصديري يحل محل البرونز الزرنيخي في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. وكان له مكانة كبيرة عند السومريين والأكاديين للمميزات التي يتمتع بها وشاع بشكل كبير في الألف الثاني ق.م[٣٨]. ويفترض البعض أن طروادة كانت أحد مصادر القصدير بدليل الظهور المبكر للبرونز القصديري فيها (Troy II)[٣٩]. ويبدو أن القصدير كان يصل إلى مراكز الفرات ليتم توزيعه فيما بعد على المناطق الأخرى، ويعتقد جان كلود مرغرون أن ماري على الفرات الأوسط كانت أحد المراكز التي تستورد القصدير من سوسة ثم تخزنه وتقوم بتوزيعه إلى سوريا وفلسطين. وقد ورد ذكر بعض المعادن في نصوص إيبلا ومنها البرونز الذي يدخل في تركيبه القصدير، والعلاقات التجارية التي كانت قائمة بين المنطقة السورية الرافدية وفلسطين والأناضول[٤٠].

أما بالنسبة للتراكيب الأخرى الداخلة في إنتاج البرونز، فقد بقيت محدودة الاستخدام ومنها الرصاص الممزوج بالنحاس الذي كانت بقاياه قليلة جداً وتمثلت بالأسد الذي عثر عليه في أوروك IV [٤١].

تعدين الذهب، الفضة والحديد:

عُرف الذهب منذ الألف السابع قبل الميلاد. وخلال النصف الثاني من الألف الرابع كان سكان بلاد الرافدين يتقنون بجدارة صناعة الذهب إما وحده كما تشير اللقى الذهبية التي احتوتها قبور تبه غورا، أو بخلطه مع الفضة للحصول على معدن الالكتروم ليصنعوا منه نماذج فنية رائعة كرأس الذئب الذي عثر عليه في أحد قبور تبه غورا (القبر ١١٤)[٤٢] (الشكل ١).

ازداد استخدام الذهب في بداية الألف الثالث في صنع الحلي والتماثيل أو الرقائق التي كانت تغطيها، وكذلك في أجزاء التماثيل المركبة كالأذرع والساقين أو

القرون كما في أوروك وتل العبيد في عصر السلالات الباكرة. نعد لقى مقبرة أور الملكية (من أواني ذهبية وحلي وصاغة) من أهم المكتشفات ويُعد ظهور الحلي المعدنية بكميات كبيرة مؤشر هام على التمدن وعلى غنى طبقة النبلاء، ويسمح بفهم كيفية تطور الصناعات المعدنية والمهن المتخصصة[٤٣]. كما استخدم الذهب في تزيين تجهيزات القصور والمعابد حيث زُيّنت المذابح بألواح ذهبية في معبد العيون في تل براك وفي زقورة أور[٤٤].

استخدمت الفضة في الصناعة منذ الألف الرابع قبل الميلاد في بلاد الرافدين والمشرق، وكانت تُخلط مع النحاس لإعطاء مظهر خارجي شبيه بالفضة ومثال على ذلك رأس سهم من أوروك من نهاية الألف الرابع ق. م[٤٥]. وهناك الكثير من الأمثلة عن المنتجات الفضية في بلاد الرافدين خلال الألف الثالث ق. م في مقبرة أور الملكية، خفاجة، أور وتل أجرب. وكانت الفضة تُجلب من طوروس (جبال الفضة)، إذ طالما سعى سكان بلاد الرافدين للتوسع نحو الشمال في فترات متعددة بسبب غنى الأناضول بالفضة. كما توجد نماذج من الأدوات المصنوعة من الفضة في المشرق من الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، عثر في جبيل على الكثير منها[٤٦].

أما الحديد، فقد أُثبت أقدم استخدام له في إيران في الألف الخامس قبل الميلاد[٤٧]. وتوجد أدلة على استخدامه منذ الألف الثالث قبل الميلاد في بلاد الرافدين ولكن بشكل قليل، كما تشير رُقم التجار الآشوريين أن الحديد كان يستورد بشكل منتظم منذ ٢٠٠٠ ق. م. لكن استخدامه كان يقتصر على الحلي والقطع الصغيرة إلى أن أصبح المعدن الأساسي في الصناعات المعدنية اعتباراً من ١٢٠٠ ق.م. وذلك بعد تطوير تقنية الشي والطرق لتخليصه من الشوائب ثم تصنيع الأدوات منه بالطرق بعد تسخينه[٤٨].

تمر صناعة المعادن بعدة مراحل قبل أن تُحول هذه المعادن إلى أدوات قابلة للاستخدام، إذ يجب أن يتم الحصول على المعدن، ثم معالجته وتحضيره وأخيراً

تصنيعه باستخدام إحدى التقنيات المعروفة سابقاً. سنقدم فيما يلي شرحاً لكل مرحلة على حدا.

١. تحضير المعادن:

يمر المعدن منذ استخلاصه من المنجم وحتى تصنيعه بالعديد من المراحل، ففي المرحلة الأولى كان يُجلب المعدن من مسافات بعيدة، بالنسبة للمناطق التي لا يوجد فيها مناجم معدنية، ثم تجري معالجته وذلك لأنه يوجد في حالته الطبيعية على شكل كربونات أو أكاسيد أو أملاح، لاستخلاص المعدن من فلزاته وخاماته الأولية وتنقيته وفصله من الشوائب (كالذهب والفضة) قبل أن يتم تحويله إلى أداة قابلة للاستخدام. على الأغلب، كانت المعادن تُحول إلى سبائك بالقرب من أماكن استخراجها لكي يسهل نقلها أو تصديرها(٤٩). وفي بعض الأحيان يُنقل المعدن الخام إلى المدن كي تتم معالجته ويدل على ذلك بقايا ورشة صناعة معادن وفرن شي في ماري(٥٠).

لكل نوع من المعادن طريقة خاصة في التحضير، فقد كان يتم تحضير خامات النحاس من خلال تسخينه لتحويله إلى أوكسيد النحاس ثم صهره في أفران لاختزاله إلى نحاس. ثم تجري تصفيته وتنقيته النهائية بالصهر في أفران بعد أن يُضاف له الفحم النباتي لإتمام عملية صهره ومنع تأكسده أثناء الصهر(٥١).

بالنسبة للذهب، كان يتم تنقيته وذلك باستخلاصه من الترسبات الطينية والرملية بالغسل المتكرر بالماء، لكن لا تزال تفاصيل استخلاصه من خاماته وتنقيته غير معروفة بوضوح. كما استُخدمت في العصور التاريخية عملية فصل الذهب من الشوائب بالتسخين على مرحلتين: إذ تتم المعالجة الأولى بالتسخين في الفرن للتخلص من الشوائب المتطايرة. أما المعالجة الثانية فتتم بالصهر بالبوتقة أو الصب حيث كان يتم صهر الذهب بعد إضافة الملح ومواد أخرى داخل الفرن وعندها تمتص مسامات

البوتقة الشوائب غير المتطايرة[٥٢]. أما الفضة، فكان يتم تنقيتها بطرق مشابهة للذهب، فبعد الحصول على خامات الفضة بالغسل المتكرر بالماء، يتم تنقية الفضة بالصهر بعملية البوتقة[٥٣]. تُتبع نفس المراحل في معدن الحديد، لكنه يتميز بأنه يتم تنقيته بطرق كتلة الحديد التي تم الحصول عليها بالصهر[٥٤].

إن القدرة على استخلاص المعادن من خاماتها الأولية وتحويلها إلى سبائك أو ألواح جاهزة للتصنيع يدل على حرفية ومهارة سكان بلاد الرافدين. فقد برعوا في معالجة المعادن وتنقيته وفصل معدن عن آخر كالفضة عن الرصاص اللذين غالباً ما يتواجدا بشكل متلازم في الطبقة الطبيعية. كما برزت مهارتهم في مزج وخلط المعادن مع بعضها للحصول على معدن معين كالبرونز، إذ أن هذا الخليط يغير من الصفات الأولية للمعدن وكان يتوجب معرفته والتحكم بكميات وأحجام المزيج أو الخليط المعدني[٥٥].

بعدها يتم صب المعدن في قوالب بسيطة أو في قوالب محفورة في وسطها نواة طينية. يُطرق النحاس من أجل صناعة الأدوات المعدنية ثم يتم طرق الصفيحات المعدنية في هياكل من الخشب أو القار لصنع التماثيل أو الأثاث[٥٦].

٢. تقنية تصنيع المعادن:

عندما بدأ الإنسان باستخدام المعدن لم يكن يقوم بأي عمل تقني له، أي أنه كان يصنعه في حالته الطبيعية باستخدام المطرقة والمقص دون أن يصهره. ويفترض بعض الباحثين أن الرصاص كان من أول المعادن التي تم معالجتها بطريقة تقنية باستخدام النار منذ الألف السادس قبل الميلاد[٥٧]. ارتبط تطور تقنية تصنيع المعادن بقدرة الإنسان على التحكم بالنار وبدرجة حرارتها وذلك في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد الذي شهد تطوراً في مجال التعدين[٥٨]. بينما عُرفت عملية صهر النحاس في عصر جمدة نصر[٥٩].

فعلى سبيل المثال، صُنعت المخارز من خلال لف وريقات معدنية رقيقة ناجمة عن عملية الطرق التي تُعد من أولى الخطوات لإنجاز قطعة معدنية. استُخدمت أيضاً قوالب بسيطة أو معقدة مكونة من عدة أجزاء كان يُصب فيها الفلز المصهور[٦٠].

في الواقع، لم يكن أمراً سهلاً معرفة التقنيات المتبعة في تصنيع المعادن التي غالباً ما تكون بقاياها في المواقع الأثرية غير كافية من أجل فهمها. لذا عمد علماء الآثار إلى القيام باختبارات وتجارب للطرق و منهجيات العمل التي يُفترض اتباعها في التعدين. تُبين إحدى الاختبارات الحديثة التي أُجريت في أرسلان تبه في الأناضول أن عملية الصهر المختزل للمعدن الخام كانت تتم في مواقد تحتوي على قالب وبدرجات حرارة معينة بعد أن تُخلط خامات المعدن بفحم الخشب. وكان الهواء يصل للموقد عن طريق النفخ بواسطة شلمونات خشبية (الشكل ٢)[٦١].

وقد برزت براعة وحرفية حدادي بلاد الرافدين في تلك الفترة من خلال تنوع التقنيات المستخدمة في العدانة، فقد كانوا قادرين على صناعة قطع دقيقة كالوريقات المعدنية المستخدمة في الزينة، وعلى لحم بعض القطع المكسورة بالقصدير أو بمزيج آخر من المعادن، وكذلك تغطية القطع المصنعة بطبقة ذهبية وتزيينها بطرق متعددة[٦٢] وقد استخدموا عدة طرق في تصنيع المنتجات المعدنية:

أ- **الصب في قوالب:**

كانت تُصب المعادن بعد صهرها في قوالب تأخذ شكل الأداة المطلوبة حيث كانت الأدوات البرونزية هي الأكثر صنعاً بهذه الطريقة. وقد عُثر في أغلب المواقع على قوالب لصب الأدوات المعدنية كتلك التي اكتُشفت في ماري (الشكل ٣)[٦٣]. وتشير القوالب الطينية التي وجدت في بعض المواقع إلى أن الصب في قوالب كان يستخدم بكثرة في صناعة التماثيل[٦٤] أو الحلي. كما اكتُشف في تل بازي في الجزيرة

السورية قالب لصنع السيف وآخر لسكب الحلي، هذا الأخير عبارة عن لوح حجري مسطح حُفر على سطحه قالب متنوع الزخارف لصنع نماذج مختلفة من الحلي. فنشاهد على السطح قرص نجمي الشكل، أشعة، دوائر صغيرة، زهرة تحيط بها دوائر صغيرة وقلب، أما الوجه الآخر يحمل أشكال قرص وهلال وطير(٦٥). وفي مقبرة أور الملكية تدل المكتشفات أنه تم استخدام جميع أنواع الصب في عملية التصنيع إلى جانب تقنيات متنوعة في زخرفة المنتجات(٦٦).

ب- استخدام الشمع المُذاب في عملية السباكة أو تغليف عملية الصب:

كان يتم صنع انموذج شمعي للقطعة المُراد صبها وتغليفها بالطين لتشكّل قالبًا، ثم يذوب الشمع بالتسخين ويسيل من الفتحة المصنوعة عمداً تاركًا تجويفًا للشكل المطلوب صبه بالضبط، بعدئذٍ يتم صب المعدن المصهور في هذا القالب الطيني الذي يُكسر عندما يصبح المعدن صلباً (الشكل ٤). وقد كانت هذه الطريقة معروفة منذ ٣٠٠٠ سنة ق. م، واستخدمت في صناعة أدوات متنوعة مثل رؤوس السهام والتماثيل الكبيرة الحجم(٦٧). وربما كانت المصنوعات اليدوية العائدة لعصر أوروك التي عُثر عليها في المستويين IV-III في قطاع إيانا في أور من أقدم الأمثلة على عملية الصب باستخدام الشمع المُذاب في جنوب بلاد الرافدين(٦٨).

ت- الطرق:

يؤدي طرق المعادن إلى إكسابها صلابةً و ويجعلها هشة، فيؤدي فيما بعد إلى ظهور شقوق على سطوحه. لذلك يجب تلدين المعدن من خلال تسخينه بدرجة حرارة معينة(٦٩). لذلك كان يتم طرق القطعة وهي باردة ثم تُسخن بدرجة حرارة ٥٠٠ وتكرر هذه العملية عدة مرات(٧٠) لصنع أدوات الحديد. أما المعادن اللينة كالذهب والفضة والنحاس فكانت تُطرق من أجل الحصول على رقائق صغيرة إما يتم لفها لصنع المخارز أو كانت تستخدم لتغطية القطع الفنية كالتماثيل، ويتم تثبيتها من خلال

لحمها (بالنسبة للذهب) أو بوساطة مسامير صغيرة مازال آثار بعضها واضحاً على تماثيل الأسود في ماري(٧١).

٣. ورشات تصنيع المعادن:

كان يعمل في مجال التعدين مختصون في مجالات متعددة منهم الصائغ الذي يعمل بالذهب والفضة (kutimmu في الأكادية)، السباك الذي يحضر المعدن ويصهره qurqurru والحداد الذي يصنع الأدوات nappâhu (٧٢).

يمكن التعرف على وجود ورشات تعدين من خلال بعض البقايا التي تتركها في المواقع الأثرية ومنها بعض الأدوات الثقيلة كالمدقات والمطارق الحجرية، بقايا أفران، أنابيب من الطين المشوي (الشكل ٥)، منفاخ الهواء لزيادة درجة حرارة الفرن، قوالب صب المعادن إضافةً إلى النفايات الناجمة عن فصل الشوائب عن المعدن(٧٣). نذكر على سبيل المثال ماري التي كشف فيها عن منشآت صناعية تابعة لورشة تعدين في الحقل L، بقي منها فرن مع حفرة صغيرة فيها حصى ونفايات خلفتها عملية صهر معدن البرونز (الشكل ٦). عُثر أيضاً على بقايا أدوات كانت تستخدم في هذه الورشات مثل الأوعية التي تُصهر فيها المعادن وأنابيب لضخ الهواء في الفرن(٧٤). وتزودنا النصوص واللقى الأثرية بمعلومات مهمة عن حرفة تصنيع المعادن وأدواتها مثل الأزاميل والمشاريط والمخارز والمشابك(٧٥).

يُعد فرن الحداد من العناصر الأساسية في عملية التعدين لكن ليس هناك الكثير من المعلومات عنه في المواقع الأثرية. ومن المعروف بأن درجة الحرارة اللازمة لصهر النحاس هي ١٠٨٥ درجة مئوية و ١٥٣٠ لصهر الحديد. استُخدم الخشب والحطب كوقود، لكنه كان غير كافي لإيصال درجات الحرارة إلى الحدود المطلوبة، فالخشب لا يسمح بتجاوز ٧٠٠ درجة مئوية. لذلك كان يتم استخدام فحم الخشب لهذه الغاية على الأرجح. يذكر أحد النصوص البابلية القديمة أن الحداد ربما

كان يقوم بنفسه بتحضير فحم الخشب الذي كان يلزمه. وفي ماري، كان يتم استيراد الأخشاب والمعادن والفحم ونقلها عبر السفن التي تجتاز قناة نهر دورين في ماري.

كما كانت تتم عمليات النفخ اللازمة لرفع درجة الحرارة كي تصل إلى درجة انصهار المعدن بواسطة منفاخ جلدي مزود بأنابيب فخارية من أجل زيادة كمية الأوكسجين ورفع درجة الحرارة. وقد عُثر في تللو على فرن من الفخار دائري الشكل مزود بفتحتين لإدخال الهواء إلى الفرن عن طريق أنابيب (شكل ٧) من أجل الحصول على درجة الحرارة المطلوبة لصهر المعدن[٧٦]. كما اكتُشف في ماري (المدينة ا) فرن لتصنيع المعادن بالقرب من السور الداخلي للمدينة كان قد أعيد بناؤه في عدة سويات متتالية. اتصل الفرن بقنوات يمر عبرها الهواء الذي يتم تزويده بها من خلال الضغط على منفاخ للهواء (الشكل ٨)[٧٧].

أما عن توضع هذه الورشات داخل المستوطنة، فنجد أنها يمكن أن تتوضع داخل الأحياء السكنية كالورشة التي عُثر عليها بين البيوت في تل أسمر(المستوى IVa)[٧٨]، أو في حي مخصص للحرف في المدينة وذلك لأن حرفة التعدين لا تعتبر من الحرف الملوثة كدباغة الجلود التي غالباً ما كانت تقام خارج المستوطنة أو في محيطها[٧٩]. والدليل على ذلك مدينة ماري التي وجدت فيها مشاغل للتعدين داخل المدينة. كانت ورشات صناعة المعادن إما رسمية تابعة للقصور والمعابد أو مستقلة تابعة لبعض الأشخاص. وتُظهر الحالة الأولى دليلاً على وجود مشغل مستقل وليس له أي صلة بمؤسسات الدولة ويبدو أن ذلك كان شائعاً في العصر الأكادي، إذ تذكر نصوص من جرسو بعض الحدادين الأحرار المستقلين عن الدولة. بينما تتحدث نصوص من عصر سلالة أور الثالثة عن بعض العاملين التابعين للورشات الرسمية (القصر أو المعبد) وما كانوا ينتجونه من أدوات وحلي[٨٠].

تُعد مدن أور، أوما ولاجاش في جنوبي بلاد الرافدين من المراكز المهمة في مجال الصناعات المعدنية، وتشير الدلائل إلى أن العمل كان يتم ضمن إطار جماعة أو فريق يرأسه رئيس عمال مهمته مراقبة العمل الذي يتم الإشراف عليه من قبل مراقب ينظر بشأن الفضلات المعدنية الناجمة عن عملية التصنيع وعن نقص المواد أثناء التصنيع. كان الحرفيون الذين يعملون في ورشات المعبد يتقاضون أجوراً عالية مكونة من كمية كبيرة من الشعير[٨١]. وربما كانت أولى الورشات الحرفية التي ظهرت في عصر أوروك في جنوب بلاد الرافدين تابعة للمعبد[٨٢].

عُثر في أغلب المواقع على ورشات حرفية لصناعة المعادن، كورشة تل أسمر التي تحتوي على فرن وصناديق لخزن الفحم وحجارة كبيرة مستوية السطح[٨٣]، وفي تل بيدر الواقع في الجزيرة السورية تم اكتشاف بقايا ورشتين يعود تاريخهما إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وقد وجد فيهما أدوات معدنية، وكسر من قوالب الصب إلى جانب حفر المواقد التي تم تشكيلها باستخدام الحجر الصغير، إضافةً إلى وجود حجارة بازلتية كبيرة ربما كانت تستخدم كسندان، وتماثيل طينية من المحتمل أنها استخدمت في تشكيل قوالب الصب. وفي تل خويرة احتوت المنطقة K على مبنى مُخصص بإنتاج المعادن[٨٤].

وأخيراً نؤكد على أهمية ماري في هذا المجال، فقد كانت مركزاً حرفياً هاماً لصناعة المعادن منذ نشأتها (المدينة I). إن كثرة منشآتها الحرفية واللقى المعدنية فيها دعت الباحثين للاعتقاد بأنها نشأت بدوافع اقتصادية للاستفادة من موقعها الاستراتيجي على الطرق التجارية بين الأناضول التي كانت تزودها بالمواد المعدنية الخام وبلاد الرافدين مما أدى إلى نشوء ورشات تعدين متطورة اشتهرت بغنى وتنوع صناعاتها المعدنية من أسلحة وأواني وحلي وأدوات أخرى[٨٥].

٤. نماذج من المصنوعات المعدنية:

استخدمت مجموعة واسعة من المصنوعات اليدوية المعدنية في بلاد الرافدين، وتتضمن هذه المصنوعات كل من المجوهرات والأسلحة بالإضافة إلى الأواني والتماثيل وأدوات أخرى. وقد كان الحرفيون قادرين على إعادة تدوير بعض الأنواع من اللقى المعدنية بشكل متكرر. وتبين اللقى المصنعة أن الاستخدام الأساسي للمعدن لم يكن لأغراض تجميلية كالحلي ومواد الزينة وإنما صُنعت منه بشكل أساسي ومتزايد الأدوات المعدنية الأخرى والأسلحة، وذلك بسبب الخصائص التي يتمتع بها المعدن والتي تم إدراكها من قبل الحدادين في كل العصور.

اشتملت اللقى الأثرية في بلاد الرافدين على الدبابيس المعدنية لتزيين الملابس[٨٦] أو الشعر والدبابيس ذات العقدة وأخرى ذات رؤوس مزينة بأشكال حيوانية نجدها بكثرة في الجزيرة السورية، وقد قدمت مواقع بلاد الرافدين والجزيرة السورية (تل خويرة وتل بيدر وتل موزان) (الشكل ٩) والفرات[٨٧] (الشكل ١٠)؛ الأسلحة بأنواعها مثل شفرات الخناجر التي لم تحتفظ إلا نادراً بالمقبض (الشكل ١١) ولكن نلاحظ في بعض الحالات بقاء براشم تثبيت المقابض في مكانها. اكتُشفت في بعض الحالات مثل هذه النصال على أرضية مشغل ورشة التصنيع كما في ميلبيا، تل بيدر وتل براك المنطقة CH. يُضاف إلى الأسلحة أنواع متعددة من الفؤوس القاطعة والبلطات الهلالية الشكل (الشكل ١٢) التي عُثر عليها في تل خويرة، بيدر وتل براك إلى جانب رؤوس الرماح والحراب (الشكل ١٣) المكتشفة في أور[٨٨] وأغلب المواقع السابقة وفي مواقع الفرات الأوسط مثل حبوبة الكبيرة وتل أحمر[٨٩].

هناك الكثير من التماثيل المعدنية التي تدل على براعة الحرفيين كتماثيل ملوك أكاد، هذا إلى جانب مجموعة كبيرة من تماثيل الأسس التي كانت توضع في زوايا الأبنية والتي أتت بشكل أساسي من مواقع جنوب بلاد الرافدين[٩٠] وماري،

إضافةً إلى أصناف مختلفة من الحلي ومنها الأقراط والأساور والخواتم والخلاخل والقلائد التي عثر عليها في مواقع مختلفة.

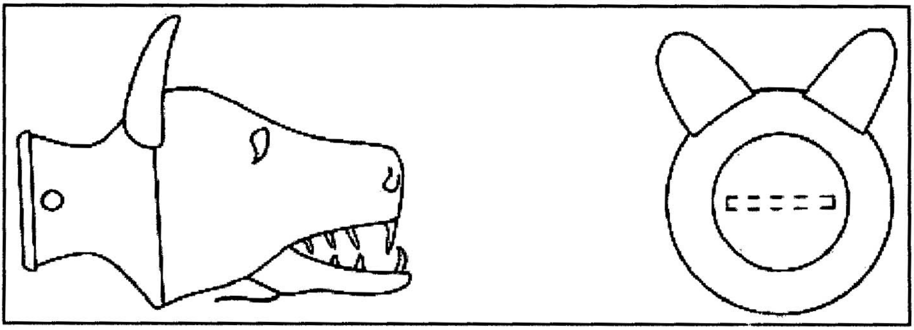
وتشير اللقى إلى تطور الصناعات المعدنية في المدن السومرية خلال عصر السلالات الباكرة الثالث التي تطورت فيها تقنيات تصنيع المعادن[٩١]، حيث ازدادت كمية الأدوات وتعددت أنواع القطع المعدنية ومن أشهرها مكتشفات مقبرة أور الملكية (٢٥٠٠-٢٦٥٠ ق.م)[٩٢]، وهي تضم أواني، أسلحة، خنجر من الذهب مع مقبض من اللازورد، رؤوس سهام، تماثيل، أدوات موسيقية، مجوهرات ملكية للملكة بو آبي وخوذة الملك مشكلام دوغ من الالكتروم، (الشكل ١٤) إضافة إلى القطع الآتية من معابد تل أسمر، أوروك، تللو، لاجاش (مزهرية انتيمينا) ونينوى (رأس برونزي لنارام سين أو لشاروكين)[٩٣]، وتمثال الرجل الجالس الذي كشف عنه بالقرب من دهوق[٩٤]. وقد عُثر في العديد من المواقع على جرار مليئة بالحلي والمجوهرات المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة كتلك التي اكتشفت في ماري، تل أسمر وتل طايا[٩٥].

وأخيراً، على الرغم من فقر بلاد الرافدين بمناجم المعادن فقد كانت سباقة إلى استخدام المعادن وإنتاج الأدوات منها، حيث ساهمت التجارة عن بعد مع إيران والأناضول بتطوير الصناعات المعدنية التي كانت متواضعة وبسيطة في بدايتها واقتصرت على النحاس والرصاص. ثم ما لبثت أن حققت تطوراً سريعاً منذ عصر أوروك ليصبح البرونز المعدن الأساسي المستخدم لصنع أدوات مختلفة للزينة والاحتياجات المنزلية، الزراعية والحربية.

مع أن المنتجات المعدنية كثيرة ومتنوعة في أغلب المواقع إلا أن الأدلة على ورش التعدين هي بالحقيقة قليلة ونادرة في بعض المواقع، لكن التجهيزات المكتشفة في منطقة الجزيرة وجنوب بلاد الرافدين تشير إلى معرفة وتقدم صناعة التعدين عند

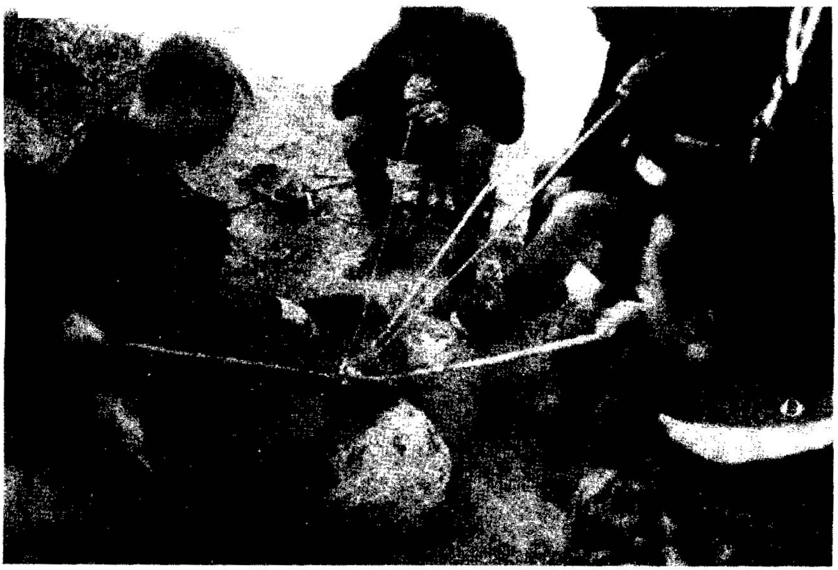
شعوب المنطقة، هذا ما يمكن ملاحظته بشكل خاص من خلال التطور التدريجي السابق لأوانه الذي طرأ على هذه التقنيات خلال الألف الثالث قبل الميلاد إذ لم تقتصر تقنيات التصنيع على عملية صهر المعادن و إعادة تصنيعها وصب النحاس أو سبائك النحاس، بل تعدتها إلى إعادة تصنيع النحاس وبشكل أساسي البرونز القصديري وترميم بعض القطع المكسورة. وأدرك الإنسان أيضاً مع تطور مهاراته وخبراته أن معدن الحديد أكثر سهولة في الاستعمال وأكثر صلابة وغير قابل للكسر فأصبح المعدن المستخدم منذ نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

إن ازدهار حرفة التعدين أحدثت تحولات مهمة في المجتمعات المدنية من جهة، وأدى إلى تطور التجارة عن بعد نتيجةً لازدياد الطلب على المواد الأولية المعدنية من جهة أخرى، وهذا ما دعا البعض للاعتقاد بأن نشوء بعض مدن الألف الثالث ق.م. في شمال سوريا وبلاد الرافدين ذو صلة بتجارة المعادن. وإن كانت تلك الفرضية صحيحة فهي تشير إلى الدور الكبير الذي لعبته حرفة التعدين في الثورة المدنية في بداية الألف الثالث ق. م.



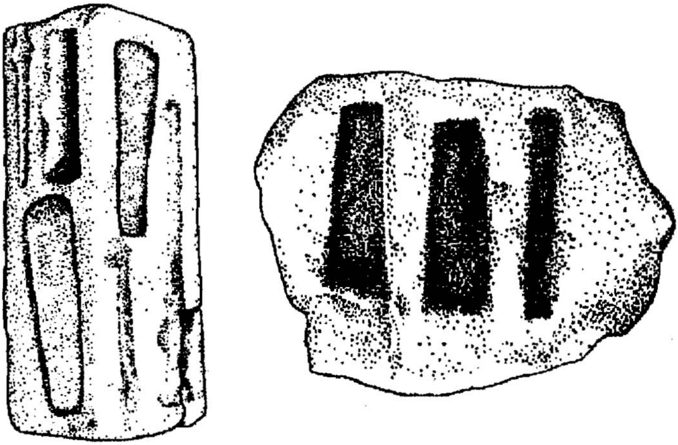
الشكل ١: رأس ذئب من الالكتروم عثر عليه في أحد قبور تبه غوراء، الألف الرابع قبل الميلاد

Crawford H. ١٩٩١, fig. ٦.١, p. ١٠٦



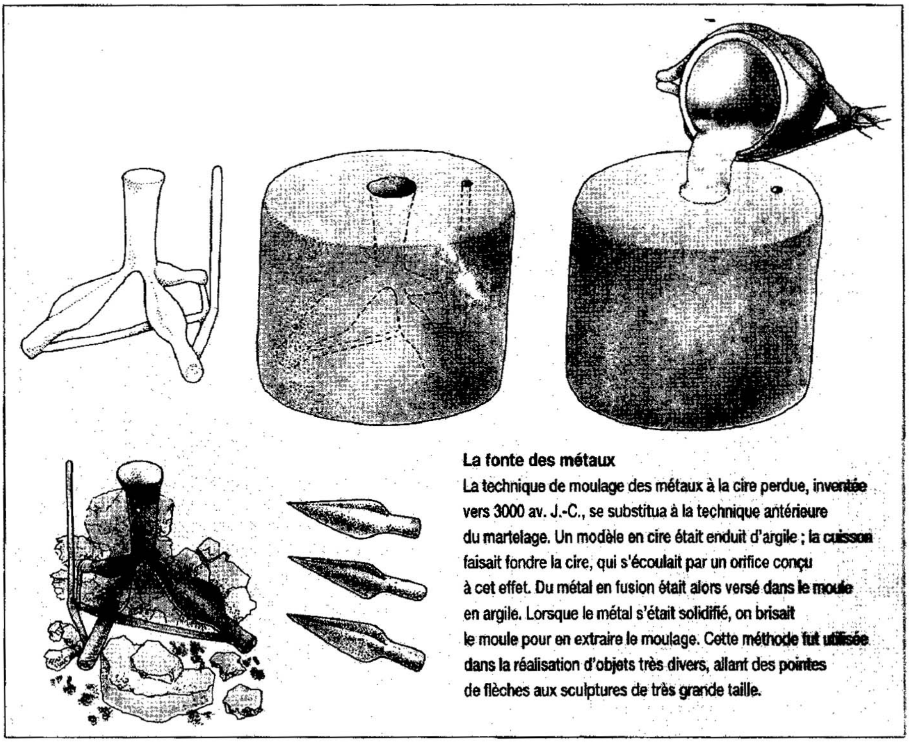
الشكل ٢: صورة توضح إجراء تجربة صهر المعادن في فرن باستخدام فحم الخشب وأنابيب لنفخ الهواء في الفرن

Barthomeuf D. ٢٠٠٤, fig. ٢, p. ١٨٣



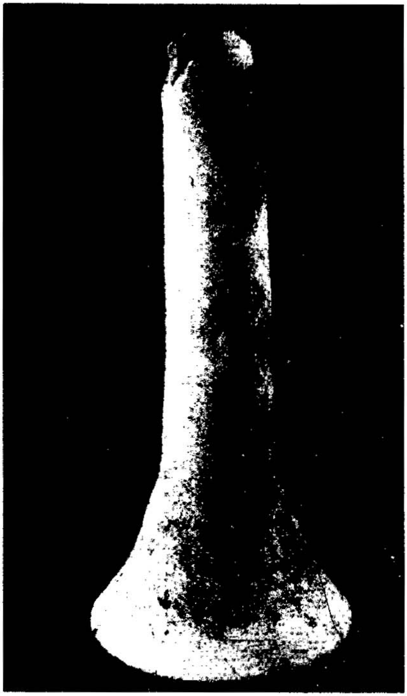
الشكل ٣: قوالب لصناعة الأدوات البرونزية من ماري

Margueron J.-C. ٢٠٠٣, fig.٩٨, p.١٧١.



الشكل ٤: استخدام الشمع المذاب في صب المعادن

Hunter E. ١٩٩٤, p. ٦٢



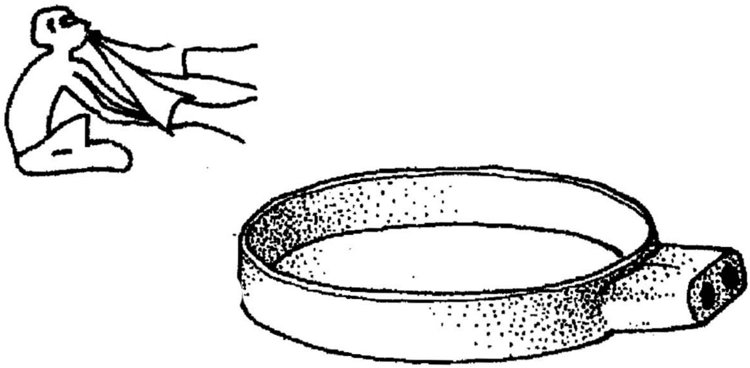
الشكل ٥: انبوب فخاري لضخ الهواء في فرن الحداد

Margueron J.-C. ٢٠٠٣, fig.٩٦, p. ١٦٩



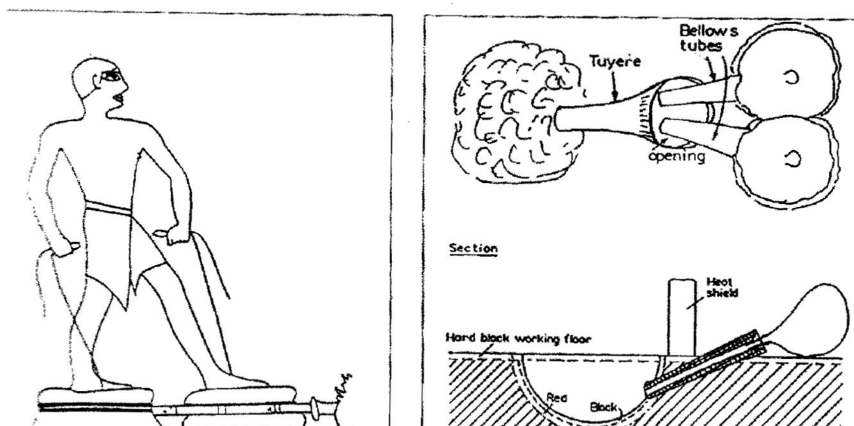
الشكل ٦: فرن في ورشة تعدين في ماري

Margueron J.-C. ٢٠٠٤, fig. ٨١, p. ١٠٨



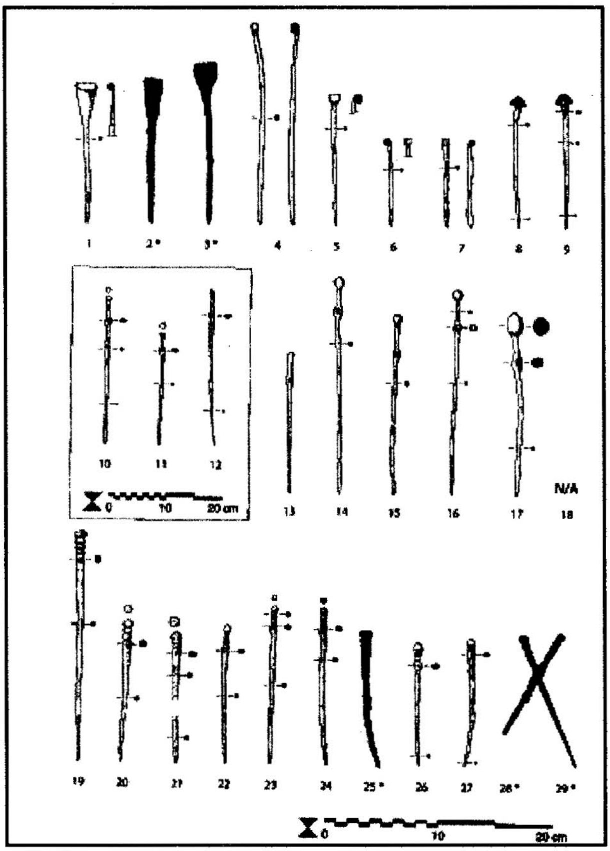
الشكل ٧: فرن فخاري دائري من تللو

١٦٨ , p.٩٥, fig. ٣Margueron J.-C. ٢٠٠



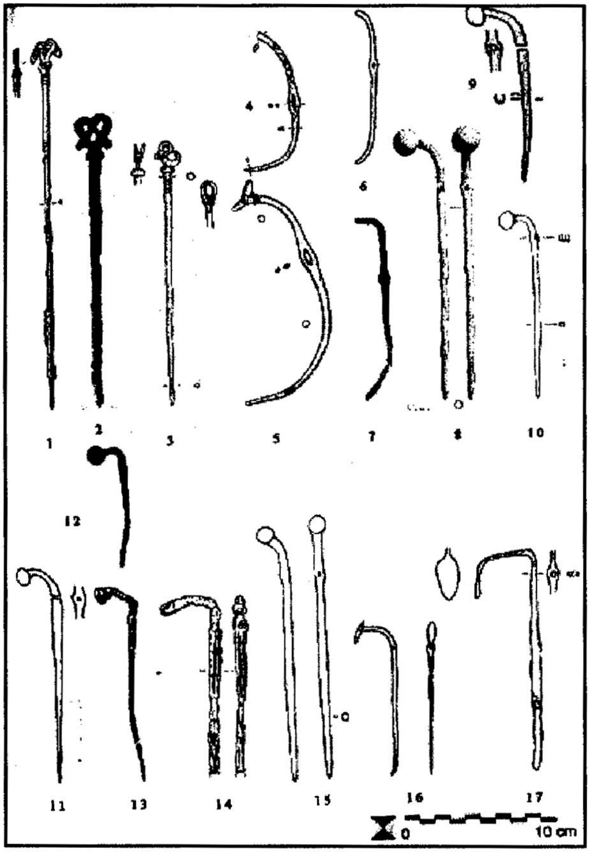
الشكل ٨: فرن للصناعات المعدنية مع منفاخ الهواء إلى اليسار، صورة مصرية توضح عملية ضخ الهواء في فرن التعدين

Margueron J.-C. ٢٠٠٤, fig. ٨٥-٨٦, p. ١٠٩



الشكل ٩: نماذج من الدبابيس المعدنية من مواقع الجزيرة السورية، الألف الثالث ق.م.

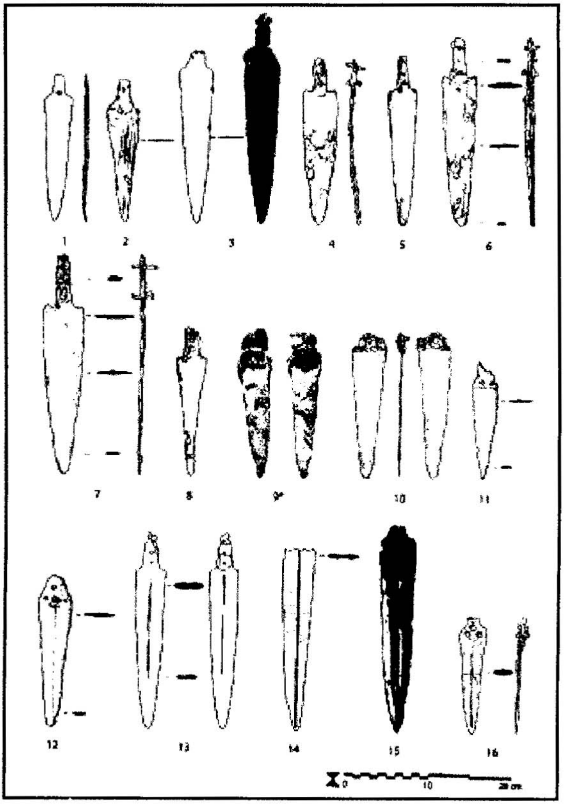
Bianchi A., Franke K. A ., ٢٠١١, plate١



الشكل ١٠: نماذج من الدبابيس المعدنية المزينة الرأس

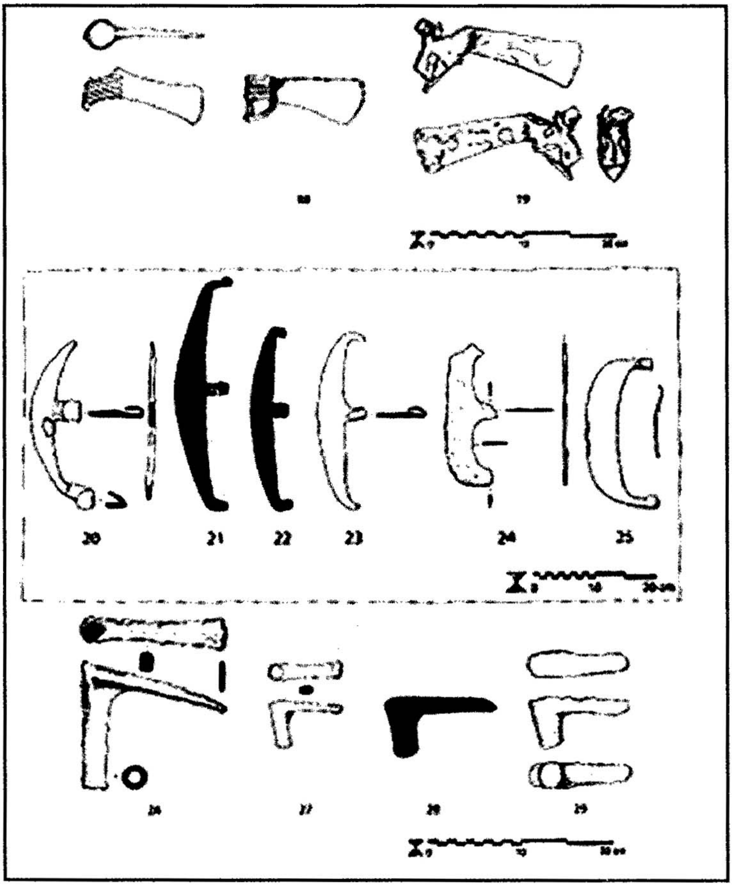
من مواقع الفرات الأوسط، الألف الثالث ق.م.

Squadrone F. F. ٢٠١٥, p.٣٣١



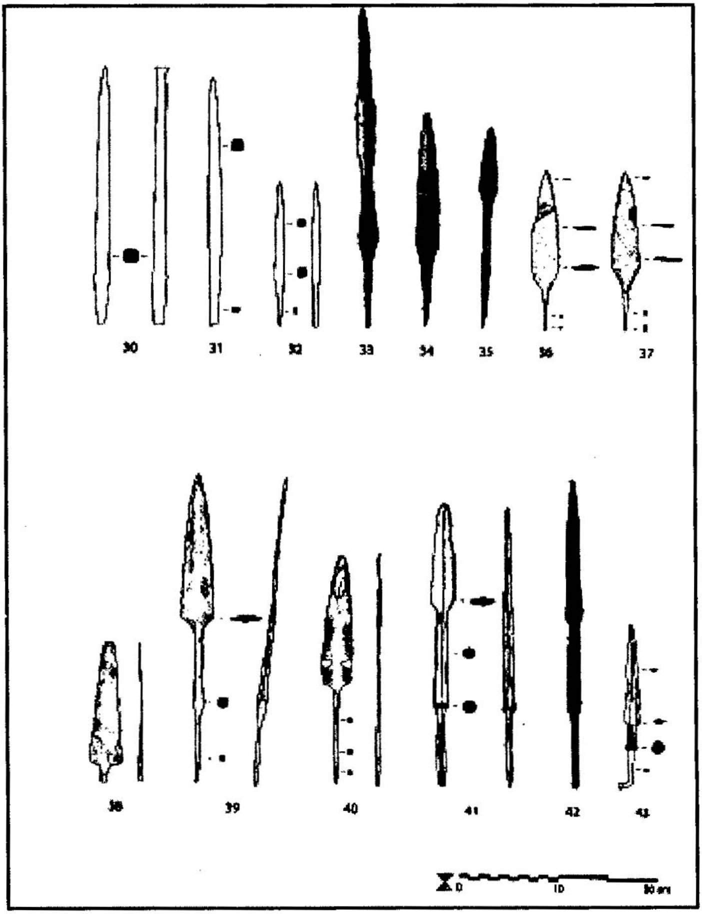
الشكل ١١: نماذج من الخناجر من مواقع الجزيرة السورية، الألف الثالث ق.م

Bianchi A., Franke K. A ., ٢٠١١, plate ٥.



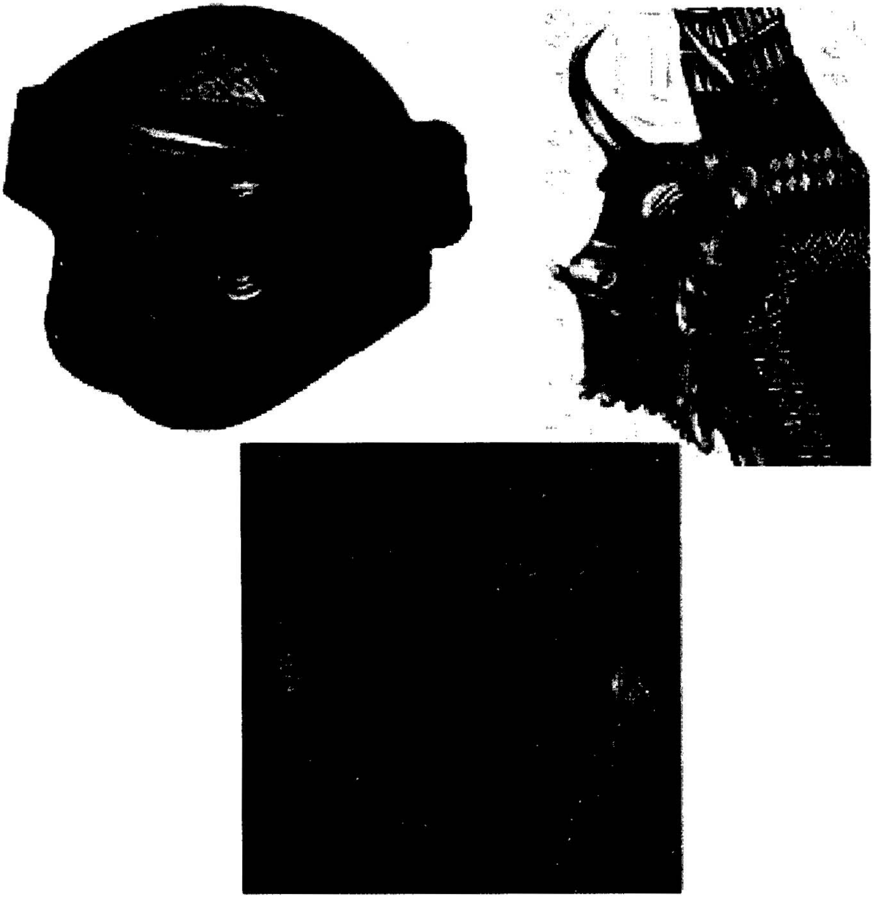
الشكل ١٢: نماذج من الفؤوس والبلطات من مواقع الجزيرة السورية، الألف الثالث ق.م

Bianchi A., Franke K. A ., ٢٠١١, plate ٦.



الشكل ١٣: نماذج من رؤوس الرماح والحراب من مواقع الجزيرة السورية، الألف الثالث ق.م

Bianchi A., Franke K. A ., ٢٠١١, plate ٧.



شكل ١٤: بعض المكتشفات المعدنية من مقبرة أور الملكية

Parrot A. ١٩٧٠, pl. ١٨, ١٩

Benzel K. et al. ٢٠١٠, fig. ٧

الحواشي

(١) Amzallag N, ٢٠٠٩, p. ٤٩٧-٥١٩.

(٢) الجادر وليد، ١٩٨٥ م، ص ٢٤٢.

(٣) عميري ابراهيم، ٢٠١٠ م، ص ١٦٧.

(٤) Limet H. ١٩٦٤, p. ١٤٧ - ١٥٠

(٥) Moorey P. R.S. ١٩٩٩, p. ٢٥٨.

(٦) عميري ابراهيم، نفس المرجع، ص ١٦٧-١٦٨.

(٧) عميري ابراهيم، نفس المرجع، ص ١٦٩.

(٨) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p.١٦٤-١٦٥.

(٩) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p.٩٦.

(١٠) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧٠.

(١١) Ibid, p. ١٤٩; Margueron J.-C., Prirsch L.١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.

(١٢) Muhly J. D. ١٩٧٧, p. ٧٤

(١٣) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧٠

(١٤) Ibid, p. ١٤٩ ; Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.

(١٥) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.

(١٦) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٩

(١٧) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.

(١٨) Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p.٤٣.

(١٩) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٢.

(٢٠) Limet H. ١٩٦٤, p. ١٤٧ - ١٥٠

(٢١) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٩٦.

(٢٢) ibid, p. ٨١-٨٢.

(٢٣) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٤٩.

(٢٤) جميل عادل، ١٩٨٣ م، ص ١١٠.

(٢٥) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٦.

(٢٦) Ibid, p. ١٦٠-١٦١.
(٢٧) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٢..
(٢٨) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧٠.
(٢٩) ibid, p. ١٦٠.
(٣٠) Braidwood Robert J. and Braidwood Linda S. ١٩٦٠, p. ٢٩٦-٢٩٨ et p. ٣٠٠-٣١٣ ; Yakar J. ١٩٨٤, p. ٥٩-٨٦.
(٣١) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p.١٦٢-١٦٣.
(٣٢) Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p.٥٥.
(٣٣) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p.١٥٤.
(٣٤) Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p. ٥٢
(٣٥) Ibid, p.٤٣.
(٣٦) ibid, p. ٩٧.
(٣٧) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p.١٥٦; Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p. ٣٩-٦٤.
(٣٨) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٩٧.
(٣٩) Muhly J. D. ١٩٧٧, p. ٧٥
(٤٠) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧١
(٤١) ibid, p. ١٧٠.
(٤٢) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٠٦.
(٤٣) Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p.٤٣.
(٤٤) Moorey P. R.S. ١٩٩٩, P. ٢٥٨
(٤٥) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p.١٦٠-١٦١.
(٤٦) Stech T. and Pigott Vincent C. ١٩٨٦, p. ٥٠
(٤٧) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧٠.
(٤٨) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p. ١٦٤.
(٤٩) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٧, Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p.١٦٩.
(٥٠) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p.١٧٠.

(٥١) جميل عادل، نفس المرجع، ص ١١٠.

(٥٢) جميل عادل، نفس المرجع، ص ١٠٧.

(٥٣) جميل عادل، نفس المرجع، ص ١٠٩.

(٥٤) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, ١٧٠.

(٥٥) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٩٧.
(٥٦) Limet H. ١٩٦٤, p. ١٤٧ - ١٥٠
(٥٧) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, ١٦٢.
(٥٨) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.
(٥٩) الجادر وليد، ١٩٨٥ م، ص ٢٤٠-٢٤١.
(٦٠) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٤٩ ; Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ٨١-٨٢.
(٦١) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٠-١٥١.
(٦٢) ibid, p. ١٧٠.
(٦٣) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p.١٧١.
(٦٤) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٦٥.
(٦٥) أبو عساف علي ٢٠١١ م، ص ٣١٧-٣١٩.
(٦٦) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٢.
(٦٧) Hunter E. ١٩٩٤, p. ٦٢.
(٦٨) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣١.
(٦٩) Thompson F. C. ١٩٥٨, p. ١-٧
(٧٠) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p١٦٣-١٦٤
(٧١) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p.١٧١.
(٧٢) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p. ١٦٩-١٦٨
(٧٣) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٧.
(٧٤) Margueron J.-C. ٢٠٠٤, p. ١٠٨-١٠٩.
(٧٥) أبو عساف علي، ٢٠١١ م، ص ٢٧٦.
(٧٦) Margueron J.-C. ٢٠٠٣, p. ١٦٧-١٦٨.
(٧٧) Margueron J.-C. ٢٠٠٤, p. ١٠٨-١٠٩.
(٧٨) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٦.
(٧٩) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٥٧
(٨٠) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٦.
(٨١) Limet H. ١٩٦٤, p. ١٤٧ - ١٥٠
(٨٢) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣١.
(٨٣) Ibid. p. ١٣٤.
(٨٤) Bianchi A., Franke K. A ., ٢٠١١, p. ٢٠١

(٨٥) Margueron J.-C. ٢٠٠٤, p. ١٠٨-١٠٩.
(٨٦) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٣.
(٨٧) Squadrone F. F. ٢٠١٥, p. ٢٩٨-٣٢١.
(٨٨) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٣.

(٨٩) لمزيد من المعلومات عن الأسلحة في منطقة الفرات الأوسط انظر:
Squadrone F. F. ٢٠١٥, p. ٢٩٨-٣٢١

بخصوص الأسلحة والأدوات المعدنية في منطقة الجزيرة، انظر:
Bianchi A., Franke K. A ٢٠١١, p. ٢١٣-٢٢٦.

(٩٠) Muscarella O. W. ١٩٨٨, p. ٣٠٣-٣٠٦.

(٩١) لمزيد من المعلومات انظر:
Muscarella O. W. ١٩٨٨, p. ٣٠٣-٣٢٢
(٩٢) Barthomeuf D. ٢٠٠٤, p. ١٧٠.
(٩٣) Margueron J.-C., Prirsch L. ١٩٩٦, p. ١٤٣.
(٩٤) Crawford H. ١٩٩١, p. ١٣٤.

(٩٥) لمزيد من المعلومات انظر: أبو عساف، علي ٢٠١١، ص ١٦٢.

المراجع:

أولاً- المراجع الأجنبية:

١. Amzallag N, From Metallurgy to Bronze Age Civilizations: The Synthetic Theory, *American Journal of Archaeology*, Vol. ١١٣, No. ٤ (Oct., ٢٠٠٩), pp. ٤٩٧-٥١٩.

٢. Barthomeuf D. *La place de l'Anatolie dans les débuts de la métallurgie du cuivre et du bronze (du VIIe au IIIe millénaire av. J.-C.*" in Pelon O. (ss la dir.), Studia Aegeo-Anatolica, TMO ٣٩, Lyon ٢٠٠٤, p. ١٤٩-١٨٦.

٣. Benzel K., Sarah B. Graff,Yelena Rakic, and Edith W. Watts, Art of the Ancient Near East A resource for educators, The Metropolitan Museum of Art, New York ٢٠١٠.

٤. Bianchi A., Franke K. A ., *Metal Artefacts in the Jazirah Region,* in M. Lebeau (ed.) with contributions by A. Bianchi, K. Franke, A. P. McCarthy, J.-W. Meyer, P. Pfälzner, A. Pruß, Ph. Quenet, L. Ristvet, E. Rova, J. Thomalsky, S. Valentini & W. Sallaberger, *Associated Regional Chronologies for the Ancient Near East and the Eastern Mediterranean. Jezirah,* Turnhout: Brepols ٢٠١١, p. ٢١٣-٢٢٦.

٥. Braidwood Robert J. and Braidwood Linda S. Excavations in the plain of Antioch I: the earlier assemblages phases A-J, *OPI* ٦١, ١٩٦٠.

٦. Crawford H., *Sumer and the Sumerians*, Cambridge University Press, NewYork ١٩٩١.

٧. Hunter E., *La Mésopotamie : De Sumer à Babylone*, Atlas historique, Casterman, Belgique, ١٩٩٤.

٨. Limet H. Le travail du métal au pays de Sumer au temps de la IIIe dynastie d'Ur. Pierre Amiet, *Syria*, ١٩٦٤, Volume ٤١, Numéro ١-٢, p. ١٤٧-١٥٠.

٩. Margueron J.-C. *Les mésopotamiens*, Picard, Paris ٢٠٠٣.

١٠. Margueron J.-C., Prirsch L. *Le Proche-Orient et l'Égypte antiques*, Hachette, Paris ١٩٩٦.

١١. Moorey P. R.S. *Ancient Mesopotamian Materials and Industries*, United States of America, ١٩٩٩.

١٢. Muhly J. D. The Copper Ox-Hide Ingots and the Bronze Age Metals Trade: *Iraq*, Vol. ٣٩, No. ١ (١٩٧٧), p. ٧٣-٨٢.

١٣. Muscarella O. W., *Bronze and Iron Ancient Near Eastern artifacts in the metropolitan museum of Art*, the metropolitan museum of Art /New York, ١٩٨٨.

١٤. Parrot A, *Sumerian Art*, Mentor, The New American Library, New York And Toronto by Arrangement With Unesco ١٩٧٠.

١٥. Squadrone F. F. *Metal*, in U. Finkbeiner, M. Novák, F. Sakal and P. Sconzo (eds.) *Associated Regional Chronologies for the Ancient Near East – The Middle Euphrates Region*, ARCANE vol. ٤, Turnhout: Brepols ٢٠١٥, p. ٢٩٨-٣٢١.

١٦. Stech T. and Pigott Vincent C. The Metals Trade in Southwest Asia in the Third Millennium B.C.: *Iraq*, Vol. ٤٨ (١٩٨٦), p. ٣٩-٦٤.

١٧. Thompson F. C. The Early Metallurgy of Copper and Bronze: *Man*, Vol. ٥٨ (Jan., ١٩٥٨), p. ١-٧.

١٨. Yakar J. *Regional and Local Schools of Metalwork in Early Bronze Age Anatolia*. Part ١, Academic Journal Offprint from - Anatolian Studies ٣٤, ١٩٨٤.

ثانياً- المراجع العربية:

١. أبو عساف علي، *آثار الممالك القديمة بالجزيرة وطور عابدين*، الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١ م.

٢. الجادر وليد، صناعة التعدين، *حضارة العراق*، الجزء الثاني، بغداد، ١٩٨٥ م.

٣. جميل عادل، تعدين الخامات واستخلاص الفلزات في العراق القديم بلاد وادي الرافدين، مجلة *الثروة المعدنية العربية*، العدد الثالث، ١٩٨٣ م.

٤. عميري ابراهيم، مواد وتقنيات العمارة القديمة، منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف، دمشق، ٢٠١٠ م.

القصور الصحراوية الأموية أصولها واعتباراتها السياسية والاقتصادية

د. وفاء صارم
قسم التاريخ/ جامعة تشرين

مقـدمة:

تشكل القصور الصحراوية معلماً مهماً في العمارة العربية وبالذات في الفترة الأموية، إذ من المعلوم أن الأمراء الأمويين قد اتخذوا لهم مقرات صيفية في الصحراء الممتدة بين الأردن وسورية والعراق، وعموماً فقد كانت هذه القصور الصحراوية تحوي المرافق الأساسية للحياة الصيفية الرغيدة إضافة إلى التحصينات التي تتمتع بها، حيث بنيت على شكل يناسب طبيعة الحياة الصحراوية، وأحياناً كان القصر يتوسط مجموعة من المباني المجتمعة ضمن كتلة واحدة. إضافة إلى التنوع الكبير في الإنشاء والزخرفة.

أسباب اختيار الصحراء والعوامل المؤثرة فيها:

اختيار الصحراء كان له أسباب منها أن حياة المسلمين بشكل عام والأمويين بشكل خاص، امتازت بكراهيتهم للأماكن المغلقة والضيقة في المدن[١] لذا كانوا يفضلون حياة البادية الواسعة ويحنون إليها ويحرصون أشد الحرص على زيارتها بين الحين والآخر وهذا الأمر دعاهم للخروج الدائم إليها[٢]. فقد انجذبوا للبادية حيث التمتع بهدوء الطبيعة في الصحراء فهي تغذي شعورهم وإحساسهم، لذا فقد فضلوها على حياة المدن المترفة السهلة[٣].

ولا نستطيع أن نغفل أن الخلفاء الأمويين لم يعتادوا على مناخ دمشق الشتوي البارد لذا نجدهم يتجهون نحو الصحراء لقضاء الوقت في جوها الجاف[٤]، وطبيعة الصحراء وصعوبة العيش فيها كانت تساعد على تقوية الأبدان، فالعديد من الخلفاء

الأمويين كانوا يرسلون أبناءهم إليها ليكتسبوا قوة الصحراء وروحها والشجاعة كما فعل معاوية مع ابنه يزيد[٥].

فأمراء بني أمية كانوا شديدي الصلة بالبادية، يحنون إليها ويحرصون على الإقامة فيها من حين لآخر، وهذا ما دفعهم لتشييد قصورهم فيها، يخرجون إليها، فرغبة العيش في البادية كانت لدى الأمويين للتمتع بالهدوء والراحة والاستمتاع باللهو والصيد والمرح وهذا ما وافق عليه المستشرق الفرنسي جان سوفاجيه بشأن المقر الصحراوي وأيضاً هذا ما أكدته وسجلته موضوعات الزخرفة التي حفلت بها أغلب هذه القصور من مناظر الصيد والرقص والموسيقى[٦].

إضافةً إلى ما تتمتع به الصحراء من نقاء الهواء وخلوه من الأمراض والأوبئة، وكان لرغبة الخلفاء في التقرب من أهل البادية الذين كانوا من القبائل العربية التي تربطهم بالخليفة روابط الألفة أو العادات. يضاف إلى ذلك كله رغبة الخلفاء بالهروب من أعباء المدينة الكثيرة وتقاليدها[٧].

والأهم من ذلك مراقبة تحركات البدو ونشر الاستقرار ورغبة الخلفاء الأمويين بالابتعاد عن أعدائهم في المدن خوفاً من الاغتيال، فقصر أسيس الذي يعد من أقدم القصور يقع على بعد ١٠٥ كم من دمشق باتجاه الجنوب الشرقي، مربع الشكل تتوضع في زواياه أبراجٌ دفاعية مستديرة، وفي منتصف كل واجهة برج شبه اسطواني[٨]، يضم جامع وحمام، تميز بزخرفته الإسلامية ويضم الموقع ما يشبه الواحة، وكان مثالا لمراعي البدو الذي يأتيها الخليفة للاختلاط برعيته وجنده، وهكذا كان منزلا للإقامة المؤقتة والاستقبال.

فالقصور الصحراوية التابعة للخلفاء إجمالا تهدف إلى تعزيز الروابط السياسية بين الخليفة وأهم الأمراء من جهة وبين زعماء القبائل التي كانت تقطن بلاد الشام بالأخص قبيلة كلب التي كانت تقطن منطقة تدمر، والتي كانت أكبر القبائل

الداعمة للخلفاء الأمويين طوال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي[٩]. ويمكن القول بالاعتماد على أماكن تشييد الغالبية من القصور، كانت لصد غارات البدو وليس لصد هجوم خارجي.

يضاف إلى ذلك غايات كل خليفة أو أمير لاختيار مكان تشييد قصره، فنلاحظ الانتشار الواسع للقصور التي بناها الوليد بن عبد الملك والتي تعكس الروح العمرانية التي سيطرت على الوليد بالإضافة إلى الرفاهية والتطور الحضاري الذي عاشه هذا الخليفة فتنوع المواقع الجغرافية للقصور ما بين الصحراء إلى الجو اللطيف في لبنان(عنجر) إلى التمتع ببحيرة طبرية في فلسطين. أما هشام بن عبد الملك فقصوره التي بناها تدل على خوفه وهربه من أوبئة دمشق. في حين تظهر لدى الوليد بن يزيد بن عبد الملك رغبة في الابتعاد والهروب عن عمه هشام لكونه ولي العهد[١٠] فقد بنى قصراً بعيداً عن قصور الأمويين (الطوبة).

وجاءت هذه القصور نتيجة لأمور توافرت في البيئة ودفعت الخلفاء للقيام بعملية البناء والتعمير ومن أهمها:

- التأثر بالوسط المحيط أي جيرانهم الفرس والبيزنطيين فقد أخذ خلفاء بني أمية يتشبهون بهؤلاء الملوك والأباطرة فيحيطون أنفسهم بالأبهة والعظمة، لكن لابد من الإشارة أن هذا التأثير بدأ يتراجع وأخذوا يشكلون لأنفسهم نمطاً جديداً وخاصاً[١١]. فبداية كانت قصورهم عبارة عن قصور رومانية تعرضت للتهديم مع قدوم المسلمين، فقاموا بإعادة البناء لها على الطرازين البيزنطي والفارسي[١٢] مع العلم أن الطراز الفارسي لم يظهر إلا في أماكن محددة ومواضع معينة (الزخرفة)، من هنا أخذ التأثير المعماري البيزنطي والفارسي يظهر في العمارة العربية الإسلامية، فجاء هذا التأثير نقطة انطلاق إلى الإبداع والابتكار[١٣]. ويذكر ستيرلين بهذا الصدد: ((*قصور الصحراء مختلفة في*

أشكالها، فأغلبها يذكرنا بالقلاع الرومانية، أو البيزنطية التي تقع على تخوم التحصينات الحدودية إضافة إلى التنوع الكبير في أساليب الزخرفة، مما يدل أنه فناً انتقائياً يبحث عن هوية))[١٤]. ولقد ساهم الرخاء المادي والانتعاش الذي عاشته بلاد الشام بإعداد أرضية خصبة لنمو مفاهيم جديدة، وما نجم عن ذلك من ظهور منشآت عدة ذات مضمون متعدد. حيث تأثر أسلوبهم بالأساليب الفنية البيزنطية في الديار الشامية بشكل خاص، فيذكر أن العرب عملوا جاهدين للتحرر من المؤثرات الأجنبية في العديد من الأبنية، لكن الأثر البيزنطي أو الفارسي.... ظل في بعض زخارفها مع محافظة البناء على طابعه العربي[١٥]. ويذكر ذلك الدكتور زكي محمد حسن بقوله: *((ولد هذا الفن في القرن الأول الهجري وظل ينمو ويترعرع، وبلغ عنفوان شبابه في القرنيين السابع والثامن الهجري، الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، وان أقدم الآثار الفنية الإسلامية وصلتنا من القصور التي بناها الأمويون في صحراء الشام))*[١٦].، ويذكر تالبوت رايس بهذا الشأن: *((إن الكثير من هذه القصور مزخرف على نحو واسع من الخارج والداخل))*[١٧].

والعامل الأهم في بناء القصور هو توفر الماء إذ أن حالة الرخاء الاقتصادي التي نعمت بها الدولة الإسلامية بعد عمليات الفتوح الكبيرة انعكس بشكل مباشر وواضح على القصور. فهذه القصور تكشف بصورة تامة عن ترف البلاط الأموي وحب الخلفاء للفنون.

نظريات بشأن وظائف القصور:

ليس هناك اتفاق بين الباحثين بشأن وظائف تلك القصور، فذهب أكثر الباحثين أن هذه القصور استخدمت للنزهة والراحة والاندفاع في المسرات بعيداً عن المدينة وهذا الأمر أكده المستشرق الفرنسي سوفاجية بشأن المقر الصحراوي[١٨].

ومنهم من ذكر أن هذه القصور وجدت ضمن استراتيجية الحماية وتتمثل في التحصينات والطرق القوية وأبراج المراقبة وآبار المياه والقرى المحصنة[١٩]. كقصر الحرانة الذي ظل الهدف من بنائه موضع نقاش ويعتقد أنه كان استراحة خان لقوافل المسافرين من البلقاء إلى الأزرق، ومن هناك عبر وادي السرحان إلى الجوف والأجزاء الشمالية الغربية من الجزيرة العربية، وإذا صح ذلك فيعد مقر الحرانة أقدم خان في العصر الإسلامي، ويعد أيضا مقر دفاعي وهو مؤلف من طابقين، الطابق الأرضي مؤلف من عدد من الغرف والأواوين المظلمة، والراجح أنه كان مخصصاً للدواب والخدم والعبيد. ويحتل أركان البناء أبراج مستديرة، بينما تتوسط كل جدار ما عدا الجدار الجنوبي الذي يتوضع فيه المدخل، برج نصف دائري. ويحتوي في الأعلى على فتحات لرمي السهام على الأعداء. والسائد بين علماء الآثار انه كان يشكل نقطة للالتقاء كمحطة للتفاوض أو الحوار أكثر منه كقصر عادي[٢٠].

ويعد قصر الحير الشرقي من أقدم القصور المعروفة في الإسلام التي شهدت تطور في العمارة العسكرية، فهو من أعمال الخليفة هشام بن عبد الملك ويتكون من قصرين أحدهما كبير والآخر صغير كل منهما مربع الشكل، أسوارهما مبنية من الحجر المنحوت ومدعمة بأبراج نصف دائرية، أربعة منها في الزوايا، وقد وصفه د. كحالة ((*فهو يشمل أطلال قصر كبير وقصر صغير، أسوارهما مبنية من المنحوت والآجر مدعمة بأبراج نصف دائرية، وبجوار هذين القصرين كان ثمة سور واسع بطول يزيد عن ستة كيلو مترات، مدعم ببدانات*))[٢١]. ولقصر الحير الشرقي ما يبين وظيفته الدفاعية. يوجد فوق باب القصر الصغير شرفة دفاعية بارزة (روشن) مؤلفة من سقاطتين لصب الزيوت المغلية، وأبراج السور خالية من الغرف، سوى في أعلاها فإنها تحوي على غرفة صغيرة للمراقبة مسقوفة بقبة من الآجر[٢٢].

من هنا نعلم أن لكل بناء وظيفة خاصة يؤديها لغرض معين فالمنازل للسكن، والمساجد لأداء الصلاة والقصر يكون مقر الخليفة لاستقبال الوفود فيه، إن كان في العاصمة، لكن إن وجد في الصحراء تعددت وجوه استخدامه، حيث كان يستقر بها الخليفة أياماً طويلة للاستمتاع ومن أمثلتها خربة المفجر(٢٣)، كذلك قصير عمرة الذي كان يستعمل مكاناً تبدأ منه رحلات الصيد ويستعمل كذلك مكاناً للاستحمام.

وعلى الرغم من أن معظم القصور قد بنيت لأغراض شخصية تقوم على الصيد وغيرها وهذا ما يبدو ظاهراً من خلال البناء الداخلي للقصور، لكن إذا ألقينا نظرة خارجية عليها لوجدناها محصنة بالأسوار والأبراج نصف الدائرية، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الملامح الدفاعية المتأثرة بالمدرسة البيزنطية، فالقصور كانت محصنة من أجل حماية الخليفة وحاشيته، كقصر الحير الغربي مثلاً الذي كان بناؤه في غاية الدقة والحصانة(٢٤).

لكن للأسف القسم الأكبر منها قد تهدم، ذلك لأن القصور تخص أشخاصاً تذهب بذهابهم، ويحل بها ما يحل بأصحابها من النقمة، بينما تبقى المساجد لأنها تخص الناس جميعاً، والقصور في المدن أدعى للزوال والاندثار من قصور البادية، نظراً لحاجة الناس في المدن إلى الأرض، يقومون بإعمارها وتجديدها من حين لآخر، أما القصور التي شيدت خارج المدن في البادية فإن أطلالها ما تزال قائمة تمدنا بمعلومات كاملة عن الهندسة والتخطيط والفن المعماري وفنون الزخرفة. ومعظم هذه القصور مبنية من الحجر الكلسي الأبيض لم تستطع مقاومة عوامل الطبيعة مع مرور السنين. وللوصول إلى المعرفة التامة بهذه القصور لابد من التطرق إلى بعضها، لان بدراستها تتوضح مجموعة من النقاط:

١- قُصير عمرة:

بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك[٢٥] في الفترة الواقعة بين ٩٤ – ٩٧ هـ/ ٧١٢ – ٧١٥م ويبين ذلك الكتابات المكتشفة على لوحة أعداء الإسلام، والتي تحدد أسماء الملوك الذين عاصروا الوليد وتاريخ القصر وصاحبه.

يقع إلى الشرق من عمان[٢٦] على حافة وادي بطم ويساير البحر الميت من ضفته الشمالية. عالياً فوق قفر الصحراء على مسافة /٥٠/ ميلاً شرق عمان، وهو قصر صغير نسبياً من الحجر الكلسي الصلب المجلوب من التلال المجاورة للقصر[٢٧]، اكتشفه المؤرخ النمساوي موزيل عام ١٩٨٩ م، ويتكون من قسمين الأول: الفسحة الداخلية لغرفة العرش وتضم إيوان في الجهة الجنوبية وإيوانان جانبيان، تتوضع في مؤخرتهما غرفتان للنوم. والقسم الثاني هو الحمام يشكل نمطاً جديداً في بناء الحمامات. ويبدو أن تضاريس الموقع الذي تتراوح ما بين الارتفاع والانخفاض لعبت دوراً في إقامة وتوزيع منشآت القصر فقاعة الاستقبال والحمام أقيمت في أرض منبسطة قريبة من الوادي وإلى الشمال من الحمام بني خزان مرتفع لمد القصر بالمياه.

أما عن التصاوير فقد توزعت في القصر وتميزت بالتنوع غير الاعتيادي للموضوعات ثم وجود انتقال مفاجئ من موضوع إلى آخر، ومن الطبيعي أن نلاحظ بوضوح تأثيرات الفنون الكلاسيكية فبينما نلاحظ أن الأعمال الفنية المتوزعة على الجدران وسقوف القصر أخذت من جميع الأساليب الفنية التي كانت سائدة قبل الإسلام.

والباحث مرزوق أعطانا أمثلة لفن التصوير على الجدران وبالتالي وضح عدداً من الأهداف للبناء[٢٨] ومن هذه التصاوير صورة جدارية في صالون الاستقبال لفتاة جميلة (راقصة) ترتدي ثياباً شفافة تظهر مفاتنها، إضافة لصورة إنسان يعزف

على العود وغزال ضمن زخرفة نباتية وتقطيعات هندسية. فهذه التصاوير الجدارية أثارت إعجاب الرحالة الغربيين والمستشرقين الذين جابوا البادية في القرنين الماضيين.

ومن أهم هذه التصاوير: الرسم الذي يبين الخليفة على عرشه وحوله هالة وفوقه مظلة ويحف به شخصان. وعلى المظلة كتابة كوفية، تشتمل على كتابات دعائية. ورسم يبين آخر الملوك الذين حاربهم المسلمون وانتصروا عليهم[٢٩]. والمنظر اللافت هو رسم لستة ملوك مرسومين على صفين أكثرهم أهمية في الصف الأمامي، وأقلهم شأناً في الصف الخلفي، وسميت اللوحة بأعداء الإسلام، وهناك كتابات عربية وإغريقية تميز أربعة أشخاص منهم، وهم الإمبراطور البيزنطي، وملك الفرس الساساني، ولزريق آخر ملوك القوط الغربيين في اسبانيا، أما ملك الحبشة فيقف في الصف الخلفي، ويبدو على الشخصين الأخيرين أنهما امبراطور الصين وأحد الحكام الأتراك أو الهنود[٣٠] وهذه الرسوم تعطينا فكرة عن مدى تجسيم ما يدور في خلد الخليفة وما يمثل ذلك من تخليد للانتصارات عن طريق التصوير على الرغم من أن عدداً منهم لم تكن تربطه به انتصارات لكنه أراد من ذلك توضيح قوته على العالم آنذاك. بينما تقول د. سعاد محمد: ((*أن ترتيب الملوك من اليمين إلى اليسار يقابل موقع بلادهم الجغرافي من الشرق إلى الغرب. ويستنبط من ذلك أن الشخص الخامس هو في الصف الأمامي، ربما هو إمبراطور الصين والشخص السادس ربما كان لأحد أمراء الأتراك*))[٣١]. وبهذه الصور يمكن نسب قصير عمرة إلى الفترة الواقعة بين معركة شريش سنة ٩٢ هـ/ ٧١١ م أو سقوط سمرقند سنة ٩٣ هـ/ ٧١٢ م ووفاة الوليد الأول سنة ٩٦ هـ/ ٧١٥ م.

أما رسومات الحمام فهناك صوراً لنساء ورجال ونرى السقف مقسماً لعدة أقسام يفصل بينها أشرطة مزخرفة بالأوراق النباتية وفي كل قسم من هذه الأقسام

نرى صورة لرجل أو امرأة أو حيوان بحيث يبرز لدينا في السقف الواحد صوراً متنوعة بأشكال مختلفة[٣٢] إضافة إلى مناظر الصيد، وتمارين رياضية، ومجموعات عائلية أخذت هذه المفاهيم الفنية والأسلوب عن الرسوم الرومانية المتأخرة أو البيزنطية. والأهم من ذلك وجود رسوم آلهة أسطورية إغريقية للفلسفة والشعر والتاريخ كذلك وجدت في قبة الحمام رسوم للنجوم نقلت بشكل علمي، وفي ذلك تقليداً لزخارف القباب الكلاسيكية المتأخرة، ولا نستطيع أن نغفل التأثير الساساني في مناظر الصيد[٣٣].

وبالتالي هذه الزخارف وضحت سبب البناء لما تشمله من مواضيع للحياة اليومية في تلك المرحلة كالحرف اليدوية، ورياضة الصيد، والعلوم، بما في ذلك حياة القصور وما فيها من ثراء متعدد الجوانب وفيما يتعلق بتصوير الموضوعات داخل عناصر هندسية وتكرارها داخل مربع أو معين في حركة منظمة لا متناهية، في كل شكل هندسي صورة.

٢- قصر المشتى:

ينسب هذا القصر إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي شيده في البادية الأردنية على مسافة (٣٢ كم) جنوب شرقي عمان، لكنه قتل قبل أن يكتمل البناء، وهو من القصور الأموية المهمة في الأردن، يحيط بالقصر سور مربع يبلغ طول ضلعه (١٤٤ م)، يحيط به من الخارج (٢٥) برجاً دفاعياً نصف دائري موزعة بترتيب منظم بمعدل خمس أبراج بقطر خمسة أمتار في كل ضلع، محصورة ضمن أبراج الزوايا التي يبلغ قطر الواحد منها سبعة أمتار باستثناء الجهة الجنوبية التي تتوسطها البوابة الرئيسة، والتي تتضمن ستة أبراج بما فيها برجا البوابة نصف المثمنين.

ويتكون القصر من مجمعين رئيسيين، جنوبي ويشكل مجموعة المدخل والحراسة، وكذلك المجموعة الإدارية والمسجد، ومجمع شمالي وهو الرئيس، وكان يتضمن قاعة العرش وجناح الإقامة الخاص بالخليفة.

ومن أهم ما يميز هذا القصر واجهته الحجرية المزخرفة بأشكال نباتية وحيوانية وهندسية في غاية الروعة والغنى. وتقع الواجهة على جانبي بوابة المدخل، وتصاميم الزخرفة تختلف من جهة إلى أخرى، فبينما نجد بعض التصاميم متأثرة بالساسانية، مثل الحيوانات المتقابلة والأجنحة المزدوجة و الشمعدانات، نجد أيضاً بعض التصاميم ذات الطابع الهلليني في أساسه على هيئة مثلثات معتدلة ومقلوبة، وفي داخل كل منها حفر بارز على شكل وردة(٣٤). ولابد من التنويه أن زخارف القسم الأيسر من الواجهة تختلف عن زخارف القسم الأيمن، وأنها نتيجة مدرستين فنيتين مختلفتين، وهذا الأمر كان موضع جدل في تفسير ظاهرة اختلاف تشكيل الواجهة بحيث قسم منها يظهر زخارف حيوانية والقسم الآخر زخارف نباتية وقد فسر هذا الأمر د. زكي حسن محمد بأن عدم إتمام الزخرفة الحيوانية يعود إلى كراهية تصوير الكائنات الحية في الإسلام ففضلت الزخارف النباتية في القسم الآخر(٣٥). ولا يمكن القول أن تعدد الصناع في بناء القصر من سوريا و العراق ومصر قد يكون له دوره في تنوع الزخرفة فاختلاف الصناع لا يعني أن يترك أمر العمل الفني لكل صانع أن يعمل على هواه دون تنسيق وإلا لكانت النتيجة خالية من أصول الزخرفة، وإذا كان الأمر عائد إلى تحريم التصوير فكان بإمكان الخليفة تدمير أو إبعاد ما يراه محرماً، لا أن يتركه على ما هو عليه ليأمر بمتابعة العمل بما هو ليس محرماً(٣٦). وبالمجمل إن زخارف المشتى تعكس تأثيرات ساسانية وأخرى بيزنطية... لكن تمثل في تنوعها وتكاملها أسلوباً فريداً(٣٧).

ومن الملاحظ دقة التفاصيل والعناية بالحمام في قصر المشتى وقصر عمرة مما يفيد بأهمية المكان للاستشفاء وطلب فترة من الراحة والنقاهة بعيداً عن أمور الحياة الروتينية اليومية والتي كان الأمراء يخلدون إليها.

٣- قصر خربة المفجر:

عبارة عن مدينة ملكية متكاملة تضم القصر والجامع والحمامات والفناء الداخلي المعمد الذي يتوسطه بركة الماء المزدانة بالزخارف، شيد من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك[٣٨] على مقربة من مدينة أريحا في فلسطين لاستخدامه كاستراحة ملكية.

وإن دراسة التفصيل المعماري لهذا القصر معقد جدا بسبب انقسامه لثلاث أجزاء هي القصر والحمام والجامع، تتخللها ساحات مكشوفة ومسورة اتسمت بأداء وظائف معينة، والقصر مبنى ذو طابقين تتوسطه باحة مكشوفة، ويحيط بالقصر سور خارجي مدعم بأبراج نصف دائرية، ويعد مبنى الحمام من أروع المباني وأفخمها، فهو يتألف من فضاءات عديدة مختلفة ومتباينة بالأهمية الوظيفية (غرف الماء البارد والدافئ والساخن).

يتميز قصر المفجر بفن تزيينه المنحوت في الحجر والجص. وببلاطه الفسيفسائي ذي الصيغ الزخرفية المأخوذة من الطبيعة. كما إن زخارفه الفسيفسائية تتكون من وحدات هندسية أقرب إلى البيزنطية والرومانية غير أنها أكثر ثراء منها وكذلك أكثر تنوعاً، بالإضافة إلى احتواء الزخارف الموجودة فيها على عناصر آدمية وحيوانية إلى جانب الزخارف الهندسية وقد أبدى بهنسى إعجابه بها وأكد أنها فسيفساء حقيقية رائعة التصميم[٣٩]. وتمثل إحدى اللوحات غرفة كسيت أرضيتها بالفسيفساء المزخرف برسوم تمثل شجرة رمان أو نارنج مورق يقف على جانب منها زوج من الغزلان يرعيان العشب الأخضر، أما الجانب الآخر أسد يفترس غزال آخر، وهذه

الزخارف كانت تتوضع في غرفة استقبال الوفود حيث كانت تقام المراسم الرسمية الأموية، وهذه اللوحة توضح قوة الخلافة، من خلال إظهار الانسجام بين الشجرة والعالم. وربما كانت هذه الصورة ذات تأثير ساساني، لأن مثل هذه المواضيع كانت منتشرة في بلاد فارس(٤٠). وقد اكتشف في قصر المفجر أيضاً زخارف جصية، وأخرى لحيوانات حقيقية وخرافية، وراقصات نصف عاريات، كما وجد عند بوابة المدخل تمثالا لجارية نصف عارية، وفوق المدخل تمثال واقف فوق أسدين متدابرين(٤١). فالاهتمام بزخارف تلك القصور توضح أن الأمويين كانوا يحنون لقضاء فترات متقطعة في الصحراء، فقد كانت تلك القصور على تنسيق رائع وتنظيم شامل.

٤- قصر الحير الغربي:

شيد هذا القصر على أنقاض دير غساني بناه الحارث بن جبلة، غربي مدينة تدمر(٤٢). على الطريق بين دمشق وتدمر، وإلى الشرق من قرية القريتين الحالية وينسب بناؤه للخليفة هشام(٤٣) استناداً إلى نص مكتوب بالخط الكوفي على باب قيل إنه باب خان قديم مخصص لنزول القبائل جاء فيه " *بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أمر بصنعة هذا العمل عبد الله بن هشام أمير المؤمنين أوجب الله أجره، عمل على يد ثابت بن أبي ثابت في رجب سنة تسع ومائة* "(٤٤).

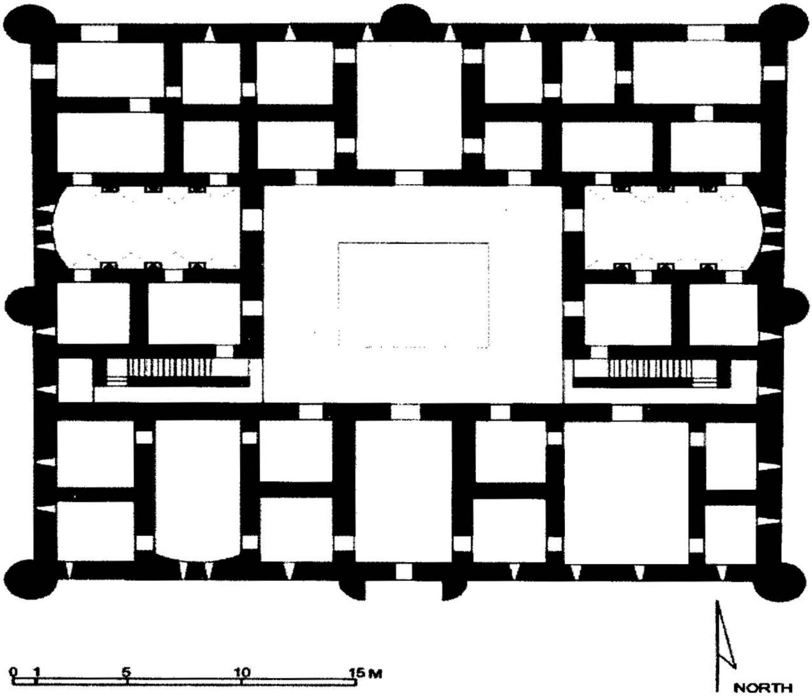
قصر الحير الغربي أشبه بالحصن المربع له سور عال مزود بالأبراج برج في كل زاوية، وبرجين نصف دائريين على جانب الباب والواجهات مغلقة على المحيط الخارجي ليس فيها سوى نوافذ ضيقة أشبه بمرامي السهام. يؤدي الباب المفتوح ضمن برجين على شكل نصف اسطوانة، إلى دهليز واسع، ومنه إلى رواق مسقوف يطل على باحة سماوية يتوسطها بركة ماء، ويلي الأروقة أجنحة سكنية تستمد نورها من خارج القصر عبر النوافذ الضيقة أو من داخل القصر عن طريق

الرواق، ويتألف القصر من طابقين بني الطابق الأرضي من الحجر الكلسي واستكمل البناء في الطابق الثاني من اللبن(٤٥).

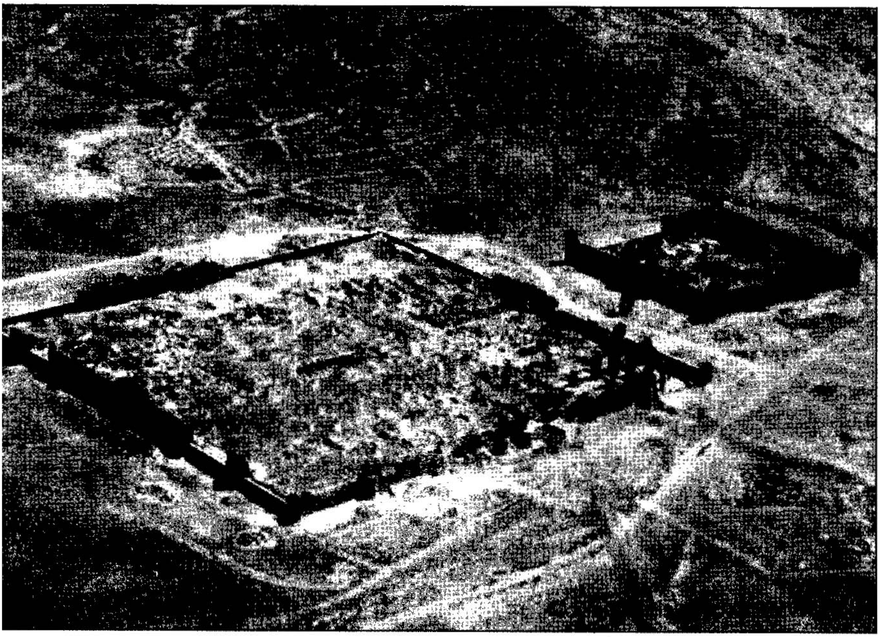
وكشفت أعمال التنقيب أن القصر كان مزيناً بالفسيفساء، إضافة للجدران المزينة بالخشب المنقوش، وقطع مزينة برسوم ملونة ومذهبة تمثل أزهاراً وأشكالاً هندسية، وجدران الغرف مطلية برسوم على شكل شرائط أفقية عريضة، وتركزت بذلك زخارف القصر على النقوش الجصية والرسوم الجدارية. ومن أهم لوحات قصر الحير الغربي لوحة سميت بآلهة الأرض، يصور الربة ((جيا)) ضمن دائرة بشكل نصفي، يحيط بها عناصر زخرفية، إغريقية، نصفها الأعلى بشري، ونصفها الأسفل شبيه بذنب الثعبان، فتنوعت التأثيرات من كلاسيكي إلى ساساني، أما الكائنات البحرية الخرافية تظهر فيها التأثيرات الهللينية االرومانية(٤٦). واللوحة الثانية تمثل فارسا يمتطي جواداً، يطارد الحيوانات بسهامه، ويرتدي ملابس ثمينة، وحزاماً من أهداب طائر يتدلى منه حراب السهام، وفي هذه اللوحات تتجلى التأثيرات الفارسية التي تعبر بعمق عن السلطة والمركزية(٤٧).

الخاتمة:

القصور الصحراوية تعكس رغبات الخليفة في كثير من الأحيان، سواء كانت للراحة والاستجمام، أو الهروب من واقع المدينة، ويمكن القول إن إقامتها وفق نموذج واحد يقوم على مبدأ السور والأبراج الدفاعية، المزودة بفتحات لرمي السهام، والشرفات المخصصة لصب الزيوت المغلية أثناء الهجوم، وهذا يدل على الاهتمام بالنواحي الأمنية. وقد انتقل هذا الفن إلى المناطق المجاورة، بعد أن ازدهرت في العصر الأموي والذي تأثر بالحضارات السابقة، لذلك نلاحظ سيادة التأثير الروماني والبيزنطي و..... معمارياً.



مخطط قصر الحرانة عن كريزويل



قصر الحير الشرقي (القصر الكبير والقصر الصغير)

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٨٣



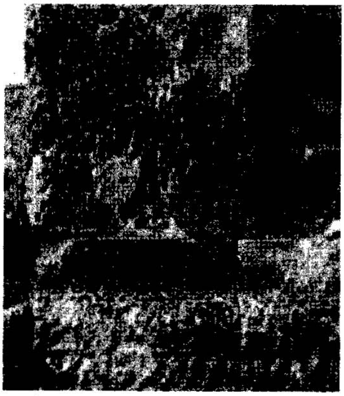
مخطط وأطلال قصير عمرة في البادية الأردنية

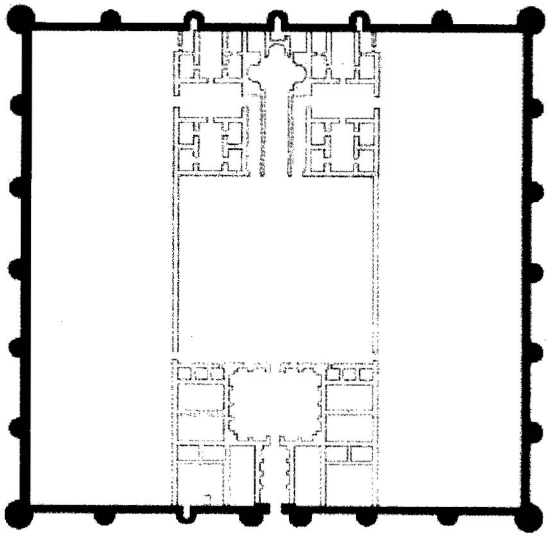
الريحاوي (عبد القادر): العمارة في الحضارة الإسلامية، السعودية، ط ١، ١٩٩٠ م، ص ٨٥.



فريسك (لوحات جدارية من قصير عمرة، رسوم إنسانية وحيوانية)

البهنسي(عفيف): موسوعة التراث المعماري، دمشق، ٢٠٠٤ م، ج ٢، ص ٣٧٣

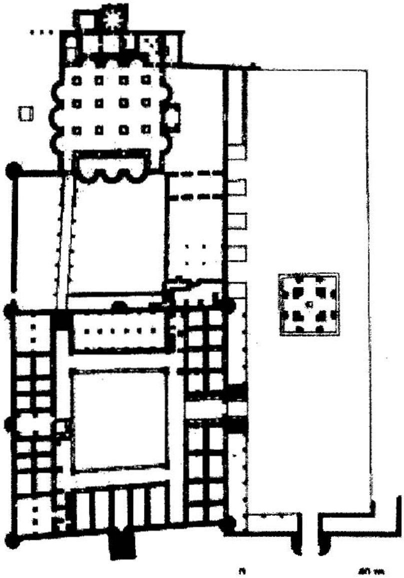




يمين، مخطط قصر المشتى. يسار زخارف جصية من قصر المشتى

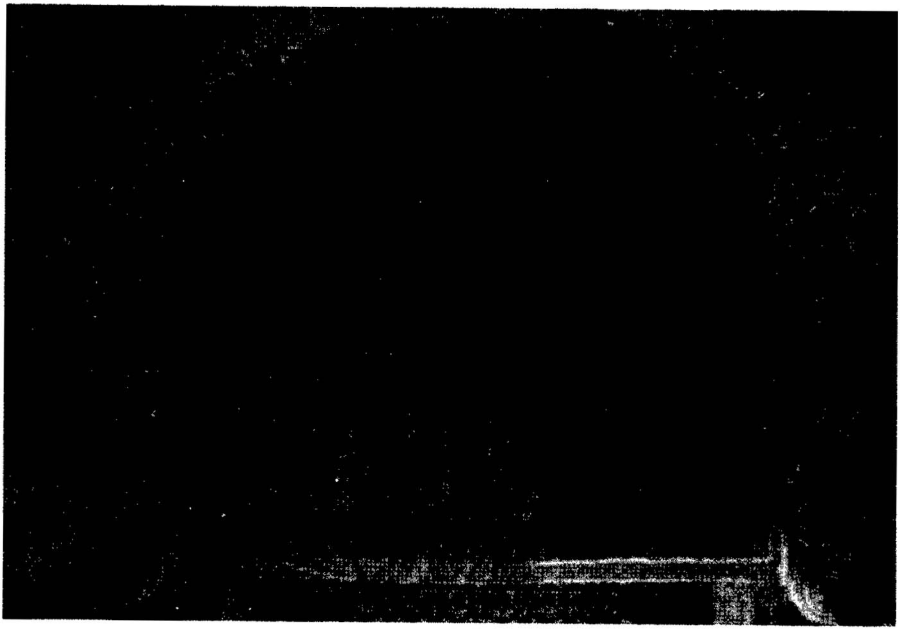
بهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص ٥٢٩.





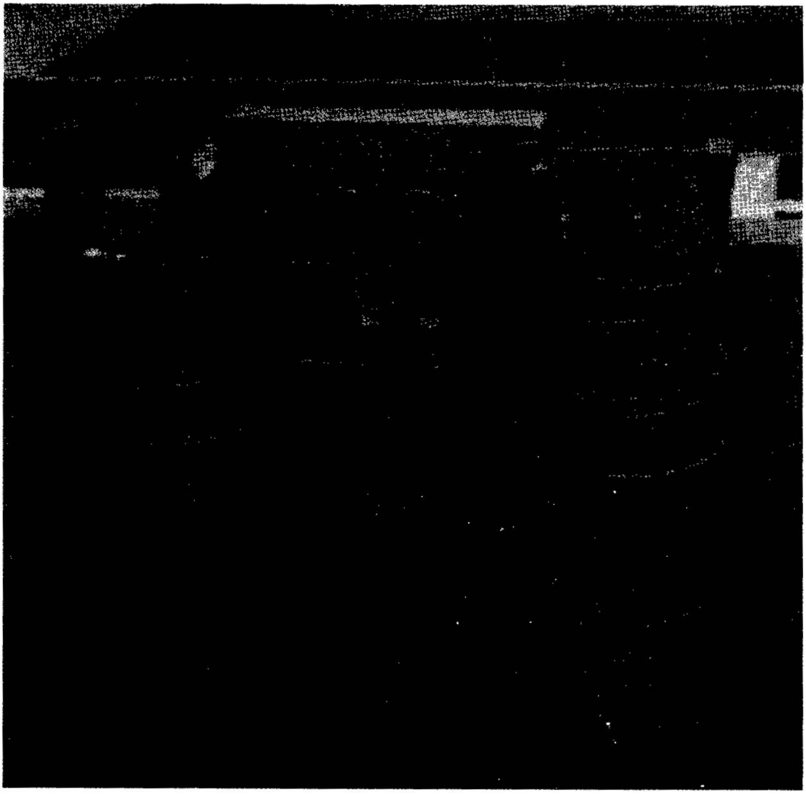
يمين، مخطط قصر خربة المفجر. يسار الشعار في وسط القصر

الريحاوي، العمارة في الحضارة، ص ٧٩.



شجرة وحيوانات على أرضية من الفسيفساء في قصر خربة المفجر

شريقي، الفن العربي الإسلامي، ص ٣٧٣.



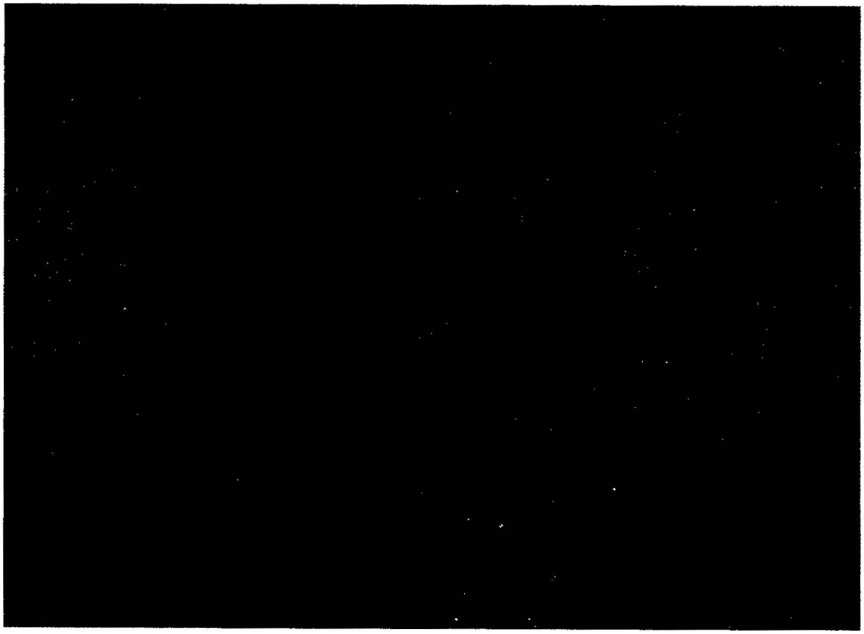
بوابة قصر الحير الغربي

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، ص ٦٤



صورة جدارية للربة جيا في قصر الحير الغربي

شريقي، الفن العربي الإسلامي، ص ٣٦٥



الجص في قصر الحير الغربي

بهنسي، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١٩٢.

الحواشي

(١) كرويزل (ك): الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، تدقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، د.ت، ص ١٣١.

(٢) الريحاوي (عبد القادر): العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ٢، ١٩٩٩ م، ص ٥٠.

(٣) طهبوب (صلاح): موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر الأموي): دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط١، ٢٠٠٤، ص ١٢١.

(٤) جود الله (فاطمة): سورية نبع الحضارات، دمشق، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ٦٠٨/ مرسي (ايناس يحيى محمد): فن العمارة العربية وأشهر معالمها، تدقيق أمينة الصباح، الكويت، دار سعاد الصباح، ط ١، ٢٠٠١ م، ص ٩٩.

(٥) عبود (سامي): قصور الصحراء، مجلة الرائد العربي، العدد ١٨، نيسان ١٩٦٢ م، ص ٢.

(٦) ثروت (عكاشة): القيم الجمالية في العمارة العربية الإسلامية، بيروت، ١٩٩٤، ص ٧٩.

(٧) الريحاوي، العمارة الإسلامية، ص ٥١.

(٨) العش(أبو الفرج): آثارنا في الإقليم السوري، دمشق، المطبعة الجديدة، ط١، ١٩٦٠، ص ٦٦.

(٩) أبو النصر(عمر): الموسوعة التاريخية (عبد الملك بن مروان، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ط ١، ١٩٦٢ م، ص ٢٣.

(١٠) فقد أراد الخليفة هشام تعيين أحد أولاده بدلاً من الوليد، وهذا يوضح الإساءة للوليد. الطبري، تاريخ الأمم، ج٤، ص ٢٢٢

(١١) حسن(ابراهيم حسن): تاريخ الإسلام، بيروت، دار الجبل، القاهرة، ط ١٢، ١٩٩١ م، ج ١، ص ٤٣٧.

(١٢) حتي (فيليب): تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ط ٧، ١٩٨٧ م، ص ٣٣٢.

(١٣) مرسي، فن العمارة العربية، ص ١٠٥.

(١٤) Stier Lin. Vo La Me١. Italy, ١٩٩٥. p ٨٠.

(١٥) لوبون (غوستاف): حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط ٤، ص ١٩٦٤.

(١٦) محمد حسن (زكي): فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١ م، ص ٥-٦.

(١٧) رايس (دافيد تالبوت): الفن الإسلامي، ترجمة: منير الاصبحي، دمشق، ١٩٧٧ م، ص ١٣.

(١٨) Sauvaget, J, Remarques. Sur les manumenls Gmaiyades,Mfob ٤, ١٩١٠, p ٩١- ١١٢.

(١٩) Greswell, K,A,C. Eariy Muslim Architectue, l, umaygads,A.D ١٩٦٩,p ٢٠

(٢٠) بهنسي (عفيف): الشام والحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨ م، ص ١٤٧.

(٢١) كحالة (عمر): الفنون الجميلة في العصور الإسلامية المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٢ م، ص ٨٤- ١٢٩.

(٢٢) الريحاوي، العمارة، ص ٨٥

(٢٣) هاردنج (لانسكتر): آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، اللجنة الأردنية للترجمة، ط ١، ١٩٦٥ م، ص ١٥٣.

(٢٤) العش، آثارنا في الإقليم السوري، ص ١١٤.
(٢٥) البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ): جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: د. سهيل زكار، رياض زركلي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٦ م، ج ٨، ص ٦٥/ الكتبي (محمد بن شاكر ت ٧٤٦ هـ): فوات الوفيات، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، ١٩٧٣ م، م ٤، ص ٢٥٤.
(٢٦) الحموي (ياقوت): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، م ١، ص ١٥١.
(٢٧) كربزويل (ك)، الآثار الإسلامية الأولى، ص ١١٩.
(٢٨) مرزوق (محمد عبد العزيز): قصة الفن الإسلامي، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٠ م، ص ١٠٧.
(٢٩) خماش (نجدة): الآثار الإسلامية، دمشق، مطبعة الرياض، ١٩٨٢ م، ص ٤٥.
(٣٠) كريزويل، الآثار الإسلامية، ص ١٢٤ / هاردنج، آثار الأردن، ص ١٥٨.
(٣١) سعاد محمد، الفنون الأسلامية، ص ٢٢١.
(٣٢) هاردنج، آثار الأردن، ص ١٥٨.
(٣٣) خماش، الآثار الإسلامية، ص ٤٤.
(٣٤) الباشا (حسن): مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، مصر، ١٩٨١ م، ص ٢٢٥.
(٣٥) زكي، فنون الإسلام، ص ٤٨.
(٣٦) شريقي (زكريا): الفن العربي الإسلامي الجذور والمؤثرات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٢ م، ص ٣٨٠.
(٣٧) هاردنج، آثار الأردن، ص ١٦٥ / خماش، الآثار الإسلامية، ص ٤٦.
(٣٨) تم التأكد من هوية الباني من خلال بلاطة رخامية نقشت بالخط الكوفي عبارة (ولا إله إلا الله محمد رسول الله، واسم هشام بن عبد الملك. للمزيد: مرعي (توفيق): قصة مدينة أريحا، سلسلة المدن الفلسطينية، دائرة الثقافة، ص ٩٨.

(٣٩) بهنسي (عفيف): الفن العربي الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط ١، ١٩٨٣ م، ص ١٥٠.

(٤٠) رايس، الفنون الإسلامية، ص ٢٢.

(٤١) شريقي، الفن الإسلامي، ص ٣٧٢.

(٤٢) Schlamberger, D: ;esfoailler – deqasrel – Heirel – Gjarbi, in syria, ١٩٣٩, P١٩٥ .

(٤٣) الطبري (أبي حعفر بن جرير): تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعارف، ط ٢، ج ٧، ص ١٨٠.

(٤٤) خماش، الآثار الإسلامية، ص ٥٦ / الريحاوي، العمارة العربية، ص ٧١.

(٤٥) الحمصي (أحمد فائز): روائع العمارة العربية الإسلامية في سوريا، تدقيق حسن كمال، ١٩٨٢ م، ص ١٠/ ريحاوي، العمارة، ص ٧٤.

(٤٦) سعاد، الفنون الإسلامية، ص ٢٢٢.

(٤٧) البهنسي (عفيف): موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١٩٤/سعاد، الفنون الإسلامية، ص ٤٤.

المصادر والمراجع

أولاً- المصادر:

- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٧٩ هـ): جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: د. سهيل زكار، رياض زركلي، بيروت، دار الفكر، ط ١، ١٩٩٦ م، ج ٨.
- الحموي (ياقوت): معجم البلدان، بيروت، دار صادر، م ١.
- الطبري (أبي جعفر بن جرير): تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، دار المعرف، ط ٢، ج ٧.
- الكتبي (مححمد بن شاكر، ت ٧٤٦هـ): فوات الوفيات، تحقيق: احسان عباس، دار صادر، ١٩٧٣ م، م ٤.

ثانياً- المراجع العربية والمعربة:

- أبو النصر(عمر): الموسوعة التاريخية (عبد الملك بن مروان)، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ط ١، ١٩٦٢ م.
- الباشا (حسن): مدخل إلى الآثار الإسلامية، دار النهضة العربية، مصر ١٩٨١ م.
- بهنسي (عفيف): الشام والحضارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٨ م.
- بهنسي (عفيف): الفن العربي الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ١٩٨٣ م.

- البهنسي(عفيف): موسوعة التراث المعماري، دمشق، ٢٠٠٤ م، ج ٢.
- ثروت (عكاشة): القيم الجمالية في العمارة العربية الإسلامية، بيروت، ١٩٩٤ م.
- جود الله (فاطمة): سورية نبع الحضارات، دمشق، دار الحصاد للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٩ م.
- حتي (فيليب): تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر، بيروت، ط ٧، ١٩٨٧.
- حسن(ابراهيم حسن): تاريخ الإسلام، بيروت، دار الجبل، القاهرة، ط ١٢، ١٩٩١ م، ج ١.
- الحمصي (أحمد فائز): روائع العمارة العربية الإسلامية في سوريا، تدقيق حسن كمال، ١٩٨٢ م.
- خماش (نجدة): الآثار الإسلامية، دمشق، مطبعة الرياض، ١٩٨٢ م.
- رايس (دافيد تالبوت): الفن الإسلامي، ترجمة منير الاصبحي، دمشق، ١٩٧٧.
- الريحاوي (عبد القادر): العمارة في الحضارة الإسلامية، السعودية، ط ١، ١٩٩٠ م.
- الريحاوي (عبد القادر): العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط ٢، ١٩٩٩ م.
- شريقي (زكريا): الفن العربي الإسلامي الجذور والمؤثرات، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٢ م.
- طهبوب (صلاح): موسوعة التاريخ الإسلامي (العصر الأموي): دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠٠٤ م.

- عبود (سامي): قصور الصحراء، مجلة الرائد العربي، العدد ١٨، نيسان ١٩٦٢ م.
- العش (أبو الفرج): آثارنا في الإقليم السوري، دمشق، المطبعة الجديدة، ط ١، ١٩٦٠ م.
- كحالة (عمر): الفنون الجميلة في العصور الإسلامية المطبعة التعاونية، دمشق، ١٩٧٢ م.
- كرويزل (ك): الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة: عبد الهادي عبلة، تدقيق: أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، دمشق، د. ت.
- لوبون (غوستاف): حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، ط ٤، ص ١٩٦٤ م.
- محمد حسن (زكي): فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١ م.
- مرزوق (محمد عبد العزيز): قصة الفن الإسلامي، مكتبة الأنجلو مصرية، ١٩٨٠ م.
- مرسي(ايناس يحيى محمد): فن العمارة العربية وأشهر معالمها، تدقيق: أمينة الصباح، الكويت، دار سعاد الصباح، ط ١، ٢٠٠١ م.
- مرعي (توفيق): قصة مدينة أريحا، سلسلة المدن الفلسطينية، دائرة الثقافة.
- هاردنج (لانسكتر): آثار الأردن، ترجمة: سليمان موسى، اللجنة الأردنية للترجمة، ط ١، ١٩٦٥ م.

ثالثاً- المراجع الاجنبية:

- Schlamberger, D: ;esfoailler – deqasrel – Heirel – Gjarbi, in syria, ١٩٣٩
- Sauvaget, J,Remarques. Sur les manumenls Gmaiyades,Mfob ٤, ١٩١٠.
- Greswell,K,A,C. Eariy Muslim Architectue, l, umaygads,A.D ١٩٦٩,
- Stier Lin. Vo La Me١. Italy ١٩٩٥

الجغرافية التاريخية عند العرب (المقدسي البشاري أنموذجاً)

د. سامي مرعي

قسم التاريخ/ جامعة تشرين

المحتوى

١) مقـدمة:

كان العرب قبل الإسلام تجاراً ذوي دراية ومعرفة بخطوط التجارة، وذلك بحكم موقع بلادهم على طرق القوافل، وقد أفادتهم تنقلاتهم ورحلاتهم في التعرف على المناطق المجاورة لهم، كالعراق وبلاد الشام ومصر وشرقي أفريقية وفارس والهند وغيرها، ولما قامت الفتوحات العربية الإسلامية، وشكّل العرب دولةً واسعةً تمتد من جبال البرانس حتى حدود الصين، اتسعت معارفهم الجغرافية، نظراً لعوامل متعددة، أبرزها: الحاجة إلى معرفة البلاد المفتوحة وشعوبها وطريقة فتحها، لتقدير نوع الضرائب فيها، واتساع نطاق التجارة التي يمارسها العرب المسلمون، والحج إلى مكة، حيث يقصدها المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامي، والرحلة في طلب العلم. وقد حفزت هذه العوامل على الأسفار، ومهدت السبل أمام الكاشفين والرحالين، فقام كثير منهم برحلات مهمة، ووضع بعضهم كتباً في الجغرافية، دوّنوا فيها ما عرفوا من البلاد وصفاً، وجمعوا ما سمعوا من أخبارها، ومن ثم ظهر علماء الجغرافية الذين صنفوا الكتب الجغرافية(١).

وقد تنوعت المؤلفات الجغرافية، فاختص بعضها بالجغرافية الفلكية مثل «علم الأطوال والأعراض» أو«علم تقويم البلدان»، ومنها ما اختص بالجغرافية الوصفية للمناطق والبلدان الإسلامية، وهو ما عرف باسم «علم المسالك والممالك»، وكان منها أيضاً الأبحاث التي تبحث في مراحل الطرق بشكل خاص، وعرفت باسم «علم البرود»، أما وصف الكون وما فيه من عجائب وغرائب، فقد عرف باسم «علم عجائب البلدان»(٢).

كانت الجغرافية الوصفية من أهم فروع الجغرافية التي صنّف فيها العرب، وكان قد ظهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين مدرستان جغرافيتان هما: المدرسة الجغرافية الكلاسيكية أو «مدرسة البلخي»، وهي التي اقتصرت على دراسة العالم الإسلامي، وأول من صنف فيها: أبو زيد أحمد بن

سهل البلخي[٣]، وقد عرف كتابه باسم «صور الأقاليم» أو «أشكال البلاد» وأحياناً «تقويم البلدان»، وكتابه هذا بحكم المفقود[٤]، وتابع البلخي في الاقتصار على دراسة العالم الإسلامي كل من الإصطخري[٥] وابن حوقل[٦] والمقدسي، أما المدرسة الجغرافية الثانية، فعرفت بالمدرسة العراقية، وهي لم تقتصر على العالم الإسلامي، بل درست العالم المعروف في عصرها، وكان أبرز ممثلي هذه المدرسة: ابن خرداذبة[٧] واليعقوبي[٨] والجاحظ[٩] وابن الفقيه[١٠] وقدامة بن جعفر[١١] والمسعودي[١٢]، وغيرهم[١٣].

٢) عصر المقدسي وحياته:

عاش المقدسي البشاري في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، ومن الأهمية قبل الحديث عن حياته، عرض لواقع العصر الذي عاش فيه، فقد كان في العالم العربي الإسلامي ثلاثة خلفاء هم: الخليفة العباسي في بغداد، والخليفة الفاطمي في شمال أفريقية الذي انتقل في النصف الثاني من ذلك القرن إلى مصر، والخليفة الأموي في الأندلس، وكان في المشرق الإسلامي الدولة السامانية التي كانت مستقلة عن الخلافة العباسية، وكان مركزها مدينة بخارى، أما بالنسبة لبلاد الشام موطن المقدسي، فقد كانت تتبع للدولة الإخشيدية التي مركزها في مصر، ثم صارت فيما بعد ساحة للنزاع بين الإخشيديين والحمدانيين، وانتهى هذا النزاع باقتسام بلاد الشام بينهما، بحيث صار القسم الشمالي منها للدولة الحمدانية التي مركزها في حلب، في حين بقي القسم الجنوبي منها للدولة الإخشيدية، وقد بقيت تسيطر عليه حتى سقطت بأيدي الفاطميين الذين مدّوا نفوذهم إلى مصر، وسيطروا عليها في سنة ٣٥٨ هـ ٩٦٨ م، ثم سيطروا في السنة التالية على القسم الجنوبي من بلاد الشام الذي كان بأيدي الإخشيديين، في حين بقي القسم الشمالي منها بأيدي الحمدانيين، واستمر الحال هكذا حتى نهاية القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

يعد المقدسي البشاري أبرز ممثل للجغرافية الوصفية لاسيما مدرسة البلخي، وهي التي تقتصر على دراسة العالم الإسلامي، وقد تميز بسعة الوثائق الشخصية، وحرصه على إعطاء آخر المعلومات[١٤]، هذا ويعد كتابه مثالاً لأعلى درجة بلغها العرب في التأليف الجغرافي ووصف البلدان[١٥]، وفيما يلي الحديث عنه مفصّلاً:

المقدسي: هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري، وقد شهر باللقبين الأخيرين من اسمه، فالمقدسي نسبة إلى بيت المقدس، أما البشاري، فهو اسم يرتبط بتاريخ حياته[١٦]، وهو جغرافي رحالة عظيم الابتكار في زمانه، يعد من أعلام الجغرافيين العرب، وأعظم ممثل لنمط المسالك والممالك، حيث أوصل هذا النمط إلى حد الكمال[١٧]، وقد عدّه اشبرنجر أعظم الجغرافيين في كل العصور، في حين عدّه كرامرز آخر الجغرافيين العظام الذين ساروا على نهج مدرسة البلخي[١٨]، وقال عنه كراتشكوفسكي: كان «جغرافياً عظيماً وواحداً من كبار الكتّاب العرب قاطبة»[١٩].

لم يرد للمقدسي أية ترجمة في أي من المصادر المتوافرة، ولعل إغفال المصادر الترجمة له، يعود إلى قلة الاهتمام بالعلم الذي تخصص به المقدسي، وهو العلم الذي يقتصر على المعارف الدنيوية، ولم يكن يحظى باهتمام أصحاب المصادر الذين كان أكثر اهتمامهم منصباً على العلوم الدينية، هذا مع العلم أن بعض المصادر نقلت عنه، ومنها ياقوت الحموي، حيث نقل عنه مرات عديدة في معجم البلدان، وقد ذكره أحياناً باسمه كاملاً، بينما دعاه أحياناً بأسمائه الأخرى مثل: البشاري، ابن البناء البشاري، أبو عبد الله البناء[٢٠]، ولذلك سوف يتم التعرف على حياته من خلال ما يرد في ثنايا كتابه الشهير «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»[٢١] من معلومات مهمة عن سيرة حياته...

ولد المقدسي في بيت المقدس حوالي سنة ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م[٢٢]، وقيل سنة ٣٣٥ هـ/ ٩٤٦ م[٢٣]، والراجح أن هذا التاريخ الأخير هو الصحيح، نظراً لأنه وقت

وضع كتابه في نسخته الأولى سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، كان عمره أربعين سنة[٢٤]، وهو من أسرة فلسطينية عريقة لها تاريخ معروف، فجده لأبيه أبو بكر البناء، كان مشهوراً بالبناء، وهو الذي بنى ميناء عكا وتحصيناته لأحمد بن طولون في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي[٢٥]، أما جده لأمه، فهو أبو الطيب الشوا، وهو من أبناء بيار في إقليم الديلم، وكان متميزاً في البناء أيضاً، قدم فلسطين مع ثمانية عشر رجلاً من أبناء بلاده[٢٦]، ويظهر أن التلاقي بين جديه (لأبيه ولأمه)، يعود إلى الرابطة المهنية التي جمعت بينهما، حيث كانا متميزين في البناء.

عاش المقدسي في وسط مرفّه، يقوم بخدمته غلمان والده، وقضى عشرين سنة من عمره في بيت المقدس ينام في بيته[٢٧]، حصّل خلالها علوم بلاده، بعدها ظهرت لديه فجأة الرغبة في السفر، فقرر أن يجوب مناطق العالم الإسلامي، فتنقل في البوادي والأنهار والبحار، وسار مع القوافل بلا توقف[٢٨]، ويظهر أن دوافعه إلى ذلك كانت تتمثل في الفضول ومتعة الرؤية وحب المعرفة[٢٩]، هذا ويلاحظ أن جغرافية المقدسي شرقية، بينما لم يعرف المغرب إلا بطريق غير مباشرة، مما يدفع للقول إن الدافع العاطفي من دوافع أسفاره، وربما أهمها، لا سيما وأن أمه ديلمية وأباه فلسطيني، الأمر الذي دفعه إلى التعرف بنفسه على موطن جدَّيه، ولذلك بادر بعدما شبَّ في فلسطين وعرفها عن كثب إلى القيام بأسفاره، وفي خلالها زار مدينة بيار موطن أخواله، وتبادل الأحاديث فيها مع المعمرين عن الأخبار والذكريات المختلفة[٣٠].

يلاحظ أن المقدسي لم يولِ اهتماماً للزمان في كتابه، فهو يورد كثيراً من الإشارات عن مروره في هذا البلد أو ذاك، أو عن لقاءات أو مناظرات أجراها أو غير ذلك، دون أن يحدد متى كان ذلك[٣١]، ولكن على الرغم من ذلك هناك بعض التواريخ والمعلومات الدقيقة عن بعض مراحل حياته، فقد حجّ إلى مكة ثلاث حجات سنة ٣٥٦ هـ/ ٩٦٧ م، وسنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م، وسنة ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧ م، وفي خلال هذه الحجة الأخيرة، التقى في مكة مع بعض مشايخ الأندلس، وعرض عليهم ما

كتبه عن الأندلس، واستفاد من ملاحظاتهم[٣٢]، وزار سيراف بعد زلزلة سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م أو سنة ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧م[٣٣]، وحرر النسخة الأولى من كتابه سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، وعمره أربعون سنة[٣٤]، وأقام في اليمن حولاً كاملاً، وقضى يوماً في عسكر مكرم من إقليم خوزستان، وأربعة أشهر في بيار من بلاد الديلم[٣٥]، وسار في بحر الصين نحو ألفي فرسخ[٣٦]، دار خلالها على سواحل الجزيرة العربية من بحر القلزم «البحر الأحمر» حتى عبادان على الخليج العربي، وسافر غير مرة في بادية العرب، ومسحها من كل الجهات[٣٧].

أما تاريخ وفاة المقدسي، فهو غير معروف، فقد ذكر ياقوت الحموي في إحدى نقوله عنه، أن قول المقدسي هذا، كان في سنة ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨م[٣٨]، وبذلك فإن وفاته تكون بعد هذا التاريخ، فقيل نحو سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م[٣٩]، وقيل حوالي سنة ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠م[٤٠]، وهناك من جعل وفاته في حدود ٤١٤ هـ/ ١٠٢٣ م[٤١].

٣) أسفار المقدسي وميوله الدينية وثقافته:

تميز المقدسي بسعة مجال أسفاره، حيث زار جميع مناطق العالم الإسلامي باستثناء الأندلس والسند وسجستان[٤٢]، ولاقى خلال أسفاره كثيراً من المصاعب والمشاق، قال: «لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً»[٤٣]، ويظهر أنه خلال أسفاره، كان يضطلع بمختلف الأعمال ليتعرف حياة العصر الذي عاش فيه[٤٤]، فكان يلجأ إلى التنكر، وتغيير اسمه كي يتمكن من التواصل مع الطوائف المختلفة، ودراسة بيئاتها والوقوف على عاداتها وتقاليدها[٤٥]، وسُمّي خلال أسفاره بستة وثلاثين اسماً، خوطب بها، فبعض منها يدل على جنسيات مثل: مقدسي وفلسطيني وشامي...، ويدل بعضها على مراتب اجتماعية مثل: وال، وأستاذ، وشيخ، وكان بعضها يشير إلى ألقاب أدبية أو فكرية مثل: فقيه، وصوفي، وولي، وعابد، ومتعلم، وخطيب، وكان منها ما يدل على مهن مثل: وراق، ومجلد، وتاجر، وكان

منها أيضاً ما يدل على التجوال مثل: سيّاح، وراكب، ورسول وغير ذلك، وقد أنفق خلال أسفاره هذه أكثر من عشرة آلاف درهم(٤٦)، فاستحق عن جدارة أن يوصف بأنه كان «مغامراً بليغاً جداً »(٤٧).

تميز المقدسي خلال أسفاره بقدرته على التحدث ومخاطبة جميع الفئات في المجتمع سواء كانوا من أصحاب المناصب أو العامة، ولكن لوحظ أنه يكثر الحديث إلى العامة، ويشاركهم حياتهم ومهنهم أحياناً، وقد فسّر هذا الأمر بأنه كان مرتبطاً بالحركة الإسماعيلية التي كانت مزدهرة في تلك الآونة(٤٨)، أي أنه ربما كان يعمل داعياً لها، وخصوصاً أنه أعلن أن بغداد في عصره، تداعت إلى الخراب، وبرز مكانها في العالم الإسلامي فسطاط مصر «القاهرة» في ظل الحكم الفاطمي الذي حاز ثناء المقدسي ومدحه(٤٩)، أما مدائحه لآل سامان في خراسان مع أنهم ليسوا شيعة إسماعيليين، فعُللت بالعداء بين بني بويه، حماة الخلافة العباسية، وآل سامان أمراء خراسان، وربما كان رواج أفكاره وبياناته ومواعظه عند العامة سبباً في هذا الإطراء الذي قد يكون موجهاً للولايات والناس(٥٠)، ولعل السبب الأبرز من ذلك، يعود إلى احتضان آل سامان له ورعايته وتكريمه، ويؤكد ذلك قيامه بتقديم النسخة الأولى من كتابه لهم، وجدير بالذكر أن المقدسي لم يكن مغالياً في تشيعه، فقد طالب بأن تحترم المذاهب جميعها في ظل الإسلام(٥١).

وقد تميز المقدسي أيضاً بثقافته الواسعة، ومعارفه المتنوعة، فقد كان ذا دراية تامة في دقائق العقائد والفرق بين المذاهب، كما كان يلم بأنواع مختلفة من العلوم الدينية والأدبية والاجتماعية كالفقه، والحديث، والقراءات، واللغة، والأدب، والتاريخ، والجغرافية(٥٢)، وكان أيضاً مشهوراً بحرفة البناء التي ورثها عن أسرته(٥٣)، وقد ذكر في كتابه أسماء كتب عديدة كان قد اطلع عليها أو اقتبس منها، ومن هذه الكتب: كتاب «دعائم الإسلام» للقاضي النعمان، وهو مجموعة قوانين فاطمية(٥٤)، وكتب البلاذري(٥٥) والشمشاطي(٥٦)، وأخبار البصرة المجهولة المؤلف(٥٧)، وكتب الجاحظ

وابن قتيبة[٥٨]، وكتب الجغرافيين المتقدمين عليه: (ابن خرداذبة، والجيهاني[٥٩]، والبلخي، وابن الفقيه الهمذاني، والكرخي الإصطخري)[٦٠]، كما اطلع على كثير من الكتب لم يذكرها صراحة، ولكنه أشار إليها من خلال أقواله: «قرأت»، و«وجدت في كتاب»[٦١].

٤) إسهام المقدسي في ميدان الجغرافية:

يكمن إسهام المقدسي في إتقانه نمط الجغرافية البشرية[٦٢]، وبرز هذا من خلال كتابه القيّم «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وهو خلاصة ما شاهده وعاينه في رحلاته وأسفاره الطويلة في ديار الإسلام، وقد دوّن ملاحظاته الكثيرة والعميقة، والمادة التي جمعها وفقاً لترتيب منظم[٦٣]، ولكتابه هذا أهمية كبيرة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية، وهو يعد أفضل ما خط في الجغرافية العربية، و«واحداً من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة»[٦٤]، وكان قد صنفه في مسودتين، أما الأولى، فتاريخها سنة ٣٧٥ هـ/ ٩٨٥ م، وقد رفعها لآل سامان في خراسان، أما الثانية، فكانت سنة ٣٧٨ هـ/ ٩٨٨ م، وقدمها للفاطميين في مصر[٦٥].

تحدث المقدسي في مقدمة كتابه عن سبب تأليفه، مشيراً إلى أن دافعه لتصنيفه يتمثل في «الرغبة في وضع عمل علمي أصيل يفوق به أسلافه في الوصول إلى ما يمكن تسميته بحق بالجغرافية الحقيقية»[٦٦]، فقد قال: «أما بعد فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم، وأقيم علماً أحيي به ذكري، ونفعاً للخلق أرضي به ربي»[٦٧].

وقال عن أهمية العلم الذي عالجه: «وعلمتُ أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبه العامة والرؤساء، وينتفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر»[٦٨]، وهكذا فإنه يكون علماً مفيداً لعدة طوائف من المجتمع، ومفيداً لأصحاب المهن المختلفة.

ورأى المقدسي أن الجغرافيا ليست علماً يحصل بالقياس، بل يحصل بالتجربة المباشرة والمعلومات المباشرة، لذلك لم يصنف كتابه إلا بعد أسفاره في أقاليم العالم الإسلامي، ودخوله في خدمة الملوك، وحضوره مجالس العلماء والقضاة والفقهاء والأدباء والقراء والمحدثين والزهاد والمتصوفين والقصاص والمذكرين، وكان خلال ذلك دائم الاشتغال بالتجارة(٦٩).

٥) منهج المقدسي:

اتبع المقدسي منهجاً يقوم على التدقيق في الملاحظة، والتمحيص فيما ينقل، وكان يعنى بالأخبار الطريفة والعادات الشاذة(٧٠)، وعن منهجه قال: «اعلم أني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة، وأسندته بدعائم قوية، وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب، وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، ويبلغني الرجاء والأمل، فأُعلي قواعده، وأرصف بنيانه بما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلّقته، وعليه رفعت البنيان، وعملت الدعائم والأركان، ومن قواعده وأركانه، وما استعنت به على تبيانه، سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس، عن الكور والأعمال في الأطراف التي بُعدت عنها، ولم يتقدّر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يكن بدٌّ من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقرّ في قلبي، ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا، وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك»(٧١).

وبذلك يكون قد استقى مادة كتابه من مصادر ثلاثة هي: المشاهدة والمعاينة، والناس ذوي الثقة الذين التقى بهم، والكتب التي اطلع عليها في خزائن الكتب التي زارها(٧٢)، وخصوصاً خزانة كتب عضد الدولة البويهي في شيراز، وكان زارها بعد وفاة مؤسسها سنة ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢ م، واطلع على الكتب فيها، ونقل عن بعضها، حيث كثيراً ما يورد «قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة»(٧٣)، كما رأى بعض الكتب الجغرافية في مكتبة القصر الساماني(٧٤).

وكان المقدسي باحثاً ناقداً، يأخذ بالعلم الذي يُكتسب من البحث والاستقصاء عن الشيء[٧٥]، ولذلك لم يسلك طريق الجغرافيين الذين تقدموا عليه، بل انتقد كتاباتهم الجغرافية التي اعتمدت على السماع في حين اعتمد هو في كتابه على رحلاته التي قام بها، قال: "اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب، وإن كانت مختلّة، غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم، ونحن لم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب"[٧٦]، فقد رأى أن كتاب ابن خرداذبة مختصر جداً، ولا يحصّل منه كثير فائدة[٧٧]، أما كتاب أبي عبد الله الجيهاني[٧٨]، فقد احتوى على جميع أصل كتاب ابن خرداذبة، وبناه عليه[٧٩]، وكان الجيهاني وزير أمير خراسان[٨٠]، وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة، «فجمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك إليها... ليتوصل بذلك إلى فتوح البلدان، ويعرف دخلها، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك... ولم يفصّل الكور، ولا رتب الأجناد، ولا وصف المدن، ولا استوعب ذكرها، بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار، وبذاك طال كتابه، وغفل عن أكثر طرق الأجناد، ووصف المدن الجياد»[٨١].

وأخذ المقدسي على أبي زيد البلخي أن كتابه، جاء مختصراً، إذ لم يذكر الأسباب المفيدة، ولا كثيراً من أمهات المدن، كما أنه لم يدوّخ البلدان ــ على حد قول المقدسي ــ ولم يطأ الأعمال[٨٢]، كما انتقد ابن الفقيه الهمذاني، فقال عنه: «لم يذكر إلا المدائن العظمى، ولم يرتب الكور والأجناد، وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، مرة يزهد في الدنيا، وتارة يرغب فيها، ودفعة يُبكي، وحيناً يُضحك ويُلهي»[٨٣].

وأكد المقدسي فضل كتابه، وتميزه عن كتب الجغرافيين المتقدمين، حيث أعرض عما ذكروه في تصانيفهم، ونظمه تنظيماً مبوباً، فجاء «يتيماً في نظمه»[٨٤]، هذا ويظهر من مقدمة كتاب المقدسي أيضاً أنه كان لديه وضوح في خطته حيث يقول: «وفي كتابنا

هذا اختصار لفظ يدل على معان، مثل: قولنا لا نظير له، نريد أن ليس مثله بتة،... فإن قلنا غاية، فإنها تعني في الجودة من الأجناس... فإن قلنا جيد، فقد يكون أجود منه،... وربما أجملنا القول، وتحته شرح»[٨٥]، وبذلك يكون المقدسي من "الجغرافيين العرب القلائل الذين يناقشون المصطلحات الجغرافية والمدلولات الخاصة لبعض العبارات والكلمات المستعملة"[٨٦].

أما لغة المقدسي وأسلوبه، فيظهر من كتابه إتقانه لناصية اللغة، غير أنه يؤخذ عليه لجوءه إلى الصنعة والسجع أحياناً، وميله إلى غريب اللغة حيث يحفل كتابه بالألفاظ الصعبة القليلة التداول[٨٧]، هذا وقد أشار إلى الاختلاف في استعمال الألفاظ الكتابية بين المناطق المختلفة، وذلك بقوله: «وسنتكلم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم، ونضرب من أمثالهم، لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم، فإن كنّا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب، تكلمنا بلغة الشام لأنها إقليمي الذي به نشأت... ألا ترى إلى بلاغتنا في إقليم المشرق لأنهم أصحُّ الناس عربية؛ لأنهم تكلّفوها تكلّفاً، وتعلّموها تلقُّفاً، ثم إلى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب وقبحه في ناحية البطائح، لأنه لسان القوم»[٨٨].

٦) محتوى كتاب أحسن التقاسيم وأهميته:

اقتصر المقدسي على وصف العالم الإسلامي، ولم يصف الممالك غير الإسلامية لأنه لم يدخلها، ولكن ذلك لم يمنعه من ذكر مواضع المسلمين فيها[٨٩]، وهكذا فإنه لم يرد لديه أية معلومات عن أوروبة الشرقية، أو سواحل البحر الأسود، ولكن وجود المسلمين في تلك الأصقاع، كان مما يدفعه أحياناً إلى الكلام عن البلغار والخزر[٩٠]، كما تحدث عن "القسطنطينية لأن للمسلمين بها داراً يجتمعون فيها، ويظهرون الإسلام بها"[٩١].

وألحق المقدسي بمقدمة كتابه عدة فصول، وهي تعد بمنزلة مدخل إليه، وعلى الرغم من طولها، غير أنها تتميز بالأصالة، ومن خلالها تظهر شخصيته واضحة للعيان، وهذه الفصول هي:

ـ وصف البحار والأنهار: وفيه ناقش باستفاضة عدد البحور، وحاول أن يثبت من القرآن الكريم، أن في العالم بحرين هما: البحر الصيني «المحيط الهندي» والبحر الرومي «البحر المتوسط»، مستنداً في ذلك إلى قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيَانِ بَينَهُمَا بَرزَخٌ لَّا يَبغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخرُجُ مِنهُمَا اللُّؤلُؤُ وَالمَرجَانُ﴾(٩٢)، وقد لقي هذا الرأي معارضة شديدة من العلماء(٩٣).

ـ ذكر الأسامي واختلافها: تحدث فيه عن الأماكن المختلفة التي يجمع بينها اسم واحد، والمكان الواحد الذي يحمل عدة أسماء(٩٤).

ـ ذكر الخصائص في الأقاليم: قدّم فيه وصفا موجزاً للأقاليم المختلفة(٩٥).

ـ ذكر المذاهب والذمة: عرض فيه وصفاً موجزاً عن الفرق والمذاهب الإسلامية، وكذلك أهل الذمة(٩٦).

ـ ذكر ما عاينتُ من الأسباب: عرض فيه للمغامرات التي عاناها خلال أسفاره وتنقلاته(٩٧)، ولا يخلو عرضه هذا من الفخر وتمجيد النفس، غير أن له أهمية كبيرة كونه يصوّر حياة المسلمين في ذلك العهد(٩٨).

ـ ذكر المواضع المختلف فيها: تحدث فيه عن الأماكن المختلف فيها والمجهولة(٩٩).

ـ باب اختصرناه للفقهاء(١٠٠): قدم فيه مختصراً شاملاً عن العالم الإسلامي، لينتفع به أولئك الذين يرغبون في أن يخرجوا بفكرة سريعة عن محتويات كتابه أو يتخذوه دليلاً لرحلاتهم، وفيه وضّح الفرق بين الأمصار والمدن والقصبات والقرى، قال: «اعلم أننا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجّالة»، ووضع تعريفاً لكل منها التزم به، «فالمصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلّدت منه الأعمال، وأضيف إليه مدن الإقليم مثل دمشق والقيروان وشيراز، وربما كان للمصر أو للقصبة نواح لها مدن...، ولا بد لكل إقليم من كور، ثم لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن»(١٠١).

ـ ذكر أقاليم العالم ومركز القبلة: ويدخل هذا الفصل ضمن الجغرافية الفلكية، وفيه تحدث عن الأقاليم السبعة العامرة المعروفة(١٠٢).

انتقل المقدسي بعد ذلك إلى وصف مملكة الإسلام، وقد قسمها إلى أربعة عشر إقليماً، جعلهما في قسمين، وذلك اعتماداً على أساس اللغة، وهذان القسمان هما: أقاليم العرب، وأقاليم العجم(١٠٣)، أما أقاليم العرب، فقد تحدث عنها وفقاً للتسلسل الآتي:

ـ جزيرة العرب.

ـ العراق.

ـ أقور «واسطة بين العراق والشام، يشمل أرض الجزيرة الفراتية وشمال العراق».

ـ الشام.

ـ مصر.

ـ المغرب «يشمل المغرب والأندلس والسودان».

وأنهى الحديث عن أقاليم العرب بذكر بادية العرب، وقد تحدث عنها مستقلاً، ومع نهاية الحديث عنها يكون قد تمَّ الجزء الأول من كتابه(١٠٤)، أما الجزء الثاني منه، فقد خصصه للحديث عن أقاليم العجم وفقاً للتسلسل الآتي:

ـ المشرق «خراسان، سجستان، وما وراء النهر».

ـ الديلم.

ـ الرحاب «الرّان، أرمينية، أذربيجان».

ـ الجبال «الري، همذان، أصفهان».

ـ خوزستان.

ـ فارس.

ـ كرمان.

ـ السند.

وأنهى المقدسي حديثه عن أقاليم الأعاجم بالحديث ــ مستقلاً ــ عن المفازة التي بين هذه الأقاليم(١٠٥)، وختم كتابه بقوله: «فهذا ما عرفنا من أقاليم الإسلام، وشاهدنا وسمعنا وصحّ عندنا من وصف البلدان، نسأل الله العفو والغفران إنه رحيم منّان»(١٠٦) وفي وداع كتابه، قال عن أهميته قصيدة، مطلعها:

كتاب كاللّآلئ والربيـــــع وكالعقيان والروضِ المريعِ

كذلك فيه ذكرُ الأرض طرّاً بديعــاً ثم سُمّي بالبديــعِ(١٠٧)

يلاحظ أن المقدسي قد خرج على ميثاق مدرسة البلخي، وذلك بتخفيض رقم العشرين جزءاً للعالم الإسلامي، حيث قسّمه فقط إلى أربعة عشر إقليماً، ويشكل كل إقليم كياناً طبيعياً وجغرافياً وتاريخياً(١٠٨)، وأكد الوحدة الجغرافية للعالم الإسلامي، وذلك بجعله الجزيرة العربية مركزه(١٠٩)، وتفوق على أسلافه الجغرافيين بدقة وصفه، وتقديمه صورة شديدة الوضوح، غنية المحتوى للعالم الإسلامي، تضمنت تدوينات دقيقة شاملة، عن جميع الجوانب الطبيعية، والاقتصادية، والاجتماعية، هذا ويلاحظ أن اهتمام المقدسي بالجوانب التي تتعلق بالنواحي الاجتماعية والإنسانية كان كبيراً جداً، ولذلك فهو يعد مؤسس الجغرافية البشرية الشاملة(١١٠).

وكان المقدسي في أثناء وصفه للبلدان المختلفة يحب الإشارة إلى وطنه فلسطين على سبيل المقارنة(١١١)، وقد عرض المادة التي قدمها في كتابه وفقاً لتنظيم دقيق على طول صفحات الكتاب، فالمادة التي قدّمها في وصفه لكل إقليم جاءت وفق مخطط متناسق، قدم فيها بداية لمحة إجمالية، ثم وصفاً مفصلاً للمدن الرئيسة، ثم مجملاً عن شؤون الإقليم، وبذلك فإن المادة التي قدمها عن كل إقليم تنقسم إلى ثلاثة أقسام غير متساوية الحجم، ففي القسم الأول تحدث عن أقسام الإقليم ومدنه والمواضع العامرة فيه، وتناول في القسم الثاني المناخ والزرع والطوائف واللغة والتجارة والأوزان، والنقود، والعادات، والمعادن، والمياه، والأماكن المقدسة، وأخلاق السكان، والتبعية السياسية للإقليم والخراج، أما القسم الثالث فقد تناول فيه ذكر المسافات،

وطرق المواصلات[١١٢]، وبذلك يكون المقدسي قد وسَّع موضوع الجغرافيا ليشمل موضوعات متنوعة: طبيعية واقتصادية واجتماعية وفكرية.

ومما هو جدير بالذكر أن المقدسي استهل كل فصل أوقفه للحديث عن إقليم من أقاليم العالم الإسلامي ببضعة أسطر وصف فيها ذلك الإقليم، وكذلك فعل في مطلع العرض الذي عنونه بـــ "جمل شؤون الإقليم"، وفيه عدد الخصائص الأساسية التي تتألف منها قسمات البلد الأصلية، ويتجلى إبداع المقدسي في تصويره الوضع الجغرافي للأقاليم، مثل قوله في إقليم الشام: "ووضع هذا الإقليم ظريف، هو أربعة صفوف: فالصف الأول يلي بحر الروم، وهو السهل....، والصف الثاني الجبل، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع....، والصف الثالث الأغوار ذات قرى وأنهار....، والصف الرابع سيف البادية..." [١١٣].

هذا وينفرد المقدسي ببعض المعلومات التي قدّمها، ولا ترد عند غيره لاسيما مثل حديثه عن ثغور فلسطين البحرية التي تمتد على شاطئ البحر ما بين قيسارية حتى غزة، إذ قال: "ولهذه القصبة [الرملة] رباطات على البحر، يقع بها النفير، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم معهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار، وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم، ويذهبون إليهم في الرسالات؛ ويُحمل إليهم أصناف الأطعمة، وقد ضُجّ بالنفير لمّا قَدُمتْ مراكبهم، فإن كان ليلاً أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهار دخّنوا، ومن كل رباط إلى القصبة عدة منائر شاهقة، قد رتّب فيها أقوام، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أُنفر بالقصبة وضرب الطبل على المنارة، ونودي إلى ذلك الرباط، وخرج الناس بالسلاح والقوة، واجتمع أحداث الرساتيق، ثم يكون الفداء، فرجل يشتري رجلاً وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يُشترى ما معهم. ورباطات هذه الكورة التي يقع بهن الفداء: غزة، ميماس، عسقلان، ماحوز، أزدود، ماحوز يبنا، يافه، أرسوف"[١١٤].

٧) أطلس المقدسي:

رسم المقدسي خريطة «أطلس» لدار الإسلام، صوّر فيها الأقاليم الإسلامية، وحدودها وخططها، مستخدماً الألوان لتمثيل الظواهر الجغرافية المختلفة، فميّز الطرق المعروفة بالحمرة، والرمال الذهبية بالصفرة، والبحار المالحة بالخضرة، والأنهار المعروفة بالزرقة، والجبال المشهورة بالغبرة[١١٥]، غير أن هذه الخريطة لم تصل إلينا، ويظهر أن المقدسي قد استفاد في تمثيله هذا من التصاوير المتقدمة، ومنها تصوير أبي زيد البلخي الذي جعل بحر الصين شبه طير منقاره بالقلزم، كما رأى تصوير هذا البحر في خزانة أمير خراسان، وفي نيسابور عند أبي القاسم بن الأنماطي، وفي خزانة عضد الدولة والصاحب، كما استفاد من دفاتر البحارة الذين ركب معهم في البحر الصيني على سواحل الجزيرة العربية[١١٦]، واستفاد أيضاً في رسم خريطته من آراء العارفين والحكماء، ففي عدن مثلاً التقى مع أبي علي بن حازم، وكان من أعلم الناس بالبحر الصيني، لأنه إمام التجار، ومراكبه دائماً تسافر فيه، فسأله عن صفة هذا البحر، فمسح ابن حازم الرمل بكفه، ورسم صورة البحر، موضّحاً معارجه المتلسنة، وشعبه العديدة[١١٧]، وفي أريحا، قال له غسان الحكيم: «ترى هذا الوادي، قلت: بلى، قال: هو يمدُّ إلى الحجاز ثم يخرج إلى اليمامة ثم إلى عُمان وهجر ثم إلى البصرة ثم إلى بغداد ثم يصعد إلى ميسرة الموصل إلى الرقة، وهو وادي الحر والنخيل»[١١٨].

٨) العلاقة التكاملية بين علم الجغرافية والتاريخ عند المقدسي:

لم يعرف علماء العرب والمسلمين تمييزاً كبيراً بين مهمة الجغرافي وهو يستطلع الواقع في مكان وزمن معين، ومهمة المؤرخ وهو يستطلع الماضي الذي يسجله مروراً في الزمان والمكان، لا بل كثيراً ما جمعوا بين الجغرافية والتاريخ، فالمؤرخ قد يستطرد أحياناً من تاريخ المكان إلى جغرافيته، والجغرافي قد يتحول ـــ

في سياق دراسته الجغرافية ــ من جغرافية المكان إلى تاريخه، ليسرد بعض الأحداث والأقاصيص التاريخية، على أن هذا الجمع لم يكن بدعة أو ناجماً عن خلل، بل كان نمطاً فكرياً جرى مجرى العرف السائد، ونشأ من الربط بين اهتمام الجغرافي بالمكان والتفاعل الحياتي فيه في الزمن المعين، وقد برز هذا النمط لدى كثير من الجغرافيين، حيث عرضوا في مؤلفاتهم الجغرافية بعض المعلومات التاريخية أثناء بحثهم في البلدان، وعدّوا ذلك عنصراً ضرورياً لأبحاثهم، وبذلك أصبحت الجغرافية تستقطب التاريخ، وتعده عنصراً ضرورياً في دراسة البلدان التي تعنى بها، وقد اشتهر بهذا النمط، الجغرافيون الذين كتبوا في الجغرافية الوصفية، ومنهم: المقدسي البشاري الذي كثيراً ما يتجاوز الحاضر في أثناء دراسته للبلدان، ليروي بعض الذكريات والأخبار من ماضي هذه البلدان، وهذا الماضي الذي يبدأ تاريخه بخلق الكون، ولكنه لم يحاول أن يقدم صورة متكاملة لماضي هذه البلدان، بل كانت رؤيته اصطفائية، حيث اقتصرت على عرض بعض الرجال العظام من أنبياء وملوك وفاتحين وأحداث مهمة، هذا ويمكن تقسيم الأخبار التي عرضها إلى قسمين هما: الأخبار التي تخص تاريخ ما قبل الإسلام، والأخبار التي تخص التاريخ الإسلامي، وفيما يلي موجز عن الأخبار التي عرضها:

أولاً ــ الأخبار التي تخص تاريخ ما قبل الإسلام: فمنها ذكره لأسماء أنبياء قدامى، وللعديد من الحضارات القديمة، ومن بنى العديد من المدن، ففي جزيرة العرب تعاقبت الحضارات اليمنية القديمة، وكان فيها قبائل عاد وثمود، والنبيان هود وصالح عليهما السلام[١١٩]. وفي العراق ولد إبراهيم عليه السلام، وأوقدت ناره بقرية كوثا، وفي الكوفة بنى نوح عليه السلام سفينته، واتجه بها إلى إقليم أقور حيث استقرت على الجودي، فسكن أهلها هناك، وبنوا قرية ثمانين[١٢٠]، "وكانت أول قرية بعد الطوفان، بناها نوح بعددهم، لكل رجل ممن معه بيت، فهي أول مدينة بنيت بالجزيرة"[١٢١].

كذلك كان بالعراق قبر يونس عليه السلام، وفي إقليم أقور تاب الله على قوم يونس، وأنبت له شجرة اليقطينة(١٢٢).

واشتهرت بلاد الشام بأنبيائها، وكثرة المشاهد الشريفة والمقدسة فيها، فهي – على حد تعبير المقدسي – "إقليم جليل الشأن، ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلاء، ومطلب الفضلاء، به القبلة الأولى، وموضع الحشر والمسرى، والأرض المقدّسة، والرباطات الفاضلة، والثغور الجليلة، والجبال الشريفة"(١٢٣)، ففيه ضياع أيوب ودياره، ومحراب داود، وعجائب سليمان، وتربة إسحاق، ومولد المسيح، وقرية طالوت، ومقتل جالوت، وجب أرميا، ومحراب زكريا، ومنازل يعقوب، ووادي كنعان، وقريات لوط، وبقية مدائن لوط، وقصر جالوت، وقبر أوريّا،...وغيرها(١٢٤)، كذلك أشار إلى بناء بعض المدن بهدف إبراز قدسيتها، فدمشق بناها دمشق بن قاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام قبل مولد إبراهيم بخمس سنين، أما تدمر، فهي على مثل كرسي من مدن سليمان بن داود(١٢٥).

أما إقليم مصر، فقد عمرّه أحد أحفاد نوح عليه السلام، وفيه كان فرعون، وعاش موسى ويوسف عليهما السلام، وإليه هاجرت مريم بعيسى عليه السلام(١٢٦). وعمّر إقليم المشرق أخوان هما: هيطل وخراسان ابنا عالم بن سام بن نوح(١٢٧)، وانحدر من ذرية نوح كل من أهل أرمينية وأذربيجان من إقليم الرحاب، وأهل همذان من إقليم الجبال(١٢٨). وفي إقليم خوزستان قبر دانيال في نهر خلف مدينة السوس(١٢٩). واشتهر إقليم فارس بمدنه التي عمرّها أولاد فارس أمثال: جند يسابور، وأرجان، وأردشيرخرة، ودرابجرد، وشيراز، وإصطخر وغيرها(١٣٠).

وذكر المقدسي بعض الوجوه البارزة في التاريخ القديم، فكان منها الإسكندر ذو القرنين الذي أسس مدينة الإسكندرية في مصر، ورسم مدينة مرو الشاهجان في إقليم المشرق(١٣١).

ثانياً ــ أخبار التاريخ الإسلامي: أشار المقدسي إلى فتوح قاشان من إقليم الجبال، وفتوح أرجان من إقليم فارس[١٣٢]، وتحدث عن بعض المنجزات الحضارية العائدة للتاريخ الإسلامي، فكان منها بناء العديد من المدن الجديدة أمثال: الكوفة، والبصرة، وبغداد، وسامراء، والقاهرة، وعسكر مكرم من إقليم خوزستان، وغيرها[١٣٣]، كذلك تحدث عن بناء بعض المساجد والجوامع، أمثال: الجامع الأموي بدمشق، والجامع السفلاني، والجامع الفوقاني في الفسطاط[١٣٤]، وكان من الأبنية التي تحدث عنها أيضاً: بناء ميناء عكا وتحصينه[١٣٥]، وبناء عضد الدولة البويهي لبيمارستان في بغداد، ودارٍ كبيرة ومكتبة في شيراز[١٣٦]، وتحدث عن الفتح الإسلامي لخراسان واعتناق أهلها الإسلام، وأسباب اتخاذ خراسان مركزا للثورة العباسية[١٣٧]، وقدم قائمة بأسماء الخلفاء العباسيين والقضاة في عهد كل منهم، وذلك منذ قيام الخلافة العباسية حتى عهد الخليفة الطائع (٣٦٣- ٣٨١ هـ/ ٩٧٤- ٩٩١ م)، كذلك عرض لبني بويه والأمراء الذين تسلطوا منهم على خلفاء بغداد حتى عصره[١٣٨]. هذا ولم يقتصر المقدسي على سرد بعض الأخبار التاريخية، ووصف الحاضر الذي شاهده، بل تجاوزهما أحياناً ليتحدث عن المستقبل من مثل قوله إن أرض الساهرة في بيت المقدس هي أرض القيامة البيضاء، وإنه في آخر الزمان على باب كنيسة اللّد في فلسطين، يقتل عيسى الدجال[١٣٩].

وفيما يلي لن يكون الحديث عن أهمية الأخبار التاريخية التي سردها المقدسي، ومدى صحتها مقارنة بما يرد في الكتب التاريخية، بل سوف يكون عن أهميتها بالنسبة لجغرافية المقدسي، والواقع مع أن هذه الأخبار لا تشكل فقرة مستقلة مروية في جغرافية المقدسي، لأنها جاءت استطراداً في أثناء بحثه في البلدان، غير أنها لم تشكل انقطاعاً في جغرافيته، ويظهر أنه عرضها لأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأنسجة البلدان وحياتها، وقد أضفت هذه الأخبار نوعاً من الحيوية والديناميكية على جغرافية المقدسي، وجعلتها بعيدة عن الوصف الجامد للبلدان.

٩) خاتـمة:

من خلال ما تقدم تبين أن المقدسي البشاري، كان جغرافياً بارعاً، تميز بالأصالة وقوة الإبداع والابتكار في زمانه، إذ دوّن في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" خلاصة مشاهداته وتجاربه التي اكتسبها من أسفاره في كثير من الأقاليم والممالك والبلدان، وقد صنفه وفق منهج دقيق، وتنظيم مبوب، وفيه وسّع موضوع الجغرافية ليشمل موضوعات متنوعة، فعرض فيه مادة غنية وقيّمة طبيعية واقتصادية واجتماعية وفكرية، وقدم خلال وصفه لكل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي صورة مفعمة بالحيوية ونابضة بحركة الحياة، فتحدث عن أقسام الإقليم والمدن والمواضع العامرة فيه، والمناخ والزراعات والحرف والتجارات والأوزان والمكاييل، والنواحي العمرانية والمرافق العامة في المدن، كما عرض لكثير من المظاهر الاجتماعية كالطعام والشراب والأعياد والعادات والتقاليد، ووصف الطرق والمسافات، كما تحدث عن بعض الجوانب العلمية وغيرها من الأمور التي شاهدها، فقدم بذلك معلومات ثمينة ونادرة قلّ أن تتوافر في غيره من المصادر، لذلك فهو يُعد من أفضل وأهم مؤلفات الأدب الجغرافي العربي، ومن ذخائر التراث العربي القيّمة جداً، ومصدر لا غنى عنه للدراسات التاريخية الإسلامية، إذ يشكل مصدراً أساسياً لمعرفة أحوال العالم العربي الإسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، نظراً لما يرد فيه من المعلومات القيمة والثمينة، فيما يتعلق بالجغرافية التاريخية المتعلقة بالبلدان، خصوصاً في الجوانب الحضارية: الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

كذلك جمع المقدسي في كتابه بين علم الجغرافية والتاريخ، فمزج بين وصف البلدان والشعوب، وتاريخ تلك البلدان وشعوبها، إذ كثيراً ما استطرد في جغرافيته الوصفية ليسرد بعض الأحداث التاريخية، مما أضفى على جغرافيته نوعاً من الحيوية والديناميكية، وجعلها بعيدة عن الوصف الجامد للبلدان.

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) كحاله، عمر رضا، التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، دمشق، المطبعة التعاونية، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م، ص ٢١٥ ـ ٢١٧؛ زيادة، نقولا، الرحالة العرب، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢ م، ص ٢٩٧.

(٢) حميدة، عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ٤٨.

(٣) البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل (ت ٣٢٢ هـ/ ٩٣٣ م): عالم وكاتب فاضل من أبناء بلخ، برع في علوم الشريعة والفلسفة والأدب والفنون، وصنف تصانيف كثيرة، وقد نحا فيها منحى الفلاسفة، ومن مصنفاته: "كتاب السياسة الكبير"، و"كتاب شرائع الأديان"، و"كتاب أقسام العلوم"، وله مصنف جغرافي بعنوان "صور الأقاليم"، وهو كتاب في المسالك والممالك والجغرافية، وفيه سبق علماء البلدان في الإسلام كافة إلى استعمال رسم الأرض؛ النديم، محمد ابن إسحاق (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م)، الفهرست، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م، ص ٢٢٢-٢٢٤؛ الإيبش، أحمد، الشهابي، قتيبة، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨ م، ج ١، ص ١١٩-١٢٠.

(٤) كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ٢١٢ـ ٢١٤؛ كرامرز، جُغرافيا، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنجليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣ م، مج ٧، ص ١٨ـ ١٩.

(٥) الإصطخري: إبراهيم بن محمد الفارسي أبو إسحاق الإصطخري، ويقال له الكرخي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م): جغرافي مشهور، يعد أول ممثل حقيقي لنمط المسالك والممالك، ألف جغرافية شاملة لدار الإسلام، عنون كتابه باسم «المسالك والممالك»؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص٢١٥؛ ميكيل، اندريه، جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة: إبراهيم الخوري، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٣ م، ج١، قسم ١، ص٥٣.

(٦) ابن حوقل، محمد بن علي بن حوقل البغدادي الموصلي أبو القاسم النصيبي(ت، بعد ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م): رحالة جغرافي، من أبناء نصيبين في شمال بلاد الشام، امتهن التجارة أثناء رحلاته لدراسة الأقاليم، وطبائع الشعوب، وتدوين ما يتعرف إليه، اشتهر بكتابه الذي حمل اسم: «كتاب المسالك والممالك» أو «كتاب صورة الأرض»؛ ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨م، مج ١٠، ص ٤٦٧٢؛ أرندنك، فان، ابن حوقل، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنجليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣ م، مج ١، ص ١٤٥؛ الإيبش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ١٩١؛ حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٣٩.
Le Strange, Guy, Palestine Under the moslems, beirut, ١٩٦٥, p٥.

(٧) ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله أبو القاسم (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م): مؤرخ جغرافي، كان إماماً في التأليف، وبارعاً في التصنيف، حيث صنف كتباً عديدة منها: كتاب "المسالك والممالك"، و"كتاب كبير في التاريخ"، و"جمهرة أنساب الفرس"؛ المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى

ط ١، ١٤٢٢ هـ.، ج١، ص ١٤؛ ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت، ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م)، المسالك والممالك، إعداد وتقديم: خير الدين قبلاوي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩ م، مقدمة المحقق، ص ٥- ١١.

(٨) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الإخباري (ت ٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م): مؤرخ جغرافي، تميز بأسفاره الواسعة، ومن مصنفاته: كتاب التاريخ"، و"كتاب البلدان"؛ الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م، مج ٢، ص ٨٢؛ الإيبش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ١٠٧-١٠٨.

(٩) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م): عالم مشهور من أبناء البصرة، يعد من أئمة الأدب العربي في العصر العباسي، صنف مصنفات مهمة، ومن أبرزها: "كتاب الحيوان"، و"كتاب البيان والتبيين"؛ النديم، الفهرست، ص٢٩١-٢٩٦؛ ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د. ت)، مج ٣، ص ٤٧٠-٤٧٥.

(١٠) ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمذاني (ت ٣٤٠ هـ/ ٩٥١ م): أصله فارسي، وهو أحد أهل الأدب، صنف حوالي ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م نوعاً من الموسوعة الثقافية العامة لعصره، اسماها "كتاب البلدان" نحو ألف ورقة، أخذه من كتب الناس، وسلخ كتاب الجيهاني، ومن مؤلفاته أيضاً: "كتاب الشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفحمين"؛ النديم، الفهرست، ص٢٤٧؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ١، ص ٦٠١-٦٠٢؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم١ ، ص ٣٦.

(11) قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب، أبو الفرج (ت ٣٣٧ هـ/ ٩٤٨ م): كان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ببغداد، صنف كتباً متعددة أبرزها: "كتاب الخراج وصناعة الكتابة"؛ النديم، الفهرست، ص ٢٠٩؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ٥، ص ٨ ــ ٩.

(12) علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت بمصر ٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م): مؤرخ مشهور، تميز بمعلوماته الموسوعية، ومصنفاته المهمة، وأبرزها: كتاب "مروج الذهب"، و"التنبيه والإشراف"؛ الحموي، معجم الأدباء، مج٤، ص ٤٨ــ ٥٠؛ الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣ م، مج ٣، ص ١٢- ١٣.

(13) الخطيب، نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب «تصور ومنهج»، بيروت، شركة النعمات التجارية، ط ١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م، ص ٣٠٩- ٣١٠؛ الفندي، جمال، الجغرافيا عند المسلمين، كتب دائرة المعارف الإسلامية/٩/، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٢ م، ص ١١٢-١١٣.

(14) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ١، ص ٦٠.

(15) زيادة، الرحالة العرب، ص ٢٩٨؛ متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩ م، ج ٢، ص ٧.

(16) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨.

(17) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ١، ص ٦٠.

(18) كرامرز، جُغرافيا، مج ٧، ص ٢١.

(19) تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٣٥.

[٢٠] الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط٢، ١٩٩٥م، مج١ ، ص ١١، ١٤٣، ٤٤٠؛ مج ٣، ص١٧٢، ٢٤١، ٤١١؛ مج٤، ص١٤٣، ٢٧٥؛ مج٥، ص١٦٨؛ ومن المصادر التي نقلت عن المقدسي البشاري أيضاً: ابن العديم، بغية الطلب، مج ١، ص ١٤٩- ١٥٠.

[٢١] هناك طبعتان متداولتان من كتاب المقدسي: أما الطبعة الأولى فهي طبعة ليدن عام ١٩٠٦ م، وهي المعتمدة في البحث، والطبعة الثانية هي طبعة بيروت، دار إحياء التراث العربي، عام ١٩٨٧، وهي بتحقيق د. محمد مخزوم.

[٢٢] ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٢٥.

[٢٣] كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٨؛ الإيبش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ٢٠٩؛ -Le Strange, Palestine, p٥.

[٢٤] المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري (ت نحو ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦ م، ص ٨- ٩.

[٢٥] المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٦٣؛ الحموي، معجم البلدان، مج ٤، ص ١٤٣- ١٤٤.

[٢٦] المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٥٥، ٣٦٧.

[٢٧] المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٢٢، ٤٤٠.

[٢٨] المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٣ ــ ٤٥.

[٢٩] المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤١٥.

[٣٠] المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٦٩ــ ٣٧٠؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٢٦ ــ ١٢٧.

(٣١) انظر على سبيل المثال الفصل الذي عقده بعنوان «ذكر ما عاينت من الأسباب»، وفيه تحدث عن مغامراته وأسفاره، دون أن يحدد أي تاريخ؛ أحسن التقاسيم، ص ٤٣- ٤٥.

(٣٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٠١، ٢٢٣ «الحواشي»، ٢٣٥ ـــ ٢٣٦.

(٣٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٢٦.

(٣٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٨- ٩.

(٣٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٨٨، ٣٧٠، ٤١٠.

(٣٦) الفرسخ: وحدة من مقاييس الطول، يتألف من ثلاثة أميال، وكل ميل يساوي /١٠٠٠/ باع، وكل باع يتألف من أربعة أذرع شرعية، أي أن طول الفرسخ كان حوالي ستة كيلو متر؛ هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة: كامل العسلي، عمّان، الجامعة الأردنية، ط ٢، (د.ت)، ص ٩٤.

(٣٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٠، ٢٤٨.

(٣٨) معجم البلدان، مج ١، ص ٤٤٠.

(٣٩) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ١، ص ٦٠؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإمارات العربية المتحدة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، ج ٣١، «مادة المقدسي»، ص ٩٥٧٩؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٩٩ م، ج ٥، ص ٣١٢.

(٤٠) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٩.

(٤١) البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م، ج ٢، ص ٥٦-٥٧.

(٤٢) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٨؛ حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣ م، ج٢، ص ٢٠١؛ بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: السيد يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥ م، ج ٤، ص ٢٥٣.

(٤٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٤.

(٤٤) دي بور، ت. ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، نقله إلى العربية وعلّق عليه: محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ٥، ١٩٨١ م، ص ١٣٨.

(٤٥) حسن، الرحالة المسلمون، ص ٤٢؛ حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢١٠؛ الإيبش، الشهابي، دمشق الشام، ج ١، ص ٢١١.

(٤٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٣ ــ ٤٥.

(٤٧) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٢٩.

(٤٨) ميكيل، المرجع نفسه، ج ١، قسم ٢، ص ١٢٩؛ حتي، تاريخ سورية، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٤٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦، ١٩٣، ١٩٧، ١٩٩، ٢١٢.

(٥٠) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٣٠ ــ ١٣١.

(٥١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٦٥، «قال: وأنا عازم على أن لا أطلق لساني في أمة محمد ﷺ، ولا أشهد عليهم بالضلالة ما وجدت إلى ذلك طريقاً».

(٥٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣ ــ ٥، ٣٧ ــ ٤٣، ١٢٧، ١٤٢ ــ ١٤٤، ٢٠٢ ــ ٢٠٣، ٢٣٦ ــ ٢٣٧، ٣٦٥ ــ ٣٦٧، ٤١٥.

(٥٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٤٠.

(٥٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٣٨؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٣٥؛ القاضي النعمان، أبوحنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون (ت ٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م) : من أئمة الإسماعيلية، كان مقرباً من

الخليفة الفاطمي المعز، ورافقه لمّا انتقل من إفريقية إلى الديار المصرية، كان عالماً بالدين والفقه واللغة والشعر ومعاني القرآن، صنف عدة تصانيف، منها: "اختلاف أصول المذاهب"، و"ابتداء الدعوة للعُبيديين"، و"الأخبار في الفقه" وغيرها؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٥، ص ٤١٥-٤١٦.

(٥٥) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م): مؤرخ وشاعر وراوية نسابة من أبناء بغداد، من مؤلفاته: " كتاب البلدان الكبير"، و"كتاب البلدان الصغير"، و"كتاب أنساب الأشراف"؛ النديم، الفهرست، ص١٨٠-١٨١؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ٢، ص ٤٨-٥٤.

(٥٦) الشمشاطي، علي بن محمد العدوي (ت بعد ٣٩٤ هـ/ ١٠٠٣ م): شاعر ومصنف وراوية أخبار، أصله من شمشاط في بلاد أرمينية من الثغور، صنف تصانيف مختلفة، منها: "كتاب الأنوار"، و"كتاب أخبار أبي تمام والمختار من شعره"، و"كتاب الديارات"، واختصر تاريخ الطبري، وزاد عليه؛ النديم، الفهرست، ص ٢٤٨، ٣٨٦؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ٤، ص ٢٨٢-٢٨٥.

(٥٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢٠- ١٢١، ١٢٥، ٣١٣.

(٥٨) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م): عالم باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، ولد بالكوفة، وسكن في بغداد، وتولى قضاء الدينور ولذلك عرف بالدينوري، كان كثير التصنيف والتأليف، ومن مؤلفاته: "كتاب المعارف"، و"أدب الكاتب"، و"عيون الأخبار"، و"غريب الحديث" وغيرها؛ النديم، الفهرست، ص ١٢٣-١٢٤؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٣، ص ٤٢-٤٣.

(٥٩) الجيهاني: محمد بن أحمد بن نصر، وقيل أحمد بن محمد بن نصر، أبو عبد الله: وزير أمير خراسان نصر بن أحمد الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ/ ٩١٤-٩٤٣ م)، كان مهتماً بالجغرافية، وراعياً للمهتمين بها، صنف حوالي سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م

"كتاب المسالك والممالك"، وله من الكتب أيضاً: "كتاب آيين"، و"كتاب العهود والخلفاء"، و"كتاب الزيادات في كتاب الناشئ من المقالات"؛ النديم، الفهرست، ص٢٢٢؛ الحموي، معجم الأدباء، مج ١، ص ٥٩٦-٥٩٧؛ حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٩ هـ ـ ٢٠٠٨ م، ج ٣، ص ٢٤٣؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ١، ص ٣٨.

(٦٠) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣ ـ ٤، ١٤، ١٨٩، ٢١٠ ـ ٢١٢، ٢٤١، ٢٩٣، ٤٤٧، ٤٧٥ ـ ٤٧٧.

(٦١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣٣، ١٥٩ ـ ١٦٠، ٢٣٨، ٢٥٨، ٢٩٤، ٤٤٨.

(٦٢) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٣٦؛
Gibb, h.a.r. arabic literature, London, oxford university, second edition, ١٩٦٣, p٨٤.

(٦٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٩٥؛ سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص ١٩١؛ Le Strange, Palestine, p٦.

(٦٤) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٢٧.

(٦٥) كراتشكوفسكي، المرجع نفسه، ص ٢٢٨ـ ٢٢٩؛ كرامرز، جُغرافيا، مج٧، ص ٢١؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ص ٢٥٤؛ كحالة، التاريخ والجغرافية، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٦٦) موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣١، «مادة المقدسي»، ص ٩٥٨٠.

(٦٧) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١.

(٦٨) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢.

(٦٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢.

(٧٠) حسن، الرحالة المسلمون، ص ٤٣؛ سالم، التاريخ والمؤرخون، ص ١٩٢.

(٧١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣.

(٧٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٧٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣٣، ١٥٩، ٢٥٨، ٢٩٤، ٤٤٨ ـ ٤٤٩؛ عضد الدولة: أبو شجاع فنّاخسرو بن ركن الدولة البويهي (ت ٣٧٢ هـ/ ٩٨٢ م)، أبرز أمراء بني بويه، حكم في العراق خمس سنين ونصف، كان محباً للعلوم وأهلها ومقرباً لهم، فقصده فحول الشعراء في عصره؛ ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت، ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤ م، ج ٧، ص ٣٨٨؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ٤، ص ٥٠-٥٥.

(٧٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٠.

(٧٥) دي بور، تاريخ الفلسفة، ص ١٣٨.

(٧٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٣.

(٧٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤- ٥.

(٧٨) تقدم التعريف بالجيهاني في الحاشية رقم (٥٩)، أما السؤال هل صنف الجيهاني بأمر من الأمير نصر بن أحمد الساماني أم باجتهاد شخصي؟ فهذا ما لم يرد صراحة في المصادر المتوافرة التي ترجمت له وذكرته، ولكن الدراسات تختلف حول التاريخ الذي وضع فيه الجيهاني كتاب "المسالك والممالك"، فقيل إنه صنفه في حوالي سنة ٢٨٧ هـ/ ٩٠٠ م، وقيل بين سنتي ٢٧٩ و٢٩٥ هـ/ ٨٩٢ و٩٠٧ م، وهناك من رجح أنه وضع قبل سنة ٣١٠ هـ/ ٩٢٢م؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٣٩؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ١،

ص ٣٨. وإذا ما صح أنه وضعه في أيام وزارته للأمير نصر بن أحمد الساماني، وكان قد تولى ذلك المنصب في سنة ٣٠١ هـ/ ٩١٤ م، فالراجح أنه وضعه من أجل تيسير الواجبات المنوطة به بحكم تولية الوزارة والإشراف على إدارتها المختلفة.

(٧٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤١.

(٨٠) أمير خراسان هو: نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني (٣٠١-٣٣١ هـ/ ٩١٤-٩٤٣ م)، بويع بالحكم بعد مقتل والده، وعمره ثماني سنوات، ولقب بالسعيد، فتولى تدبير دولته الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني الذي ضبط الأمور، وكان شأن الأمير السعيد في البداية ضعيفاً، حيث ظهرت الفتن في كل مكان، وثار عليه عم أبيه إسحق بن أحمد في سمرقند وابنه منصور بن إسحق في نيسابور، غير أن جيوش السعيد تمكنت من القضاء على حركتيهما، فصفت كل خراسان وماوراء النهر للأمير السعيد، واستمر حكمه حتى سنة ٣٣١ هـ/ ٩٤٣ م، فخلفه ابنه نوح بن نصر؛ النرشخي، محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩ م)، تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وقدم له وحققه وعلق عليه: أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، (د.ت)، ص ١٣٣-١٣٤.

(٨١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣- ٤.

(٨٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤.

(٨٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤.

(٨٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٤١.

(٨٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٦- ٧.

(٨٦) الفندي، الجغرافيا عند المسلمين، ص ١٣٣.

(٨٧) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٣٤- ٢٣٥.

(٨٨) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٢.

(٨٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٩.

(٩٠) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٣٠- ٢٣١؛ الكيلاني، شمس الدين، صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤ م، ص ٢٩٢.

(٩١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٤٧.

(٩٢) القرآن الكريم، سورة الرحمن، الآيات (١٩- ٢٢).

(٩٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٦- ١٩؛ متز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٨.

(٩٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢٤- ٣٠.

(٩٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص٣٢- ٣٤

(٩٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص٣٧- ٤٣.

(٩٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص٤٣- ٤٥.

(٩٨) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٣١.

(٩٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٦.

(١٠٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص٤٧- ٥٧.

(١٠١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٧.

(١٠٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٥٨- ٦٢.

(١٠٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٩.

(١٠٤) يأخذ الحديث عن أقاليم العرب من ص ٦٧ إلى ٢٥٦.

(١٠٥) يأخذ الحديث عن أقاليم العجم من ص ٢٥٧ إلى ٤٩٥؛ (المفازة: هي منطقة صعبة المسالك، تغلب عليها الطبيعة الصحراوية، حيث لا ماء فيها، وهي قليلة السكان).

(١٠٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٤٩٦.

(١٠٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٩٧.

(١٠٨) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٣٦؛ الكيلاني، صورة أوروبا، ص ٢٩١.

(١٠٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٦٧؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣١، «مادة المقدسي»، ص ٩٥٨١.

(١١٠) ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٤٠.

(١١١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٢١- ١٢٣، ١٦٦، ١٩٨، ٣١٣.

(١١٢) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١، ص ٩٥؛ كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ٢٣٣- ٢٣٤؛ فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤م، ص ١٩٧؛ ميكيل، جغرافية دار الإسلام، ج ١، قسم ٢، ص ١٣٩؛ موجز دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣١، «مادة المقدسي»، ص ٩٥٨٢.

(١١٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٦.

(١١٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٧٧.

(١١٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٩.

(١١٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٠.

(١١٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١١.

(١١٨) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٧٩.

(١١٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٦٧، ٨٤.

(١٢٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢١-١٢٢، ١٣٠، ١٣٦.

(١٢١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(١٢٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣٠، ١٣٦.

(١٢٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٥١.

(١٢٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٥١، ١٦٠-١٦١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٨.

(١٢٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٥٦، ١٥٩.

(١٢٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٩٣، ٢٠٩-٢١٢.

(١٢٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٦١.

(١٢٨) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٧٤-٣٧٥، ٣٨٦.

(١٢٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٢، ٤٠٧-٤٠٨، ٤١٧.

(١٣٠) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٤٠٥، ٤٢١-٤٢٦.

(١٣١) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٩٧، ٢٩٨.

(١٣٢) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٣٩٠، ٤٢٥.

(١٣٣) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١١٦-١١٧، ١١٩-١٢٢، ٢٠٠، ٤٠٩.

(١٣٤) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٥٧-١٥٨، ١٩٩.

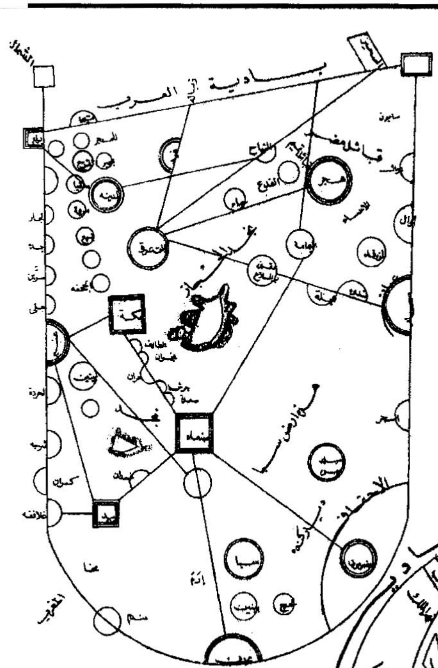
(١٣٥) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(١٣٦) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٢٠، ٤٤٩.

(١٣٧) المقدسي، المصدر نفسه، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(١٣٨) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٣١-١٣٣.

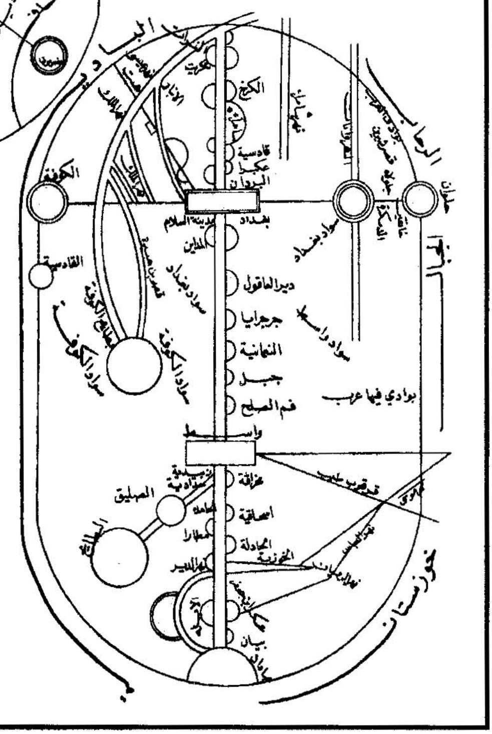
(١٣٩) المقدسي، المصدر نفسه، ص ١٦٦، ١٧٢، ١٧٦.



صورة ديار العرب

للمقدسي حوالي سنة ٣٧٥هـ - ٩٨٥م

خريطة ٥

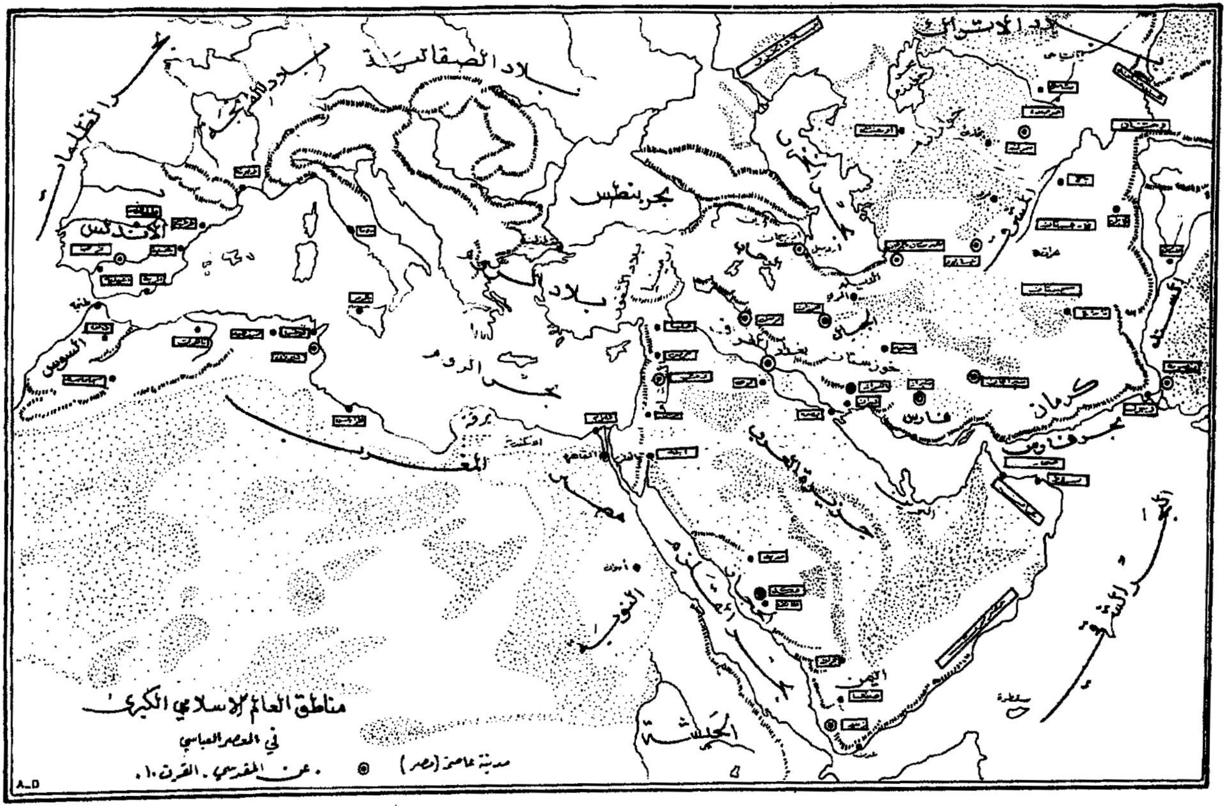


صُورة العراق

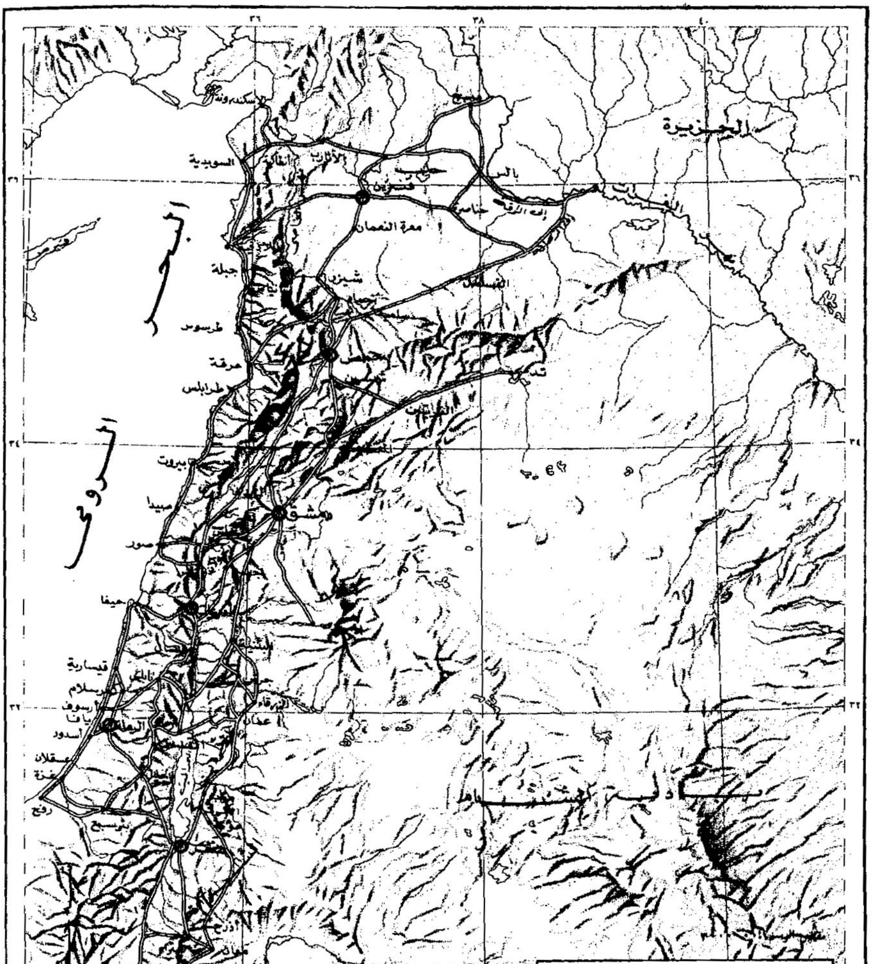
للمقدسي حوالي سنة ٣٧٥ هـ - ٩٨٥م

جزء ٣، لوحة ١٨

خريطة ٦



مناطق العالم الإسلامي الكبرى
في العصر العباسي
عن المقدسي . القرن ١٠ .
مدينة عاصمة (مصر)
بلاد الصقالبة
بحر بنطس
الأندلس
بحر الروم
المغرب
مصر
النوبة
الحبشة
اليمن
كرمان
فارس
خوزستان
بغداد
الجبال
برقة


طرق المواصلات ومراكز التجارة
في بلاد الشام في العصر العباسي
كما ورد عند المقدسي
قصبات الكور.
المدن والقرى الكبرى
الطرق.
الجزيرة
السويدية
قنسرين
معرة النعمان
جبلة
طرسوس
عرقة
طرابلس
بيروت
صيدا
دمشق
صور
حيفا
قيسارية
يافا
أسدود
عسقلان
غزة
رفح
عمان
بادية الشام
البحر
الرومي

المصادر والمراجع:

أولاً – المصادر:

١- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م)، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ط ٤، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤ م.

٢- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م)، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

٣- الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م)، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ م.

٤- ــــــــــ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ط ٢، ١٩٩٥م.

٥- ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت، ٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، المسالك والممالك، إعداد وتقديم: خير الدين قبلاوي، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٩ م.

٦- ابن خلكان، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت، ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، (د.ت).

٧- ابن العديم، عمر بن أحمد بن أبي جرادة (ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٨ م.

٨- الكتبي، محمد بن شاكر (ت ٧٦٤ هـ/ ١٣٦٢ م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٣ م.

٩- المسعودي، علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، بيروت، انتشارات الشريف الرضى، ط١، ١٤٢٢ هـ.

١٠- المقدسي، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المعروف بالبشاري (ت، نحو ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٠٦ م.

١١- النديم، محمد بن إسحاق (ت ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠ م)، الفهرست، ضبطه وشرحه وعلّق عليه وقدّم له: يوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ٢، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢ م.

١٢- النرشخي، محمد بن جعفر (ت ٣٤٨ هـ/ ٩٥٩ م)، تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وقدم له وحققه وعلق عليه: أمين عبد المجيد بدوي، نصر الله مبشر الطرازي، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، (د.ت).

ثانياً – المراجع العربية:

١- الإيبش، أحمد، قتيبة الشهابي، دمشق الشام في نصوص الرحالين والجغرافيين والبلدانيين العرب والمسلمين، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٨ م.

٢- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين «أسماء المؤلفين وآثار المصنفين»، اعتنى به: محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٩ هـ/ ٢٠٠٨ م.

٣- حسن، زكي محمد، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

٤- حميدة، عبد الرحمن، أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ م.

٥- الخطيب، نشأت، التاريخ والمؤرخون العرب «تصور ومنهج»، بيروت، شـركة النعمات التجارية، ط ١، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

٦- الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، دار العلم للملايين، ط ١٤، ١٩٩٩ م.

٧- زيادة، نقولا، الرحالة العرب، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢ م.

٨- سالم، السيد عبد العزيز، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

٩- فروخ، عمر، تاريخ العلوم عند العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٨٤ م.

١٠- الفندي، جمال، الجغرافيا عند المسلمين، كتب دائرة المعارف الإسلامية /٩/، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٢ م.

١١- كحاله، عمر رضا، التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، دمشق، المطبعة التعاونية، ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

١٢- الكيلاني، شمس الدين، صورة أوروبا عند العرب في العصر الوسيط، دمشق، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤ م.

١٣- موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإمارات العربية المتحدة، مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط ١، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨ م، ج ٣١، «مادة المقدسي».

ثالثاً - المراجع المترجمة والأجنبية:

١- أرندنك، فان، ابن حوقل، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنجليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣م، مج ١.

٢- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج ٤، ترجمة: السيد يعقوب بكر، رمضان عبد التواب، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٥ م.

٣- حتي، فيليب، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، بيروت، دار الثقافة، ١٩٨٣ م.

٤- دي بور، ت. ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، نقله إلى العربية وعلّق عليه: محمد عبد الهادي أبو ريدة، بيروت، دار النهضة العربية، ط ٤، ١٩٨١ م.

٥- كراتشكوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٧ م.

٦- كرامرز، جُغرافيا، دائرة المعارف الإسلامية، مترجمة عن الأصلين الإنجليزي والفرنسي، أصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي وآخرون، بيروت، دار المعرفة، ١٩٣٣ م، مج ٧.

٧- متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٩٩ م.

٨- ميكيل، أندريه، جغرافية دار الإسلام البشرية، ترجمة: إبراهيم الخوري، دمشق، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٣ م.

-Gibb, h.a.r. arabic literature, London, oxford university, second edition, ١٩٦٣.

-Le Strange, Guy, Palestine Under the moslems, London, ١٨٩٠

قلعة الصخرة الحدودية في لوشة (غرناطة)

دراسة تاريخية معمارية من حيث أنظمة الدفاع وتقنياتها البنائية

د.ربيع قاسم زهران

قسم الآثار- كلية الآداب/ جامعة البعث

١) الموقع الجغرافي والمحيط الطبيعي للقلعة:

تقع قلعة الصخرة في منطقة بمحافظة غرناطة تحمل نفس الاسم، وهي منطقة كانت تنتمي تاريخيا إلى أراضي مدينة لوشة، وهي تقع في أقصى الشمال الغربي لمحافظة غرناطة، وهي المنطقة الادارية السابعة في التقسيم الإداري لمحافظة غرناطة، حيث يحدها من الشرق المنطقة الثامنة وهي منطقة موكلين، بينما يحدها من الجنوب المنطقة الثانية عشر وهي منطقة الحامة[١]. وهي منطقة ذات أرض خصبة للزراعة، وهذا يجري على مساحة التلال الجبلية الناعمة والتي تسلط الضوء على بعض الجبال ذات الحجر الجيري. حيث توجد بجانب مسارات الأنهار الرئيسة المدرجات الرسوبية التي استخدمت تقليديا في الزراعة المروية ومصايد الأسماك. بينما اليوم يهيمن على المشهد زراعة أشجار الزيتون، تاركة النباتات الحراجية لجبال البحر الأبيض المتوسط محصورة في المنطقة الأكثر حدة، والشديدة الانحدار[٢]. وأسمها الحالي ذاكرا (zagra)، وهو من أصل عربي والتي ترجمت في علم الأسماء بصخرة، وهناك من ذكرها على أنها الرأس الحاد[٣].

حيث يقع حصن الصخرة في التل الموجود إلى الشرق من المستقر السكاني للقرية التي تحمل نفس الاسم، بجانب المقابر الخاصة بتلك المنطقة. وإحداثياتها الطبوغرافية على الخارطة ذات المقياس ١:٢٥:٠٠٠ هو (٣٩٦،٦٧٠-

٤،١٢٤،٠٤٠) على ارتفاع صخري يصل إلى (٨٠٥ م)[٤]. يسيطر حصن الصخرة على طريق نهر بيسكيرا خينيل، وهو طريق طبيعي ذو أهمية على مر التاريخ، ولهذا السبب كانت هذه المنطقة مسكونة منذ العصور القديمة[٥]. الأشكال (١-٥)

٢) السياق التاريخي للقلعة:

ينتمي الاستقرار السكاني الأول في قلعة الصخرة إلى فترة الانتقال من العصر الحجري الحديث إلى العصر النحاسي في موقع تل مارتيا، والذي يقع على بعد بضعة كيلومترات من قرية الصخرة. بجانب برج مراقبة من عصر بني نصر وبقايا إيبيرية رومانية هي عبارة عن مقابر صخرية.

وعند دخول العرب المسلمين الأندلس، وخلال عصر الإمارة، ترفق أراضي لوشة إلى كورا إلبيرا، والتي عاصمتها مدينة إلبيرا. وأما في بداية القرن ١٠ م حصلت تغييرات هامة في التسوية السكانية، مع انتشار المستوطنات في السهل، واعتباراً من هذه اللحظة تم اتخاذ موقع الصخرة كمستقر سكاني بنائي، حيث تم تقسيم الأراضي في جميع أنحاء مدينة لوشة. فمن المحتمل أن توجد داخل الأراضي التي تشرف على المدينة أحياء أكثر صغراً. والتي بدورها حددت أطراف كلا من ثينسا، ولوشة وطوروكس، وغيرها. ولكن في عصر بني نصر، خضعت أراضي لوشة لتقسيم سياسي وإداري لمملكة بني نصر والذي شمل المناطق الحالية من الصخرة، والجارينيخو، ولوشة، وهويتورتاخار، وسالار، مع مساحة إجمالية قدرها ٦٧٥ كم٢. حيث أنه تمركزت في مدينة لوشة وظائف الجيش والمدعين العامين والقضاء. والريس أو الرأس وهو ممثل قوة السلطان، وبهذه السلطة السياسية المحلية التي يملكها يقوم بتعيين حكام الحصون في المنطقة[٦].

وكما أدت الحدود الطويلة التي تملكها مملكة بني نصر إلى تطور القلعة على مدى حياة مملكة غرناطة. فالأراضي القريبة منها سوف تتأثر إلى حد كبير بازدياد

الاستقرار السكاني فيها. حيث تشهد أراضي مدينة لوشة بشكل عام، وقلعة الصخرة بشكل خاص تقدما ولا سيما من حيث الموقع، ومن حيث التغيرات الكبيرة التي ستطرأ على أراضيهما.

إذا في عصر بني نصر يتم إدراج حصن الصخرة، في النهاية الشمالية الغربية لمجموعة الأراضي الواسعة لمدينة لوشة: "كقلعة وبلدة عربية، وهي تزيد قليلاً على أنها منطقة من لوشة فقط"(٧). وأما في الوثائق القشتالية يبدو أنها تسمى أحيانا قرية، وأحيانا أخرى كمستقر سكاني صغير(٨).

حيث تم تشكيل الحدود بين عامي ١٢٤٠ م و ١٢٤٦ م، وخاصة بعد الانتصارات القشتالية في أراضي قرطبة. فمنذ النصف الثاني من القرن ٧ هـ/١٣ م وطوال القرن ٨ هـ/١٤ م، حدثت تطورات بديلة على طول خط الحدود، وأصبحت تمر بسهولة المساحات الحدودية من أيدي المسلمين إلى المسيحيين وبالعكس.

فقد ذكرت المصادر التاريخية هذه التطورات على طول خط الحدود ما بين العرب المسلمين والممالك النصرانية في الشمال الإسباني على الشكل الآتي: حيث أنه بعد وفاة محمد المتوكل في (٤جمادى الآخرة ٦٣٥ هـ/٢١ كانون الثاني ١٢٣٨م)، انتقل معظم تراثه إلى محمد بن الأحمر أمير جيان وأرجونة، فاستولى على ألمرية وغرناطة، واعترفت مالقة بحكمه(٩). وكما كانت قد سقطت الجزائر الشرقية بيد جايم الأول ملك أراغون في (صفر٦٢٧ هـ/ كانون الأول ١٢٢٩ م)، وكذلك سقطت مدينة بلنسية بيد جايم الأول يوم الجمعة في (٢٧ صفر ٦٣٦ هـ/ ٩ تشرين الأول ١٢٣٨ م)(١٠). ثم استولى جايم الأول على الضفة اليمنى لنهر شقر وعلى حصون المنطقة الهامة ومنها دانية وذلك في عام (٦٤١ هـ/ ١٢٤٤ م)، ثم استولى بعد عامين على شاطبة، وبعد ذلك سيطر على لقنت في عام (٦٤٤ هـ/ ١٢٤٦ م)(١١)، وكما سقطت مرسية بيده في (جمادى الأولى٦٦٤ هـ/ شباط ١٢٦٦م)(١٢)، ففي الوقت الذي كانت

فيه مدن وحصون شرقي الأندلس تسقط تباعا في أيدي الأراغونيين، كان فرديناد الثالث ملك قشتالة يتابع غزواته في منطقة وسط الأندلس، فتعرضت أرجونة وجيان لغاراته، فتصدى له محمد بن الأحمر وهزمه في معركة مرتش في عام (٦٣٦ هـ/ ١٢٣٨ أو ١٢٣٩ م) غير أنه فشل في استعادة القلعة(١٣). وكرر فرديناد الثالث محاولاته فاستولى على أرجونة في (أواسط ٦٤٢ هـ/ أواخر ١٢٤٤ م)، بالإضافة إلى بعض الحصون الأخرى في فحص غرناطة ومنها قسطيلة، ثم دخل جيان في (٦٤٣ هـ/ ١٢٤٦ م)، فتنازل محمد بن الأحمر للقشتاليين عن أرجونة وبركونة ووادي الحجارة والفرنتيرة لعجزه عن الدفاع عنها(١٤).

وكما أصبح التقدم الإسباني المسيحي نهائي على طوال القرن ٩ هـ/ ١٥ م، حيث سيطروا على عدد من الأماكن المهمة مثل (أنتيكويرا، أرشذونة) والإقليم المعني بالدراسة يقع في موقع مهم دفاعيا على نحو متزايد. فالدفاع عن الأراضي الحدودية نظم حول قلاع ثيسنا والصخرة، ومنذ منتصف القرن ١٤ م أصبح موقع هذه القلاع منطقة منازعات مستمرة، وذلك اعتبارا من السيطرة النهائية من قبل الإسبان في عام ١٣٤١ م على مدينة بريجو (قلعة بني سعيد أو بني يحصب). وهكذا وفي عام ١٣٦٢ م، سيطرت القوات القشتالية بقيادة بيدرو الأول على عدة قلاع في فحص غرناطة منها إزناكسار، وثيسنا وقلعة الصخرة، وترك فيها بعض القوات وذهب باتجاه إشبيلية(١٥).

حيث قام الملك القشتالي ألفونسو الحادي عشر باستثمار انتصاره على القوات العربية المسلمة بقيادة السلطان المريني أبو الحسن وملك غرناطة يوسف الأول في عام (٧٤١ هـ/١٣٤٠ م) في معركة طريف(١٦)، فهاجم قلعة بني سعيد أو بني يحصب وهي من أحواز غرناطة واستولى عليها، وذلك في عام (٧٤٢ هـ/ ١٣٤١ م)(١٧). وبعد انتصاره البحري على الأسطول المسلم المريني في عام (٧٤٣ هـ/

١٣٤٢ م) سيطر على الجزيرة الخضراء وطريف[١٨]. وفي عام (٧٦٣ هـ/١٣٦٢ م) عندما اندلعت الحرب بين قشتالة وأراغون أسرع محمد الخامس لمساعدة حليفه ملك قشتالة بيدرو الأول فزوده بقوة عسكرية مكنته من تنفيذ غارة على منطقة مرسية[١٩]. وبعد ذلك أرسل ملك قشتالة بيدرو الأول رسالة إلى ملك أراغون الذي يروي فيها عن دخوله مملكة بني نصر في غرناطة وكيف سيطر على قلعة الصخرة: حيث يذكر أنه وصل إلى مكان قوي جدا يدعى الصخرة وفيه حصن قتالي، وكان قد تمكن من دخوله وأحرق بوابته وجدرانه مع كل الأبنية التي كانت بداخله[٢٠]. ولكن سيطرته على القلعة لم تكن مدعمة، إذ انتقل حصن الصخرة بعد عدة أيام إلى القوات العربية المسلمة التي استعادته[٢١].

وليس هناك المزيد من الأخبار عن قلعة الصخرة حتى الحرب الأخيرة التي شنها الملوك الكاثوليك. حيث تسقط مدينة لوشة في حملة ١٤٨٦/٥/٢٩ م وبعدها يسقط عددا من البلدات والقرى في أقصى الغرب والشمال الغربي لغوطة غرناطة والجبال الغربية (مونتيفريو، موكلين إيورا، كولوميرا) وبما فيها يوجد حصن الصخرة[٢٢].

حيث بعد أن توحدت مملكتي قشتالة وأراغون في عام (٨٨٤ هـ/ ١٤٧٩ م) بقيادة فرديناد الخامس، الذي سوف يسعى للإطاحة بما بقي في أيدي المسلمين في مملكة غرناطة. فكان قد اشتد في هذه الأثناء أيضا الصراع بين أبي الحسن علي وأخيه الزغل، وحتى يخفف من ضغط أخيه طلب الأول من ملكة قشتالة وملك أراغون عقد الهدنة، ولكنهما اشترطا اعترافه بتبعيتهما ودفع جزية كبيرة، فرفض الملك الغرناطي، واندلعت الحرب بين الجانبين، فاستولى القشتاليون في (محرم ٨٨٧ هـ/ شباط١٥٨٢ م) على مدينة الحامة (التي تقع جنوب منطقة لوشة)، وهاجموا لوشة بعد أشهر إلا أنهم فشلوا في الإستيلاء عليها[٢٣]. ولما أدرك أبو عبد الله محمد ابن أبو

الحسن علي خطأه في تحالفه مع القشتاليين ضد عمه الزغل، فأجرى مفاوضات مع عمه انتهت إلى الأنضواء تحت سلطانه ومقاومة الغزو القشتالي. وهذا الأمر الذي أثار فرديناد الخامس فألقى بثقل جيشه كله على فحص غرناطة، وهاجم لوشة مرة ثانية واستولى عليها في (٢٦ جمادى الأولى٨٩١ هـ/٣٠ أيار ١٤٨٦ م)، وبعد ذلك استولى على موكلين (التي تقع شرق منطقة لوشة) ومونتيفريو وقلميرة[٢٤].

وبعد السيطرة الإسبانية المسيحية على المنطقة، وفي التقسيم الإداري الجديد تم تحديد حصن الصخرة بأنه يقع في حيازة المحافظ فرنانديز مالدونادو، الذين يتمتع براتب وبملكية الأراضي المحيطة بالقلعة[٢٥]. الأشكال (٢،٥)

٣) الوصف العام والشكلي للقلعة:

تقع القلعة على نتوء صخري من الحجر الجيري، إلى الشرق من المستقر السكاني الحالي، وهذه الكتلة الصخرية بموقعها توفر حماية طبيعية، بالإضافة إلى وضوح واسع للرؤية، وهذا السبب الذي من اجله تم اختيارها لبناء القلعة عليها.

يتم تحديد جنباتها الجنوبية والشرقية من قبل اثنين من الشقوق، والتي تحول دون الوصول إلى هذه المناطق، ولذلك الدفاعات هناك قليلة جداً، أما في الوجوه الغربية والشمالية فيوجد منحدر حاد، وهي شديدة التحصين.

حيث يتمحور حصن الصخرة، في مساحتين أو مكانين متميزين. فالبقايا المحافظ عليها اليوم تسمح بمعرفة سورين: الأول خارجي، والذي يطلق عليه القرية أو البلدة؛ وسور علوي وداخلي، وهو للقصبة.

ويمكن التمييز داخل القصبة بين نوعين من المساحات الأخرى: الأولى، تقع في الجزء الأعلى من الحصن، والتي تسمى السور العلوي للقصبة، والتي تتمحور حول برج هو (البرج ١) الذي يلتصق به هناك سور ذو مقاييس صغيرة.

أما السور الثاني للقصبة، فيحتل هضبة تتوج الصخور، في الجنوب من المجمع حيث يوجد السور الموصوف. وتبلغ المساحة التي يحيط بها ما يقرب من ٦٠٠ م٢.

وفي الجهة الشرقية لا يوجد هياكل دفاعية لأن الصخور شديدة الانحدار تجعل الوصول مستحيل. أما في الجهة الغربية، فيوجد عدة أسوار ممتدة وبرجين: أحدهما باتجاه أقصى الشمال (برج ٢) وهو أجوف، والذي ربما كان برج- بوابة لمدخل القصبة، وأما البرج الآخر، فهو بمقاييس أكبر، وأجوف أيضا، والذي يغلق الجهة الجنوبية الغربية للقصبة (برج٣)، وبين البرجين (٢و٣) توجد (البدنة ٢) من السور.

وأما بين موقع البرج- البوابة (برج ٢)، والسور العلوي للقصبة توجد بدنة من السور وهي (البدنة ١) والتي تبدو أنها تغلق هذه الفجوة من جهة الشمال. ويتعزز الجناح الجنوبي بجدار (البدنة ٣) وهي بحالة حفظ سيئة في المتانة، فمن الممكن أنها كانت متراس بسيط، إذا الوصول من هذا المكان يبدو مستحيلاً. وأما بالنسبة للفراغ الذي تم تعريفه كقرية أو بلدة، يغطي مساحة كبيرة، من ما يقرب من ٤٠٠٠ م٢. في هذا السور يوجد أربعة أبراج مستطيلة الشكل بنيت بنفس تقنية البناء، وهي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم المنسقة في صفوف واضحة متناوبة مع صفوف من الحصى، وزوايا الأبراج مسلحة بواسطة حجارة مهذبة متوازية السطوح. وهناك خمس بدنات من السور. الساحة الداخلية للقرية تم تبديلها بشكل كبير بسبب المدرجات الزراعية فيها.

وكانت الواجهة الشمالية في حالة حفظ جيدة، حيث تقدم اثنين من الأبراج واثنين من البدنات المنفصلة من السور.فهناك بدنة مبنية بواسطة تقنية البناء الطابية كاليكاسترادو على قاعدة من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم وهي (البدنة ٤). وبالانحدار باتجاه الغرب اعتبارا من البرج الأول الموصوف (برج ١) إلى برج آخر (برج ٤)، يظهر العديد من المباني المتلاصقة. ففي جزء من هذا البرج تخرج بدنة

آخرى (البدنة ٥) من نفس تقنية بناء (البدنة٤).وبعد الامتداد عشرين مترا والالتفاف يحدث انقطاعا. فبعد حوالي ٢٠ م يوجد برج ضخم مصمت (برج ٥) والذي يغلق الزاوية الجنوبية الغربية للقرية أو البلدة. ومن هذا البرج، وباتجاه الجنوب الغربي يوجد جزء آخر من بدنة السور (البدنة ٦)، ثم هناك انقطاع آخر، وبعد بضعة أمتار يظهر من جديد (البدنة ٧)، وبنفس الاتجاه سيظهر برج وهو (برج ٦) الأجوف، مع العديد من المباني القائمة المتلاصقة. يبدو أنه برج- بوابة، وقد يكون هو المدخل إلى البلدة. وبين هذا البرج والبرج الأخير من السور (برج ٧) هناك امتداد من السور، مع المنازل الملتصقة في الوجه الخارجي.هذا البرج الأخير (برج ٧) يغلق الزاوية الجنوبية الغربية من القصبة، وهو أصغر برج في المجموعة وكما أنه مصمت صلب. وأما الهياكل الدفاعية في الجنوب فهي غير موجودة. وكما أنه يوجد خارج الحصن ومقابل (البرج١) خندق محفور في الصخر، والآن ملئ جزئيا لبناء المدرجات المخصصة للزراعة. وتظهر آثار أدوات العمل المستخدمة في بنائه.

وفي الداخل يظهر العديد من الهياكل التي أنجزت في الصخر، حيث يسلط الضوء على بعض الدرجات وخزان ماء، الذي يقع في ساحة السور السفلي من القصبة. وكما ينتشر الكثير من البلاط والفخار في جميع أنحاء المناطق الداخلية في الحصن.

وأما بالنسبة لحالة الحفظ في القلعة فهي سيئة، حيث لم يتم العثور على أي بقايا للشرفات التي تتوج الأبراج والبدنات. وفي بعض المناطق تلك الشرفات اختفت تماماً. والأبراج وجدت مهدومة، والطابية خسرت طبقة الكلس الخارجية ولذلك هي عرضة لخطر التلف السريع. كما أن معظم المباني مهجورة، وهي في حالة خراب، ويشمل ذلك جدران البدنات والأبراج.

حيث ظهر في القلعة فترات عديدة من مراحل البناء، ممثلة في ٥ مراحل رئيسة، وعدد من الإجراءات المحددة.وتقتصر المراحل الثلاث الأولى على السور العلوي من القصبة. وأما المرحلة الرابعة فقد حدثت في السور السفلي من القصبة. وأخيرا تتوافق المرحلة الخامسة مع تحصين البلدة.

وبالإضافة إلى هذه المراحل المذكورة، يمكن النظر بشكل عام، على جميع المباني المشيدة في وقت معين، أو جزء كبير من المجمع البنائي، وتم تحديد ثلاثة إجراءات تحددها. الأشكال (٦،٧)

٤) مراحل البناء وتقاناتها المستخدمة فيها:

المرحلة الأولى: تقنية البناء بالطابية ١[٢٦].

إن المرحلة البنائية الأولى المحددة في قلعة الصخرة تتوافق مع برج من الطابية يقع في الركن الشمالي الشرقي من الحصن. وهو برج مستطيل الشكل مجوف تبلغ أبعاده ٦,٥٥ م × ٤,٢٠ م، مع غرفة داخله تبلغ أبعادها ٤,٧٥ م × ٢,٧٠ م. تم بناؤه بواسطة الطابية الترابية[٢٧]، ذو اللون البني الفاتح، مخرب للغاية، مع اختراقات الفخار النادرة. وكما أن وجود ثقوب الأعمدة الخشبية الدائرية الممتدة أفقيا داخل القالب الخشبي (الإبر) يجعل من الممكن معرفة أبعاد الصندوق الخشبي: ارتفاعه هو ٠,٨٠ م، والعرض نفسه، وأما الطول ٠,٦٠ م. ولا يظهر أي طبقات من المواد المصبوبة. وثلاثة جدران من هذا البرج الأول لا تزال قائمة.

حيث أن المدخل إلى هذا الهيكل البنائي يتم من خلال بوابة، الآن غير ظاهرة: خارجيا بسبب مرحلة البناء الثانية التي تغطيها بجدار مشيد بالحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، وهي حجارة جافة. قبل البوابة هناك العديد من الدرجات المحفورة في الصخر.وأبعاد البوابة هي: ٢,٢٠ م للارتفاع، ١,٦٠ م

للعرض، و ٠,٧٠ م للسماكة.فلذلك من الممكن أن البرج كان يتألف من عدة طوابــق. الشكل (٨)

المرحلة الثانية: تقنية البناء بالحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طــرف واحد ١[٢٨].

تم تحديد المرحلة البنائية الثانية كالسابق في (البرج ١) وهو عبارة عن بــرج مشيد بواسطة حجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والتي تغلــف تقنية البناء الأولى والتي هي من الطابية، حيث يفترض أن يكون هناك إعادة تكــوين أبعاد كبيرة، تصل حتى ٣ م في الجانب الشمالي. وهذا يتوافق مع تقنية البناء بواسطة الحجارة ذات الشكل والحجم غير المنتظم والمهذبة من طرف واحــد والمرتبــة فــي صفوف. وتتحد الحجارة مع بعضها بواسطة الملاط الجيري وبنسبة عالية منه، وهــو ما يعطيها ثبات كبير.كما وإن نسبة الجفاف، محددة، ومرتفعة أيضاً. وكــذلك وجــود الحصى الوفيرة لملء الفراغات بينها يساعد على إعطائها مظهراً مقبولاً. وأما الزوايا فقد شيدت بواسطة الحجارة المربعة المهذبة المتوازية السطوح.

فالجانب الشرقي للبــرج (١) قياســه هــو ١٠,٣٠ م، والغربــي ١٠,٥٠ م، والشمالي ٩,٢٠ م والجنوبي ٧,٨٠ م. وسماكة الجدران هو أيضاً متغير جداً، تتــراوح بين ٣ م للجدار الشمالي و٠,٨٥ م للجنوبي.

وحالة الحفظ غير منتظمة، ففي حين أن الجداران الشرقي والغربي لهما متانــة كبيرة تمتد لأكثر من ١٠ م، بينما الجداران الشمالي والجنوبي فهما مــدمران عمليــاً. وكما إن مدخل هذا البرج غير واضح، رغم أنه تم الحفاظ على هيكل الغرفــة الــذي كان في المرحلة الأولى، فقد يكون في مستوى أعلى من المحافظ عليه، وربمــا فــي الجدار الجنوبي. الشكل (٩)

المرحلة الثالثة: تقنية البناء بالحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ٢.

تتوافق المرحلة البنائية الثالثة مع السور المستطيل الشكل الذي يلتصق مع الجدار الجنوبي للبرج ١. وهو يتألف من ثلاثة جدران محيطية والتي تشكل الفضاء الداخلي والذي أبعاده ١١,٢٠ م × ٥,٨٠ م.

وهو يوجد بحالة حفظ متغيرة جدا، وهناك العديد من الجدران المتلاصقة حديثاً ولذلك توجد صعوبة كبيرة بقراءة كسوة واجهاتها.

وإن تقنية البناء المستخدمة في هذه المرحلة هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمرتبة في الصفوف. وإن السمة المميزة هي تقديم بعض الصفوف بشكل متعرج وبعضها الآخر مرتب على شكل الحبل. وحجارة البناء المستخدمة كبيرة الحجم وقليلة النحت وتتحد مع بعضها بواسطة ملاط من الجير أبيض اللون، مع نسبة كبيرة من الرمال، وأما الحصى فهي نادرة وصغيرة الحجم. تقنية البناء هذه ملموسة في الجداران الشرقي والغربي للبرج (١)، والتي تظهر في الواجهة، وأما حالة حفظها فهي سيئة في الجدار الجنوبي.

وبالإضافة إلى هذه الجدران التي تم وصفها، فإن هذه المرحلة البنائية توجد أيضا. لإصلاح أو تعزيز الجدار الشرقي (للبرج١) في مرحلته الثانية. حيث يبدأ هذا التعزيز للجدار في نقطة بنائية أسفل الجدار المدعم، وذلك من خلال الالتصاق بالوجه الخارجي للصخر. حيث تم الحفاظ بالكاد على الطلاء الخارجي، وهو مرئي فقط في الجدار الغربي. وكان يجب أن يوجد الطلاء أيضا في الجدار الشرقي، والذي وظيفته هو إعاقة أو منع التسلق من قاعدة الصخور.حيث توجد عدة فتحات في جدران هذا

السور. ففي الجدار الجنوبي يوجد بقايا ما يمكن أن يكون مدخلا. وكذلك في الجدار الغربي هناك فتحة أخرى، وتقع على ارتفاع كبير عن الأرض، مع قوس نصف دائري تتوجها ومكسية بالجص الأبيض، وفي الصخر تحتها تم حفر العديد من الدرجات التي تسمح بالوصول إليها. الشكل (١٠)

المرحلة الرابعة: حجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ٤.

تتوافق المرحلة البنائية الرابعة، مع ما يسمى السور السفلي للقصبة وهو الذي يعطي القصبة فضاء مساحته ٥٠٠ م٢. حيث يوجد برجين (أبراج ٢ و ٣) واللذان يتقاسما تقنية البناء نفسها (حجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ٤) وهما برجان مجوفان، مشيدان من حجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ومنسقة في مداميك، مع حجارة مربعة مهذبة متوازية السطوح في الزوايا والتي لا تزال قائمة. وحجارة البناء المستخدمة كبيرة الحجم.

وكما أن امتداد (البدنة ٢) الواقعة بين الأبراج، هي أيضا مشيدة بواسطة الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، وليس لها علاقة مادية مرئية مع الانتهاء الخارجي للأبراج، فإنه يشار إلى أن تقنية البناء المستخدمة في بنائها هي من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والتي تختلف بعض الشيء عن تلك التي تم وصفها في الأبراج. ومن الممكن أنه قد تم تحضيرها في وقت لاحق، أو ببساطة التقنية المستخدمة مختلفة، وهو أمر ليس من غير المألوف. ويبدو البرج الذي يقع إلى الشمال (برج ٢) أنه يشكل مدخل القصبة، (البوابة- البرج). وهو نظام دفاعي خاص من العصر الذي يعتقد أنه ينتمي إليه. والبرج الذي يغلق الزاوية الجنوبية الغربية (برج ٣)، هو عبارة عن برج كبير الأبعاد، أجوف، وربما يحتوي على عدة طوابق. وأما الجانب الجنوبي لهذا السور فهو مبني من جدار (البدنة ٣)، منخفضة المتانة، والتي يمكن أن تكون عبارة عن متراس

بسيط، إذ المدخل من هذا المكان يبدو مستحيلا، لذلك لا يحتاج إلى جهاز دفاعي كبير. وكذلك في الشرق يوجد غياب للدفاعات، فالوادي الموجود في هذا الجناح الشرقي يجعلها غير ضرورية. الشكل (١١)

المرحلة الخامسة: حجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ٦. الطابية ٣.

إن المرحلة البنائية الأخيرة والتي سجلت في الحصن تتوافق مع عمل عظيم من التحصين. حيث إنه ينطوي على جدران السور الذي يعطي فضاء البلدة والذي تبلغ مساحته حوالي ٤٠٠٠ م٢ من السطح.

ففي هذه المرحلة كان قد تم بناء أربعة أبراج ذات أحجام مختلفة جداً، ولكن كلها مستطيلة المقطع، مصمتة صلبة، (باستثناء برج ٦، الذي يمكن أن يكون البوابة-البرج)، وعدة بدنات من السور تمتد بين هذه الأبراج. والتقنية البنائية المستخدمة في بناء بعضها وآخر مختلفة. فالأبراج مشيدة بتقنية بناء (الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد ٦) والبدنات بواسطة الطابية (الطابية ٣).

فتقنية الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والتي وجدت في الأبراج الأربعة للبلدة هي حجارة غير منتظمة الشكل والحجم ومرتبة في صفوف متناوبة مع الحصى. وتتشكل الزوايا على أساس حجارة مهذبة متوازية السطوح. وهناك طبقة جصية تغطي الجدران والتي نفذ عليها زخرفة على شكل الدمعة. ويتضمن الجص أيضا حجارة صغيرة كنوع من الزخرفة. والطبقة الجصية هي الطبقة النهائية للجدران، بالإضافة إلى أن عزل وحماية الحجارة تمنع إلى حد كبير التسلق. وفقدان الطبقة الجصية في بعض المناطق يسمح بإقامة قراءة موثوقة أكثر لواجهات الجدران.وتقنية البناء هذه، ممثلة على نطاق واسع في العديد من المباني، وخاصة في

تلك التي تستخدم لأغراض عسكرية، نتيجة للبرنامج البنائي الذي تروج له دولة بني نصر[٢٩].

وأما بدنات الأسوار فقد تم بناؤها بتقنية الطابية فوق أساس من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم.

وبالنسبة لحالة الحفظ في (البدنات ٤ و٥) فهي جيدة، حيث تم بناؤهما بوساطة تقنية الطابية كاليكاسترادو[٣٠]، والتي نفذت من خلال تطبيق، في كل واحدة من الطبقات، خلطة وفيرة بنسبة أكبر بالكلس على السطح الخارجي للطابية بجوار الألواح الخشبية للصندوق الخشبي. بينما يتم تعبئة الداخل بواسطة ملاط ذو نسبة أقل من الكلس والكثير من الرمال. وبهذه الطريقة ينشأ نوع من القشرة التي تتناقص تدريجيا إلى داخل الجدار بسبب عملية الدك، مما أدى إلى سلسلة من المقاطع الواضحة لطبقة فوق الأخرى والتي يختفي وضوحها كلما اتجهنا نحو داخل القالب الخشبي، والتي شكلت خصائص هذا النوع من الطابية. ومتوسط سماكة القشرة، في هذه الحالة هو ٠,٦٠ م، على الرغم من أنها تصل في بعض المناطق إلى ٠,١٠ م. وأماهناك حيث فقدت القشرة، تظهر طبقات المواد المصبوبة، وهي بنسبة ٠,١٠ م من الرمل و٠,٤٠ م من الكلس.

وتم أخذ أبعاد الصندوق الخشبي من خلال وجود ثقوب مكان الأعمدة الخشبية الدائرية الشكل المتوضعة بشكل أفقي والتي تدعى المسلات أو الإبر، وهذه الثقوب ذات شكل دائري وأحجام متغيرة جداً. الصندوق الخشبي أبعاده هي: ٠,٨٠ م للارتفاع، ١,٤٠ م للطول، و ١,٢٠ م للعرض.

وبالنسبة للمعاملة التي تلقاها حتى النهاية الخارجية كانت بعناية دقيقة جداً، فهناك طبقة تغطي القشرة، وربما أنجزت بوساطة تنعيم السطح بمجرفة، وذلك

باستخدام الملاط الكلسي الذي تدفق إلى السطح نتيجة لعملية الدك. وعلى نفس السطح كان قد طبق فيما بعد طبقة جصية بطريقة التكليس.

وقد شيدت الطابية كاليكاسترادو على أساس من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم والمتدرجة، فبالإضافة إلى تسوية الأرض من أجل وضع الصندوق الخشبي الذي يسمح بإقامة مشروع بناء الطابية، فالأساس له وظيفة العزل عن سوء الأحوال الجوية من المياه والرطوبة، وغيرها من العوامل التي يمكن أن تؤثر. وتتكون تقنية بنائها من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم والمرتبة في صفوف، ويظهر عليها من الداخل والخارج طبقة جصية مزخرفة (نفس التي وصفت في الأبراج)، والتي تتكون من شريط زخرفي يترك أثر ظاهر على كل حجر من حجارة البناء على شكل الدمعة، والذي يعطي مظهر منتظم إلى حد ما على الجدار. وأيضاً يوجد تطعيم بأحجار صغيرة.

ولم يتم الحفاظ على الشرفات في هذه البدنات، فمن المرجح أنها كانت تمتلك مرامي، وممر دفاعي أيضاً، لكن لا يوجد بقايا لها على الإطلاق. وأما البدنات الأخرى التي حددت على أنها تنتمي إلى هذه المرحلة البنائية (البدنات ٦، ٧ و ٨) حالة حفظها أسوأ من التي وصفت. شكل(١٢)

٥) الإسناد التاريخي للمراحل البنائية الخمسة وتفسيرها:

شهدت قلعة الصخرة مؤخرا العديد من الدراسات الأثرية. فالأولى تألفت من تحليل مساحي عام للهياكل البنائية. والثانية، كانت أكثر واقعية حيث كانت حول السور العلوي للقصبة، والتي كانت عبارة عن تدخل للتنظيف الأثري وللطبقات الجدارية، والذي يأمل أن تحمل قريبا مداخلة تدعيم للقلعة.

وكما سبق الإشارة إلى ذلك في الصفحات السابقة، كانت هناك خمس مراحل بنائية رئيسة، بالإضافة إلى عدد من الإجراءات المحددة في القلعة.

فالمرحلة البنائية الأولى تتوافق مع برج أجوف مشيد بوساطة الطابية الترابية (البرج١)، ذو مسقط رباعي الشكل.و لم يتم العثور على المزيد من الهياكل البنائية التي تتقاسم تقنية البناء هذه. ويقع البرج (١) في الجزء الأكثر ارتفاعا من الكتلة الصخرية. وعند إنشاء إسناد التسلسل الزمني له يوجد ما يكفي من المشاكل. أولاً، المصادر المكتوبة لا تتحدث عن المكان حتى وقت متأخر من عصر بني نصر. وثانياً، نوع الطابية ليس حكراً على أي عصر تاريخي معين. فهناك حل واحد يمكن أن يأتي من تحليل الفخار الذي وجد، والذي دخل في خلطة ملاط الطابية الترابية نفسها، والتي أنشئت من أجلها، على الأقل بيوم واحد قبل. فمن المحتمل جداً أن يكون عبارة عن هيكل بنائي يعود لنهاية عصر الموحدين أو لبداية عصر بني نصر في الأندلس.

حيث يستنتج أن البرج (١) هو عبارة عن برج- قرية يعود لعصر بني نصر. وهو هيكل دفاعي لإيواء سكان المنطقة، ووسيلة لحماية أنفسهم من الغارات التي يقوم بها العدو. ولذلك فمن المنطقي أن البرج (١) هو هيكل بنائي من عصر بني نصر، شيد في المرحلة التاريخية التي أسست فيها هذه المنطقة كحدود لمملكة بني نصر. شكله وأبعاده وتقنية بنائه لها ما يماثلها في أبراج القرى التي تعود لمملكة بني نصر[٣١].

وأما التسلسل الزمني الذي يمكن أن يعطى إلى المرحلة البنائية الثانية (برج١) والمشيد بواسطة الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم والتي تغلف المرحلة البنائية الأولى للبرج (١)، والتي هي مبنية بتقنية الطابية الترابية، والتي تم تحديدها بشكل بعيد كل البعد عن المنطق، بالوقوف

عند نقطة زمنية ما بين بداية مملكة بني نصر وعهد محمد الخـــامس (١٣٥٤-١٣٥٩ م/ ١٣٦٢-١٣٩١ م).

وأما بالنسبة للمرحلة البنائية الثالثة (سور ملتصق بالبرج ١) وهي مرحلة مـــن السهل التعرف عليها، والمشيدة بالحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم، وفقد هذا السور الكسوة الخارجية التـــي كـــان يملكهـــا، وتظهر المداميك. حيث تم ترتيب حجارة البناء في صفوف، حيث تم صـــف بعضـــها بشكل طرفي. وتم بمرحلة البناء هذه تعيين، المساحة العلوية للقصـــبة، واســـتخدمت أيضا في تقوية الجدار الشرقي للبرج (١). وإسنادها الزمني غير محدد. مثل المرحلة البنائية السابقة يمكن تحديد التسلسل الزمني النسبي لها بين بداية مملكة بني نصـــر أو اللحظات الأخيرة من العصر الموحدي وحتى عهد محمد الخامس (١٣٥٤-١٣٥٩ م/ ١٣٦٢-١٣٩١ م).

بينما تتوافق المرحلة البنائية الرابعة العامة مع تحصين الفراغ الذي تم تسميته السور السفلي للقصبة. ومن الممكن أن بناء هذه المرحلة كان في وقت سابق لتحصين البلدة، ولكن لا يستبعد أن أعمال البناء قد جرت في وقت لاحق. كمـــا لا يوجـــد أي علاقة مادية بين المنطقتين أو الفراغين لذلك لا يمكن إقامة علاقات تأريخ زمني على أساس هذه الحقيقة. تقنية البناء المستخدمة في هذه المرحلة البنائية الرابعة، والتي هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، لا تساعد علـــى إنشـــاء تسلسل زمني.

أما المرحلة البنائية النهائية العامة، الخامسة، فهي تتوافق مـــع برنـــامج بنـــاء معين، والذي تروج له دولة بني نصر في النصف الثاني من القرن ١٤ م. ويتجلى في طريقة بناء الجدران بطريقة معينة بوساطة الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم والمرتبة في صفوف والمتناوبة مع صفوف من

الحصى والتي أبراجها ذات شكل مستطيل ولها في الزوايا حجارة مهذبة متوازية السطوح. والطبقة الجصية تترك الحجر مرئي، مما يجعل الربط بشكل شريط حوله. هذه الميزات مشتركة بين الأبراج الأربعة التي وجدت موضوعة خارج أسوار البلدة.

ووجود ثوابت واضحة، معروفة لقلاع حدودية أخرى، والمحددة ببرنامج بنائي نفذه محمد الخامس، والذي يدرك في المصادر، سمح بتحديد تسلسل زمني مطلق. ولكن في قلعة الصخرة يوجد بعض الخصوصيات، كما هي الحقيقة حيث لا يوجد أي برج دائري، وهو ميزة عملية لإعادة التحصين التي قام بها السلطان محمد الخامس، والتي من شأنها أن تتناوب مع الأبراج المستطيلة. وبالإضافة إلى ذلك، بدنات الأسوار ليست مشيدة من الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم كما هو الحال في حصون أخرى، ولكن مبنية بتقنية الطابية كاليكاسترادو. وقد نسبت لنفس الوقت البنائي، وذلك للعلاقة المادية بين البدنات والأبراج.

فأعمال البناء بالطابية كاليكاسترادو، وبالحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والمختلفة في الحجم والمرتبة في صفوف والمتناوبة مع صفوف من الحصى قريبان جدا من حيث التأريخ الزمني. حيث تم بناء السور الخارجي لمنطقة البياسين في مدينة غرناطة في عهد يوسف الأول (١٣٣٣- ١٣٥٤ م) بوساطة تقنية الطابية كاليكاسترادو[٣٢]، بينما كان ابنه محمد الخامس (١٣٥٤-١٣٥٩ م / ١٣٦٢-١٣٩١ م) هو الذي طور البرنامج البنائي للمنطقة التي ذكرت سابقا بوساطة الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد، والمختلفة في الحجم والمرتبة في صفوف والمتناوبة مع صفوف أخرى من الحصى.

في الداخل بقي فضاء (البلدة) ذو الأبعاد الكبيرة، ٤٠٠٠ م٢، حيث يوجد مع منحدر حاد. وفي الوقت الحاضر كل الأرض تظهر مدرجة. والمدرجات بنيت

بواسطة حجارة القلعة نفسها، بكل تأكيد.فمن المحتمل جدا أنه ليس كل الفراغ وجد مشغول بالمنازل، وجزء كبير كان مجرد (الباكار)، وهو المكان المخصص من أجل الحماية المؤقتة للناس والماشية، ومع ذلك، فإن وفرة البلاط، فضلا عن الهياكل البنائية التي تبدو وكأنها غرف في هذا المكان تشير إلى أنها تضم عدد كبير من السكان الذين يقيمون بشكل دائم. حيث تخبر المصادر المكتوبة عن وجود مجموعة سكانية معينة في المنطقة، المخصصة للنشاطات الزراعية. فعند توزيع أراضي مدينة لوشة ذكر أن الأراضي في هذه المنطقة كانت مخصصة للزراعة، وعلى الرغم من الثروة الحيوانية الموجودة، فمن دون أدنى شك، هناك نشاطا اقتصاديا رئيسا في مكان جبلي مثل هذا.

إذا وجود مستقر سكاني بهيئة كبيرة على مقربة من المنطقة الحدودية هو أمر مميز. فالحدود لا يتم إشغالها فقط إلا عن طريق وحدات القوة العسكرية، ولكن ستكون في عملية الاستغلال السكاني المباشر حتى الغزو الاسباني النهائي.

وتم الانتهاء من النظام الدفاعي للقلعة مع تشييد خندق خارجي. كان مرئياً في الربع الشمالي الشرقي من الحصن، في الخارج. حيث تم تنفيذ ذلك عن طريق حفر الصخر. الشكل (١٣)

إذا من الواضح أن جهاز عسكري ذو أهمية كبيرة كان مشغولاً للدفاع عن الأراضي الحدودية اعتباراً من هذا الحصن. حيث كسب حصن الصخرة كيان متطور مع الوقت في إطار عصر بني نصر: حيث تم تغيير هيئته، من برج- قرى بدائي، ليصبح حصن بلدة حدودية. الأمر الذي يدل على أنه مستقر سكاني، ولكن مع تغييرات واضحة، على الأقل، فإنه يحتفظ بنظام دفاعي.حيث يستخدم المستقر السكاني هذا سابقاً برج للدفاع ضد هجمات العدو، والآن لديه سور أكبر بكثير وأقوى للحماية. وهذا يؤدي للاستنتاج أن الهجمات أو خطر المعاناة عليهم كان أكبر وفقاً مع مرور الوقت.

وأخيراً، يمكن القول أن حصن الصخرة كان واحداً من ما يسمى القرى الحدودية، وهو نوع من التسوية السكانية المميزة لحدود بني نصر.ذات الدفاعات المتشابهة (تقنيات الأسوار المزدوجة، والموقع...) مع البعض من نظرائه، ولكن أيضاً هناك اختلافات هامة (خصوصاً المتعلقة بتقنيات البناء). ولا يأخذ كيان دور بلدات أخرى مثل مونتيفريو، إيورا، وفوق كل شيء موكلين، لكنه اضطر إلى لعب دوراً هاماً في ذلك الوقت، ومعظم المصادر والباحثين أعطته تلك الأهمية. وبخاصة أن الاستقرار السكاني في مدينة لوشة موثق منذ الوقت الأول للفتح العربي الإسلامي للأندلس، على الرغم أنه منذ بداية القرن١١ م وخصوصاً في العصر الموحدي، ولاحقا في عصر بني نصر، عندما أصبح للمدينة أهمية كبيرة، بسبب موقعها الحدودي اعتباراً من سقوط أثييكرا، إثناخار، وأخيرا أرشذونة في القرن ١٥ م، فقاموا باعادة تحصين لدفاعاتها وتقويتها[٣٣].

٦) الخاتمة:

إذاً فحسب تقنية البناء المستخدمة في حصن الصخرة، وبالإضافة إلى أخبار المصادر التاريخية يعتقد أنه يعود إلى بداية مملكة بني نصر أو اللحظات الأخيرة من العصر الموحدي وحتى عهد محمد الخامس (١٣٥٤-١٣٥٩ م/١٣٦٢-١٣٩١ م).

وهذا الحصن يقع ضمن النظام الدفاعي لمنطقة لوشة الحدودية وهي المنطقة الإدارية السابعة في محافظة غرناطة، وهذا النظام يحتوي على العديد من الحصون والأبراج التي تتصل فيما بينها لتحقيق أفضل وسيلة للدفاع عن هذه المنطقة. ففي هذه المنطقة توجد عدة قلاع وهي (لوشة، الصخرة، بيسكيرا،ثيسنا ومونتيفريو)، وكذلك يوجد عدة أبراج قرى وهي (مارتيا، أجيكامبو، كامبو أبور، ريوفريو وكورتيخودي أيرة)، وهناك أيضا عدة أبراج مراقبة وهي (كورتيخويلو، أنيوس وكوثمانيس).

وكدراسة مقارنة لحصن الصخرة مع أحد أهم الحصون في منطقة لوشة، وهو حصن مونتيفريو، والذي يقع في الجهة الشمالية الشرقية منه. حيث يلاحظ أن حصن مونتيفريو تم تشكيله من قبل اثنين من الأسوار: أولهما السور السفلي الذي يحيط بفضاء واسع يضم التمركز السكاني العربي المسلم والذي استمر حتى السيطرة المسيحية الاسبانية في عام ١٤٨٦م. ويوجد فيه بقايا منازل وخزان ماء حفر في الصخر. وسور البلدة هذا مشيد بواسطة تقنية الحجارة ذات الشكل والحجم غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والمرتبة في صفوف والمتناوبة مع صفوف من الحصى، مع ستة أبراج، ثلاثة منهم على الجانب الجنوبي الشرقي، وجميعها ذات حجم كبير، وشكلها نصف دائري. وهناك اثنين على الجانب الجنوبي شكلهما نصف دائري أيضاً. وأما البرج الأخير فإنه يقع على الجانب الجنوبي الغربي، وهو ذو شكل مستطيل. وثانيهما السور العلوي، والذي تم تعديله بشكل كبير بعد السيطرة المسيحية الاسبانية، حيث بعد سيطرتهم عليه قاموا ببناء منزل السيد الإقطاعي فيه وكنيسة القرية. ولا يزال هناك برج قائم فيه، وهو ذو شكل مربع مشيد بواسطة تقنية الحجارة ذات الشكل والحجم غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والمرتبة في صفوف والتي تم تعديلها بشكل كبير، وكذلك هناك بقايا جدران مشيدة بواسطة الحجارة المربعة المهذبة المتوازية السطوح. ويوجد في هذا السور خزانين ماء: الأكبر في الحجم يقع بجانب الكنيسة وهو مشيد بواسطة تقنية الطابية الاسمنتية، مع ثلاثة قنوات طولية تتقاطع مع اثنتين أخريتين، أغلقت في ذلك الوقت بواسطة عقود من الأجر. وأما الخزان الآخر، فهو أصغر من ذلك بكثير، وحفر في الصخر، وعلى الرغم من أنه لا يزال هناك عقد واحد لكن يوجد أيضا بقايا لبناء مجهول الوظيفة بسبب الصرف الصحي. وحصن مونتيفريو يعود لعصر بني نصر، حيث أن أول ذكر للحصن يأتي من ابن الخطيب، في القرن الرابع عشر ميلادي. بعد السيطرة المسيحية الإسبانية،

حيث سلم كإقطاعية للسيد فرنانديز دي كوردوبا، والذي أمر ببناء الكنيسة وإخلاء الفضاء الذي يحيط به السور السفلي من السكان.

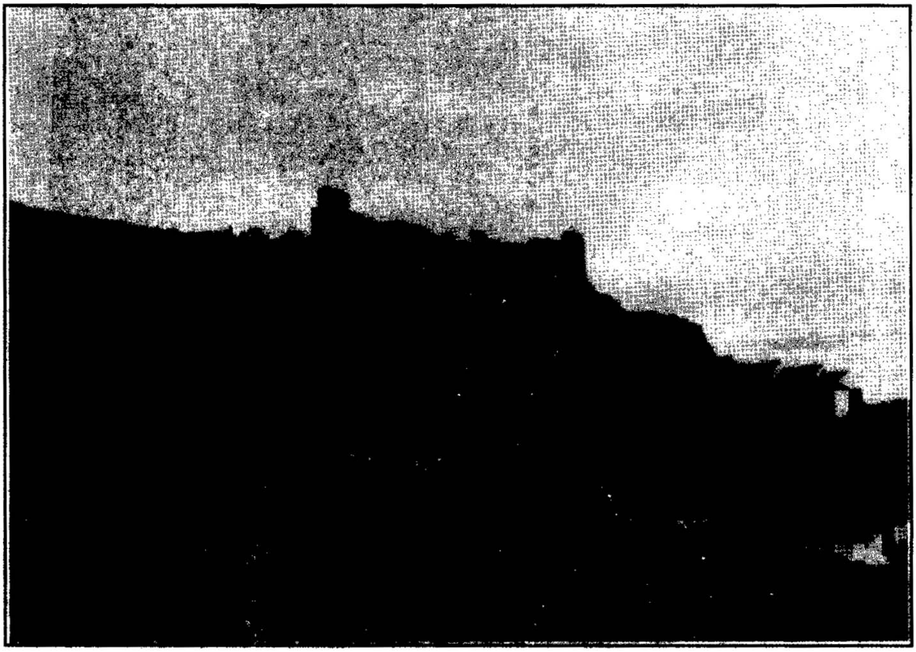
فقلعة الصخرة تتواصل مع قلعتي بيسكيرا وثيسنا بشكل مباشر دون الحاجة لأبراج المراقبة أو القرى بينهم لأن المسافة الفاصلة بينهم ليست كبيرة.وأما لتأمين اتصالها بقلعة لوشة المركزية للمنطقة فيكون عن طريق برج مارتيا ثم برج كورتيخو دي أيرة، وبعد ذلك تصل الإشارة إلى قلعة لوشة. بينما يكون إتصالها بقلعة مونتيفريو عن طريق الاتصال ببرج القرى في الصخرة ثم بأبراج المراقبة أنيوس وكوثمانيس، ومنه إلى قلعة مونتيفريو. الأشكال (١٤-١٦)

وأما لتأمين الاتصال بين المنطقة الإدارية السابعة(لوشة) والمنطقة الإدارية الثامنة (موكلين)، يكون عن طريق الاتصال بين قلعة مونتيفريو وقلعة إيورا الموجودة في الجانب الغربي من المنطقة الثامنة ومنها إلى بقية أبراج وقلاع المنطقة الثامنة. الأشكال (١٤،١٥،١٧)

بينما للتواصل بين المنطقة الإدارية السابعة (لوشة) والمنطقة الإدارية الثانية عشر (الحامة)، يكون بواسطة الاتصال بين قلعة لوشة ومنها إلى برج سلار الذي يقع إلى الجنوب الشرقي منه، ثم إلى برج بوينابيستا، ومنه إلى قلعة الحامة. الأشكال (١٨، ١٥، ١٤) مع العلم أن التواصل بين الأنظمة الدفاعية في الأندلس كان عن طريق استخدام النار في الليل والدخان في النهار، لذلك يجب أن تكون المسافة بين حصن وآخر، أو بين قلعة وبرج مراقبة أو برج قرى، تتراوح بين ٥-٧ كم فقط.

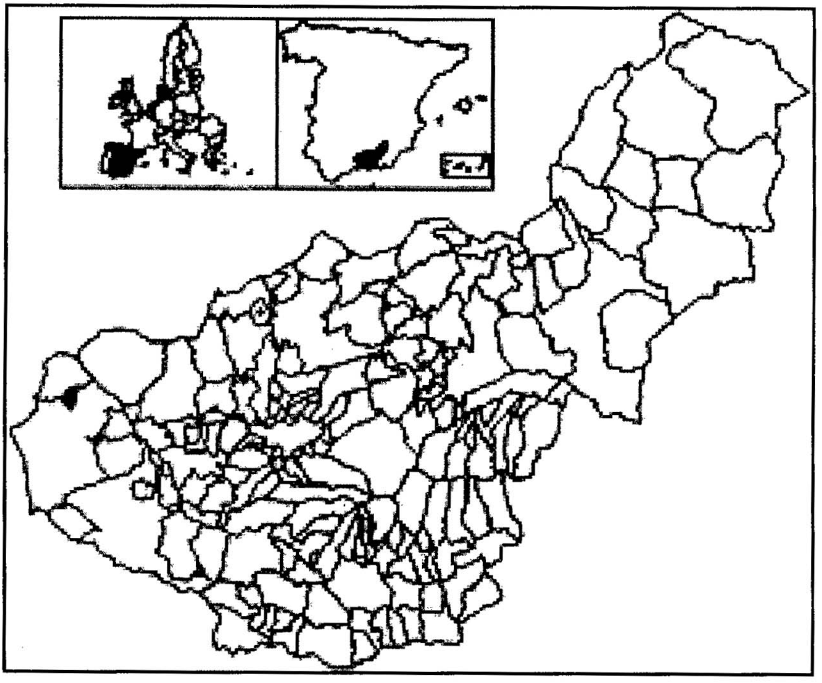
وأنه لينتظر تدخل معماري لتدعيم وحفظ حصن الصخرة، ولا سيما في السور العلوي للقصبة، والذي يتوقع أن يتم ذلك في المستقبل القريب.

فهرس الأشكال



شكل ١: صورة قديمة لقلعة الصخرة

MALPICA CUELLO, Antonio: *Poblamiento y castillos en Granada*.Barcelona, ١٩٩٦,p ٢١٥.

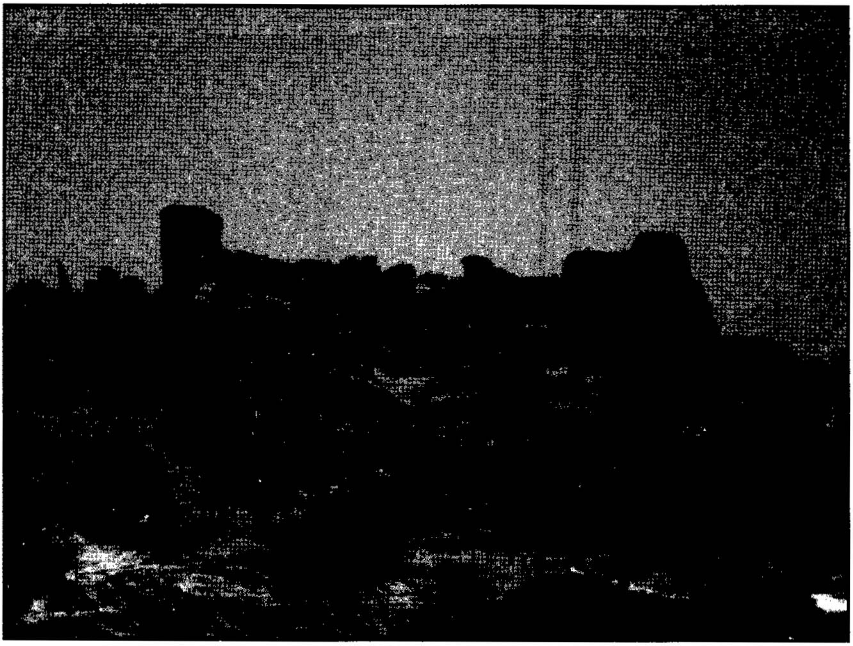


شكل ٢: خريطة توضح موقع قلعة الصخرة بالنسبة لمحافظة غرناطة، في أقصى الجهة الشمالية الغربية

من الانترنت موقع ويكيبيديا

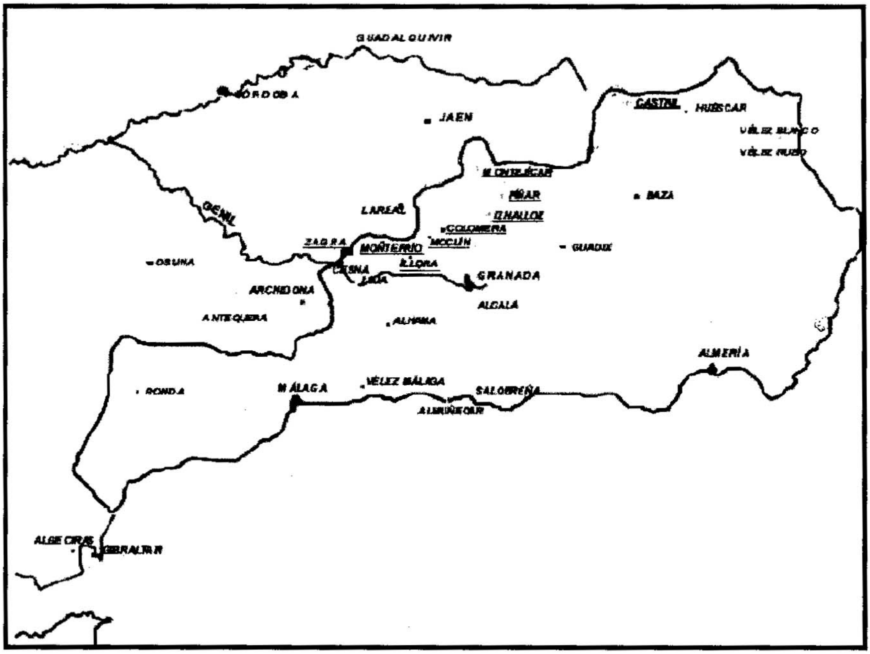


شكل ٣: موقع تل قلعة الصخرة بالنسبة لقرية الصخرة، في الجهة الشرقية من القرية
ACIÉN ALMANSA, M.(١٩٩٩): *Los ṭugūr del reino de Granada.Ensayo de identificación.*Castrum, ٥, Archéologie des espaces agriares méditerranées au Moyen Âge.Murcia, pp.٤٢٧.

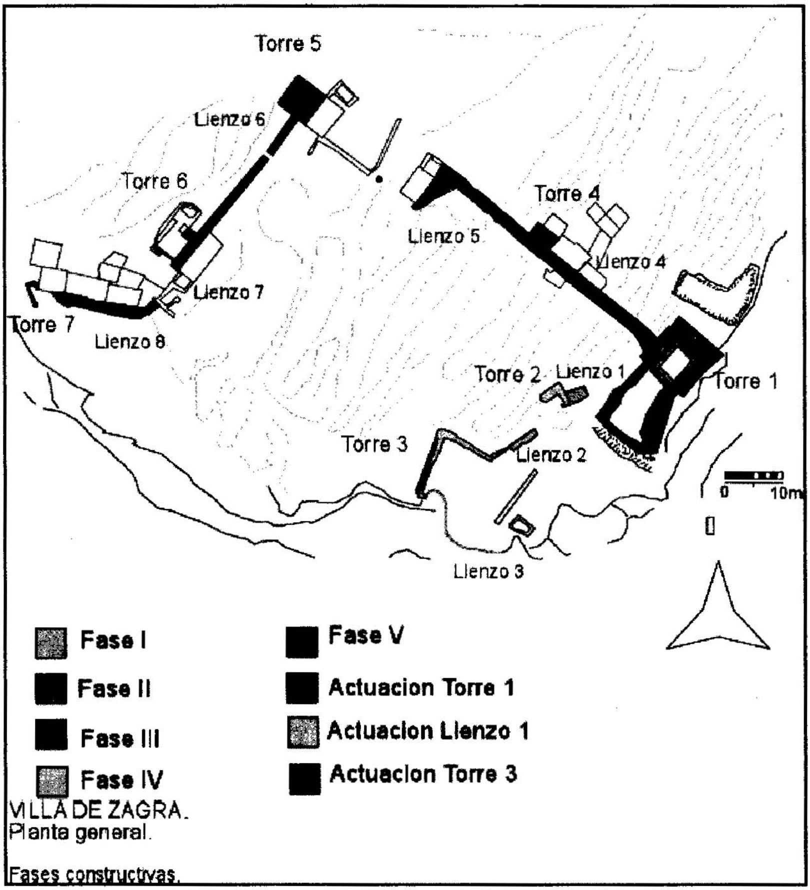


شكل ٤: منظر عام لقلعة الصخرة

MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٤٢٣.

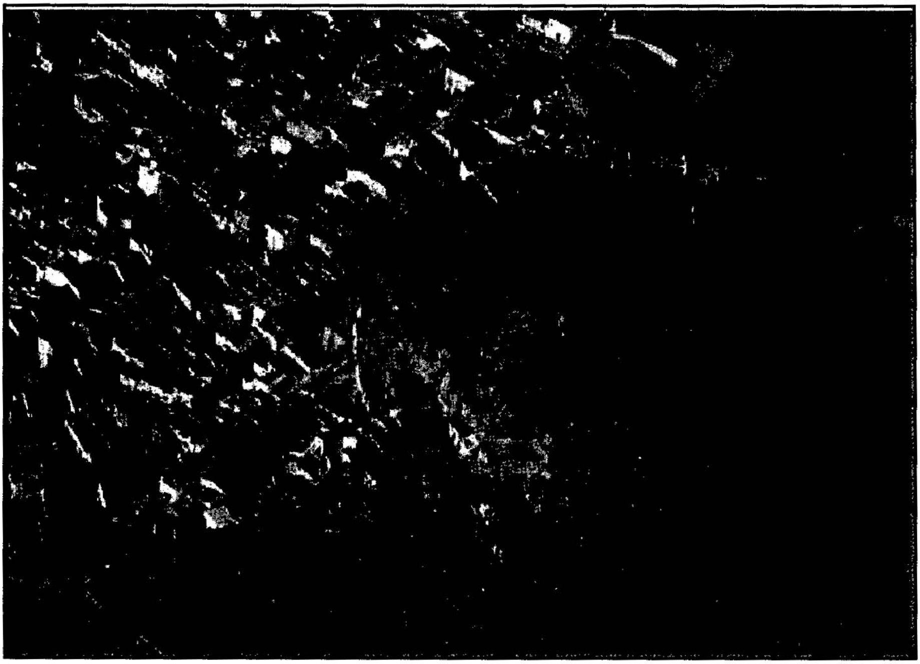


شكل ٥: خريطة تظهر موقع قلعة الصخرة بالنسبة إلى مدينة لوشة، وبالنسبة لنهر خينيل، وبالنسبة لمركز محافظة غرناطة، وبالنسبة لأهم القلاع حولها.
JIMÉNEZ PUERTAS, M.(٢٠٠٢): *El poblamiento de la tierra de Loja en la Edad Media*, Universidad de Granada, ٢٠٠٢,p ١٣٥.



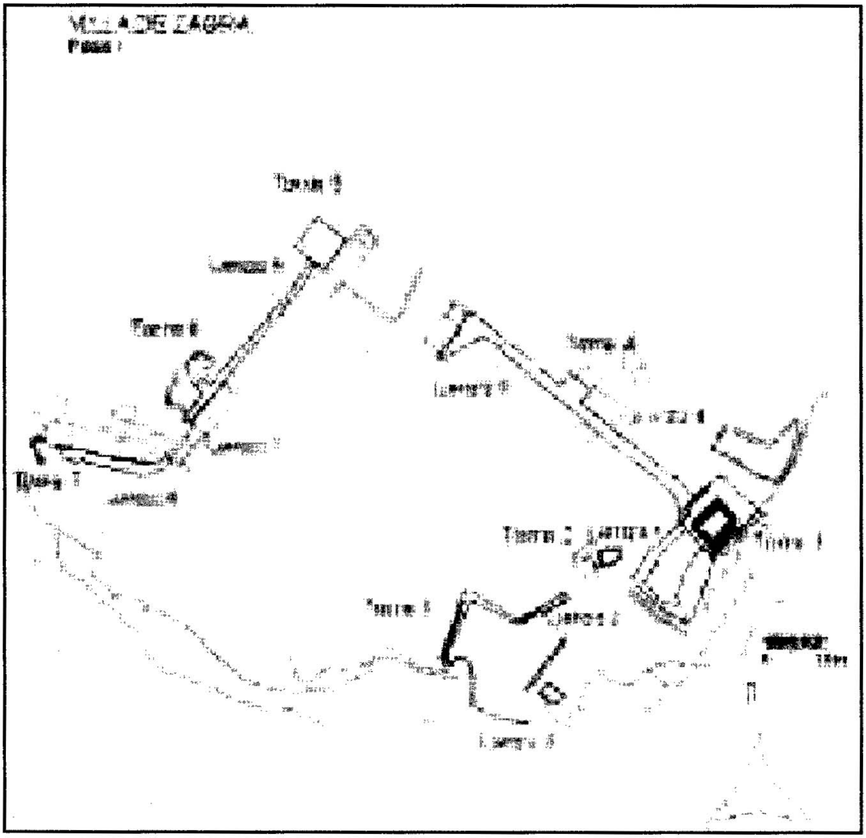
شكل ٦: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين توزع الأبراج والبدنات حيث أن كلمة برج هي torre وكلمة بدنة هي lienzo، وكما يبين أماكن توضع المراحل البنائية الخمسة المستخدمة في بناء القلعة حيث أن كلمة مرحلة هي .fase

Juan Alonso CAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo de Zagra*, EN Arqueologia y Territorio ñumero٣, ٢٠٠٦.p ٧٤.

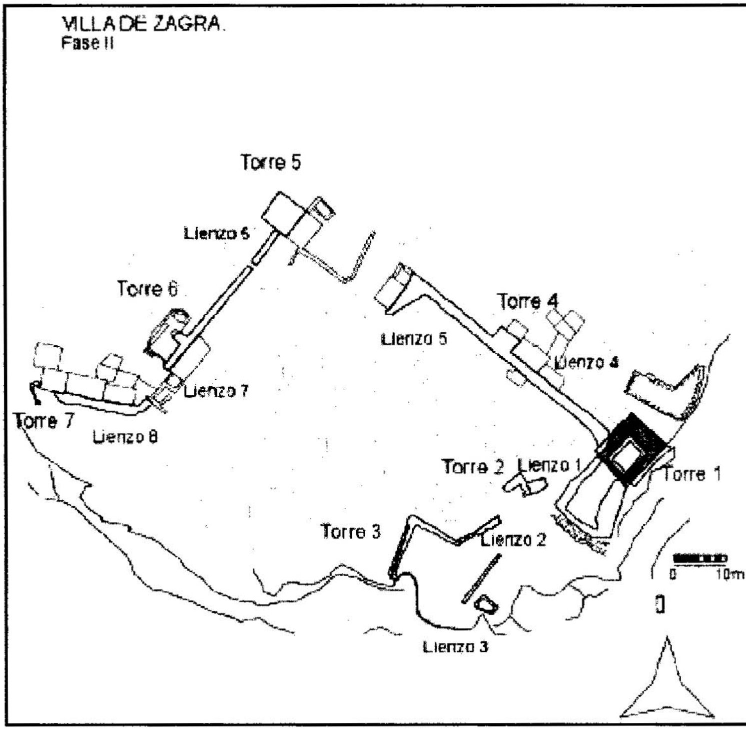


شكل ٧: صورة جوية لقلعة الصخرة

MALPICA CUELLO, A.(١٩٨٧): El *Castillo de Zagra y el alfoz de Loja a fines de la Edad Media*.Homenaje al profesor Juan Torres Fontes.Murcia II.١٩٨٧,p ٩٦٩.

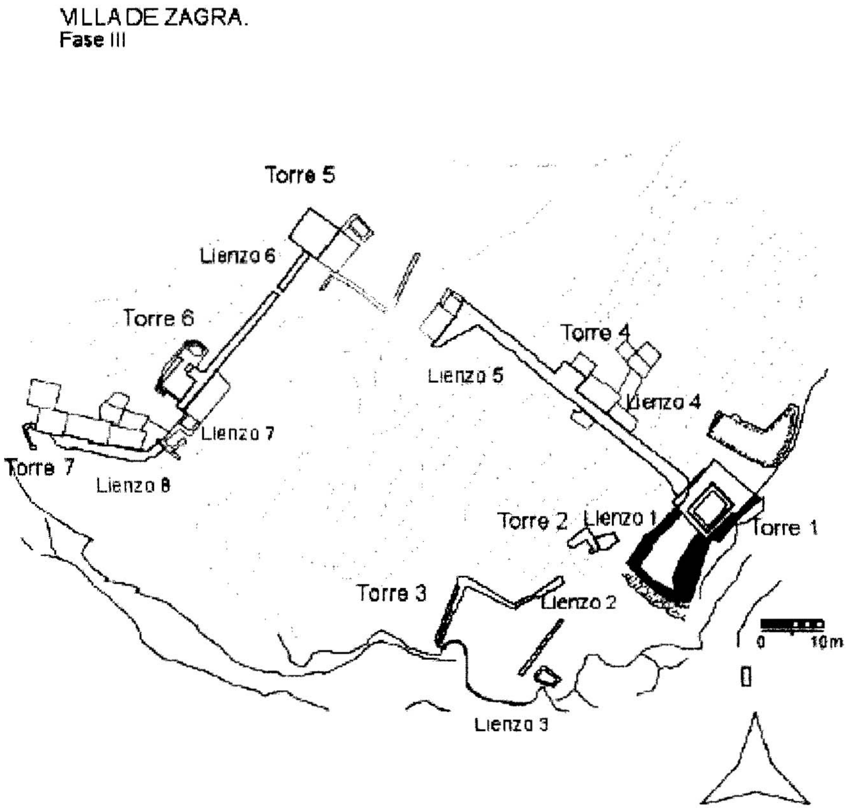


شكل ٨: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين مكان توضع المرحلة البنائية الأولى والمستخدمة في تشييدها والتي هي الطابية الترابية ١ والتي استخدمت في البرج(١)
Juan Alonso CAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo de Zagra*.p ٧٧.

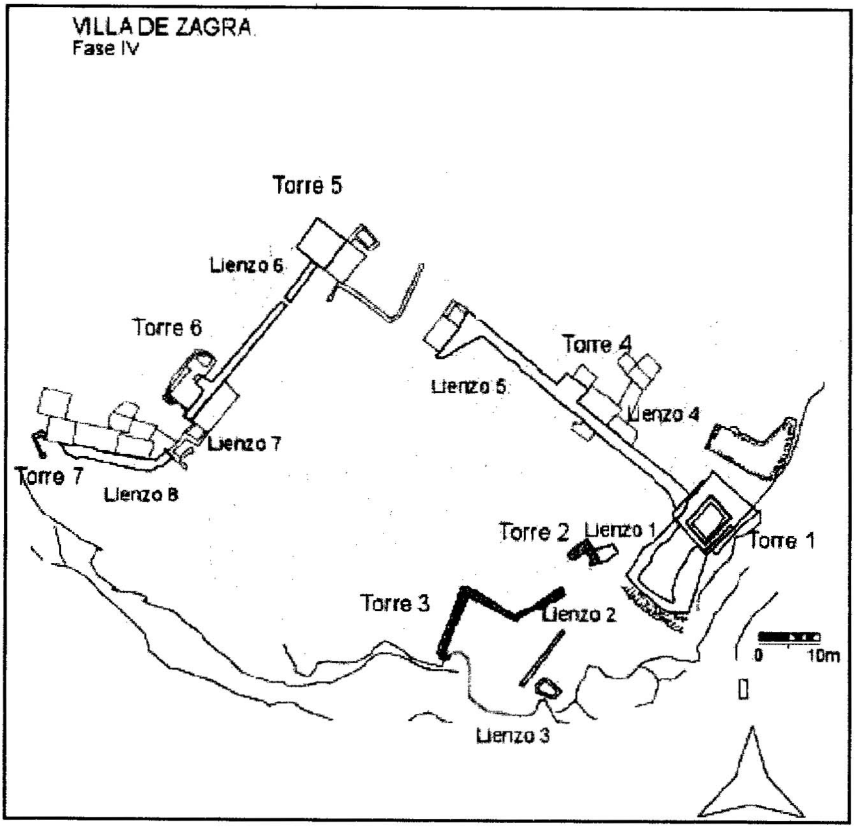


شكل ٩: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين مكان توضع المرحلة البنائية الثانية، والمستخدمة في تشييدها والتي هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد (١)، والتي استخدمت في تغليف البرج(١)

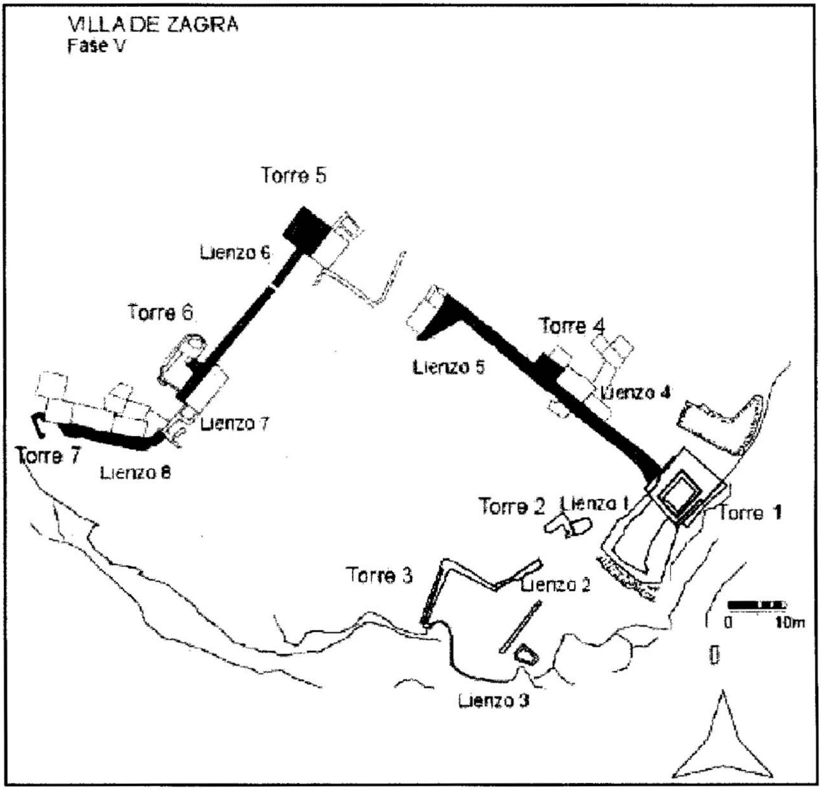
Juan Alonso CAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo de Zagra*.p ٧٩.



شكل ١٠: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين مكان توضع المرحلة البنائية الثالثة، والمستخدمة في تشييدها والتي هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد (٢)، والتي استخدمت في الجدارين الشرقي والغربي للبرج (١)، وفي السور العلوي للقصبة المستطيلة الشكل الذي يلتصق مع الجدار الجنوبي للبرج (١).
Juan Alonso CAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo de Zagra*.p ٨١.

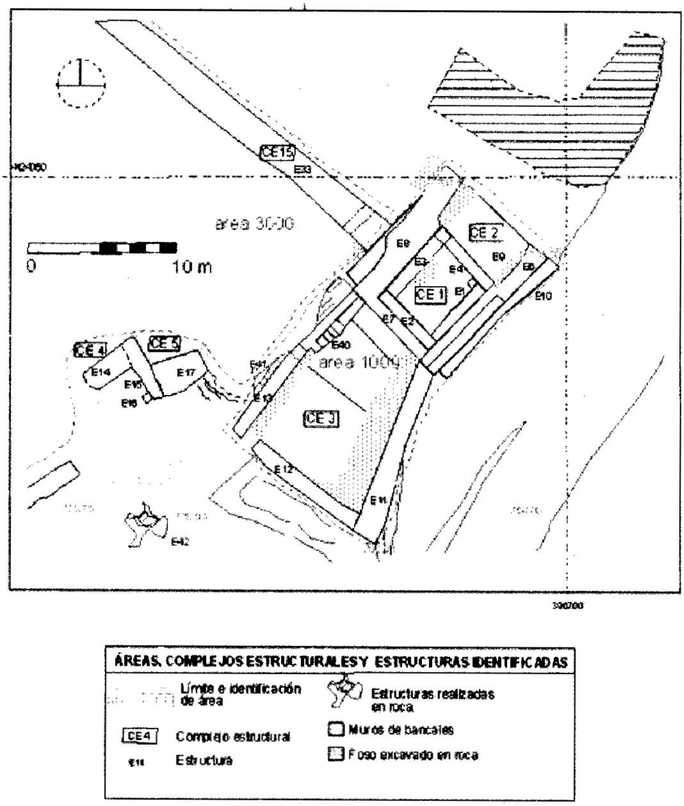


شكل ١١: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين مكان توضع المرحلة البنائية الرابعة، والمستخدمة في تشييدها والتي هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد (٤)، والتي استخدمت في السور السفلي للقصبة (البرج٢، البدنة٢، البرج٣ والبدنة ٣).
Juan AlonsoCAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo de Zagra*.p ٨٤.



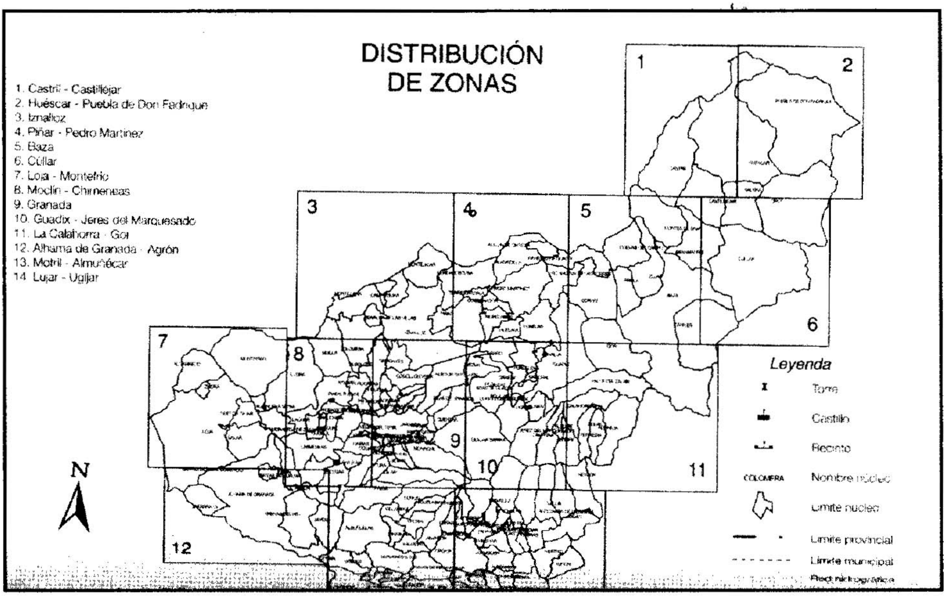
شكل ١٢: مسقط قلعة الصخرة والذي يبين مكان توضع المرحلة البنائية الخامسة، والتي هي الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد (٦) والمستخدمة في تشييدالأبراج، والطابية كاليكاستر ادو (٣) والمستخدمة في تشييد البدنات، والتي استخدمت في سور البلدة (البدنة٤، البرج٤، البدنة٥، البرج٥، البدنة٦، البرج٦، البدنة٧، البدنة٨ والبرج٧).

Juan AlonsoCAÑADAS SUAREZ: *EL Castillo dc Zagra*.p ٨٦.



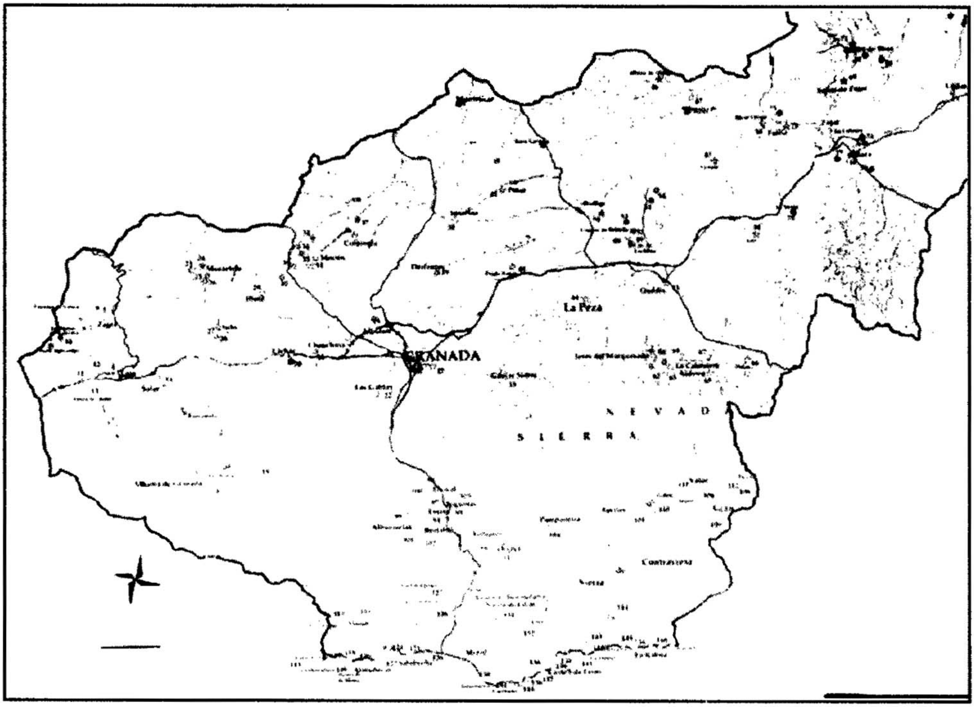
شكل ١٣: مسقط القصبة في قلعة الصخرة مع جزء من سور البلدة، مع مكان توضع الخندق المحفور في الصخر في الجهة الشمالية الشرقية من القصبة والمهمش بشكل خطوط أفقية.

JIMÉNEZ PUERTAS, M.(٢٠٠٢): *El poblamiento de la tierra de Loja en la Edad Media*,p ١٣٩.



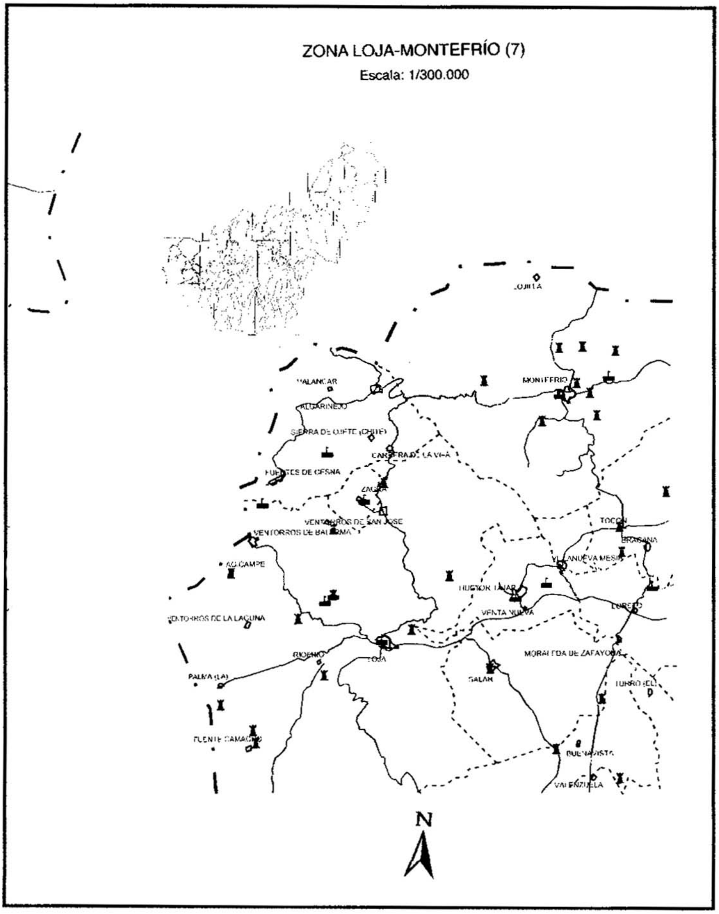
شكل ١٤: خريطة توضح توزع المناطق الإدارية في محافظة غرناطة حيث تشغل لوشة المنطقة السابعة، بينما تشغل موكلين المنطقة الثامنة، وتشغل الحامة المنطقة الثانية عشر.

MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٢٢٦.



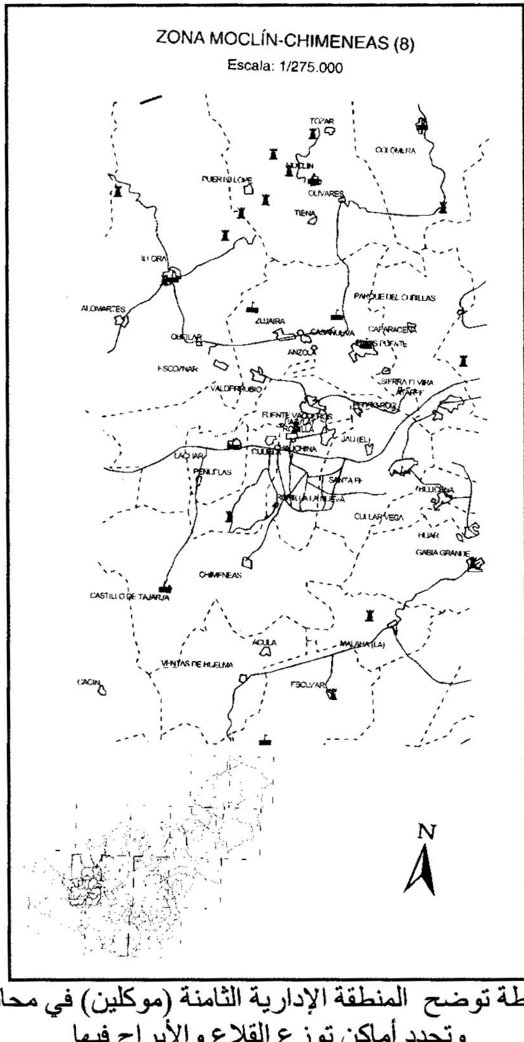
شكل ١٥: خريطة توضح القسم الأكبر من محافظة غرناطة، وتحدد مكان قلعة الصخرة في أقصى الجهة الشمالية الغربية منها حيث رمز النجمة يشير إلى قلعة بينما رمز الدائرة يشير إلى برج.

MALPICA CUELLO, Antonio: *Poblamiento y castillos en Granada*, p ٢١٦.



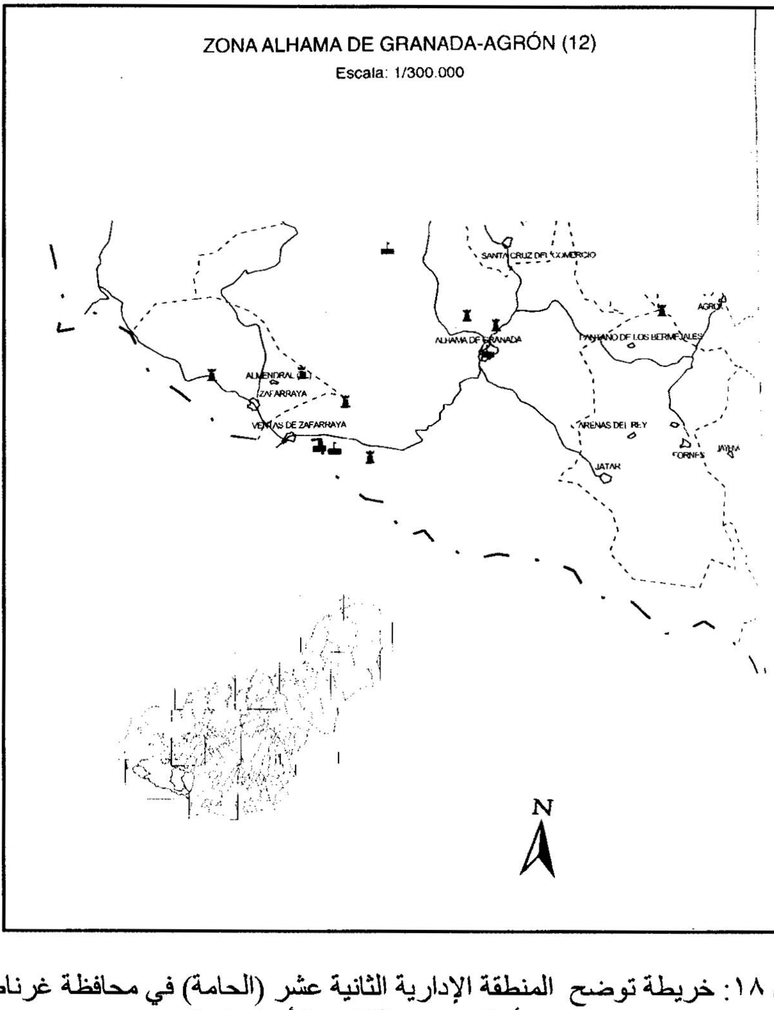
شكل ١٦: خريطة توضح المنطقة الإدارية السابعة (لوشة) في محافظة غرناطة، وتحدد أماكن توزع القلاع والأبراج فيها

MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٢٣٣.



شكل ١٧: خريطة توضح المنطقة الإدارية الثامنة (موكلين) في محافظة غرناطة، وتحدد أماكن توزع القلاع والأبراج فيها

MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٢٣٤.



شكل ١٨: خريطة توضح المنطقة الإدارية الثانية عشر (الحامة) في محافظة غرناطة، وتحدد أماكن توزع القلاع والأبراج فيها

MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٢٣٨.

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) **MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María**: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٤٢٣.

(٢) **JIMÉNEZ PUERTAS, M.(٢٠٠٢)**: *El poblamiento de la tierra de Loja en la Edad Media, Universidad de Granada,* **٢٠٠٢,p ٥٩.**

(٣) **BARRIOS AGUILERA, M y MARTÍNEZ RUIZ, J.(١٩٨٤)**: *Contribución a la toponimia andaluza.Loja y su tierra.Historia y lingüística (según el Libro del Repartimiento),* **Foro de las Ciencias y de las Letras, ٧-٨,p ٤٥.**

(٤) **MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María**: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII).*Granada, ١٩٩٩,p ٤٢٢

(٥) **MALPICA CUELLO, A.(١٩٨٧)**: *El Castillo de Zagra y el alfoz de Loja a fines de la Edad Media.***Homenaje al profesor Juan Torres Fontes.Murcia II.١٩٨٧,p ٩٦٩.**

(٦) **JIMÉNEZ PUERTAS, M.(٢٠٠٢)**: *El poblamiento de la tierra de Loja en la Edad Media,* **Universidad de Granada, ٢٠٠٢,p ١٣٦.**

(٧) **LAFUENTE ALCÁNTARA, E.(١٨٦٨)**: *Relación de algunos sucesos de los últimos tiempos del reino de Granada,* **Madrid,p ٥٧.**

(٨) **FERNÁNDEZ DE CORDOBA, F.(١٩٦١)**: *Historia y descripción de la antigüedad y descendencia de la Casa de Córdoba,* **Boletín de la real Academia de Córdoba de Bellas Letras y Nobles Artes, ٨١.١٩٦١,p ٣٢٤.**

(٩) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر في ديوان المبتدأ والخبر..المعروف **بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج ٤، ص١٦٩.

(١٠) المقري، أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٦، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٢١٥، ٢١٩.

(١١) عنان، محمد عبد الله: **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، العصر الرابع، ط ٤، ١٩٨٧ م، ص ٤٦١، ٤٦٢.

(١٢) عنان، محمد عبد الله: **دولة الإسلام في الأندلس**، ص ٤٦٣، ٤٦٤.

(١٣) ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ط ١، ٢٠٠٣ م، ص ٥٥.

(١٤) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٢، ط١، ٢٠٠٣م، ص٥٥؛ عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، ص٤٦٩.

(١٥) **ROSSELL, C.(١٩٥٣):** *Crónicas de los Reyes de Castilla*.**Madrid,p ٥١٦.**

(١٦) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج ٢، ط١، ٢٠٠٣ م، ص ١٠٥، ١٠٦؛ ابن خلدون: العبر في ديوان المبتدأ والخبر..المعروف بتاريخ ابن خلدون، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج٧، ص٢٦١،٢٦٢.

(١٧) ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج ٢، ط ١، ٢٠٠٣ م، ص ١١٠؛ ابن خلدون: **العبر في ديوان المبتدأ والخبر..المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج ٧، ص ٢٦٢.

(١٨) ابن خلدون: **العبر في ديوان المبتدأ والخبر..المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج ٧، ص ٢٦٣، ٢٦٢.

(١٩) العبادي، أحمد: **محمد الغني بالله ملك غرناطة**.مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد.المجلدان ١١و١٢، ص ٤٣٨.

(٢٠) **ROSSELL, C.(١٩٥٣):** *Crónicas de los Reyes de Castilla*.**Madrid,p ٥١٧.**

(٢١) **ROSSELL, C.(١٩٥٣):** *Crónicas de los Reyes de Castilla*.**Madrid,p ٥١٧.**

(٢٢) **PALENCIA, A.(١٩٠٩):** *Guerra de Granada*, **Madrid,p ١٦٦.**

(٢٣) مؤلف مجهول: **آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، ج ٦، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٢ م، ص ٢٦٧.

(٢٤) مؤلف مجهول: **آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، ج ٦، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٢ م، ص ٧٢، ٧١.

(٢٥) **PALENCIA, A.(١٩٠٩):** *Guerra de Granada*, **Madrid, p ١٢١.**

(٢٦) إن هذه التقانة معروفة جداً وقد ذكرها [ابن خلدون] بوصف دقيق: "تعد القوالب الخشبية بأنواع مختلفة من الألواح، وتتصل هذه مع بعضها البعض بطريقة اعتراضية بواسطة عوارض خشبية تسمى المسلات أو الإبر، ويمكن تقوية هذا القالب باستخدام حبال متينة حيث تقدم ثباتاً للقالب، أما الفراغات الجانبية فيمكن تغطيتها بالخشب أيضاً.وفي هذا القالب الخشبي تختلف العناصر البنائية فيه فهي تتشكل عادة من تراب وحصى وحجارة وكلس إضافة إلى الكسر الفخارية وهي

شائعة.ولدراسة كل حالة على حده، من الضروري الانتباه إلى هـذه العناصـر البنائية الداخلة في هذه الخلطة وقيمها النسبية.بطريقة معينة يمكن قياس مظهرهم بشكل مرئي، التي يمكن أن تكون ترابية، حصوية، صلبة..الخ؛ على الرغم من أنه من المستحسن دائما إجراء تحليل دقيق.أنظر في
IBN JALDON: *Introducción a la historia universal*.Traduc.Juan FERES.México, ١٩٧٧, pp.٧٢١-٧٢٢.

(٢٧) يحتوي هذا النوع على أربعة أجزاء من الطين الناعم المضاف إليه جزءاً من الرمل والحصى. وهناك نوع آخر يتألف من جزئين من الطين الناعم مع جـزء من الرمل وجزء آخر من التراب النباتي.وهناك نوع بسيط جداً حيث يمزج جزء من الطين الناعم مع جزء آخر من الحصى وجزئين من التربـة النباتيـة.هـذه الأنواع كان استخدامها مألوفاً لدى عمال البناء حتى عهود قريبة.أما في العهـود الوسطى فلم تكن مختلفة عما ذكر سابقاً.

استخدمت هذه التقانة في تشييد التحصينات الخاصة فـي الأمـاكن المعـدة للجنود والماشية داخل القلعة، وقد انتشرت هذه التقانة بشكل واسع فـي الأقـاليم الإسبانية.وإن ضعف المادة الخاصة بتشييد هذه الأماكن أدت إلى اختفاء الكثيـر من هذه المنشآت وخاصة في الحالات التي لا يقومون فيها بإعادة البناء.

إن قيام المنشآت باستخدام هذه التقانة تكون عادة فـي التجمعـات السـكنية الفقيرة، إلا أنها غنية بالأيدي العاملة، ولكي تكون الطابية فعالـة ينبغـي تـرك التراب ليصل إلى مرحلة التعفن، أي تركه في الهواء خلال فترة فصل الخريف بكامله، لتهويته مع قيامنا بين الحين والآخر بتحركيه خلال خمسة أشـهر علـى الأقل مع تعرضه خلال فصل الشتاء كله للأمطار بهدف التخلص من بقايا المواد ذات الأصل العضوي.

ولإعطاء هذا المزيج ثباتاً كبيراً عند القيام باستخدامه يمكن أن يضاف إليه مادة كلسية أو العمل على ترطيبه بواسطة مزيج كلسي أو بإضافة كسر آجرية على حواف الطابية المختلفة.

صنف آخر من الطابية أسرع في البناء، ولكن أقل مقاومة والتي تستخدم الوحل والقش المسحوق بدلا من التراب.

والملاط يتألف في المقام الأول من التراب مع نسبة متغيرة من الكلس، تتراوح من غيابه إلى زيادة كمية كبيرة نسبيا حتى يصل إلى التصلب ويشبه الخرسانة. وكما يتم توزيع المواد بتجانس في القالب الخشبي. وهو يمثل الشكل الأكثر شعبية من الطابية، واستخدامها على حد سواء في المساكن الحضرية والريفية والأسوار.في هذه الحالة يمكن بدء العمل مباشرة في الأرض بدون أساس حجري، على الرغم من أن هذا الظرف سيكون نقطة الضعف الأكبر له.

عندما يتم خلط التراب بكل كتلته، مع الكلس، مما يؤدي إلى طابية ترابية مستقرة تسمى الطابية الحقيقية. وتجمع أيضا بين المصطلحين، الطابية المشتركة والطابية الحقيقية.أنظر في:

ESLAVA GALÁN, Juan: "Materiales y técnicas constructivas en la fortificación bajomedieval".*Cuadernos de Estudios Medievales*, XII-XIII, (١٩٨٤), pp.٢٧١-٢٧٨..

MARTÍN CIVANTOS, José María: *El Zenete (Granada) en época medieval: poblamiento y organización del territorio*.Tesis doctoral defendida en la Universidad de Granada.Granada, ٢٠٠٣, (inédita), p.٣٣.

LÓPEZ MARTÍNEZ, Francisco Javier: "Tapias y tapiales", en *Logia.Arquitectura y Restauración III.N* ٨.Valencia, ١٩٩٩, pp.٧٤-٨٩.

(٢٨) هي عبارة عن حجارة كلسية يمكن أن نصل بينها بواسطة مزيج طيني أو كلسي أو بدونهما.

إن هذه الحجارة يمكن مشاهدتها في كل المنشآت المعمارية التي قمنا بدراستها تقريباً وخاصة من جهة الواجهة أو بوضعها مظهرةً الوجه الأكثر صقلاً.

إن الفراغات الحاصلة بين هذه الحجارة تملأ عادة بحجارة صغيرة الحجم، عادة ما تتوضع هذه الحجارة على شكل صفوف غير منتظمة. فيما يتعلق بطريقة البناء المستخدمة بواسطة هذه الحجارة نلاحظ أولاً أنه يتم تشييد وجهيّ الجدار الخارجي والداخلي بهذه الحجارة مع ترك الداخل فارغاً حتى ارتفاع معين. حينئذ يتم ملء هذا الفراغ بمزيج من الملاط وهذه الحجارة ولكن غير المنتظمة الشكل والصغيرة الحجم.

إن الملاط عادة ما يضغط بطريقة لا تترك مجالاً لترك فراغات بين الجدران ولا فراغات بين حجارة الجدران الخارجية.

ومع ذلك فإنه كان واضحاً أن المسلمين كانوا يستخدمون الحجارة الكلسية وأحياناً في أماكن شديدة الإنحدار والفقيرة بمواردها المائية كانوا يستخدمون الحجارة التي استخدمت في القرن ١٣م، وبالرغم من ذلك من الأهمية بمكان التوضيح أنه رغم الاستمرار في استخدام الطابية والحجارة الكلسية فإن المسلمين بدؤوا باستخدام الحجارة ذات الشكل غير المنتظم والمهذبة من طرف واحد والشبيهة بتلك المستخدمة من قبل المسيحيين.

فيما يتعلق بأنواع تقانات بناء الحجارة ذات الشكل غير المنتظم هناك:

-غير المرتبة: تتوضع الحجارة فيها بشكل غير منظم تقريباً دون ظهور صفوف واضحة، يمكن أن تكون وجوهها مهذبة أو غير مهذبة مع اختلاف في

الحجم، أما فيما يتعلق بالمظهر فإنه في كثير من الحالات يظهر بمظهر خشن. عادة ما يستخدم هذا النوع في بناء الجدران وبناء الفواصل بين المدرجات أو التروتسات الزراعية في التلال.

- المرتبة: تتوضع فيها الحجارة بشكل منظم في صفوف واضحة للعين المجردة بحيث يتم تهذيب كل حجر فيها بشكل يظهر الوجه المهذب إلى الخارج وهي متجانسة من حيث الحجم، وعادة ما تستخدم بين هذه الحجارة من أجل إعطائها مظهراً مقبولاً حصى لملء الفراغات بينها.

- أما النوع الثالث فهو الحجارة ذات الشكل غير المنتظم المتوضعة ضمن صفوف واضحة متناوبة مع صفوف من الآجر: تظهر هذه التقانة بصفوف من الآجر أو بخطوط متناوبة مع الحجارة ذات الشكل غير المنتظم، عادة ما يظهر صفين أو ثلاثة من الآجر متناوبة مع صف من الحجارة.

إن الحجارة المستخدمة في هذه التقانة هي حجارة غير مهذبة ومختلفة الأحجام.

- أما النوع الرابع فهو الحجارة ذات الشكل غير المنتظم المتوضعة في صفوف واضحة متناوبة مع صفوف من الحجارة الطويلة المسطحة: هذا النوع من التقانة يستخدم ألواح حجرية صغيرة تتوضع بطريقة أفقية. لذلك فإن عملية التوضيب تكون واضحة جداً عندما يفقد الجدار طبقة الصقل الكلسية. أنظر في:

ESLAVA GALÁN, Juan: "Materiales y técnicas constructivas en la fortificación bajomedieval".*Cuadernos de Estudios Medievales*, XII-XIII, (١٩٨٤), pp.٢٧١-٢٧٨.

(٢٩) ACIÉN ALMANSA, M.(١٩٩٩): *Los ṭugūr del reino de Granada.Ensayo de identificación.***Castrum, ٥, Archéologie des espaces agriares méditerranées au Moyen Âge.Murcia, pp.٤٢٧-٤٣٨.**

(٣٠) هي طابية غنية بالكلس وتأتي فيها الطبقات مرتبة في الجزء الخارجي للقالب الخشبي بجانب ألواحه، بطريقة تشكل مقطعاً واضحاً لطبقة تعلوها طبقة أخرى حيث يقل وضوحه باتجاه داخل القالب الخشبي حتى يتم اختفاؤه، ثم تملأ بحشوة فقيرة جداً بالكلس، ويصعب التمييز بينها تقريباً في أكثر الحالات من الحشوات الحجارة الموجودة داخلها، على سبيل المثال هذه الحشوة تستخدم مواد أعيد استخدامها كالحصى وبعض الحجارة كبيرة الحجم، ومما لا شك فيه أن هذه الحجارة تتوضع فوق بعضها لتشكل طبقات فاصلة في أغلب الأحيان غير مرتبة ويطلق عليها اسم تابيال كاليكاسترادو.

LÓPEZ MARTÍNEZ, Francisco Javier: "Tapias y tapiales", en *Logia.Arquitectura y Restauración III.N* ٨.Valencia, ١٩٩٩, pp.٧٤-٨٩.

(٣١) **MALPICA CUELLO, A.(١٩٩٦):** *La alquería nazarí de Bordonar en la Vega de Granada.***Estudios de historia y de arqueología medievales-XI.pp.٣١٣, ٣٤٨.**

(٣٢) **DE LUQUE MARTÍNEZ, F.(٢٠٠٣):** *El Castillo de Píñar, análisis estratigráfico de las estructuras en superficie.***Granada, p ١٦٢.**

(٣٣)**MALPICA CUELLO, Antonio**: *Poblamiento y castillos en Granada.*Barcelona, ١٩٩٦, p ٢١٦.

قائمة المصادر والمراجع المستخدمة في البحث

١) قائمة المصادر العربية:

١. ابن الخطيب، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعد بن أحمد السلماني، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٢، ط ١، ٢٠٠٣ م.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: العبر في ديوان المبتدأ والخبر..المعروف **بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ج ٤ وج ٧.

٣. المقري، أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٦، ط ١، ١٩٩٥ م.

٤. مؤلف مجهول: **آخر أيام غرناطة، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الفكر، ج ٦، دمشق، ط ٢، ٢٠٠٢ م.

٢) قائمة المراجع العربية:

١. العبادي، أحمد: **محمد الغني بالله ملك غرناطة**.مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد.المجلدان ١١و١٢.

٢. عنان، محمد عبد الله: **دولة الإسلام في الأندلس**، مكتبة الخانجي، القاهرة، العصر الرابع، ط ٤، ١٩٨٧ م.

٣) قائمة المراجع الأجنبية:

١. **ACIÉN ALMANSA, M.(١٩٩٩):** *Los ṭugūr del reino de Granada.Ensayo de identificación.***Castrum, ٥, Archéologie des espaces agriares méditerranées au Moyen Âge.Murcia.**

٢. **BARRIOS AGUILERA, M y MARTÍNEZ RUIZ, J.(١٩٨٤):** *Contribución a la toponimia andaluza.Loja y su tierra.Historia y lingüística (según el Libro del Repartimiento)*, **Foro de las Ciencias y de las Letras, ٧-٨.**

٣. **DE LUQUE MARTÍNEZ, F.(٢٠٠٣):** *El Castillo de Píñar, análisis estratigráfico de las estructuras en superficie.***Granada.**

٤. **ESLAVA GALÁN, Juan**: "Materiales y técnicas constructivas en la fortificación bajomedieval".*Cuadernos de Estudios Medievales*, XII-XIII, (١٩٨٤).

٥. **FERNÁNDEZ DE CORDOBA, F.(١٩٦١):** *Historia y descripción de la antigüedad y descendencia de la Casa de Córdoba*, **Boletín de la real Academia de Córdoba de Bellas Letras y Nobles Artes, ٨١.**

٦. ٦.**IBN JALDON**(١٩٧٧): *Introducción a la historia universal.*Traduc.Juan FERES.México.

٧. **JIMÉNEZ PUERTAS, M.(٢٠٠٢):** *El poblamiento de la tierra de Loja en la Edad Media*, **Universidad de Granada.**

٨. **LAFUENTE ALCÁNTARA, E.(١٨٦٨):** *Relación de algunos sucesos de los últimos tiempos del reino de Granada*, **Madrid.**

٩. **LÓPEZ MARTÍNEZ, Francisco Javier**(١٩٩٩): "Tapias y tapiales", en *Logia.Arquitectura y Restauración III.N* ٨.Valencia.

١٠. **MALPICA CUELLO, A.(١٩٨٧):** *El Castillo de Zagra y el alfoz de Loja a fines de la Edad Media.***Homenaje al profesor Juan Torres Fontes.Murcia II.١٩٨٧.**

١١. **MALPICA CUELLO, A.(١٩٩٦):** *La alquería nazarí de Bordonar en la Vega de Granada.***Estudios de historia y de arqueología medievales-XI.**

١٢. **MALPICA CUELLO, Antonio(١٩٩٦)**: *Poblamiento y castillos en Granada*.Barcelona.

١٣. **MARTÍN GARCÍA, Mariano, BLEDA PORTERO, Jesús y MARTÍN CIVANTOS, José María(١٩٩٩)**: *Inventario de arquitectura militar de la provincia de Granada.(Siglos VIII-XVIII)*.Granada.

١٤. **MARTÍN CIVANTOS, José María(٢٠٠٣)**: *El Zenete (Granada) en época medieval: poblamiento y organización del territorio*.Tesis doctoral defendida en la Universidad de Granada.Granada, (inédita).

١٥. **PALENCIA, A.(١٩٠٩):** *Guerra de Granada*, **Madrid.**

١٦. **ROSSELL, C.(١٩٥٣):** *Crónicas de los Reyes de Castilla*.**Madrid.**

حقيقة الإبداعات العالمية لعلماء الحضارة العربية الإسلامية
(العلوم الطبية مثالاً)

د. عمار محمد النهار

قسم التاريخ- كلية الآداب/ جامعة دمشق

حقيقة الإبداعات العالمية لعلماء الحضارة العربية الإسلامية العلوم الطبية مثالاً

د. عمار محمد النهار

قسم التاريخ- كلية الآداب/ جامعة دمشق

ـ تمهيد:

ليس غرض هذه المقالة عرضاً لتلك الإبداعات الإنسانية التي تزخر بها الكتب شرقاً وغرباً، وإنّما تأصيل العلوم الحاضرة التي اقتبسها علماء الغرب وطوّروها وبنوا عليها و أنكروا أصولها أو حاولوا، بينما كانت تلك العلوم عربيــة المنبــت إســلامية (الهوية)، وترتب على هذا الأمر إنكار لإبداع العقل العربي المسلم الذي أريد لــه أن يبدو خاملاً لا رواء فيه ولا إثمار.

وخطورة هذه الإرادة لا تنسحب على المبدعين وحسب بل إنّها تمتــد لتشــمل كيان الأمة كلّه، في صراع يجردها من روحها، وروح أية أمة إنّما يكــون بمنتجهــا الحضاري وإبداع عقول أبنائها.

فمن أولويات هذه المقالة رد الأمور إلى نصابها، وكشف الحقــائق المجهولــة، فالتاريخ يحفظ لنا الكثير من أسماء وأفعال الأوائل والسابقين، وإن تــراث وماضــي أجدادنا مليء بالمآثر والإنجازات التي تحمل في طياتها إبداعات وعبقريات هي أعظم ما سطر التاريخ قيمة وأصالة، فقد كانت لغة العلم الإسلامي هي لغة الارتقائية للجنس البشري، لذلك كان لأي كان ـــ وبخاصة في بداية عصر النهضة الأوروبية ـــ إذا ما أراد أن يلم بعلوم عصره وأحدث إنجازاته أن يتقن اللغة العربيــة وأن يطلــع علــى مخطوطاتها الإسلامية التي بدأت تغزو أوروبا منذ تلك اللحظة.

وإن احترم العلماء المسلمون والعرب من سبقهم، ونسبوا الأعمال والإبــداعات لأصحابها، وتعلموا منها ونقدوها وصححوها وأضافوا إليها إدراكاً منهم لمفهوم تطور

العلوم، فإن علماء اللاتين اتخذوا أسلوباً مختلفاً تماماً وعجيباً في أخذ العلوم عن حضارة الإسلام، فمع أنهم كانوا يجاهرون بعدائهم وكراهيتهم للعرب والمسلمين والشرقيين، إلا أنهم أخذوا عنهم الكثير من العلوم، وفي حالات كثيرة ومشهودة أخذوها دون نسبتها لأصحابها.

وهذا ما ستعالجه هذه المقالة، وستقتصر على الإنجازات الطبية كمثال لما نتحدث عنه، فلقد أبدع علماء الحضارة العربية الإسلامية اكتشافات مذهلة في العلوم الطبية، ووصلوا فيها مرحلة لم تصل إليها أي أمة من الأمم، بل إن الأمم الأخرى تُرجمت مؤلفاتهم الطبية، فانتشرت في جميع أصقاع العالم وخاصة في أوربة التي مافتئت تعتمد على تلك المؤلفات في جميع دراساتها الطبية، وقد برز علماء الطب أكثر ما برزوا بعد عصر الترجمة في صدر العصر العباسي، فساهم هؤلاء جميعاً في النهضة.

ومن الطريف حقاً أن تتعرض إبداعات واكتشافات واختراعات هؤلاء على الأخص للسرقة، وأن تُنسب إلى غيرهم من علماء الغرب، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى عبقريتهم التي بهرت عقول الآخرين من مدّعي العلم، فلم يترددوا في أن ينسبوا إبداعات غيرهم لأنفسهم دون خجل أو تردد.

هذا المقال يرصد هذه القضية المحيرة والمعتم عليها، وسيتحدث عن إبداعات فردية وأخرى جماعية، وسأحاول أن ألتقط الاعترافات من أفواه علماء الغرب بعد استعراض الأدلة الواضحة لكل إبداع.

أولاً ــ إبداعات أبي القاسم الزهراوي:

هو خلف بن عباس الزهراوي الأندلسي (توفي ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م)[(١)].

لم تتعرض اكتشافات عالم من علماء الحضارة العربية الإسلامية للتجني، مثلما تعرضت اكتشافات الطبيب الزهراوي، فقد انتهكت حرمة أبرز إبداعاته ونُسبت إلى غيره، وعندما سنستعرض ذلك سيتبين أننا لا نبالغ فيما نقول.

فالزهراوي هو أول من **أسس علم الجراحة في العالم**، وهو أول من مارسه من بين الأطباء، وأجرى عمليات جراحية أحجم غيره عن ممارستها، وهو أول من نقل الجراحة من مجال الصنعة المهنية إلى مجال العلم التخصصي، لذا فهو يستحق بكل ثقة لقب «مؤسس علم الجراحة»، وقد نُسب هذا السبق ظلماً إلى العالم الفرنسي (أمبرواز باريه) الذي جاء وادعى ذلك بعد أربعة قرون من عصر الزهراوي[(٢)].

فللزهراوي مثلاً (الفصل ٨٧ من الباب الثاني من كتاب التصريف) بحث بعنوان: في قطع الأطراف ونشر العظام، وهوْ بحث مطابق تماماً لما يسمى بـ (مرض بيرجير) نسبة إلى الدكتور Leo Berger، النمساوي الأصل والذي درس الطب في جامعات أمريكا في بداية القرن الماضي (١٨٧٩- ١٩٤٣ م) والمعروف باسم Claudicatio intermittens. يقول الزهراوي في ذلك: «وأنا أخبرك بمثال عرض لرجل في رجله هذا العارض بعينه الذي أصف لك، وذلك أنه حدث في رجله سواد مع حرقة تشبه النار، وكان ذلك الفساد أول ما حدث في إصبعه حتى أخذ رِجْلَ الرجل كلها، فبدر الرجل عن ذاته لما رأى الفساد يسعى في العضو مع شدة ما كان يجد من الوجع والحرقة فقطعه عند المفصل فبرئ. فلما مضى له زمان طويل عرض له ذلك الفساد بعينه في إصبع يده السبابة، فقصدني فرمت ردع ذلك الفضل بما حملت على اليد من الأدوية بعد تنظيفي لبدنه فلم يرتدع الفضل، وجعل يسعى في الإصبع الأخرى حتى أخذ الفساد في اليد فدعاني إلى قطع يده فأبيت عليه، وجاء مني على

إرداع ذلك الفضل، وخشيت أيضا عليه عند قطع يده الموت، لأن قوة الرجل كانت على السقوط. فلما يئس مني، انصرف إلى بلده فبلغني عنه أنه بدر فقطع يده بأسرها فبرئ. وإنما حكيت هذه الحكاية لتكون عوناً على ما يقع من جنس هذا المرض ولتكون دليلا يستدل به ويعمل عليه»[٣].

كما توصل الزهراوي إلى **إيقاف نزيف الدم** بربط الشرايين الكبيرة في أثناء العمليات الجراحية، وهو اكتشاف علمي كبير في مجال الجراحة كما تقول زيغريد هونكه، وادعاه لنفسه لأول مرة الجراح الفرنسي امبرواز باريه عام (١٥٥٢ م = ٩٦٠ هـ)، وتؤكد هونكه «في حين أن أبا القاسم العربي قد حققه وعلمه قبل ذلك بـ ٦٠٠ سنة»[٤].

واستطاع الزهراوي **معالجة التهاب المفاصل، ومعالجة انتشار السل** في فقرات وخرزات الظهر، وسمي هذا الداء فيما بعد (بالداء البوتي) نسبة إلى الطبيب بريسفال بوت، وتؤكد هونكه أن الجراح المسلم الزهراوي اكتشف ذلك قبل بوت بـ ٧٠٠ عام[٥].

والزهراوي أول من طبق في كل العمليات التي كان يجريها في النصف السفلي للمريض **رفع حوضه ورجليه** قبل كل شيء، مما جعله سباقاً على الجراح الألماني فريدريك ترندلنبورغ بنحو ٨٠٠ سنة، الذي نُسب إليه هذا الوضع في العمليات الجراحية، مما يعد اغتصاباً للحق الحضاري الذي هو من حقوق الزهراوي المبتكر الأول لها، وتستغرب هونكه من أوربة هذا التصرف، فتقول: «**وهذه طريقة اقتبسها الغرب مباشرة عن الجراح العربي**، واستعملها كثيراً حتى قرننا هذا، فعرفت باسم الجراح الألماني القدير فريدريك ترندلنبورغ، ولكن من يذكر أفضال الجراح العربي العظيم»، وتعقب هونكه على اختراعات أخرى للزهراوي أخذها الغرب عنه فتقول: «وعنه أخذنا أيضاً طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة، وأمد

الجراحين وأطباء العيون والأسنان الأوروبيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وضعها»[٦].

وهو أول من برع في علاج **بتر الأطراف**، وكيفية وصل الشرايين ببعضها، وكان في ذلك سباقاً للجراح الفرنسي دو شولياك بأربعة قرون، والذي نُسب إليه هذا الإبداع، والحمد لله فهذه المرة يعترف شولياك بنفسه بأسبقية الزهراوي، حيث يذكر اسمه في كتابه عن ذلك أكثر من مائتي مرة[٧].

ويعد فصل إخراج السهام من أهم وأدق الصفحات التي سطرها الزهراوي؛ إذ لم يتوقف عند وصف عمليات إخراج السهام بحسب أنواعها وأحجامها، وبحسب المكان الذي تصيب فيه الجسم عارضاً أحدث الآلات التي تساعد على إخراج السهام مثل المثقب والمدفع والكلاليب التي أطال في وصفها وفي طريقة استعمالها، بل إنه سرد العديد من تجاربه الشخصية[٨].

والزهراوي أول من أجرى **الجراحة التجميلية**، حيث أنه أول من صنع خيطاناً لخياطة الجراح، صنعها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخييط الداخلي كي لا يترك أثراً مرئياً، وسماه (إلمام الجروح تحت الأدمة)، وبذلك يعد رائداً في الجراحة التجميلية، وهو أول من استخدم الخياطة بإبرتين وخيط مثبت فيهما، وتشير هونكه إلى هذه الأسبقية بقولها: «علّم تلامذته كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي بحيث لا يترك شيئاً مرئياً منه، والتدريز المثمن (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن، وكيفية التخييط بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما، واستعمل الخيطان المستمدة من أمعاء القطط في جراحات الأمعاء»[٩].

وهذا الإبداع مسجل ـ للأسف ـ باسم الطبيب الإنجليزي (أركيبولد هيكتور ماك أندوي) وكان ذلك في الأربعينيات من القرن العشرين[١٠].

والزهراوي هو رائد ما يُعرف **بعسر الولادة (الجفت ــ Forceps)**، والجفت عبارة عن أداة معدنية لها شريحتان تستخدمان في سند رأس الجنين وسحبه للخارج عندما يكون هناك صعوبة في خروج الرأس بطريقة طبيعية.

وذكر التاريخ الغربي أن هذا الابتكار اخترعته عائلة من المولدين الذكور (دايات) عام ١٦٣٠ م = ١٠٤٠ هــ، واشتهرت هذه العائلة بعائلة (شامبرلين)، ومن غريب ما قرأت عن هذه العائلة، ومما أثار حفيظتي أنهم لم يودوا أن يعرف أحد ابتكارهم هذا ليبقوا محتفظين بشهرتهم ومهارتهم من دون منافس، وظلوا محتفظين بهذا السر لفترة طويلة، واستطاعوا جمع مبالغ طائلة من إجراء عمليات التوليد، ومع الوقت توفي أفراد عائلة شامبرلين واحداً بعد الآخر، وقبل وفاة آخرهم بعدة سنوات كشف طريقة التوليد التي كانوا يقومون بها، وعدّها ابتكاراً مميزاً لعائلته[١١].

وبالعودة إلى كتب تراثنا الطبية نقرأ عن تفاصيل كثيرة عن طرق للتوليد، وليس طريقة واحدة، إذ يذكر العالم سبرينجل أن الزهراوي كان الطبيب الأول الذي وصف العملية المسماة **«فغر الجمجمة»**، وهذا عندما يكون الجنين ميتاً أو يكون مصاباً باستسقاء في الرأس، وذلك بأن اخترع أداة لخرق جمجمة الجنين وإفراغها من محتوياتها لتسهيل عملية نزوله من الرحم، وإنقاذ حياة المرأة، وهذه الآلة على شكل ملقط، وتشبه آلة (الجفت) التي تستخدم اليوم في توليد الجنين عندما تتأخر ولادته.

كما كان الزهراوي أول من استعمل طريقة إخراج المشيمة المحبوسة بعد ولادة الجنين بالضغط على الرحم من خلال جدار البطن[١٢]. وهو أول من عالج ووصف **ولادة الحوض** التي تنسب إلى الطبيب (فالشر)، فقد سبقه الزهراوي إلى هذا العلاج بنحو تسعمائة سنة، وتشرح لنا زيغريد هونكه ذلك فتقول: «وأوجد ــ أي الزهراوي ــ لمسات جديدة للولادة في حالة سقوط يد أو ركبة الجنين أو وضعه المسمى بوضع الأرجل (تقدم الأرجل من باب الرحم على الرأس) أو الوضع المسمى (بالقرضي) أو

الوضع الوجهي (تقدم الوجه من باب الرحم على غيره من الأعضاء)، وهو أول من عالج هذا الوضع الأخير، وأول من أوصى بولادة الحوض ... وهي الولادة المسماة حديثاً باسم الأستاذ الشتوتغرتي (نسبة لمدينة ستوتغرت الألمانية) في أمراض النساء فالشر ١٨٥٦ ــ ١٩٣٥ م = ١٢٧٣ ــ ١٣٥٤ هـ»(١٣).

وأخيراً؛ فإن هناك إبداعات أخرى للزهراوي بحاجة إلى استقصاء، فانطلاقاً من تخصصه الدقيق وهو طب الفم و الأسنان، قام الأستاذ الدكتور محمد عبد الله سلطان بدراسة الزهراوي وذلك فيما قدمه في حقل طب الأسنان فقط، في جراحة اللثة وطب الفم الوقائي بشكل عام، وذلك من خلال تدقيق علمي أكاديمي في محتوى كتابه الشهير: التصريف لمن عجز عن التأليف، ومن ثم أجرى مقارنة فيما بينه بشكل عام وفيما توصل إليه المعاصرون من أفكار ومبادئ وطرق ومنهج وأدوات. وقد توصل سلطان إلى أن الزهراوي قد التزم بجلاء ووضوح بالبحث العلمي التجريبي، وتجلى ذلك في دقة الاستدلال وسلامة المنهجية. والنتيجة الأهم أن الزهراوي قد تحدث عن تقنيات حديثة في حقول طب الأسنان مثل: زرع أسنان ذاتي أو مغاير، جراحة لثوية، جراحة فكية، طب فم وقائي، تعويضات سنية... وفي ذلك تشابه كبير بينه وبين ما هو معاصر أو ما يسمى: المبادئ والتقنيات والطرق والأدوات... (١٤).

ثانياً ــ ابن سينا:

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي البخاري (توفي ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م)(١٥).

كثيرة هي إبداعات ابن سينا المستباحة، وقد رصدت منها الكثير مما نُسبت لعلماء لغرب، أما ما يتعلق بإبداعاته الأخرى فإن الكشف عنها يحتاج إلى فريق علمي تتكاتف جهوده في الغوص في أعماق العلوم التي خلفها ابن سينا، ومقارنتها بالعلوم الغربية وتاريخ نشأتها بدقة.

فابن سينا هو أول من وصف **مرض الأنكلستوما**، وبيّن أنه ناتج عن دودة معوية سماها الدودة المستديرة، ومع الأسف صدّق الأوروبيون ما ادعاه العالم الإيطالي «دوبيني» من أنه أول من كشف هذا المرض، والحقيقة أن ابن سينا وصف هذا المرض قبل أن يعرفه دوبيني وأوروبا بنحو تسعمائة عام، وقد قام بالتحري في هذه القضية الطبيب محمد خليل عبد الخالق، عندما قام بفحص ودراسة ما جاء في كتاب «القانون» لابن سينا عن الديدان المعوية، وتبين من هذا: أن الدودة المستديرة التي ذكرها ابن سينا هي ما نسميه الآن بالأنكلستوما، وقد أخذ جميع مؤلفي علم الطفيليات بهذا الرأي في المؤلفات الأخيرة، كما صدر في الآونة الأخيرة بحث رسمي عن مؤسسة روكفلر الأمريكية أثبت فيه أن مرض الأنكلستوما كان معروفاً لابن سينا، ومع ذلك أمعنت هذه المؤسسة في تعنتها ونسبت كشف هذا المرض إلى العالم الإيطالي دوبيني(١٦).

وعرف ابن سينا **موانع الحمل**، وقد ذُكر أن قصة حبوب منع الحمل بدأت في المكسيك في بداية أربعينات القرن العشرين، إذ أدرك الطبيب (روسل ماركر) ومن خلال دراسته لخلاصة نبات اليام (نوع من النبات شبيه بالبطاطا) أن به مواد فعّالة شبيهة بمفعول البروجستيرون (وهو هرمون أنثوي يتحكم في عملية التبويض، أي خروج البويضة من المبيض شهرياً للتلقيح).

ثم ذكر أن ماركر استطاع من خلال الاستعانة بطبيب أمريكي هو (جريجوري بنكس) تجهيز الإستروجين من خلاصة اليام في صورة حبوب، ووجد أن تناول هذه الحبوب يوقف التبويض، أي يمنع الحمل، ثم قامت طبيبة أمريكية تدعى (مارجريت سانجر) بمواصلة البحث واستكماله ودراسة تأثير هذه الحبوب على مجموعة كبيرة من السيدات، وأثبتت الدراسات والتجارب فعالية هذه الحبوب في منع الحمل، وكان ذلك سنة ١٩٥٥ م = ١٣٧٥ هـ(١٧).

ونحن في بحثنا هذا لا نبخس أي عالم من العلماء حقه، ولا ندفع عنه الشهرة، ولكن الحق أحق أن يتبع، وصاحب السبق يجب أن يُعرف، وسأذكر أولاً ما ذكره ول ديورانت في قصة الحضارة، إذ أشار إلى أن الرازي قد أفرد في أحد كتبه **فصلاً لموانع الحمل**، وذكر أربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيماوية(١٨).

أما ابن سينا؛ فقد خصص فصلاً عن هذه القضية الطبية أسماه «**فصل في منع الحمل**»، ويبدأ بمبررات ذلك فيقول: «الطبيب قد يفتقر في منع الحمل في الصغيرة المخوف عليها من الولادة التي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف»، ثم يذكر الطرق والأدوية التي تمنع الحمل (١٩).

وكان لابن سينا معرفة **بعلم الأجنة**، وأبدأ بهذه القضية بالقول التالي: «ظلت فترة النمو التي يقضيها الجنين في بطن أمه ابتداء من حدوث الحمل و حتى الولادة مجهولة لا يعرف أحد شيئاً عن أسرارها لفترة طويلة من الزمن، فما الذي يحدث للجنين خلال تلك الفترة ؟ و كيف ينمو و يكبر ؟ و متى يتكون قلبه و مخه وتظهر أطرافه؟ لم يستطع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة، و في سنة ١٦٠٤ م = ١٠١٣ هـ كشف الطبيب الإيطالي (هيروينموس فابريسيوس) جوانب هامة لنمو الجنين داخل الرحم من خلال دراساته و أبحاثه عن الحيوانات المختلفة، وأصدر أول كتاب في علم الأجنة، والذي عد بداية لظهور علم جديد على الوسط الطبي»(٢٠).

ولا أدري من أين جاءت هذه الثقة العلمية شبه المطلقة لكاتب هذه الكلمات من غير أن يكلف نفسه النظر في كتب أجداده وتراثهم الكثير والكثير جداً، فلقد كان لعلمائنا السبق الأكيد في معرفة المعلومات المذكورة أعلاه وأكثر عن علم الأجنة.

وأفضل من تحدث عن ذلك هو ابن سينا، إذ بيّن في القانون في الطب وتحت عنوان «**فصل في تولد الجنين**» روائع تفصيلية في كيفية تشكل أعضاء الجنين في بطن أمه، ومن أقواله العلمية في ذلك قوله: «**إذا اشتملت الرحم على المني**، فإن أول

الأحوال أن تحدث هناك زبدية المني، وهو من فعل القوة المصورة، والحقيقة من حال تلك الزبدية، تحريك من القوة المصورة لما كان في المني من الروح النفساني، والطبيعي والحيواني إلى معدن كل واحد منها، ليستقر فيه، ويتخلق ذلك العضو منه على الوجه الذي أوضحناه وبيّناه في كتب الأصول، ولذلك يوجد النفخ كله يندفع إلى وسط الرطوبة إعداداً لمكان القلب، ثم يكون على جانبه الأيمن وجانبه الأعلى نفخان كالمتسعين منه يماسانه إلى حين، ثم يتنحيان عنه ويتميزان، ويصير الأول **علقة للقلب**، والأيمن **علقة للكبد**، ويمتلئ الآخر من دم إلى بياض، وينفذ إلى ظاهر الرطوبة المبثوثة نفذ نفخ ريحي يثقبه، لينال منه المدد من الرحم من الروح والدم، **وتتخلق السرة**، وأول ما تتخلق السرة تتبين، إلا أن نفخات القلب، والكبد، والدماغ، تتقدم خلق السرة، وإن كان استتمام هذه الثلاثة يتأخر عن استتمام جوهر السرة، وهذا شيء قد حققناه وبينا الخلاف فيه في كتب الأصول من العلم الطبيعي.

وكما يستقر المني ويزبد وينفذ الزبد على الغور نفخاً للقلب، **يتولد غشاء** من حركة مني الأنثى إلى مني الذكر، ويكون متبرئاً، ثم لا يتعلق من الرحم إلا بالنقر لجذب الغذاء، وإنما يغتذي الجنين بهذا الغشاء ما دام الغشاء رقيقاً فيها، فكانت الحاجة إلى قليل من الغذاء، وأما إذا صلب فيكون الاغتذاء بما تولد في مسامه من المنافذ العرقية الواضحة ، ثم ينقسم بعد مدة أغشية.

والحق أن أول عضو يتكون هو القلب، وإن كان يحكى عن أبقراط أنه قال أول عضو يتكون هو الدماغ والعينان بسبب ما يشاهد عليه حال فراخ البيض، لكن القلب لا يكون في أول ما يتخلق في كل شيء ظاهراً جلياً، وقد جاء من يقول أن أول ما يتخلق هو الكبد، لأن أول فعل البدن هو التغذي، كأن الأمر على شهوته واستصوابه... هذا والحال الأخرى ظهور النقطة الدموية في الصفاق، وامتدادها في الصفاق لحدٍ ما، وفي هذه الحال تكون النفاخات قد استحال الرغوي منها إلى دموية،

واستحالت السرة إلى هيئة السرة استحالة محسوسة، وثالث الأحوال **استحالة المني إلى العلقة وبعدها استحالة إلى المضغة**، وهناك تكون الأعضاء الرئيسة قد ظهر لها انفصال محسوس، وقدر محسوس، وبعدها استحالته إلى أن يتم تكون القلب، والأعضاء الأولى ويبتدئ تنحي الأعضاء بعضها عن بعض، **وتليها الوشائج العلوية، وتكون الأطراف قد تخططت**، وأوعيتها لم تتفصل تمام الانفصال، ثم إلى أن تتكون الأطراف، ولكل استحالة أو استحالتين مدة موقوف عليها، وليس ذلك مما لا يختلف، ومع ذلك فإنها تختلف في الذكران والإناث من الأجنة، وهي في الإناث أبطأ...» [٢١].

وعرف ابن سينا **النبض**، وأُشير بداية إلى أن العالم الإنجليزي (جون فلوير) عُدّ أول طبيب توصل إلى قياس النبض، وبيّن أهميته في بيان الحالة الصحية، وذلك سنة ١٧٠٧ م = ١١١٩ هـ، إذ لاحظ أن هناك مناطق معينة بالجسم يمكن من خلالها جس نبضات القلب السرية في العروق على هيئة موجات متتالية ضاغطة على جدار الشرايين، وأبرز هذه المناطق التي يمكن جس النبض بها أسفل الساعد تجاه إصبع الإبهام، وتوصل فلوير من خلال متابعة حالة النبض عند المرضى أن يحدد بعض التغيرات التي تطرأ على النبض في العديد من الحالات المرضية، ومن أبسط هذه الحالات حدوث زيادة سرعة النبض عند الإصابة ببعض الأمراض[٢٢].

وأنا هنا لن أعلق كثيراً على هذه الحقيقة (المدهشة) وإنما أترك للقارئ النص التالي ليقرأه وليستنتج منه الحقيقة بنفسه.

فقد أشار مؤرخو العلوم أن ابن سينا سار في تشخيص الأمراض ومعالجته لمرضاه على الطريقة الحديثة المتبعة الآن، وهي الاستدلال بالبول والبراز والنبض. فابن سينا تناول بشكل واضح هذه المسألة في كتابه الشهير «القانون في الطب»، مخصصاً لها قسماً كاملاً، و كان ذلك تحت عنوان: **الجملة الأولى في النبض**. وأورد تحت هذه الجملة تسعة عشر فصلاً.

فعرّف في الفصل الأول النبض بمايلي: «النبض حركة من أوعية الروح مؤلفة من انبساط و انقباض لتبريد الروح بالنسيم، و النظر في النبض إما كلي و إما جزئي بحسب كل مرض...». ثم تناول بقية الفصول بالشرح، و منها: ــ الفصل الثاني: في شرح النبض المستوي والمختلف. ــ الفصل الثالث: في أصناف النبض المركب المخصوص بأسماء على حدة. ــ الفصل الرابع: في الطبيعي من أصناف النبض. ــ الفصل الخامس: في أسباب أنواع النبض. ــ الفصل الثاني عشر: في موجبات النوم و اليقظة في النبض. ــ الفصل الثالث عشر: في أحكام نبض الرياضة. ــ الفصل الرابع عشر: في أحكام نبض المستحمين. ــ الفصل الخامس عشر: في النبض الخاص بالنساء و هو نبض الحبالى. ــ الفصل السادس عشر: في نبض الأوجاع. ــ الفصل السابع عشر: في نبض الأورام. ــ الفصل الثامن عشر: في أحكام نبض العوارض النفسية. ــ الفصل التاسع عشر: في جملة تغيير الأمور المضادة للطبيعة هيئة النبض(٢٣).

كما خصص ابن سينا فصلاً كاملاً عن قضية العشق، فوصف طريقته المشهورة في تشخيص العاشق وعلاجه، وهي تشبه ما نسميه اليوم بجهاز كشف الكذب، يقول ابن سينا في ذلك: «ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة، وعند لقائه بغتة، ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق أنه هو إذا لم يعترف به، فإن معرفة معشوق أحد تسهل علاجه، والحيلة في ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً، وتكون اليد على نبضه، فإذا اختلف النبض بذلك اختلافاً عظيماً، وصار شبه المنقطع ثم عاود، وجربت ذلك مراراً علمت أنه اسم المعشوق، ثم يذكر كذلك السكك والمساكن والحرف والصناعات والنسب والبلدان، وتضيف كلاً منها إلى اسم المعشوق، ويحفظ النبض حتى إذا كان يتغير عند ذكر شيء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والمحلة والحرفة وعرفته، فإنا قد جربنا هذا

واستخرجنا به ما كان في الوقوف عليه منفعة، ثم إن لم تجد علاجاً إلا تدبير الجمع بينهما على وجه يحله الدين والشريعة فعلت»(٢٤).

واستخدم ابن سينا المحاقن، ولكن مما يُعرف لدى أبناء هذا العالم الإنساني أن استخدام المحاقن عُرف منذ عهد الطبيب (جالن)، كما استخدمها (هارفي) عندما كان يقوم بتجاربه على الحيوانات للكشف عن مسار الدم داخل الجسم، وكانت هذه المحاقن بدائية غير مزودة بإبرة في طرفها، إلى أن ابتكر الطبيب الفرنسي (شارلز جابريل برافاز) في سنة ١٨٥٣ م = ١٢٧٠ هـ، محقناً فيه إبرة مجوفة تمر خلالها المادة المحقونة(٢٥).

ومع مطالعاتي المستمرة والمتعددة للموسوعة الطبية السينوية «القانون في الطب» وجدت اكتشافاً رائعاً تم على يد ابن سينا، وهذا الاكتشاف هو المحاقن نفسها التي نتحدث عنها هنا !!.

فقد أشار إلى العلاج بالحقن في غير ما موضع من قانونه، فتحت عنوان «**حقنة**» يذكر: «تنفع من القروح في البطن التي يمشي صاحبها منها الدم، نسميه الدوسنطيرا (الزهار أو الإسهال)». ثم يذكر مقادير هذه الحقنة من الأدسام والشحوم والسوائل، ثم يقول في النهاية: «واحقنه بها»(٢٦).

ومثال آخر تحت عنوان «**حقنة**» أيضاً، يذكر عن وصفة الحقنة الأولى: «للسحج من قبل دواء مشروب يحقن بسمن ودم الأخوين». ويذكر عن وصفة الثانية: «لابتداء الخراج والصفراء ودفع المادة»، ثم يذكر مقاديرها(٢٧).

ثالثاً ــ الدورة الدموية بين الأهوازي وابن النفيس وهارفي وسارفيتوس:

لاكتشاف الدورة الدموية قصة فيها حقائق مهمة، فالعالم ــ حتى عام ١٩٢٤ م = ١٣٤٣ هـ ــ أقر للطبيبين هارفي وسارفيتوس بفضل اكتشافها، ثم جاء عام ١٩٢٤ م = ١٣٤٣ هـ ليكشف سرقة هذين الطبيبين لهذا الاكتشاف من الطبيب ابن النفيس، فصار العالم

حتى اللحظة يعد ابن النفيس هو مكتشف الدورة الدموية، في حين قل من ذكر أو تنبه إلى صاحب السبق في هذا الاكتشاف، وهو الطبيب الأهوازي، وهذا ما ستبينه الأسطر القادمة.

١- ابن النفيس والدورة الدموية:

علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، المعروف بابن النفيس (ت ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م)[٢٨]. مكتشف الدورة الدموية الصغرى المعروفة بالدورة الدموية الرئوية، وخالف في ذلك آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء وبخاصة ابن سينا، وقد عني بشرح هذا الاكتشاف العلمي الكبير في كتابه «شرح تشريح ابن سينا».

وكان الأطباء قبل ابن النفيس يرون أن قلب الإنسان له ثلاثة بطون، وأن فيه ــ كما يقول جالينوس ــ أقسام دقيقة يخرج الدم بواسطتها من تجويف القلب الأيمن إلى تجويف القلب الأيسر، فنقض ابن النفيس هذه النظرية، وأثبت أن قلب الإنسان ليس له إلا بطينان، وأنه لا توجد أية أقسام يخرج منها الدم من التجويف الأيمن إلى التجويف الأيسر.

كان ابن النفيس أول من قال أن الدم يُنقى في الرئتين، وقد سبق بذلك (سرفيتس) بثلاثة قرون، وشرح ذلك في كتابه «شرح تشريح القانون».

وقد نقض النظرية التي تقول إن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن، وقال: إن القلب يتغذى من العروق المارة فيه.

وشرح بطريقة علمية وظيفة أعضاء جسم الإنسان، وكيف يؤدي كل عضو منها وظيفته، وقد شرح من بين ما شرح وظيفة القلب والرئتين، وبيّن كيف تعمل هذه الأجهزة بانتظام دقيق وتعاون مستمر[٢٩].

ونذكر هنا قصة ادعاء الطبيب الإسباني ميخائيل سارفيتوس والطبيب الانكليزي وليم هارفي اكتشافهما للدورة الدموية الصغرى، وادعائهما السبق في تصحيح أخطاء جالينوس في انتقال الدم إلى القلب. ففي عام ١٦٢٨ م = ١٠٣٨ هـ ظهر كتاب هارفي الموسوم بـ «دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان»، فصفق العالم الغربي لهذا الكتاب

على أنه أماط اللثام عن الدورة الدموية، وتجاهلوا ابن النفيس ومؤلفاته مع تأكيد بول غاليونجي على أنهم كانوا يعرفونها، وقد استفاد هارفي كذلك من بحوث سارفيتوس المسماة «إعادة المسيحية».

وفي عام ١٩٢٤ م = ١٣٤٣ هـ تقدم شاب عربي هو الدكتور محيي الدين الططاوي من مصر بأطروحة باللغة الألمانية إلى كلية الطب في جامعة فرايبورغ الألمانية، كشف من خلالها الحقيقة، وهاهي المستشرقة زيغريد هونكة تشرح وتروي ما حدث، تقول عن هذه الأطروحة: «أحدثت دهشاً وعجباً شديدين، وجرت حولها بحوث محمومة ومقارنات عديدة، فكانت النتيجة أن صادق الجميع على ما ورد في الأطروحة من نتائج علمية، والدهشة لا تزال تملأ النفوس على المختصين أنفسهم، وبادئ ذي بدء كان هناك بضعة أساتذة ألمان استمعوا إلى ما ادعاه الشاب العربي، فأخرجوا من مكتبة الدولة كل المخطوطات القديمة، وأشبعوها بحثاً وتنقيباً ومقارنة حتى وصلوا نهائياً إلى النتيجة الحتمية التي لم يكن منها مفر، وهي نتيجة تؤكد أن الدكتور الططاوي من مصر على حق بما جاء به، فإن أول من نفذ ببصره إلى أخطاء جالينوس ونقدها، ثم جاء بنظرية الدورة الدموية لم يكن سارفيتوس الإسباني، ولا هارفي الإنكليزي، بل كان رجلاً عربياً أصيلاً من القرن الثالث عشر الميلادي = السابع الهجري، وهو ابن النفيس الذي وصل إلى هذا الاكتشاف العظيم في تاريخ الإنسانية وتاريخ الطب، وقبل هارفي بأربعمئة عام وقبل سارفيتوس بثلاثمئة عام»[٣٠].

وقد أخذ المستشرق ماكس مايرهوف أطروحة الططاوي ونشر مقالة عنها في إحدى المجلات، فلفتت نظر جورج سارتون، فكتب ذلك في كتابه: «تاريخ العلم»، وبذلك ثبت الإنجاز لابن النفيس [٣١].

ثم تتساءل هونكة بتعجب: «فهل كان هذا التشابه يا ترى بين العربي وبين الإسباني محض اتفاق؟ أم أن ميخائيل سارفيتوس الذي عد من بين الخالدين في علم الطب لاكتشافه الدورة الدموية الصغرى قد اطلع على نص ابن النفيس»[٣٢].

٢- الأهوازي والدورة الدموية:

علي بن العباس المعروف بالأهوازي (توفي ٣٨٤ هـ = ٩٩٤ م) [٣٣]، الذي عُدّ أول طبيب تحدث عن وجود **شبكة شعرية** من العروق النابضة (الشرايين)، ومن العروق غير النابضة (الأوردة)[٣٤]، فقد قادته دراسته لوظيفتي الانقباض والانبساط إلى أهمية الدورة الدموية في الأوعية الشعرية، فتحدث عن وجود شبكة شعرية بين العروق النابضة وغير النابضة، أي بين الشرايين والأوردة، ونُسب هذا الإبداع إلى الطبيب وليم هارفي، وضُلل عن الأهوازي[٣٥]، ومما قال الأهوازي في هذا الإبداع: «هناك في الأوعية غير النابضة فتحات صغيرة للاتصال بالأوعية النابضة، وللبرهان على هذا الاتصال نجد أن قطع شريان يخرج الدم كله حتى الموجود في الأوردة»[٣٦].

٣- سرقة كتاب الأهوازي:

ولم يقف الأمر عند إدعاء هارفي وغيره بإبداعات الأهوازي، بل قام قسطنطين الإفريقي بترجمة كتاب الأهوازي «**الكامل في صناعة الطب**» إلى اللاتينية بين عامي ١٠٧٠ـ ١٠٧٨م = ٤٦٣ ـ ٤٧١ هـ ونسبه إلى نفسه، فانتشر هذا الكتاب على أساس أنه من تأليف قسطنطين، إلى أن جاء عالم غربي هو أسطفان الأنطاكي، وترجم هذا الكتاب مرة ثانية سنة ١١٢٧ م = ٥٢١ هـ (أي بعد وفاة قسطنطين) في أنطاكية، ودفعه إلى هذا العمل بعض الملاحظات التي شك بها، كما أنه استغرب مقدرة قسطنطين على أن يؤلف مثل هذا الكتاب، فلجأ الأنطاكي إلى البحث عن مخطوط هذا الكتاب فوجده، وترجمه وأعطى المؤلف حقه، وتبين له أنه لعلي بن العباس الأهوازي، فأعاد الحق لصاحبه، **وانتقد قسطنطين انتقاداً قاسياً**[٣٧].

وقسطنطين الإفريقي (ت ١٠٨٧ م = ٤٨٠ هـ) هو تاجر من أصل تونسي، ولد في مدينة قرطاجة عام ١٠١٥ م = ٤٠٦ هـ، وزار عدداً من البلاد الإسلامية كمصر والشام والعراق، والشرقية كالهند، والأوروبية كاليونان وإيطاليا، وهذا ما مكنه

من إجادة اللغات العبرية واليونانية واللاتينية بالإضافة للعربية، وقد استقر فترة في مدينة سالرنو الإيطالية، ثم غادرها لدراسة الطب في مصر، ثم ذهب بعدها إلى تونس واشترى مجموعة من المخطوطات العربية الطبية قبل أن يعود من سالرنو ويستقر فيها.

وقد ذاع صيت قسطنطين الإفريقي كطبيب فوراً، وسرعان ما تم تكليفه برئاسة منبر الطب العربي في سالرنو، فبدأ يقسم وقته ما بين إعطاء محاضرات في الطب لمدرسة سالرنو، وما بين ممارسة مهنة الطب.

وبعد أن عمل قسطنطين عدة سنوات في تدريس الطب، استقل وانعزل في دير قريب من سالرنو، حيث تفرغ فيه لأعمال الترجمة والتأليف، فبلغ عدد المصنفات التي ترجمها أو ألفها ٢٤ كتاباً أغلبها في الطب، ومن أهم ترجماته عن العربية كتاب «الكامل في الصناعة» للأهوازي، وكتاب«الزاد المسافر» لابن الجزار القيرواني، وكذلك كتاب «في أمراض العيون» لحنين بن اسحق.

ولكن الذي فعله قسطنطين أنه نسب هذه الكتب الثلاثة لنفسه، ولم يذكر بتاتاً أسماء مؤلفيها الأصليين؛ إلى أن جاء أسطفان الأنطاكي وكشف الحقيقة، وهذه الكتب التي ادعى قسطنطين أنها له، ليست هي السرقة الوحيدة له، وإنما سرق عدة كتب أخرى ادعى أنه هو مؤلفها، والكتاب العربي الإسلامي الوحيد الذي ترجمه ولم ينسبه لنفسه هو «رسالة في البول»، لإسحق بن سليمان، ولعل السبب في ذلك هو أن الأمر يتعلق برسالة بسيطة وليس بواحد من أمهات الكتب الطبية.

ولكن ومع كل هذه الأخطاء والتجاوزات التي ارتكبها قسطنطين الإفريقي تجاه دينه وعروبته من جهة، وتجاه مبدأ الأمانة العلمية من جهة ثانية، فإنه يبقى ذا فضل كبير من حيث أنه كان أستاذاً لامعاً في مرحلة تدريسه للطب العربي الإسلامي في

مدرسة سالرنو، وهو أحد الأشخاص الأوائل الذين نقلوا إلى الغرب ما تحويه كنوز المخطوطات العربية من معلومات طبية[٣٨].

ومما ينبغي ذكره أن الدكتور علي عبد الله الدفاع وبعد دراسته للأهوازي وكتابه الكامل خلص إلى النتيجة التالية: «نجد أن معظم نظريات ابن عباس الأهوازي سبق وأن نُسبت إلى علماء أوروبيين»[٣٩].

رابعاً- إبداعات طبية منسوبة إلى علماء الغرب:

وفيما يلي استعراض لإبداعات لعلماء الحضارة العربية الإسلامية قد نُسبت إلى غيرهم، وهي إبداعات ذاع صيتها، وهي لأمراض وقضايا طبية عالمية لا يزال العالم يتغنى بطريقة علاجاتها.

١- مرض السرطان:

يؤكد الباحثون الطبيون أن المعرفة بمرض السرطان تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد = الثاني عشر للهجرة، حيث ذكر فيه أكثر من طبيب عن حدوث أورام ناتجة عن تكاثر الخلايا، ومما يقوله أحدهم: «في سنة ١٨٦٧م = ١٢٨٤هـ استطاع الطبيب الألماني (ويلهيلم هارتز) أن يصف بشكل صحيح ودقيق كيفية نشوء السرطان... ولذا كان يرى (أي هارتز) أنه يجب علاج السرطان في وقت مبكر قبل انتشاره خارج موضع الإصابة»[٤٠].

وأمام هذه (الحقيقة) يجب تأكيد الحقائق التالية وتثبيتها، إذ يعقد ابن سينا في قانونه فصلاً أسماه «**فصل في السرطان في العين**». ثم يذكر أن «أكثره يعرض في الصفاق القرني». ثم يتعرض لعلاماته، فيقول: «وجع شديد وتمدد في عروق العين، وصداع وسقوط شهوة الطعام، والتألم بكل ما فيه حرارة».

ثم يشير إلى إشارات لا زال العلم الحديث يتوقف عند حدودها، وهي قوله: «**وهو مما لا يطمع في برئه، وإن طمع في تسكينه**، وليس يوجع السرطان في

عضو من الأعضاء كإيجاعه إذا عرض في العين، واستعمال الأدوية الحادة مما يؤذي صاحبه ويثير وجعاً لا يطاق».

ثم ينتقل إلى علاجه الذي لا أظنه يخرج في شيء عن علاج الطب الحديث اليوم، إذ يذكر: «إن لم يكن بد من علاجه فليكن بغرض تسكين الوجع...»(٤١).

ثم إن ابن سينا يحذر من تحريك السرطان الباطني الخفي «**فإنه إن حرك فربما أدى إلى الهلاك**، وإن ترك ولم يعالج فربما طالت المدة مع سلامة ما»، ويذكر: «وربما احتمل السرطان الصغير القطع»، ويتابع: «وربما احتيج بعد القطع إلى الكي، وربما كان في الكي خطر عظيم، وذلك إذا كان السرطان بقرب الأعضاء الرئيسة والنفسية»(٤٢).

ولم يكن ابن سينا وحده من عرف السرطان، فقد وصل العلم بالطبيب الرازي إلى أبعد من معرفة مرض السرطان فحسب، ففي كتابه «الفروق» أو «كلام في الفروق بين الأمراض»، خصص فصلاً للحديث عن فوارق بين عدة أمراض تشتبه على الناس، وحتى على المختصين، وجعل العنوان: «في فروق بين أمراض تشتبه وقوعها في آلة الشم والمنخرين، وهي وأربعة فروق»، ثم يذكر هذه الفروق، ومما ذكره فيما يخص موضوعنا قوله في الفرق «**بين البواسير في الأنف وبين السرطان**»(٤٣).

وكذلك الأمر في فصل آخر جعل عنوانه «في فروق متشابهة بين القروح والأورام وأحوال تشتبه فيها، وهي سبعة فروق»، ومما ذكره من هذه الفروق الفرق «**بين السرطان والورم الصلب**»(٤٤).

كما ميّز الرازي في كتابه هذا من خلال تشخيصه التفريقي بين عدة أمراض وبين مرض السرطان، ومن ذلك تفريقه بين سرطان الرئة والتهاب الرئة(٤٥)، وبين

السرطان القاعدي وهو قرحة ذات قاعدة صلبة ومحيط جيد القطع، وبين النار الفارسية التي هي عبارة عن تجمع دمامل في منطقة واحدة[٤٦].

وميّز الرازي بين نوعين من الأورام السرطانية: الأول هو السرطان الذي يُسمى اليوم بالسرطان الظهاري، حسب ما أشار إليه المختصون، والثاني هو ما سمّاه الرازي الورم الصلب، وهو ما نسميه اليوم بالسرطان العفلي، ويشير المختصون إلى صحة تفريق الرازي بين السرطانيين حسب العلم الحديث. ومن السرطانات التي أتى الرازي على ذكرها سرطان المعدة[٤٧].

ومن أطبائنا الذين أخبرونا عن وصف هذا المرض و تشخيصه: أبو القاسم الزهراوي، فهو أول من فهم ووصف مبدأ انتشار الأورام السرطانية وشروط معالجتها، والسرطان من الأمراض التي شغلت الزهراوي ومعاصريه، فأعطى لهذا المرض الخبيث وصفاً وعلاجاً لا يزال مستعملاً حتى اليوم، ولم يزد الأطباء إلى اليوم عليه كثيراً، وننقل مما يقوله الزهراوي عن هذا المرض الخبيث: «في علاج السرطان وكيف السبيل إلى علاجه بالأدوية والتخدير من علاجه بالحديد لئلا يتقرح، وقد ذكرنا السرطان المتولد في الرحم والتخدير وعلاجه: ذكر الأوائل أنه متى كان السرطان في موضع لا يمكن استئصاله كله، ولا سيما متى قدم وعظم، فلا ينبغي أن تقربه، **فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً**، ولا رأيت الغير والكل كذلك، أما إذا كان مركزه حيث يمكن إخراجه كالذي في الثدي أو في الفخذ ونحوهما من الأعضاء ولا سيما إذا كان مبتدئاً صغيراً فالعمل فيه أن نسهل العليل مرات من السوداء، ثم نفصده إن كان في العروق امتلاء من دم، ثم ننصب المريض نصبة نتمكن فيها من العمل، ثم نلقي في السرطان السنانير التي تصلح له، ثم نقوره من كل جهة مع الجلد على استقصاء، حتى لا يبقى منه شيء من أصوله، واترك الدم الغليظ يسيل كله بيدك، أو بما أمكنك من

الآلات، فإن عرض في عملك نزف دم غليظ من قطع شريان أو وريد، فاكو العرق حتى يقطع، ثم عالجه بسائر العقاقير والعلاج، والله الشافي»(٤٨).

٢- علم التشريح:

يذكر الدكتور أيمن الحسيني بالاعتماد على مصادر أجنبية أن أول من شرّح جسم الإنسان هو الطبيب البلجيكي (أندرياس فيزاليوس) طبيب الجراحة في جامعة بادوا، وكان ذلك عام ١٥٤٣ م = ٩٥٠ هـ، وأصدر كتاباً عن تشريح الجسم البشري أسماه «نسيج الجسم البشري» (Fabric Of Human Body)، وشرح في هذا الكتاب كيفية اتصال الأعصاب بالعضلات، وأشكال عظام الجسم وكيفية ترابطها بالمفاصل، كما وصف شكل المخ، وشرح بعض تركيباته (٤٩).

والحقيقة أن عدداً ليس بقليل من علماء حضارتنا قد عرفوا التشريح ومارسوه، ومنهم الطبيب الأهوازي في كتابه «الملكي» المعروف بكامل الصناعة الطبية، والذي يتألف من جزأين يشتمل الأول على عشر مقالات، الأولى عن الأمزجة والطبائع والأخلاط، والثانية والثالثة في التشريح، والرابعة في الهواء والرياضة والحمام والأغذية، والست الباقية في أسباب الأمراض وأعراضها وعلاماتها.

ولقد كانت المقالتان الثانية والثالثة المرجع الرئيسي لعلم التشريح في ساليرنو بإيطاليا وفي غيرها في المدة من عامي ١٠٧٠- ١١٧٠ م = ٤٦٣- ٥٦٠ هـ، وقد حوت مقدمة (الملكي) نقداً لأساطين الطب اليوناني والفارسي(٥٠).

وقد ذكر ابن سينا أيضاً التشريح بمواضع كثيرة من قانونه بحيث يدل حديثه في ذلك عن ممارسته للتشريح، إذ أنه يشرح الأجزاء الدقيقة في أعضاء جسم الإنسان عضواً عضواً، فخصص الفصول التالية:

ــ **فصل في تشريح العين**. ــ فصل في تشريح أعضاء الحلق[٥١]. ويقول في ذلك: «ومنه الزوائد التي هي اللهاة واللوزتان والغلصمة، وقد عرفت تشريح الحنجرة»[٥٢].

ــ **وفصل في تشريح القلب**، ويذكر في وصفه: «وقاعدة البطين الأيسر أرفع، وقاعدة البطين الأيمن أنزل بكثير، والعروق والضوارب وهي الشرايين، خلقت إلا واحدة منها ذات صفاقين وأصليهما المستبطن... ومنبت الشرايين هو من التجويف الأيسر من تجويفي القلب، لأن الأيمن أقرب إلى الكبد، فوجب أن يجعل مشغولاً بجلب الغذاء واستعماله... وأما الطحال فنازل عنه وبعيد، وفي إنزاله منفعة»[٥٣].

ــ وفصل في تشريح المريء والمعدة[٥٤]. ــ **وفصل في تشريح الأمعاء الستة**. ــ **وفصل في تشريح المثانة**. ــ وفصل في تشريح الأنثيين وأوعية المني. ــ وفصل في تشريح الرحم[٥٥].

ومن الأمثلة أيضاً على ممارسة ابن سينا للتشريح العناوين التالية وتفصيلاتها التي وضعها في قانونه، مثل العنوان التالي: في تشريح ما دون القحف، ويشرح تحته مايلي: «وللرأس بعد هذا خمسة عظام، أربعة كالجدران، وواحد كالقاعدة، وجعلت هذه الجدران أصلب من اليافوخ، لأن السقطات والصدمات عليها أكثر، ولأن الحاجة إلى تخلخل القحف واليافوخ أمس لأمرين: أحدهما لينفذ فيه البخار المتحلل، والثاني لئلا يثقل على الدماغ، وجعل أصلب الجدران مؤخرها لأنه غائب عن حراسة الحواس، فالجدار الأول هو عظم الجبهة ويحده من فوق الدرز الإكليلي، ومن أسفل درز آخر يمتد من طرف الإكليلي ماراً على العين عند الحاجب متصلا آخره بالطرف الثاني من الإكليلي، والجداران اللذان يمنة ويسرة فهما العظمان اللذان فيهما الأذنان، ويسميان الحجرتين لصلابتهما ويحد كل واحد منها من فوق الدرز القشري، ومن أسفل درز يأتي من طرف الدرز اللامي، ويمر منتهيا إلى الإكليلي، ومن قدام جزء من الإكليلي، ومن خلف جزء من اللامي».

ونعطي مثالاً آخر لتشريح ابن سينا زيادة في الإقناع، يقول تحت عنوان: في تشريح عظام الفكين والأنف: «أما عظم الفك والصدغ: فيتبين عددها مع تبيننا لدروز الفك، فنقول: إن الفك الأعلى يحده من فوق درز مشترك بينه وبين الجبهة مار تحت الحاجب من الصدغ إلى الصدغ، ويحده من تحت منابت الأسنان، ومن الجانبين درز يأتي من ناحية الأذن مشتركاً بينه وبين العظم الوتدي الذي هو وراء الأضراس، ثم الطرف الآخر هو منتهاه أعني أنه يميل نابياً إلى الإنسي يسيراً، فيكون درز يفرق بين هذا وبين الدرز الذي نذكره، وهو الذي يقطع أعلى الحنك طولاً، فهذه حدوده، وأما دروزه الداخلة في حدوده فمن ذلك درز يقطع أعلى الحنك طولاً، ودرز آخر يبتدئ ما بين الحاجبين على محاذاة ما بين الرباعية والناب من اليمين، ودرز آخر مثله في الشمال، فيتحدد إذاً بين هذه الدروز الثلاثة الوسطى والطرفين، وبين محاذاة منابت الأسنان المذكورة عظمان مثلثان، لكن قاعدة المثلثين ليستا عند منابت الأسنان بل يعترض قبل ذلك درز قاطع قريب من قاعدة المنخرين، لأن الدروز الثلاثة تجاوز هذا القاطع إلى المواضع المذكورة، ويحصل دون المثلثين عظمان تحيط بهما جميعاً قاعدة المثلثين، ومنابت السنان، وقسماً من الدرزين الطرفيين يفصل أحد العظمين عن الآخر ما ينزل عن الدرز الأوسط، فيكون لكل عظم زاويتان قائمتان عند هذا الدرز الفاصل، وحادة عند النابين، ومنفرجة عند المنخرين، ومن دروز الفك الأعلى درز ينزل من الدرز المشترك الأعلى آخذاً على ناحية العين، فكما يبلغ نقرة العين حتى يتصل بالحاجب، ودرز دونه يتصل كذلك من غير أن يدخل النقرة، ودرز ثالث يتصل كذلك بعد دخول النقرة وكل ما هو منها أسفل بالقياس على الدرز الذي تحت الحاجب، فهو أبعد من الموضع الذي يماسه الأعلى، ولكن العظم الذي يفرزه الدرز الأول من الثلاثة أعظم، ثم الذي يفرزه الثاني»[٥٦].

ومن علماء حضارتنا الذين مارسوا التشريح: ابن النفيس، إذ تكمن قيمة معارفه في إبداعاته الطبية، واعتماده التجربة والطب السريري، فلم يقلد غيره أو ينقل دون نقد أو وعي أو تجربة أو تشريح، فاعتمد في دراسة الطب وتدريسه على تجاربه ومعرفة خواص أعضاء الجسم من واقع ما شاهده في أثناء التجربة، ولم يكن يتقبل كلام العلماء السابقين من اليونانيين والمسلمين إلا بعد بحث وتجربة.

ولذلك أبدع في تشريح الحنجرة وجهاز التنفس والشرايين ووظائفها.

ويعد كتابه «شرح تشريح القانون» مفخرة الطب العربي حيث استمر تدريسه في أوربة حتى القرن الثامن عشر الميلادي = الثاني عشر الهجري، وفي هذا الكتاب هاجم ابن النفيس بجرأة القيود التقليدية التي كانت تشل نشاط المشتغلين بالعلم، وتحرر من سيطرة جالينوس وابن سينا، وأنكر ما لم تره عينه، يقول في مقدمة هذا الكتاب: «بعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله فإن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ أبي علي الحسين بن علي بن سينا البخاري رحمه الله في التشريح من جملة كتاب القانون، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً، وقد صدّنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك رأينا أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر، خاصة الفاضل جالينوس، إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن، مع أنه اطلع على كثير من الأعضاء التي لم يُسبق مشاهدتها، فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله، إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها أغاليط النسّاخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد، وأما منافع كل واحد من الأعضاء، فإنا نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق، والبحث المستقيم، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه» (٥٧).

ويقول بول غليونجي عن هذا الكتاب: «أهمية هذا الكتاب عائدة إلى أنه يحتوي معلومات جديدة ومهمة قد تُحدث ضجة في عالم مؤرخي الطب قد لا تقل عن الضجة التي حدثت حينما كشف محيي الدين الططاوي عن الجزء المتعلق منها بتشريح القلب، ووصف الدورة الدموية الصغرى ... والكتاب تعليق ونقد لأفكار جالينوس، وللأفكار التي وردت في قانون ابن سينا»[٥٨].

ويظهر بوضوح من خلال هذا الكتاب أن ابن النفيس قد مارس عملية تشريح جثث البشر، أو بعض الحيوانات سراً، لأن المجتمع في ذلك الوقت لم يكن يقر بممارسة مثل هذه الأعمال لأسباب دينية، وكذلك كان الحال في أوربة، وإن مارسه أحد ففي السر والكتمان والخفاء، والذي يجعلنا نقف موقفاً موضوعياً من ممارسة ابن النفيس للتشريح قوله المتكرر في أماكن كثيرة من كتبه: «والتشريح يكذّب ما قالوه»، وقوله عن تشريح الشريان الرئوي والذي سماه الوريد الشرياني: «إن هذا العرق شبيه بالأوردة وشبيه بالشريان، أما شبههُ بالأوردة فلأنه من طبقة واحدة، وأن جرمه نحيف وأنه على قوام ينفذ فيه الدم لغذاء عضو» وغير هذه الأقوال الدالة على ممارسته العملية للتشريح[٥٩].

٣- مرض السكري:

ذُكر أن أول من أشار إلى ظاهرة السكري هو العالم ويليس (**Willis**) الذي كتب في سنة ١٦٧٤م = ١٠٨٥هـ أن البول حلو الطعم، كأنه يحوي سكراً أو عسلاً، وتبعه (دبسون) الذي قال: «إن سبب الحلاوة وجود السكر»، ثم (بوشاردو) الذي حدد نوع السكر وأعلن أنه جلوكوز سنة ١٨٣٥م = ١٢٥١هـ [٦٠]. وبالتالي فقد نُسب اكتشاف السكري إلى هؤلاء العلماء الغربيين.

وقد بين العالم الغربي بول غاليونجي غير ذلك، وأكّد أن عبد اللطيف البغدادي (ت ٥٥٧ هـ = ١١٦١ م) له الريادة في معرفة مرض السكري، ومعرفة أعراضه أيضاً، فقد بيّن لنا أن من أعراضه:

أ ــ استرسال البول (كثرة التبول).

ب ــ العطش الشديد (نتيجةً لكثرة التبول).

ج ــ يعرض للبدن هزال وجفاف.

وقد تكلم البغدادي عن معالجة السكر والأدوية المختلفة التي تنفع فيه، وعن التغذية والحمية، ونصح بوجوب الخلود إلى الراحة النفسية بقدر الإمكان.

وللبغدادي كتيبان تحدث فيهما عن مرض السكري، الأول: «مقالتان في الحواس»، والثاني «مسائل في المرض المسمى ديابيطس».

ومما ورد عن مرض السكري في هذا الكتاب قول البغدادي: «سألت أكرمك الله بتوفيقه عن المرض المسمى ديابيطس، وعن أقسامه وعلامات كل قسم منه، وعن ما وقع هذا الاسم عليه بالحقيقة، وعلى الأثر وكيفية علاج هذا القسم خاصة، إذا كان هو الواقع بالمريض المشار إليه»[٦١].

ومن قوله: «علاج تام لديابيطس، يسقى الدوغ الحامض مستقصى إخراج الزبد منه، يأكل خبزه به ويضمد كلاه بما يبرد، ويبرد كل ساعة ويجعل أبداً في فيه مصل ليسكن العطش، ويسقى ماء الشعير، ويحقن بماء الورد... ويسقى أقراص الكافور، ويطعم الفواكه والبقول الباردة».

وينقل لنا علاجاً عن الرازي مدللاً على علم الرازي بهذا المرض، يقول: «قال الرازي: ومن علاجه إسكانه سرداباً ندياً، ويستلقي على أرض باردة، وعلى ورق الخلاف مرشوشاً عليه ماء الثلج، ويتعمد أن يضع أسفل ظهره عليه، ويمسك في فيه

مصلاً ولا يتحرك البتة لئلا يعود ويتحلل منه شيء، فحينئذٍ تبرد كلاه، وإذا دام استلقاؤه على الأشياء الباردة يسكن أكثر ما به»(٦٢).

وبالتالي يكون الرازي قد سبق البغدادي بمعرفة مرض السكري بشهادة البغدادي نفسه، وقد تبين لي أن ابن سينا قد سبق البغدادي أيضاً بذلك، فإنه يذكر من هذا المرض وصفه، وأعراضه، ومما قال في ذلك: «فصل في ديابيطس: ديابيطس هو أن يخرج الماء كما يشرب في زمانٍ قصير، ونسبة هذا المرض إلى المشروب وإلى أعضائه نسبة زلق المعدة والأمعاء إلى المطعومات... وصاحبه يعطش فيشرب ولا يروى، بل يبول كما يشرب غير قادر على الحبس البتة»، ثم يوجهنا إلى بعض علاجات هذا المرض قائلاً: «أكثر علاجه بالتبريد والترطيب بالبقول و الفواكه والربوب الباردة مما لا يدر مثل الخس والخشخاش»(٦٣).

٤- سعار الكَلَب:

ذكر ابن منظور في معنى السعار: «سُعر الرجل فهو مسعور إذا اشتد جوعه و عطشه، والسعر شهوة مع جوع»(٦٤).

وقد عدّ مؤرخو العلوم أن العالم الفرنسي (لويس جان باستور ت ١٨٩٥ م = ١٣١٣ هـ) هو أول من اكتشف وتحدث عن مرض سعار الكَلَب، وداء الكَلَب، ويذكر مؤلف الكتاب الذي استقينا منه هذه المعلومة يوسف الملا كتصحيح لهذا الاكتشاف أن أول من تحدث عن هذا المرض هو العالم المسلم محمد بن موسى الدميري (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ م)(٦٥).

ولكني وبعد مطالعتي لكتب علم الحيوان في تراثنا مضافاً إليها الكتب الطبية وجدت ما يجب أن أصحح به تصحيح يوسف الملا، حيث سبق أكثر من عالم مسلم الدميري إلى هذا الاكتشاف، ويأتي في مقدمتهم عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري المشهور بالجاحظ (عاش تقريباً فيما بين ١٥٠- ٢٥٠ هـ =

٧٦٧ -٨٦٩ م)، إذ ذكر داء الكَلَب، واستشهد بقصة رجل عضه كلب، فأصابه بهذا الداء، فقال: « عض كلبٌ كَلِبٌ رجلاً من بلعنبر فأصابه داء الكَلَب»(٦٦).

وذكرَ أيضاً ما أصاب صاحب العضة: «فكان يعطش ويطلب الماء بأشد الطلب، فإذا أتوه به صاح عند معاينته لا لا أريد... وهكذا يصيب صاحب تلك القصة، وذلك أنه يعطش عندها أشد العطش ويطلب الماء أشد الطلب فإذا أتوه به هرب منه أشد الهرب»(٦٧).

وممن عرف هذا المرض أيضاً ابن سينا، وذكره تحت العناوين التالية:

ــ في عضة الكلب الأهلي غير الكَلِب، وكذلك عضة الذئب ونحوه.

ــ في صفة الكلب الكَلِب و الذئب الكَلِب، وابن آوى الكَلِب.

ــ في أحوال من عضه الكلب الكَلِب.

ــ في الفرق بين عضة الكلب الكَلِب وغير الكَلِب.

ــ في العلاج.

ومما قال في أحوال من عضه الكلب الكَلِب ذكر صفاته التي منها: «الوسواس واختلاط العقل، وعطش ويبس فم، وتحمر أعضاؤه وخصوصاً وجهه، ثم في آخره يأخذ في الخوف من الماء ومن الرطوبات، وكلما قربت منه تخيل الكلب فخاف منه»(٦٨).

وممن ذكر سعار الكَلَب وداء الكَلَب القزويني زكريا بن محمد (ت ٦٨٢ هــ = ١٢٨٣ م) في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»، ذكر أن الكلب يصاب صيفاً بالجنون بسبب الحرارة، فيصير ريقه سماً، وعلامة ذلك اللهاث الدائم واحمرار العينين، وإطراق الرأس واعوجاج الرقبة، واسترخاء الذنب وجعله بين فخذيه، ويمشي مائلاً خائفاً كأنه سكران،... ومن عضه ينبح كالكلب ويرى بوله مرشوشاً على صورة

الكلب، وينظر في الماء يرى صورة الكلب، ولا يشرب من الماء حتى يهلك عطشاً»[٦٩].

ثم يأتي الدميري بعد هؤلاء الأفاضل، ويذكر حال من تعرض له الكَلَب: «ويعرض له الكَلَب بفتح اللام، وهو داء يشبه الجنون، وعلامة ذلك أن تحمر عيناه وتعلوهما غشاوة، وتسترخي أذناه ويندلع لسانه ويكثر لعابه وسيلان أنفه، ويطأطئ رأسه وينحدب ظهره، وينعوج صلبه إلى جانب، ولا يزال يدخل ذنبه بين رجليه ويمشي خائفاً مغموماً كأنه سكران، ويجوع فلا يأكل ويعطش فلا يشرب وربما رأى الماء فيفزع منه، وربما يموت منه خوفاً، وإذا لاح له شبح حمل عليه من غير نبح، والكلاب تهرب منه فإن دنا منها غفلة بصبصت له وخشعت بين يديه، فإذا عقر هذا الكلب إنساناً تظهر لديه أعراض أمراض رديئة، منها: أن يمتنع من شرب الماء حتى يهلك عطشاً، ولا يزال يستسقي حتى إذا سقي الماء لم يشربه، فإذا استحالت هذه العلة به فقعد للبول خرج منه شيء على هيئة الكلاب الصغار»[٧٠].

٥- الطب النفسي وعلماء الحضارة العربية الإسلامية:

كما هو مشهور وشائع، فإن العالم اليوم ينسب العلاج بطريقة التحليل النفسي والطب النفسي نفسه للعالم النمساوي الشهير سيغموند فرويد[٧١]، وهذه القضية شائعة ومنتشرة، في حين إن الحقيقة ليست كذلك، فهناك عدد كبير من علماء حضارتنا تكلم بإسهاب عن الطب النفسي، وهذا توضيح لذلك.

أ- ابن سينا والطب النفسي:

كان لابن سينا الأسبقية في إبداع **الطب النفسي**[٧٢]. يقول خوان فيرنيت: «إن إسهامات أخرى لابن سينا كالمعالجة النفسية البدنية بما فيها النفسانية لحالات معينة، لقيت من طيب الاستقبال ما جعل (السينوية) الطبية تسود في الجامعات الأوروبية حتى نهاية القرن السادس عشر»[٧٣].

وبتوضيح أكبر يقول جاك ريسلر: «لقد بادر ريمون، مطرانُ طليطلة، إلى ترجمة كتاب ابن سينا في النفس، إلى اللاتينية، ومعه، صارت طليطلة في القرن الثالث عشر ملقى العقول الغربية الكبرى: ادلار دي باث، هرمان الدلمطي، روير دي رتين، كانوا كلهم متعطشين للمعرفة وكانوا قد جاؤوها بحثاً في إسبانيا المسلمة عما كان مفقوداً لديهم»(٧٤).

فابن سينا تناول بشكل واضح هذه المسألة في كتابه الشهير «القانون في الطب»، مخصصاً فصلاً كاملاً عن قضية العشق، فوصف طريقته المشهورة في تشخيص العاشق وعلاجه، وهي تشبه ما نسميه اليوم بجهاز كشف الكذب، يقول ابن سينا في ذلك: «ويتغير نبضه وحاله عند ذكر المعشوق خاصة، وعند لقائه بغتة، ويمكن من ذلك أن يستدل على المعشوق أنه هو إذا لم يعترف به، فإن معرفة معشوق أحد تسهل علاجه، والحيلة في ذلك أن يذكر أسماء كثيرة تعاد مراراً، وتكون اليد على نبضه، فإذا اختلف بذلك اختلافاً عظيماً، وصار شبه المنقطع ثم عاود، وجربت ذلك مراراً علمت أنه اسم المعشوق، ثم يذكر كذلك السكك والمساكن والحرف والصناعات والنسب والبلدان، وتضيف كلاً منها إلى اسم المعشوق، ويحفظ النبض حتى إذا كان يتغير عند ذكر شيء واحد مراراً جمعت من ذلك خواص معشوقه من الاسم والمحلة والحرفة وعرفته، فإنا قد جربنا هذا واستخرجنا به ما كان في الوقوف عليه منفعة، ثم إن لم تجد علاجاً إلا تدبير الجمع بينهما على وجه يحله الدين والشريعة فعلت»(٧٥).

وتؤكد المستشرقة الألمانية هونكه على ذلك، إذ تقول أن المسلمين هم الذين أبدعوا المعالجة النفسية التي مثلت دوراً مهماً في مداواتهم الآلام الجسدية، ثم تقول: «لذلك طالب ابن سينا بضم الوسائل النفسية إلى التداوي بالعقاقير لزيادة مفعولها، وإزالة الخوف عن المريض قائلاً: (علينا أن نعلم أن أحسن العلاجات وأنجعها هي العلاجات التي تقوم على تقوية المريض النفسانية والروحية، وتشجيعه ليحسن مكافحة

المرض، وتجميل محيطه وإسماعه ما عذب من الموسيقى وجمعه بالناس الذين يحبهم)»[٧٦].

ومن القصص العملية التي رويت عن طب ابن سينا النفسي، أنه دُعي يوماً إلى عيادة فتى مريض حار الأطباء في معرفة علته، فأمر باستدعاء عريف (مختار) من عرفاء المدينة خبير بالأمكنة، وتناول يد الفتى يجس نبضه ويرقب وجهه، وطلب إلى العريف أن يسرد أسماء الأحياء في تلك الناحية ففعل، حتى إذا ذكر حياً منها ازداد نبض الفتى، فسأل ابن سينا العريف أن يذكر بيوت ذلك الحي، فازداد نبض ذلك الفتى ارتفاعاً عند ذكر واحد من بيوت الحي، فطلب ابن سينا إلى العريف أن يعد أسماء بنات ذلك البيت ففعل، وعند ذكر واحدة منهن كشف الطبيب النفساني ابن سينا علة الفتى، وقال لأهله: زوجوه من هذه الفتاة فهي الدواء[٧٧].

ومما يدل على أنه طبيب نفسي من الدرجة الأولى علاجه لحالة أخرى من حالات كثيرة أتقن علاجها، حيث أصيب أمير شاب من بيت بني بويه بمرض عصبي، وامتنع عن تناول الطعام، وتوهم أنه أصبح بقرة، وأخذ يصرخ مطالباً بذبحه وإطعام لحمه للناس، فلما استنجد أهله بابن سينا لمعالجته، قصد بيت الأمير ومعه عدد من أتباعه، وتناول سكيناً حاداً وأخذ يصيح: أين البقرة التي تريدون ذبحها ؟ ثم تقدم نحو الأمير وأخذ يتحسس جسمه بصوت مرتفع: هذه بقرة نحيلة هزيلة، اعلفوها أولاً حتى تسمن، ومن الغريب أن الأمير بدأ يتناول الطعام، وكان ابن سينا يدس له فيه الدواء، حتى تم له الشفاء [٧٨].

كما أشار ابن سينا إلى دور الذاكرة المختزنة في العقل الباطن والمخيلة التي تعالج ذلك، ليكون الحلم في النهاية تحقيق رغبة قديمة أو حديثة، وقد ظهرت هذه النظرة التحليلية العميقة للأحلام بعد أكثر من تسعة قرون في كتاب (تفسير الأحلام)

لعالم النفس الشهير سيغموند فرويد، الذي عُدّ رائد مدرسة التحليل النفسي، ومؤسس مدرسة علم النفس الحديث[٧٩].

وترك لنا ابن سينا أيضاً مقالة كشاهد عيان على تمرسه بالطب النفسي وهي «الفصول» وتتحدث عن الطب النفسي، وبالتالي عرف ابن سينا الاضطرابات العصبية ودرسها، وعرف بعض الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان يرى أن في العوامل النفسية والعقلية، كالحزن والخوف والقلق والفرح وغيرها تأثيراً كبيراً على أعضاء الجسم ووظائفه، ولهذا لجأ إلى الأساليب النفسية في معالجة مرضاه، ومن طرق علاجه النفسي تقديم العلاج عن طريق النصائح الأخوية، وعن طريق الأبيات الشعرية، وقد سبق أن تحدثنا عن شعره، ولذلك عمل أرجوزة في الطب تحتوي على ١٣١٤ بيتاً من الشعر في أحوال وأصول الطب وحفظ الصحة وأنواع العلاج، تُرجمت إلى اللغة اللاتينية، وعلق عليها كل من ابن رشد وابن زهر تعليقاً ممتازاً[٨٠].

ب- الرازي والأمراض السيكوسوماتيكية:

أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، المعروف عند الغربيين باسم رازيس (توفي عام ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م، وقيل ٣١١ هـ = ٩٢٣ م، وقيل ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م)[٨١].

ومن إبداعات وأسبقيات الرازي، والتي تحتاج إلى دراسة موسعة ومتخصصة واهتمام جاد، دعوته إلى الاهتمام بالأحوال النفسية في تشخيص الأمراض العضوية الباطنية وعلاجها، وهذا أساس ما يسمى اليوم **بالأمراض السيكوسوماتيكية**[٨٢]. وهي مما برع بها ابن سينا كما رأينا.

فكما برع الأطباء المسلمون في معالجة الأمراض النفسية، فقد برعوا أيضاً في الأمراض النفسية ــ العضوية، علماً بأن معالجة هذه الأمراض تشكل واحداً من أحدث فروع الطب في أيامنا هذه، وهو الفرع المعروف بالسيكوسوماتيك.

ولقد دلت الأبحاث الطبية الحديثة على أن الإجهاد والقلق والتوتر النفسي تسبب مجموعة من الأضرار في أنسجة الجسم الداخلية، وتوقع الشخص فريسة للمرض.

والشيء المشرف هنا هو أن الأطباء المسلمين كشفوا هذه العلاقة قبل ألف سنة على الأقل من الآن، حيث نجدهم يصرون على وجوب التوافق بين صحة الجسم وصحة النفس.

وأول من لمس هذه الأهمية النفسية ومدى تأثيرها على الصحة البدنية هو الرازي، الذي طبق ذلك على أمراض سوء الهضم مثلاً(٨٣).

وقد قام كل من الدكتور محمد حسين والدكتور محمد العقبي بدراسة وتحليل طب الرازي من خلال موسوعته «الحاوي»، وفي دراستهم عن الماليخوليا والمراخية و الشراسفية وكلها تتعلق بالوسواس والطب النفسي، قدما بالكلمات التالية: «هذا باب جيد وأسلوبه واضح وضوحاً يدل على ثقة المؤلف (الرازي) بما يعرف عن هذه الأمراض وفي وصفه لعلاماتها دقة وجلاء تتميز بها أعراض كل من هذه الأمراض رغم ما فيها من تقارب شديد، ثم هو بعد ذلك حسن العلاج، وقوله أنه أبرأ قوماً بنصيحة واحدة ليس بعيداً عن الصواب، ويعجبنا أنه يفرق بين فساد الحس مع صواب الحكم، وصواب الحس مع فساد الحكم، وكذلك يروقنا قوله إن المراقبة تشبه الماليخوليا إلا أن اختلاط الذهن فيها أقل، وعلاجه لهذه الحالات بالشراب الجيد، والتماس أسباب الفرح والسرور والانشغال بأمور عملية، وهو يذكر أحياناً أنه يعالج المريض بحل فكره، كل هذه علاجات لا تزال صادقة إلى يومنا هذا، ورأيه أن أكثر أسباب الماليخوليا الفراغ، وهذا قول يجب أن يتدبره كل إنسان مريضاً كان أو معالجاً»(٨٤).

ثم يعقب الأساتذة الكرام أن الأمراض النفسية اليوم تتشابه مع ما قاله الرازي، إذ إنه يذكر أنواعاً منها مثلاً الخوف الزائد عن الحاجة والخوف من الظلام، ثم ينقل لنا الأساتذة اقتباسات من كتاب «الحاوي» للرازي، أختار منها ما يلي، يقول الرازي:

«الماليخوليا وسواس بلا حمى، وهي ثلاثة أصناف: إما أن يكون الدماغ نفسه خلط أسود، وإما أن يكون الدم الذي في البدن كله أسود... ومن الوسواس السوداوي صنف آخر يكون ابتداؤه من المعدة ويسمى المراقي... والأعراض القوية لهذه العلة التفرغ وخبث النفس، ويعرض له من التخيلات أشياء عجيبة متفننة حتى أن أحدهم ظن أنه قد صار خزفاً، **وآخر ظن أنه ديك**، وآخر خاف من وقوع السماء عليه، وبعضهم يحب الموت وبعضهم يفزع منه»(٨٥).

ثم يضيف الرازي علاج المالخوليا فيقول: «ولا علاج أبلغ في رفع الماليخوليا من الأشغال الاضطرارية التي فيها المنافع أو مخافة عظيمة تملأ النفس وتشغلها جداً، والأسفار والنقلة، **فإني رأيت الفراغ أعظم شيء في توليده والفكر فيما مضى**، وكان ويكون وينبغي أن يعالج هذا الداء بالأشغال فإن لم يتهيأ فبالصيد والشطرنج وشرب الشراب والغناء والمباراة فيه، ونحو ذلك ما يجعل النفس شغلاً عن الأفكار العميقة لأن النفس إذا تفرغت تفكرت في الأشياء العميقة البعيدة، وإذا فكرت فيها فلم تقدر على بلوغ عللها حزنت واغتمت واتهمت عقلها، فإذا زاد وقوي فيها هذا العرض كان ماليخوليا».

ثم يعرض لنا الرازي أدلة على ما يقول من واقع الناس، أي بالملاحظة والاستقراء، فيقول: «وقد برئ غير واحد منهم بهدم وقع، أو بفرق، أو بحرق، أو بخوفٍ من سلطان، **وكل هذا يدل على أن النفس إذا عرض لها بغتة أمر اضطراري شغلها عن العناية والفكرة بغيره**».

ولا يكتفي الرازي بهذا الاستدلال، بل يقدم لنا نماذج من خلاصة علاجاته لهذا المرض، يقول: «كان رجل شكا إلي وسألني أن أعالجه من مرة زعم سوداوية، فسألته ما يجد ؟ فقال أفكر في الله تعالى من أين جاء، وكيف ولد الأشياء، فأخبرته أن هذا

فكر يعم العقلاء، فبريء من ساعته، وقد كان اتهم عقله حتى أنه كاد أن يقصر فيما سعى فيه من مصالحه، وغير واحد من هؤلاء عالجته بحل فكره».

وهنا يعلق الأساتذة الكرام على هذا العلاج بقولهم: «طريقة صحيحة في العلاج النفسي»(٨٦).

وينبهنا الرازي إلى أهمية المسارعة في علاج هذا المرض من أوله، وذلك عندما يقدم لنا العلامات الدالة على ابتدائه، يقول: «ينبغي أن تتفقد علامة متداولة وتبادر بعلاجه لأن ذلك في ابتدائه أسهل ما يكون وأعسر ما يكون إذا استحكم، وأول ما يستدل به على وقوع الإنسان في الماليخوليا **أن يسرع الغضب والحزن والفرح بأكثر من العادة، ويحب التفرد والتخلي**، فإن كان مع هذه الأشياء بالصورة التي أصف فليقو ظنك، ويكون لا يفتح عينه فتحاً جيداً كأن به خفشاً **وتكون أعينهم ثابتة قليلاً**»(٨٧).

وهذه دعوة إلى الأطباء المتخصصين المتعمقين بعلوم الطب لتأصيل هذه الأسبقية والأحقية للرازي فهي تحتاج إلى متخصصين كما أسلفت يستطيعون التعامل مع هذه الفكرة و التأريخ لها بشكل منهجي وعلمي دقيق يزيل أي شك أو لبس من الأذهان.

وهذا الكلام بحرفيته يوجه إلى المختصين للتأكيد على أسبقية وأحقية أخرى للرازي، وهي اهتمامه الشديد **برفع الروح المعنوية للمريض** لإيمانه أن ذلك عاملاً من العوامل المساعدة على الشفاء. ومما يقول في ذلك: «ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبداً الصحة ويرجّيه بها، وإن كان غير واثق من ذلك، **فخراج الجسم تابع لخلاق النفس**»(٨٨).

أي أن الأمراض العضوية تتصل اتصالاً مباشراً بالأحوال النفسية، وهذا أحدث ما ينظر فيه اليوم في علاج الأمراض(٨٩)، وتأكيداً على ذلك فقد أشار بعض

المتخصصين أن الرازي تميّز باهتمامه بالنواحي النفسية عند المريض، وعرف أن هناك علاقة قوية بين طبيب الجسم وطبيب الروح[٩٠].

ـ الخاتمة:

لقد تأكد سلب إبداعات الحضارة العربية الإسلامية بعد الاطلاع على عدد ضئيل من المخطوطات التي تعود إلى عصر الحضارة العربية الإسلامية، تلك المخطوطات المخبأة في مكتبات العالم الغربي وخزائنه، والتي لم يعلن إلا عن عدد قليل منها، وتأكد كيف لا زمت صفة «الانتحال» عدد ليس بقليل من علماء الغرب الذين انتحلوا الإنجازات العلمية لعلماء الحضارة العربية الإسلامية، بل إن منهم ــ كما يؤكد الدكتور فؤاد سزكين ــ من انتحل كتباً بأكملها وترجمها إلى لغته زاعماً أنها من إبداعه وتأليفه، وإن كان غيرهم لم يفعل ذلك، ولكنهم أبوا إلا أن يزعموا أن كتباً علمية عربية إسلامية أخرى هي لمشاهير علماء الإغريق!.

ونقف في أقوال المنصفين من علماء الغرب على حديث صريح عن سرقات غربية لإبداعات عربية إسلامية، فانظر مثلاً إلى قول زيغريد هونكه عند حديثها عن علوم الحضارة العربية الإسلامية: «بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين»[٩١].

وبالصراحة نفسها يقول سيديو: «ونحن حين نلخص ما تم على يد العرب من تقدم في العلوم الصحيحة نرى ظهور كثير من الاكتشافات التي يُعزى أكثرها إلى علماء أوروبة في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر الميلاديين = التاسع والعاشر الهجريين»[٩٢].

ويقول: «قُصد نسيان العرب وإنكار ما كان لهم من تأثير في الحضارة الحديثة»[٩٣].

فيتوجب علينا جميعاً أن نوجه النظر إلى هذه القضية الهامة قولاً وفعلاً، ومن الضروري إحداث هيئات علمية ترصد هذا الاستباحة العجيبة لإبداعات حضارتنا، وتعيد الحقوق لأصحابها، فكل يوم يُكتشف إبداع جديد كان قد نُسب إلى علماء الغرب، فمثلاً من آخر ما توصل إليه الباحثون في السنوات الأخيرة؛ أن جهود ابن الهيثم وإبداعاته واكتشافاته هي الأساس الذي استند عليه العلماء في اكتشاف الليزر[٩٤].

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) انظر في ترجمة الزهراوي: ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح: نزار رضا، بيروت، مكتبة الحياة، ص٥٠١. الصفدي (خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، اعتناء هلموت ريتر، دار فرانز شتاينر، ط٢، ١٩٦٢م، ج١٣، ص٣٧٠. الزركلي (خير الدين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٢، ١٩٩٧ م، ج ٢، ص ٣١٠، ٣١١. كحالة (عمر): معجم المؤلفين، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٣ م، ج ١، ص ٦٧٤.

(٢) الهندي (أمجد): دور العرب في تقدم علوم الطب، دار سعاد الصباح، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م، ص ٦٧. أباظه (نزار)، وأبو خليل (شوقي): موسوعة الأوائل والمبدعين، دار المنبر، ج ٤، ص ٦٣٤. وامبرواز باريه طبيب فرنسي، وهو من أشهر أطباء عصر النهضة، ولد سنة ١٥١٧ م = ٩٢٣ هـ، انظر عنه نعمة الله (هيكل): موسوعة علماء الطب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١ م، ص ١٠٣،١٠٢.

(٣) انظر الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية ـ التأثر والتأثير، بحث محمود سالم الشيخ: الجراحة عند أبي القاسم الزهراوي وتأثيرها على الطب في أوروبا.

(٤) هونكة (زيغريد): شمس العرب تسطع على الغرب، تر فاروق بيضون، كمال دسوقي، بيروت، دار صادر، ط ٩، ٢٠٠٠ م، ص ٢٧٨. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٤، ص ٦٣٥، ٦٣٦. الدفاع (علي عبد الله): أعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٩٨٣ م، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٥) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٧٧. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج ٤، ص ٦٣٦.

(٦) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٧٨، ٢٧٩. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج ٤، ص ٦٣٦.

(٧) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ١٣٢.

(٨) انظر الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية ــ التأثر والتأثير، بحث محمود سالم الشيخ: الجراحة عند أبي القاسم الزهراوي وتأثيرها على الطب في أوروبا.

(٩) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٧٨. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج٤، ص٦٣٦.

(١٠) الحسيني (أيمن): أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ م، ص ٦٩.

(١١) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ١٣٣، ١٣٤.

(١٢) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص٦٥ــ٦٩. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٢١-١٣٠. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج ٤، ص ٦٣٣-٦٣٧. الملا (أحمد): أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر، ص ١٣٧. حسين (محمد) وآخرون: الموجز في تاريخ

الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، ص ١٠٨-١٤٧.

(١٣) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٧٨. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج ٤، ص ٦٣٥.

(١٤) انظر الندوة العالمية التاسعة لتاريخ العلوم عند العرب: العطاء العلمي العربي في العصور الإسلامية ــ التأثر والتأثير، بحث الأستاذ الدكتور محمد عبد الله سلطان: تثبيت البرهان لإبداعات الزهراوي بطب الأسنان.

(١٥) انظر في ترجمة ابن سينا: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٣٧- ٤٥٩. ابن العبري (غريغوريوس الملطي): تاريخ مختصر الدول، ص ٥٥، ٧٧، ١٧٦، ١٨٧، ١٨٩، ٢٤٠. ابن خلكان (أحمد بن محمد): وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ج ٢، ص ١٥٧- ١٦٢. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ١٢، ص ٣٩١- ٤١٢. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٧٣، ٧٤. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٣٨- ١٤٤. عاصي (حسن): ابن سينا، دار الفكر العربي، بيروت، ط ٢، ١٩٩٠ م، ص ١١- ١٣. لوبون (غوستاف): حضارة العرب، تر عادل زعيتر، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ م، ص ٤٨٩، ٤٩٠. كلاس (جوزيف): مسيرة الطب في الحضارات القديمة، دار طلاس، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٢٧٣- ٢٧٨.

(١٦) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٥٣. طوقان (قدري): تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٥٤ م، ص ٢٩٤.

(١٧) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ١٠٤، ١٠٥.

(١٨) ديورانت (ول): قصة الحضارة، تر علي أبو درة، بيروت، دار الجيل، ج ١٣، ص ١٤١.

(١٩)ابن سينا (الحسين بن عبد الله): القانون في الطب، تح سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤ م، ج ٣، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢٠) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ٤٣.

(٢١) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٣، ص ٢٤٣- ٢٤٥.

(٢٢) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ١٢٩.

(٢٣) ابن سينا: القانون في الطب، ج ١، ص٢٢٣- ٢٤٠.

(٢٤) حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٨٤.

(٢٥) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ١٣٠.

(٢٦) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٤، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

(٢٧) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٤، ص ٤٨١.

(٢٨) انظر عن ابن النفيس: العمري (أحمد بن يحيى): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار،مخطوط، آيا صوفيا، استنبول، مكتبة السليمانية، نشرة فؤاد سزكين التصويرية، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، ج٩، ص: ٣٤٩_٣٥٣، ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد البدراوي، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٩٧٠ م، ج ٢، ص ٣٣٤، النعيمي (عبد القادر بن محمد): الدارس في تاريخ المدارس، إعداد إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٠م، ج٢، ص: ١٠٣، الأسنوي (عبد الرحيم): طبقات الشافعية، تح: كمال الحوت، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧ م، ج ٢، ص ٢٨٤، السبكي (عبد الوهاب بن علي): طبقات الشافعية الكبرى، تح: محمود الطناحي، عبد الفتاح الحلو، الجيزة، هجر للطباعة، ط ٢، ١٩٩٢ م، ج ٨، ص ٣٠٥،

٣٠٦، السيوطي (عبد الرحمن): حسن المحاضرة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧ م، مج ١، ص ٤٤٤، ابن العماد (عبد الحي أحمد): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، ط١، ١٩٩١ م، مج ٧، ص ٧٠١، ٧٠٢.

(٢٩) وهذا حشد من الكتب التي تحدثت عن هذه الحقيقية: غاليونجي (بول): ابن النفيس، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص ١٠٠- ١٠٤، الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، بيروت، ص ٢٠١- ٢١٣، هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٦٢- ٢٦٨، عيسى (أحمد): معجم الأطباء، بيروت، دار الرائد العربي، ط ١، ١٩٤٢ م، ص ٢٩٢- ٢٩٦، حميدان (زهير): أعلام الحضارة العربية الإسلامية، دمشق، وزارة الثقافة، ١٩٩٦ م، ج ٤، ص ٩٤- ١٠٥، محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس، الجامعة الأردنية، ١٩٨٧ م، بيروت، دمشق، دار الفكر، ط ١، ١٩٩١ م، ص: ٦٢- ١٥٢.

(٣٠) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص: ٢٦٢، ٢٦٣، وانظر مؤتمر الصوفي وابن النفيس، ص ١٤٣ــ١٤٥.

(٣١) أبو خليل (شوقي): الحضارة العربية الإسلامية، طرابلس، ليبية، ط٢، ١٩٩٣م، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣٢) أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص ٢٦٦.

(٣٣) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣١٩، ٣٢٠. القفطي (علي بن يوسف): أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة، مكتبة المتنبي، ص ١٥٥، ١٥٦. كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢، ص ٤٥٤. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٥٨. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص

١٠٥. كحالة (عمر): العلوم العملية في الحضارة الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٧٢ م، ص ٢٨،٢٩.

(٣٤) حميدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية، ج ٢/، ص ١١٨. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٦٠.

(٣٥) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١١٢، ١١٣. الدفاع (علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٩٨٧ م، ص ٢٥١.

(٣٦) كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص ٢٥٩.

(٣٧) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٠٧-١٠٩. الدفاع: إسهام علماء العرب المسلمين في الصيدلة، ص ٢٤٣. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ١٦٩. كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص ٢٩٤.

(٣٨) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ١٥٧- ١٧٠. كلاس: مسيرة الطب في الحضارات القديمة، ص ٢٩٢- ٢٩٤.

(٣٩) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص٢٤٣.

(٤٠) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ٦٤.

(٤١) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، ص ٢٠٦.

(٤٢) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٣، ص ٦٠٤ – ٦٠٦.

(٤٣) الرازي (محمد بن زكريا): كتاب الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض، تح: سليمان قطاية، معهد التراث العلمي، حلب، ط١، ١٩٨٧م، ص ٧.

(٤٤) الرازي: كتاب الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض، ص ١٩.

(٤٥) الرازي: كتاب الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض، ص ١٢٤.

(٤٦) الرازي: كتاب الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض، ص ٢٤٦.

(٤٧) الرازي: كتاب الفروق أو كلام في الفروق بين الأمراض، ص ٢٥٠.

(٤٨) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٦٥-٦٩. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٢١- ١٣٠. أباظة: موسوعة الأوائل والمبدعين، ج ٤، ص ٦٣٣- ٦٣٧. الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص١٣٧. حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص١٠٨ــ١٤٧. هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٧٧- ٢٧٨. كحالة: معجم المؤلفين، ج ١، ص ٦٧٤. لوبون: حضارة العرب، ص ٤٩٠، ٤٩١.

(٤٩) الحسيني: أعظم ١٠٠ اكتشاف طبي، ص ٢٥.

(٥٠) حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٣٨٨.

(٥١) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٥٢) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٥٣) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، ص ٤٤٥، ٤٤٦.

(٥٤) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٢، ص ٤٨٢.

(٥٥) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٣، ص٣، ١٥٩، ٢٠٠، ٢٤٠.

(٥٦) ابن سينا: القانون في الطب، ج ١، ص ٦٩- ٧١.

(٥٧) ابن النفيس: شرح تشريح القانون، تح: سليمان قطاية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ م، ص ١٨. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ٢٠١- ٢١٣، غاليونجي: ابن النفيس، ص ١٠٠- ١٠٤، هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٦٢- ٢٦٨، عيسى: معجم الأطباء، ص ٢٩٢- ٢٩٦، حميدان: أعلام

الحضارة العربية الإسلامية، ج٤، ص: ٩٤ـ١٠٥، محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس، ص: ٦٢ـ١٥٢.

(٥٨) ابن النفيس: شرح تشريح القانون، المقدمة، ص ٥، ٦.

(٥٩) انظر مؤتمر الصوفي وابن النفيس، ص ١٤١- ١٤٣.

(٦٠) الدفاع (علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٨٥ م، ص ٢١٦- ٢١٧.

(٦١) البغدادي (عبد اللطيف): مقالتان في الحواس، المقالة الثانية المسماة: مسائل في المرض المسمى ديابيطس، تح بول غليونجي، سعيد عبده، سلسلة التراث العربي، الكويت، ١٩٧٢ م، ص ١٢٥.

(٦٢) البغدادي: مقالتان في الحواس، ص ١٣٣.

(٦٣) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٣، ص ١٩١.

(٦٤) ابن منظور (جمال الدين محمد): لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ١، ١٩٩٧ م، ج ٤، ص ٣٦٦.

(٦٥) الملا (يوسف): رواد الحضارة والعمران، دار الشرق العربي، بيروت، حلب، ط ١، ١٩٩٨ م، ص ١٦٧.

(٦٦) الجاحظ (عمرو بن بحر): كتاب الحيوان، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت،١٩٩٦ م، ج ٢، ص ١٢.

(٦٧) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج ٢، ص ١٣.

(٦٨) ابن سينا: القانون في الطب، ج ٤، ص ١٣١- ١٣٧.

(٦٩) القزويني (زكريا): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تح فاروق سعد، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٧ م، ص ٤٣٦، ٤٣٧.

(٧٠) الدميري (محمد بن موسى): حياة الحيوان الكبرى، المكتبة الإسلامية، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٧١) فرويد عالم نمساوي نُسب إليه كما أسلفنا تأسيس علم التحليل النفسي، لاعتماده على تفسير الأحلام كأسلوب لتشخيص أنواع الخلل العقلي كالهستيريا، انظر البدوي (خليل): موسوعة العلماء والمخترعين، دار أسامة، الأردن، عمان، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٧٢) الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص١٣٥.

(٧٣) فيرنيت (خوان): فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ترجمة: نهاد رضا، دمشق، دار إشبيلية، ط ١، ١٩٩٧ م، ص ٢٤٦.

(٧٤) ريسلر (جاك): الحضارة العربية، باريس، منشورات عويدات، ط ١، ١٩٩٣ م، ص ٢٢٧.

(٧٥) حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص ٨٤.

(٧٦) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٢٨١، ٢٨٢.

(٧٧) الملا: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، ص ١٣٥.

(٧٨) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٤٢.

(٧٩) الدباغ (فخري): أصول الطب النفساني، دار الطليعة، بيروت، ط ٣، ١٩٨٣ م، ص ١٢- ١٥. الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٤٣، ٤٩، ١٣٨ـ ١٤١.

(٨٠) الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ١٤٣- ١٤٥.

(٨١) انظر في ترجمة الرازي: النديم (محمد): الفهرست، سوسة، تونس، دار المعارف، ص ٥٠٤. ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤١٤- ٤٢٧. القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص ١٧٨- ١٨٢. ابن

العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ١٥٨. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص ١٥٧-١٦١. ابن جلجل (سليمان): طبقات الأطباء والحكماء، تح فؤاد سيد، ط٢، ١٩٨٥ م، ص ٧١-٨١. الصفدي (خليل بن أيبك): نكت الهيمان في نكت العميان، طبعة أحمد زكي بك، مصر، المطبعة الجمالية، ١٩١١ م، ص ٢٤٩، ٢٥٠. الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٣، ص ٧٥- ٧٧. الدفاع: أعلام العرب والمسلمين في الطب، ص ٨٣-١٠٥.

(٨٢) انظر الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٥٣.

(٨٣) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٤٣، ٤٩، ١٣٨-١٤١. الدباغ: أصول الطب النفساني، ص ١٢- ١٥.

(٨٤) حسين (محمد كامل) والعقبي (محمد): طب الرازي، دراسة وتحليل وشرح وتعليق لكتاب الحاوي، دار الشروق، القاهرة، ص ٨٧، ٨٨.

(٨٥) حسين: طب الرازي، دراسة وتحليل لكتاب الحاوي، ص ٨٩، ٩٠.

(٨٦) حسين: طب الرازي، دراسة وتحليل لكتاب الحاوي، ص ٩١.

(٨٧) حسين: طب الرازي، دراسة وتحليل لكتاب الحاوي، ص ٩٢.

(٨٨) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٢٠.

(٨٩) الهندي: دور العرب في تقدم علوم الطب، ص ٥٤، ٥٥.

(٩٠) الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في الصيدلة، ص ٣٠١.

(٩١) هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٤٠٢.

(٩٢) سيديو (ل – أ): تاريخ العرب العام، تر عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٨ م، ص ٤٣٦.

(٩٣) سيديو: تاريخ العرب العام، ص ١١- ١٣.

(٩٤) جريدة الأهرام المصرية: ٤ – ١١ – ٢٠٠٦ م، ص ٢٨.

قراءة في تاريخ
الإسلام السياسي في الدولة العثمانية

د. طاهر حسن

قراءة في تاريخ
الإسلام السياسي في الدولة العثمانية

د. طاهر حسن

واجهت الدولة العثمانية، طيلة فترة حكمها التي دامت ستة قرون (١٢٩٩-١٩٢٢ م)، مشاكل عديدة، إذ كان عليها وهي في بداية عهدها ترسيخ قوتها، وتثبيت نفوذها، إضافة إلى أن مواجهة الأخطار الخارجية المحيطة بكيان دولتها الفتية. ومشاكل داخلية خطيرة تمثلت بالفتن، والتنافس ما بين أبناء وأخوة السلاطين طمعاً في عرش السلطنة، مما اضطرهم إلى سن قانون يعطي الحق للسلطان الجديد قتل أخوته وأبنائهم.

ومن المشاكل الداخلية التي واجهت الدولة، وصول عدد من السلاطين الضعاف إلى العرش انغمس أكثرهم باللهو والمجون تاركاً أمور الدولة لمساعديه، كما كان لتدخل النساء في الحكم الأثر الكبير في إضعاف نفوذ الدولة.

واختلفت آراء المهتمين والباحثين في التاريخ العثماني حول أصول وجذور آل عثمان. فبين مؤيد ومعارض لتكوين دولة آل عثمان، تعددت النظريات، والآراء عن الجذور التاريخية لهم، فقد وضعت أكثر من رواية حول أصولهم وقيام أول إمارة لهم، بعضها من الجانب العثماني وبعضها من الجانب الغربي، واختلط الخيال بالواقع إلى حد حجب معه الكثير من الحقائق الأساسية، ويأتي ذلك في ظل غياب مصادر عثمانية يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بأصول العثمانيين أو تاريخهم. إذ لم تكن للعثمانيين سجلات مكتوبة عن الفترة السابقة لفتح القسطنطينية، أما البيزنطيون فلم يشيروا إلى ما يستحق الذكر في أصل العثمانيين خصوصاً أنه لم تتوفر لديهم وسائل الحصول على معلومات لها قيمتها، أما الكتاب الأوربيون فيمكن اعتبار معلوماتهم انعكاساً لفكرة

أوروبا عن العثمانيين خاصةً بعد أن أصبحوا يمثلون خطراً يتهددهم. فضلاً عن ذلك فإن التواريخ العثمانية التقليدية لم تذكر إلا قليلاً عن العثمانيين، قبل استقرار آل عثمان في الأناضولِ وتجاهلها تاريخ الأتراك بوجه عام قبل اعتناقهم للإسلام[١].

- **التنظيمات العثمانية:**

نشأت الدولة العثمانية على أسس عسكرية دينية تبنت الجهاد لنشر الإسلام، ومحاربة دار الكفر[٢]، وأقامت مؤسساتها الإقطاعية، وأقام العثمانيون نظاماً مركزياً، فكان السلطان يقبض على السلطتين الإدارية والعسكرية، فهو القائد الأعلى للقوات العسكرية والمسؤول عن إدامتها وتجهيزها في السلم ويتقدمها خلال الحرب ولا يترك ذلك الأمر لغيره إلا في حالات نادرة[٣] ويشترط في السلطان الذي يتولى العرش أن يكون أحد أمراء البيت العثماني الحاكم، وهو رئيس الهيئة الحاكمة الدينية منها والدنيوية، فالتقت هاتان الهيئتان الأكثر نفوذاً في الدولة في شخص السلطان، وله السيطرة على رؤساء الملل المختلفة غير الإسلامية في الدولة، ورئيس حكام الولايات وحامي الشريعة الإسلامية، ويسيطر سيطرة تامة على أجهزة الدولة[٤]، فأقام دولته على أساس متين من التنظيم العسكري[٥]، فقد استعان السلطان في إدارة شؤون دولته بالوزير، وأول من استحدث هذا المنصب في الدولة العثمانية هو السلطان أورخان، إذ فوض أخاه علاء الدين لإدارة الشؤون الداخلية للدولة[٦]، ثم تطورت الوزارة وازداد عدد الوزراء، عندما استحدث منصب الوزير الأول (الصدر الأعظم)، وكان جندرلي خليل أول من شغل هذا المنصب المهم (وبعد وفاة خليل انتقل المنصب إلى ابنه علي باشا وبقي المنصب محصوراً في عائلة الجندرلي حتى عهد السلطان محمد الفاتح)، إذ جمع في يده قيادة الجيش والوزارة وكان الوكيل المطلق للسلطان، وبذلك أصبح في المرتبة الثانية من حيث النفوذ بعد السلطان[٧].

أما القوات العسكرية العثمانية فقد اعتمدت في بدايتها على المحاربين المسلمين

الأحرار[٨] فيمكن تقسيمها إلى: قوات نظامية وأخرى غير نظامية وقد اعتمدت الدولة عند تأسيسها على قوات غير نظامية، شكلت المشاة المؤلفة، من أفراد عشيرة عثمان، أقدم تشكيلاتها، فضلاً عن المتطوعين من أصحاب الطرق والدراويش يتقدمهم (عزبلار) العزب، في أثناء الهجوم بقيادة عزاب آغاسي، لامتصاص زخم العدو، وغالباً ما كانت القوات الإنكشارية تقوم بهجوم مضاد مارة فوق جثثهم. وكان الفرسان (السباهية) الحجر الأساس القوي في بناء الدولة، وتشكلت من الرجال الذين كانوا يجهزهم صاحب الأرض، بموجب نظام الإقطاع (التيمار)[٩]. وقد منحت الدولة هؤلاء الرجال الأراضي الزراعية لغرض توفير العيش لهم بدلاً من الإنفاق عليهم من خزينة الدولة ومقابل ذلك يلتزمون بأداء الخدمة العسكرية وقت الحاجة. وعرفت تلك الاقطاعات (ديرلكلار). وهي حسب حجم إيرادها السنوي: (التيمار)، (الزعامت)، (الخاص)[١٠]، وكان التيمار يدر على صاحبه ما بين ألف وعشرين ألف آقجة[١١] أما الزعامت فواردها ما بين عشرين ألف ومائة ألف (آقجة)، أما (الخاص) فيزيد على مائة ألف آقجة ويعطى للوزراء والبكلريكي وسائر الأمراء[١٢].

أما فرقة الخيالة العثمانية (السباهية) فقد أسست على نظام جديد، وكان لباسهم الأحمر الذي أصبح شعار الدولة العثمانية، واقتطع كل فرد منهم قطعة من الأرض بشرط أن يسكن الجندي في أرضه وقت السلم، ويكون مستعداً للحرب وقت الحاجة وعلى نفقته، وشرط أن يستقدم جندي آخر معه، وهم غير مشمولين برواتب شهرية[١٣] منهم: المسلمون والآفنجية[١٤].

المسلمون: فقد كانوا يشتركون في المعارك الفعلية حتى القرن الخامس عشر، إذ تم تغيير واجباتهم بعد هذا التاريخ إلى واجبات إدارية لمساعدة الجيش الملتحم بالحرب.

والآفنجية: كانت تعيش على ما تحصل عليه من الغنائم، وكانوا يختارون الأقدم

منهم لقيادتهم ويعرف باسم تاوجي (Tavica)[١٥].

وضع السلطان أورخان نظاماً يستند في كل مفاصله على الشريعة الإسلامية، فيما يتعلق بمعاملة الرعايا العثمانيين وغيرهم، وطبق مبادئ الدين الإسلامي القائم على التسامح الديني، الذي يفسر تحول الدولة العثمانية إلى دولة قوية، حيث لم يحاول فرض الإسلام على رعاياه غير المسلمين، بل لجأ إلى حل وسط، حيث كان أكثر معاونيه من سلالة سكان الأناضول القدامى، كما كان عليه إيجاد تمييز بين المسلم والمسيحي غير التمييز الديني، ومن ثم وجب عليه أن يجتذب المسيحيين- وخاصةً فئاتهم العليا- بحيث يتخلون عن عقيدتهم ويكون الولاء للدولة الجديدة، لذا أوجد نظام المكافأة على الخدمة العسكرية، وقصر الخدمة العسكرية على المسلمين، لهذا قسم الأراضي التي تم احتلالها على المقاتلين، وأعلن أن جزءاً كبيراً من الأراضي التي تم الاستيلاء عليها خارج المدن ستوزع على الجنود الذين اشتركوا في القتال[١٦]، وما كان للمسلمين من مركز خاص في إدارة الدولة، ورغبة غير المسلمين في التخلص من بعض التكاليف[١٧]، فدخل عدد كبير من المسيحيين الدين الإسلامي نتيجة لما تميزت به الإدارة العثمانية من كفاءة وإعطائها الفرصة أمام رعاياها المسلمين أياً كان أصلهم، وهكذا كان الذمي يصبح عثمانياً بمجرد اعتناقه الدين الإسلامي مما ترتب على ذلك ازدياد أعداد العثمانيين بمرور الوقت من الآلاف إلى الملايين[١٨].

أما بالنسبة إلى رعايا الدولة العثمانية غير المسلمين (أهل الذمة) فكان لهم نظام خاص هو نظام الملل الذي يقسمهم على أساس المذهب الديني أو الملة، وكان لكل ملة رئيس ديني يحكم في قضايا الأحوال الشخصية مثل (الزواج والطلاق والإرث) من دون أي تدخل من الدولة التي كانت تكفل لكل ملة حرية ممارسة شعائرها الدينية وحماية أرواح وممتلكات أفرادها وكان على الشباب دفع الجزية المقررة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية[١٩]، وكانت هذه الأموال تذهب إلى خزينة الدولة وتكرس للإنفاق

على الجيش[٢٠].

عزز السلطان أورخان مركزه بالتوسع في ساحل مرمرة، وكان هذه المرة على حساب بعض الإمارات التركية المسلمة مثل عمر خان وقره سي، مستغلاً صراع أسرة الحكم في قره سي فضمها سنة ١٣٣٦ م، وبذلك أصبح في مواجهة (جناق قلعة) في غاليبولي، أحد أطراف القسطنطينية ولم يكن الفاصل سوى بحر مرمرة الضيق[٢١]، فتطلع أورخان نحو أوروبا ومما ساعده على ذلك علاقته الجيدة بالإمبراطور البيزنطي يوحنا كونتا كوزينوس إذ كان الأخير قد طلب من أورخان مساعدته إزاء منافسه على العرش باليوجوس وتولت هذه الأسرة عرش الدولة طوال قرنين من الزمن (١٢٦١- ١٤٥٣ م)[٢٢].

وقد مدَّ أورخان يد المساعدة إلى كونتا كوزينوس[٢٣]، مما أدى إلى توثيق العلاقات وتوطيدها بزواج أورخان من ابنة كونتا كوزينوس[٢٤]، وظهر الصرب خطراً آخراً يهدد كونتا كوزينوس ممثلاً بملكهم دوشان[٢٥]، فاستنجد كوزينوس بأورخان، مما جعل أورخان يشترط مقابل المساعدة حصوله على قلعة في الشواطئ الأوروبية فتم له ذلك إذ حصل على قلعة تزيمب في تراقيا واستقر فيها الجنود العثمانيون. كما استغل سليمان بن أورخان زلزالاً ضرب غاليبولي، فهرب سكانها فاحتلها واستقر فيها مع جنده، وبذلك أصبحت غاليبولي قاعدة للعمليات الحربية في أوروبا منذ ذلك الوقت[٢٦].

ومن أهم ما قام به السلطان أورخان، التفكير بإنشاء جيش حيث ظهرت الحاجة إلى هذه القوات بعد أن فقدت القوات الإقطاعية أهميتها وصار من الصعب جداً الاعتماد عليها في الأماكن البعيدة، ومما ساهم في إنشاء هذا الجيش الجديد (يني جري) ليطور فيما بعد ولتكون الإنكشارية[٢٧](Janissaries) تلك الأعداد من الأسرى النصارى الذين حصلوا عليها خلال الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية في أوربا،

فقد كانت العادة المتبعة هي تخصيص خمس الأسرى للدولة وتحويلهم إلى جنود يعملون في بناء الدولة العثمانية، وكان لامتداد الدولة العثمانية في مناطق واسعة قد أوجد لها التزامات جديدة، ترتب عليها ضرورة إيجاد قوات إضافية لإقرار الأمن وتثبيت إدارة هذه المناطق. ولهذا فقد طبق العثمانيون قانون التجنيد المسمى (بالدوشرمة Devshirme) في المدة مابين ١٣٦٣- ١٥٨٣ م. وهو أخذ أطفال النصارى من أهلهم في مناطق الروميلي وفصلهم عن أهلهم[٢٨] فبعد وصولهم إلى العاصمة كانت تجرى لهم جراحات الختان ويتعلمون اللغة العثمانية ومبادئ الدين الإسلامي والتاريخ العثماني بحيث لا يعرفون أباً إلا السلطان ولا حرفة إلا الجهاد[٢٩] وكانت هذه مشورة أحد أعوان السلطان أورخان والذي يُدعى قرة خليل[٣٠]. وكانوا يقسمون إلى ثلاثة أقسام[٣١]:

١- الغلمان الذين يخدمون في القصور السلطانية، وكانوا أجمل الغلمان شكلاً.

٢- موظفو الإدارات العامة، وكانوا يتلقون التدريبات العسكرية، والتعليم المدني.

٣- الإنكشارية الذين يشكلون القوة الضاربة في الجيش العثماني.

وكان ضباط الإنكشارية يلقبون بألقاب غريبة كلقب شوربجي باشا (رئيس صانعي الحساء) وسقا آغاسي (آمر السقاة) ومن أغرب عادات الإنكشارية احترامهم وتقديرهم للقدور الخشبية التي يتناولون فيها طعامهم، فكانوا يحملونها معهم في وقت الحرب ويدافعون عنها وإذا ضاعت في المعركة تعد إهانة كبيرة تلحق بصاحبها العار والذل.

▪ الأخطار التي واجهت الدولة العثمانية:

واجهت الدولة العثمانية في زمن السلطان مراد الأول خطرين أولهما من الشرق متمثلاً بإمارة قرمان التي كانت تنظر بعين الخوف إلى نمو الدولة العثمانية حيث استطاع مراد توجيه ضربات إلى خصومه أقعدتهم عن الحركة ضده. والخطر

الثاني فكان من أوربا حيث سعى الإمبراطور البيزنطي إلى الانقضاض على السلطان مراد غير أنه عاد واستولى على (أدرنة) سنة ١٣٦٦ م واتخذها عاصمة له، الأمر الذي كان له صدى سيء في مختلف العواصم الغربية، كما اتحد أولاد السلطان قرمان مع بقية الحكام النصارى المجاورين وهجموا على بورصه وإذنيق، فقاتلهم السلطان مراد حيث هزمهم واستولى على قلعة أنقرة في سنة ١٣٦٠ م[٣٢].

وبذلك فقد سلطان قرمان أهم مدنه، مما اضطره إلى عقد الصلح مع السلطان مراد، وزوجه من ابنته لتعزيز الصلة بينهم[٣٣]، وسار بعض أمراء الدويلات الإسلامية في آسيا الصغرى على نهج سلطان قرمان نفسه في المصاهرة السياسية مع السلطان مراد، إذ أنهم وجدوا أنه ليس من الحكمة المجازفة بالحرب مع الدولة العثمانية الناشئة القوية، رغبة في احتفاظهم باستقلالهم[٣٤]، إذ طلب أمير كرمان تزويج ابنته من بايزيد (يلدرم أي الصاعقة) ابن السلطان مراد، وجهزها من بلاده بمدينتي كوتاهية وسما وبقلعتي اكري كوز وطوشانلي، وألحقهن بالممالك العثمانية فقبل منه الأمير مراد ذلك[٣٥].

وبعد حصول العثمانيين على كوتاهية، أدرك أمير إمارة حميد عبثاً مقاومته لهم فقام ببيع أجزاء من إمارته المطلة على ولايات تكه وكرميان وقرمان إلى مراد في سنة ١٣٧٧ م. أما إمارة تكه فقد غزاها السلطان مراد في ١٣٧٨ م ولكنه لم يقضِ عليها تماماً[٣٦]، كما اكتسح ما تبقى من بعض الإمارات التركمانية. واجه السلطان خطر أوروبا بفتحه صوفيا من بلاد البلغار. كما فتح سالونيك من بلاد اليونان[٣٧]، وأثناء ذلك حصل تمرد قاده علاء الدين أمير قرمان (١٣٧٠- ١٣٨١ م)، إلا أنه تم القضاء عليه وأخذه أسيراً سنة ١٣٨٦ م من قبل تيمورطاش باشا أحد قادة العسكر، فاكتفى مراد بأخذ الجزية منه وأبقاه في أملاكه إكراماً لزوجة ابنه علاء الدين[٣٨]، وفي غمرة انصراف السلطان مراد في حروبه ومواجهته لحركات التمرد في آسيا

الصغرى، انتهز لازار ملك الصرب الفرصة، وتزعم حلفاً نصرانياً سنة ١٣٨٧ م لتمتلئ معسكرات هذا الحلف بالجند الصربيين والبلغار والبوسنيين والألبانيين والمجريين والمغوليين، دون مشاركة جند الأمم الكبيرة، والتقى العثمانيون في ١٥ حزيران سنة ١٣٨٩ م. بقوات الحلف النصراني في ميدان الطيور السود (كوسوفو)، وكان يقود العثمانيين السلطان مراد نفسه، حيث استشهد في المعركة نفسها سنة ٧٩١ هـ/ ١٣٨٩ م[٣٩].

- **مفهوم السلطنة والخلافة:**

بدأت الدولة العثمانية كإمارة مجاهدي الثغور، ولم يلقب أي سلطان لقباً أعلى من لقب أمير الثغور (أوج بك) أو أمير (الغازين) أي المقاتلين في سبيل الله، وهكذا كان الحكام العثمانيون الأوائل قد قنعوا بلقب (الغازي). فقد لقب الحاكم الثاني أورخان نفسه بـ (السلطان بن السلطان، الغازي بن الغازي، سيد حدود الآفاق)، كما ويصف العثمانيون جيرانهم بلقب – بك أو الأمير وأحياناً كثيرة بأمراء الثغور أو الحدود. وبعد توسع ممتلكات الدولة العثمانية، وخاصة بعد ضم جزء كبير من أراضي الأناضول الإسلامية على الطراز التقليدي[٤٠]. وقد ارتبط مفهوم السلطنة عند العثمانيين بالحكم والسيادة في كافة شؤون الدولة، وتطور هذا المفهوم عندهم من خلال مفاهيم الشرق الأدنى للدولة والإدارة، فقد قبل العثمانيون هذا المفهوم بعد أن تطعّم بتقاليد تركية مغولية من آسيا الوسطى خلال المرحلة الأولى من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر الميلادي[٤١].

أول السلاطين العثمانيين الذي قام برد فعل واضح وقوي أمام هذه التطورات الجديدة هو السلطان بايزيد الملقب يلدرم (الصاعقة) والذي اتخذ لقب "**سلطان الروم**" والذي منحه هذا اللقب التشريفي الخليفة العباسي في القاهرة اثر انتصاره في معركة نيقوبوليس[٤٢] ولكن دعوة بايزيد كانت قبل أوانها لأنه لم يستطع المحافظة على هذا

اللقب بعد أن خسر معركته ضد تيمور وأخذ أسيراً[٤٣]. كما أتخذ مراد الأول لقب (خليفة الله) بعد أن استولى على أدرنة، وجعلها عاصمة لدولته سنة ١٣٦٦ م[٤٤]. وعندما فتح العثمانيون القسطنطينية اتخذ السلطان محمد الفاتح لقب (سلطان البرين والبحرين)[٤٥] ولما بسط السلطان سليم الأول السيادة العثمانية على الحجاز أضاف إلى ألقابه العديدة لقب (حامي الحرمين الشريفين)، ثم تمسك السلاطين بلقب خليفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأسباب سياسية لكن لقب (خنكار) و (بادشاه) أو (بادشاه الإسلام) كان أكثر شيوعاً[٤٦].

كانت الخلافة العباسية قد انتهت بصورة عملية في أعقاب مقتل آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وهو المستعصم بالله على يد هولاكو في عام ١٢٥٨ م. ومنذ ذلك الحين لم يُسمع سوى القليل عن الخلافة[٤٧]. فبعد فترة وجيزة من مقتل المستعصم بالله، استدعى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠- ١٢٧٧ م) الأمير أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي الذي كان قد وصل إلى دمشق، استدعاه للحضور فوراً إلى القاهرة. وبعد التثبت من صحة نسبه بويع بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله. وعلى هذا النحو بُعثت الخلافة العباسية من جديد في مصر[٤٨].

وفي حقيقة الأمر كانت تلك الخلافة مجرد خلافة اسمية، ولم تحظَ باعتراف من لدن كبار الفقهاء. فعلى الرغم من أن اسم الخليفة كان يتقدم على اسم السلطان المملوكي في خطب الجوامع، فقد اقتصرت مهامه على تقديم التهاني للسلطان عند حلول الأشهر والأعياد[٤٩]. ولم يُسمح له بممارسة سلطات كبيرة في الدولة. وهكذا تدنى مركز الخليفة حتى غدا واحداً من عامة الناس ولا يسمع لقوله أو يؤخذ برأيه[٥٠]. وتفيد بعض المصادر أن الخليفة المتوكل كان في استقبال السلطان سليم لدى دخوله حلب[٥١].

وقبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع لابدّ من الإشارة إلى أن بعض

السلاطين العثمانيين ممن سبقوا سليم اعتادوا على تلقيب أنفسهم بلقب الخليفة، كما هو الحال مثلاً مع السلطان مراد الأول (١٣٥٩- ١٣٨٩ م) الذي درج العديد من الأمراء أيضاً على مخاطبته بالخليفة في مراسلاتهم معه. وحذا كل من السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩- ١٤٠٢ م)، ومحمد الأول (١٤٠٢- ١٤٢٠ م) حذو مراد الأول[٥٢]. كذلك وصف مراد الثاني (١٤٢١- ١٤٥١ م) عاصمته بأنها دار الخلافة. ويبدو أن السلطان محمد الثاني لم يستخدم لقب الخلافة في رسائله إلى الملوك المعاصرين له أو لرعيته، باستثناء تلك التي يرسلها إلى أولاده[٥٣].

أما بالنسبة لسليم فقد عد نفسه خليفة منذ صغره[٥٤]. وأسبغ عليه أكثر من حاكم اللقب نفسه منذ أن كان أميراً[٥٥]. وحينما تولى مقاليد السلطة في الدولة العثمانية عقب تغلبه على أخويه اللذين زاحماه عن العرش أرسل أحدهما وهو قرقود رسالة إلى سليم في أواخر عام ١٥١٢ م نعته فيها بأنه: "**باني أركان الخلافة الوطيدة**"[٥٦]. ولقب سليم نفسه منذ عام ١٥١٤ م بـــ "**خليفة الله في طول الأرض وعرضها**"[٥٧]. كما لقبه معاصروه من الحكام أمثال عبيد الله حاكم الأوزبك في سمرقند، والشاه إسماعيل في كتاب أرسله إلى سليم عقب معركة جالديران سنة ١٥١٤ م، والأديب خواجة أصفهاني، لقبوه جميعاً بالخليفة[٥٨].

أراد السلطان سليم أن يضفي على نفسه شرعية حكم البلاد العربية وتزعم العالم الإسلامي وذلك باتخاذ لقب الخليفة وبصورة رسمية على الأقل أمام البلدان العربية والشعوب الإسلامية، ولا يتم ذلك إلا عن طريق تنازل الخليفة العباسي أو إجباره على التنازل عن الخلافة للسلطان سليم. وفعلاً تم له ما أراد، ففي جامع الملك المؤيد في القاهرة في ٢٠ شباط ١٥١٧ م. قدم شريف مكة يحيى بن بركات للسلطان سليم، الآثار النبوية الشريفة كبردة الرسول (ﷺ) أو عباءته- وهي بردة قصيرة وسميكة وعرفت في التاريخ العثماني باسم (خرقة السعادة) التي كان الخلفاء العباسيون

يرتدونها في المناسبات الرسمية، وبعض شعرات من لحية الرسول (ﷺ) وسيوف الصحابة الأربعة (رضي الله عنهم)(٥٩)، علاوة على آثار أخرى وهي العصا والخاتم والحذاء وشعرة من لحية النبي (ﷺ)، التي نقلها السلطان سليم عند عودته من مصر إلى استانبول(٦٠). وأودعت في جامع الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه)(٦١) ثم نقلت لاحقاً إلى متحف طوب قبو سراي ولا زالت موجودة فيه(٦٢).

إن علماء الأزهر الذين استدعوا من مصر اجتمعوا مع علماء استانبول، وتوصل الفريقان إلى أن المصلحة العليا للمسلمين تستدعي انتقال الخلافة إلى آل عثمان. وجرت مراسيم انتقالها في حفل كبير أُقيم في جامع آيا صوفيا(٦٣). وبهذا تحولت الخلافة إلى الدولة العثمانية. وعُد سليم أول خليفة عثماني(٦٤). وبدأ يستشهد في رسالته الخاصة، بالآية الكريمة بقوله تعالى: " **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ**"(٦٥) وأرسل بعد فتحه مصر رسالة إلى شاه شروان دعاه فيها إلى الاعتراف به خليفة، وذكر اسمه في خطب الجوامع(٦٦). وغدا كل سلطان عثماني يعُد نفسه خليفة اسماً وفعلاً. كما درجت الأسفار التاريخية المعاصرة على وصف استانبول وأدرنه بأنهما (مقر الخلافة)(٦٧). رفض كثير من المسلمين الاعتراف بشرعية وراثة العثمانيين للقب الخليفة. ولم يقتصر هذا الرفض على الشيعة فحسب، بل شمل أكثرية السنة المتعلمين الذين كانوا يرون بأن الخليفة ينبغي أن يكون منحدراً من قبيلة الرسول (ﷺ) وهي قبيلة قريش وفي السياق نفسه لم يبد السلطان سليم اكتراثاً بلقب الخليفة(٦٨)، خصوصاً وأنه كان قد فقد أهميته منذ أواخر العصر العباسي(٦٩). صار لقباً عادياً جداً، حتى أن الشاه إسماعيل كان قد لقب الحاكم الذي عينه على بغداد عقب احتلاله لها سنة ١٥٠٨ م- من باب السخرية- بـــ (خليفة الخلفاء)(٧٠). ولم يعد لقب الخليفة يستلزم من حامله أن يكون منحدراً من آل العباس، أو أن يمت نسبه بصلة مع قريش فقد أصبح

العاهل المسلم يستمد سلطته من الله مباشرة(٧١).

ومن هذا المنطلق لَقّب عدد من الحكام المسلمين أنفسهم بالخليفة، - كما هو الحال مثلاً- مع سلطان سلاجقة الروم غياث الدين كيخسرو الثالث في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، ومحمد الشيباني (١٥٠٠- ١٥١٠ م) مؤسس دولة الأوزبك في بلاد ما وراء النهر(٧٢). وتدنى مركز الخليفة في مصر إبان العهد المملوكي إلى حد أن سليم عُد أن وراثته للقب الخليفة هو بمثابة انتقاص من مكانته(٧٣). ولعل موقف سليم هذا من الخلافة كان السبب الذي حدا بابنه سليمان القانوني إلى إغفال ذكر لقب الخليفة في رسائله الجوابية التي كان يرد بها على رسائل والده(٧٤).

ومن جهة أخرى لم يُقم أي من أعضاء ديوان السلطان سليم وزناً للقب الخلافة، سيما وأن فتح العثمانيين سوريا ومصر ١٥٦٠- ١٥١٧ م قد رفع كثيراً من شأنهم، كما أكسبتهم حروبهم ضد القوى الأوروبية سمعة شبيهة بتلك التي تمتع بها الغزاة الأوائل في الإسلام(٧٥). كذلك أدى إلحاق السلطان سليم كلاً من مكة المكرمة والمدينة المنورة بممتلكاته إلى رفع مكانته، وأخذ المسلمون في شتى بقاع العالم يستغيثون به في أوقات الملمات(٧٦)، خصوصاً وأن البرتغاليين كانوا يهددون آنذاك بهدم المدينة المنورة والعبث بقبر الرسول (ﷺ) ويشنون في الوقت نفسه اعتداءات على شرق أفريقيا والبحار الجنوبية. وكان الإسبان أيضاً يتعقبون مسلمي الأندلس الذين اضطروا إلى اللجوء إلى شمال أفريقيا(٧٧). ومن خلال ذلك أوجدوا تفسيراً جديداً للخلافة بهدف بسط السيادة العثمانية على الشعوب الإسلامية(٧٨).

كان السلطان سليم من جانبه قد أولى اهتماماً كبيراً بلقب خادم الحرمين الشريفين، الذي كان يطلق على السلطان المملوكي دون الخليفة العباسي، بحكم تبعية الحجاز للمماليك. وكان لقب (خادم الحرمين الشريفين) هو اللقب الوحيد الذي أضافه السلاطين العثمانيين إلى سلالة ألقابهم الكثيرة بعد فتحهم البلاد العربية(٧٩).

وأخيراً فقد بلغ من شدة تدني مكانة الخلافة إلى حد أنه حين توفي المتوكل لم يشعر أحد بزوال الخلافة العباسية من الوجود[٨٠]، حيث بدأ اهتمام العثمانيين بلقب الخلافة يتخذ منحىً جدياً منذ أن دب الضعف في دولتهم إبان القرن الثامن عشر[٨١]. فحينما وقّع السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠ م) معاهدةً مع أشرف الأفغاني حاكم بلاد فارس في سنة ١٧٢٧ م، أطلق على نفسه لقب (خليفة كل المسلمين). وحينما عُقدت معاهدة كوجك- كينارجي مع روسيا في سنة ١٧٧٤ م- التي تم بموجبها الاعتراف باستقلال خانية القرم، سمح الروس بموجبها للسلطان العثماني عبد الحميد الأول (١٧٧٣- ١٧٨٩ م) بالاحتفاظ بحقوق معينة من بينها لقب (خليفة المسلمين). لكن هذا اللقب لم يحظَ باعتراف من لدن علماء المسلمين[٨٢].

وازداد اهتمام العثمانيين بلقب الخليفة إبان عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩ م)، حينما تبنى سياسة الجامعة الإسلامية. واستغل لقب الخليفة على نطاق واسع لتحقيق مآرب سياسية، كان من بينها كبح جماح الدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا التي كانت تسيطر على مناطق إسلامية من جهة، وللتصدي للحركات القومية في الدول القومية في الدولة العثمانية ولاسيما الحركة القومية العربية من جهة أخرى[٨٣].

- **ظاهرة القتل:**

قدمت الأسرة العثمانية وخلال ستة قرون ستة وثلاثون سلطاناً، ولا يمكن أن نتصور الإمبراطورية العثمانية بدون آل عثمان. وبموجب التقاليد الإسلامية يجب أن يكون السلطان ذكراً، بالغاً، وأن يتمتع بالعقل السليم، وكانت قواعد أو أسس وراثة العرش العثماني تنص على تولي الأقدم سناً لهذا قام عثمان بقتل عمه دندن فأصبح أحق بوراثة العرش[٨٤]، وحسب المعتقدات العثمانية القديمة فقد كان تعيين السلطان بيد الله وهذا مبدأ أقره يلدرم بايزيد بعدما قتل أخاه يعقوب، ولذلك فقد كان إصدار أي

قانون لتحديد وريث العرش، يعد مخالفة لمشيئة الله. لذلك لم تشهد الدولة العثمانية، خلال مدة حكم السلاطين العشرة الأوائل[٨٥]، وجود قانون ينظم العرش ما جعل أبناء السلاطين وإخوانهم يتنافسون فيما بينهم، وكان للسلطان حق اختيار من يخلفه من بين أبنائه من دون أن يتقيد باختيار الابن الأكبر[٨٦].

إن كل أمير عثماني كان بإمكانه أن يصبح سلطاناً شرعياً فيما لو تمكن من السيطرة على العاصمة وخزانة الدولة وملفات الوثائق، والأهم من هذا كله أن يكسب تأييد الإنكشارية والعلماء والكتاب وكبار رجال البلاط، للوصول إلى العرش منذ سنة ١٤٢١ م[٨٧]، لذلك حرص هؤلاء الحكام أو الأمراء خلال حياة آبائهم أن يحصلوا على حكم ولايات قريبة من العاصمة، حيث يكسبون دعم البلاط والإنكشارية وفي الوقت المناسب الاستيلاء على السلطة قبل وصول المنافسين، وفي بعض الأحيان كان صبر الأمراء ينفذ ويؤدي إلى حرب داخلية كما حدث مع الأمير سليم الأول في سنة ١٥١١ م الذي حمل السلاح ضد أخوته[٨٨]. كان من حق السلاطين اختيار من يخلفه على العرش وكان هذا هو الباب الذي نفذت منه كل المؤامرات والدسائس لإبعاد الأمير وتولية آخر، وكان لزوجات السلاطين دور كبير في هذه المؤامرت، وأن كل ابن يرى نفسه أحق من غيره في الوصول إلى العرش بعد وفاة أبيه، ويرى أن تمسكه بهذا الحق سوف ينجيه من القتل المحقق، لأن حياته متوقفة على اعتلائه العرش، وكان الأمراء الذين يخسرون في هذا الصراع يلجؤون إلى الدول المعادية، ولذلك كانت الدولة العثمانية تواجه خطر الحروب الداخلية وتخسر من جراء ذلك الكثير من رجالها وأموالها[٨٩].

ونجد في التاريخ العثماني وفي بدايات تكوينات الدولة حالات من قتل الأخوة أو حتى تمرد الأبناء ومن أبرز ما حدث في عهد السلطان مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩ م) حيث تمرد أحد أبنائه ويدعى (صاوجي) الذي اتفق مع ابن إمبراطور الروم

(حنا باليولوج) الذي كان والده قد حرمه من الملك، فلم يأخذ السلطان مراد الشفقة على ابنه وحاربه وقتله مع عدد من أنصاره وطلب من سلطان الروم أن يقتل ابنه الذي يدعى (اندرونيكوس)، لكنه لم يفعل بل فقأ عينيه ونفاه حتى مات[٩٠].

كما كانت فكرة، الحاكم هو ظل الله في الأرض، متأصلة في نفوس بعض السلاطين العثمانيين، فعندما تولى بايزيد الأول- الملقب (يلدرم) أي البرق- العرش عمد على قتل أخيه الأكبر (يعقوب) وكان أولى بالسلطة منه كونه الأكبر، فلامه رجال الدولة على قتل أخيه- وكانت سابقة لم تعرفها الدولة العثمانية- فأجابهم "**إن أمير المؤمنين هو ظل الله في الأرض يجب أن يكون واحداً في الأرض كما أن الله واحداً في السماء**"[٩١]. وجرت عادة السلاطين، وخصوصاً في أوائل عهد الدولة، أن السلطان الذي يرتقي العرش يعمد إلى قتل جميع منافسيه، واتسع نطاق هذا الصراع العائلي، وازدادت حدته، حيث شمل الذكور من الأسرة الحاكمة حتى الذين لم يكونوا راغبين بالعرش واتصف تاريخ الدولة العثمانية بما يطلق عليه (حمامات الدم)[٩٢]، فقد حمل السلطان سليم الأول السلاح في سنة (١٥١٣ م) ضد أخوته، كما أن السلطان سليمان أعدم ولديه مصطفى سنة (١٥٥٣ م) وبايزيد سنة (١٥٦١ م) بعد أن تمردا عليه[٩٣].

وتفيد بعض المصادر والمراجع أن عملية قتل الأخوة كانت تمارس بصفة قانونية منذ عهد السلطان محمد الثاني (الفاتح)، حيث شرع إلى سن قانون اسماه **(قانون نامه)** الذي جاء فيه "يمكن لأي من أبنائي، الذي سيهبه الله السلطنة، أن يتخلص من إخوته لأجل مصلحة الدولة، وهو ما تقرّه غالبية العلماء"[٩٤] وخول بموجبه السلطان الجديد الذي يتولى العرش أن يقتل جميع أخوته وأبنائهم حتى لا ينازعه أحد على العرش، فأصبحت تلك سنة عند السلاطين، وقد سوغ السلطان محمد الثاني ذلك لأن فيه (سلام الدنيا والعالم) ولأن الإخوة- حسب اعتقاده- من العوامل

التي تثير الفتنة بين المسلمين. وقد أقر أهل الفتوى هذا الفرمان وأعلنوا أنه لا يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية، لذا نرى أن السلطان محمد الثاني (الفاتح) أصدر الأوامر بقتل أخيه الرضيع أحمد، وبإرجاع والدة الرضيع الأميرة مارا الصربية إلى والدها خوفاً من أن ينازعه الملك، وحينما خشي السلطان سخط الناس، لفق تهمة قتله إلى أحد رجال دولته وهو علي بك أورانوس، وأمر بقتله ليظهر كمن اقتص للأمير المقتول[٩٥].

ولم يكن قتل الأخوة عند تولي العرش معروفاً في العهود الإسلامية السابقة لعهد الدولة العثمانية، إذ أن الشريعة الإسلامية نهت عن قتل أي شخص دون سبب، مهما كان ذلك الشخص فقد قال تعالى: "**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**"[٩٦] وقوله تعالى: "**وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا**"[٩٧] وهذا يؤكد على أن الشريعة الإسلامية تعد القتل المتعمد من الكبائر. وظل نظام قتل الأخوة يتبع من قبل السلاطين لمدة قرن ونصف منذ فتح القسطنطينية، وعند اعتلاء كل سلطان جديد العرش، كان أخوته الباقون يخنقون بوتر من حرير- في أغلب الأحيان- وهي طريقة خاصة لإعدام الشخصيات الجليلة التي لا يستحسن إراقة دمائها[٩٨].

وفي عهد السلطان سليم (ياوز) وبعد أن تمكن من السيطرة على مدينة بورصة في حربه ضد أخيه الأمير أحمد، الذي هرب إلى أماسية بمساعدة أحد الوزراء، وما إن علم السلطان بخيانة الوزير حتى أمر بقتل الوزير[٩٩] عاد السلطان سليم إلى بورصة وألقى القبض على أولاد أخوته الخمسة، الذين كان أكبرهم يبلغ من العمر عشرون عاماً وأصغرهم لم يتجاوز السبعة أعوام، وأصدر الأوامر بقتلهم جميعاً[١٠٠]، ثم طارد أخوه الآخر قرقود وبمساعدة الضابط سنان باشا تمكن من إلقاء القبض عليه

وإعدامه[١٠١]. كما تمكن من القبض على أخيه أحمد وأعدمه، وكان للأمير أحمد ولدان هم مراد الذي هرب إلى الشاه اسماعيل الصفوي، وعلاء الدين الذي هرب إلى السلطان المملوكي قانصوه الغوري، ولما طلبهما السلطان سليم من الشاه اسماعيل والسلطان الغوري امتنعا عن تسليمهما[١٠٢].

ولعل أبرز السلاطين العثمانيين الذين عمدوا إلى تنفيذ بنود قانون (نامه) هو السلطان محمد الثالث (١٥٩٥- ١٦٠٣ م) الذي أمر بقتل جميع أخوته وكان عددهم تسعة عشر أميراً في مختلف الأعمار ويقال أن ولده ترك ثلاثمائة جارية حاملة. كما ألغى القانون الذي يقضي بتعيين الأمراء ولاة[١٠٣] ومن المسوغات التي تذرع بها السلاطين، أن التضحية بأمير أو عدد من الأمراء لا يساوي شيئاً أمام أمن الدولة الداخلي والخارجي، والأخطار التي يمكن أن تؤدي إلى صراع دموي كلفتها خسارة عدد من الأمراء الذين يلتفون حول العرش[١٠٤]. ومنذ بداية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السابع عشر، انتقلت السلطة من الأب إلى الأبن، ولكن عندما توفي السلطان أحمد الأول (١٦٠٣- ١٦١٧ م)، لم يكن أحد من أبنائه قد بلغ سن الرشد بعد، ولم يكن أي قاصر قد تولى الحكم من قبل، فقد أصدر مرسوماً- قبل وفاته- يقضي بتولية أخوة السلطان بدل من أبنائهم، وقدم بالتالي أخاه الأمير مصطفى، لأنه بلغ سن الرشد، على الرغم من كونه كان مجنوناً ولم يستمر في الحكم سوى ثلاثة أشهر إذ أنه أبعد لصالح السلطان عثمان الثاني ابن السلطان أحمد (١٦١٨- ١٦٢٢ م)[١٠٥].

وعلى عكس ماجرى مع الأمير مصطفى، فقد استمر الصراع على العرش بين الأمراء خلال القرن السابع عشر. وهكذا فقد حرص السلطان عثمان الثاني قبل حملته على بولونيا أن يستصدر فتوى تبيح له قتل أخيه الأكبر محمد إلا أن السلطان عثمان الثاني قُتل على يد الإنكشارية في سنة (١٦٢٢ م) ليعود السلطان مصطفى إلى العرش

مرة أخرى ولكنه لم يبق طويلاً إذ أبعد مرة أخرى ليتسلم العرش السلطان مراد الرابع (١٦٢٣- ١٦٤٠ م) وقام السلطان مراد الرابع بقتل ثلاثة من أخوته وحافظ على حياة الرابع (ابراهيم) لأنه لم يكن له ولد، وفعلاً أصبح ابراهيم السلطان الجديد بعد وفاته[١٠٦].

وحين تولى السلطان محمد الرابع العرش وكان في السابعة من عمره (١٦٤٨- ١٦٨٧ م) حافظ على أخوية سليمان وأحمد، وتولى سليمان العرش من بعده، وخلفه السلطان أحمد الثاني (١٦٩١- ١٦٩٥ م)، ولم يقم هذا السلطان بقتل أولاد السلطان محمد الرابع الذين سيتولون العرش فيما بعد. السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥- ١٧٠٣ م) والسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣- ١٧٣٠ م) وهكذا لم تعد وراثة العرش تنتقل من الأب إلى الابن، بل أصبحت تعتمد على أكبر أعضاء الأسرة سناً[١٠٧] وبقيت على هذا النحو دون وجود قانون ينظمها حتى إعلان الدستور سنة ١٨٧٦ م[١٠٨].

في بداية القرن السابع عشر، صدر قانون آخر نظم وراثة العرش، حيث استبدلت عملية القتل بتحديد إقامة أمراء الأسرة الحاكمة في مقصورة داخل القصر في جناح الحريم داخل البلاط، التي عرفت (بالأقفاص)[١٠٩]، وقد حظر على الأمراء الخروج من الأقفاص أو الزواج، ونتيجة للخوف من القتل، فقد أصبحت غالبية الأمراء تعاني من اضطرابات نفسية. وحين عين السلطان سليمان الثاني (١٦٨٧- ١٦٩١ م) لتولي العرش أخذ يشكو حاله أمام كبار رجال الدولة التي جاءت لتخرجه من القفص "قولوا لي إذا كان أجلي قد حان. اسمحوا لي بالصلاة، ثم نفذوا في ما قررتم. إنني هنا منذ طفولتي، منذ أربعين سنة. من الأفضل الموت ببطء، كل يوم نعاني هنا من الرعب لكي نتنفس فقط"[١١٠].

الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى عدة استنتاجات وعلى النحو الآتي:

١- كان السلاطين العثمانيين الأوائل لهم الكلمة الفصل في كافة شؤون الدولة، كما كانوا يقودون الحملات العسكرية بأنفسهم، ويقبضون على مقاليد الحكم، وتبنوا فكرة الجهاد، ورسوا قواعد الدولة على الأسس الإسلامية.

٢- أسند السلاطين العثمانيون الأوائل حكم الولايات التابعة لدولتهم، إلى أمراء البيت المالك كي تكون لهم خبرة في إدارة أمور الحكم. لكن مع مرور الوقت، ازداد طمع الأمراء وتطلعوا للحصول على ولاية العرش، حتى وإن كان ذلك بالتمرد على السلطان.

٣- اتخذ السلاطين العثمانيون ألقاباً منها لقب الغازي ولقب السلطان ولقب الخليفة، إلا أن لقب السلطان الأكثر تداولاً، وكان أغلبهم يعتقد أن سلطته مستمدة من الله، وأنه ظل الله في الأرض، ولذلك لا يحق لأحد أن ينازعه الملك إضافة إلى أن نظام القبيلة العثمانية يعد السلطان (تابو) ممنوع اللمس.

٤- برزت ظاهرة خطيرة في الدولة العثمانية. وهي قتل الأخوة الأمراء. ولم تمارس بشكل رسمي إلا في زمن السلطان محمد الثاني (الفاتح) الذي أصدر فرماناً. يبيح للسلطان الجديد الذي يتولى العرش قتل أخوته وأبنائهم، وحصل على فتوى شرعية، وسوغ ذلك على أن فيه سلامة الدولة، وأن قتل أمير أو عدد من الأمراء، لا يساوي شيئاً أمام مصلحة الدولة.

٥- بدأ مشوار الضعف والانحدار في السلطنة العثمانية، بعد وفاة السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٦٦ م، إذ أخذ السلاطين من بعده ينسحبون من التوجيه الفعلي لشؤون الدولة، مما كان له الأثر الكبير على نظام الحكم الذي كان يتوقف على شخص السلطان لذلك كان من الطبيعي أن يتوقع انهيار هذا الجهاز فيما لو

انسحب السلاطين من الإشراف عليه.

٦- إن خبرة السلاطين العثمانيين أواخر القرن السادس عشر، الخاصة بالعالم خارج جدران القصر، كانت محدودة، نتيجة لنظام وراثة العرش. مما أدى إلى أن يتولى العرش سلاطين ضعفاء، شبه سجناء، منغمسين في حالة من الإسراف، والترف والأبهة، والقنص. فضلاً عن النساء، والجواري اللاتي كان لهن تأثير كبير في السلاطين، لا سيما المقربة منهن إلى السلطان، والسلطانة الوالدة التي كانت تحرص على الاحتفاظ بالملك لأولادها. وكن يحكْنَ المؤامرات بمساعدة الوزراء المقربين لهن، داخل البلاط، مما انعكس ذلك سلباً على نظام الحكم والإدارة سواء أكان ذلك قبل تسلم السلطان العرش العثماني، أو حتى بعد توليهم الحكم.

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) مصطفى، أحمد عبد الحليم، في أصول التاريخ العثماني، ط ٣، (القاهرة، ٢٠٠٣ م)، ص ١٧. وسيشار إليه لاحقاً. مصطفى، في التاريخ؛ الطائي، إلهام عبد القادر حموي، الدولة العثمانية في عهد السلطان بايزيد الثاني، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى مجلس كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٥ م، ص ٤. وسيشار إليه لاحقاً. الطائي، الدولة العثمانية في عهد.

(٢) حصل السلطان عثمان على مباركة الشيخ (ادي بالي) وقد قدم الشيخ ادي سيف الغزاة لعثمان بعد أن تنبأ له بأن خلفاءه سيحكمون العالم، وقد تزوج السلطان من ابنة الشيخ (ادي بالي)، وحين توفي السلطان عثمان عقد اجتماع في زاوية ابن اخ الشيخ ادي بالي (حسن آخي) لاختيار خلف له، وقد أنشأ أورخان وابنه سليمان لاحقاً مئات الأوقاف في المناطق المفتوحة للآخية والدراويش. اينالجيك، خليل، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي (بيروت، ٢٠٠٢ م)، ص ٩٠.

(٣) أحمد، علي خليل، الدولة العثمانية في سنوات المحنة، دار الحامد للنشر والتوزيع، (عمان، ٢٠١١ م)، ص ٣٤. وسيشار إليه لاحقاً. أحمد، الدولة العثمانية في سنوات المحنة.

(٤) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٥٧.

(٥) السيد، محمود، تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، (الاسكندرية، ٢٠٠٠ م)، ص ٧. وسيشار إليه لاحقاً. السيد، تاريخ الدولة العثمانية.

(٦) المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٢٢.

(٧) أحمد، الدولة العثمانية في سنوات المحنة، ص ٣٥.

(٨) قازان، نزار، سلاطين بني عثمان بين قتال الأخوة وفتنة الإنكشارية، دار الفكر اللبناني (بيروت، ١٩٩٢ م)، ص ١٠. وسيشار إليه لاحقاً. قازان، سلاطين بني عثمان.

(٩) **التيمار**: كل أرض تمنح لشخص مقابل وظيفة معينة وتقل وارداته عن عشرين ألف اقجة. صابان، سهيل، المعجم الموسوعي العثماني التاريخي، مراجعة: عبد الرزاق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية، (الرياض، ٢٠٠٠ م)، ص ٧٦. وسيشار إليه لاحقاً. صابان، المعجم الموسوعي.

(١٠) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ١٠.

(١١) **اقجة**: أصل الكلمة مغولية ومعناها نقد أبيض، وهي قطعة من الفضة ضربت أول مرة سنة ١٣٢٨ م في عهد السلطان أورخان. صابان، المعجم الموسوعي، ص ٢٠.

(١٢) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٣٩.

(١٣) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ٢٥.

(١٤) الآقنجية: هم العناصر الخفية من الخيالة، وهم عادة يتركزون قرب الحدود. عامر، محمود، مصطلحات متداولة في الدولة العثمانية، مجلة دراسات تاريخية، العددان ١١٧- ١١٨ كانون الثاني- حزيران، ٢٠١٢ م، ص ٣٦٣.

(١٥) أحمد، الدولة العثمانية في زمن المحنة، ص ٣٨.

(١٦) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٣٩.

(١٧) كوبريلي، قيام الدولة، ص ١٣٣.

(١٨) شدد الغازي على العثمنة تزامناً مع الأعمال الحربية. مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٣٩- ٤٠.

(١٩) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ١٠.

(٢٠) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٣٩- ٤٠.

(٢١) عاشور، سعيد عبد الفتاح، أوروبا في العصور الوسطى التاريخ السياسي، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٦٤ م)، ج ١، ص ٦٧٧.

(٢٢) رافق، العرب والعثمانيون، ص ٣٤.

(٢٣) اليوسف، عبد القادر أحمد، الامبراطورية البيزنطية، المكتبة العصرية، (بيروت، ١٩٦٦ م) ، ص ١٧٩. وسيشار إليه لاحقاً. اليوسف، الامبراطورية البيزنطية.

(٢٤) رافق، العرب والعثمانيون، ص ٣٤.

(٢٥) ارسلان، شكيب، تاريخ الدولة العثمانية، جمع أصوله وحققه وعلق عليه حسن السماحي سويدان، ط ١، دار ابن كثير، (دمشق، ٢٠٠١ م)، ص ٦٠. وسيشار إليه لاحقاً. ارسلان، تاريخ الدولة العثمانية.

(٢٦) سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢١-٢٢.

(٢٧) إن مصطلح (انكشاري) أو يني جري، بمعنى القوات الجديدة مصدرها (الدرويش حاجي بكتاش) الذي اشتهر بورعه، وأن السلطان أورخان اصطحب الوجبة الأولى من هؤلاء الجند إلى بيت بكتاش، وطلب منه أن يباركهم ويخلع عليهم اسماً، فوضع بكتاش كمه فوق رأس أحد الواقفين في الصف الأول ثم قال السلطان "أن القوات التي أنشأتها ستحمل اسم يني جري وستكون وجوههم بيضاء وضّاءة، وستكون أذرعتهم اليمنى قوية وسيوفهم بتّارة، وسهامهم حادة وسيقفون في المعارك ولن يبارحوا ميدان القتال إلا وقد انعقدت لهم ألوية النصر" وتخليداً لبركة بكتاش كان الإنكشارية يضعون على رؤوسهم قلنسوة من اللباد الأبيض، شبيهة بقلنسوة الدراويش تتدلى، منها من الخلف قطعة من الصوف باعتبارها رمزاً لكم الولي الذي بارك به رقبة زميلهم. مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٤١، هامش ٢.

(٢٨) كان يحدث ذلك كل فترة إلى خمس سنوات وكان يؤخذ واحد من ذوي النسب العالي من كل أربعين أسرة مثل الزكاة وهذا يفسر قلة عدد الجيش الإنكشاري في الفترات الأولى وعرفت فيما بعد بضريبة الدم: انظر: سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ١٦٧- ١٦٨.

(٢٩) المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٢٢.

(٣٠) أصبح قرة خليل فيما بعد صدراً أعظماً وسُمي باسم خير الدين باشا. المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٢٢. قازان، سلاطين بني عثمان، ص ٢١.

(٣١) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ١٠.

(٣٢) حليم، ابراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بالتحفة الحليمية، ط١، مكتبة العلا، (الامارات، ٢٠٠٣ م)، ص ٥٧. وسيشار إليه لاحقاً. حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية.

(٣٣) المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ٤٤.

(٣٤) أنيس، محمد، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤- ١٩١٤ م)، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، د. ت)، ص ٣٦. وسيشار إليه لاحقاً. أنيس، الدولة العثمانية والشرق.

(٣٥) حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص ٥٩.

(٣٦) أنيس، الدولة العثمانية والشرق، ص ٣٧.

(٣٧) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٤٩.

(٣٨) ارسلان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٢.

(٣٩) سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٣٦.

(٤٠) لويس، برنارد، استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية_ تعريب: سيد رضوان علي، ط ٢، الدار السعودية للنشر والتوزيع، (الرياض، ١٩٨٢ م)، ص ٦٠.

(٤١) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ١٠٣- ١٠٤.
(٤٢) حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ص ٤٨.
(٤٣) لويس، استنبول، ص ٦١.
(٤٤) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٥٨.
(٤٥) بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط ٥، (بيروت، ١٩٦٨ م)، ص ٤٧٢. وسيشار إليه فيما بعد. بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية.
(٤٦) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٧٢؛ طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٥٨.
(٤٧) عاشور، سعيد عبد الفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، (بيروت، ١٩٧٢ م)، ص ١٧٦-١٧٧. وسيشار إليه فيما بعد. عاشور، مصر والشام؛ العدول، جاسم محمد حسن، الدولة العثمانية إبان حكم السلطان سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠ م)، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، مقدمة إلى كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٤ م، ص ٢٨٣. وسيشار إليه لاحقاً. العدول، الدولة العثمانية إبان.
(٤٨) جب، هاملتون، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة: إحسان عباس وآخرون، (بيروت، ١٩٦٤ م)، ص ١٨٨. وسيشار إليه لاحقاً. جب، دراسات في حضارة.
(٤٩) عاشور، مصر والشام، ص ١٧٩؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٢٨٣.
(٥٠) اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٢٣.
(٥١) لم تذكر المصادر والمراجع أن المتوكل تنازل عن الخلافة للسلطان سليم، وإنما رؤية لا صحة لتصديقها أو عدم تصديقها وهي رواية وليست وثيقة.

(٥٢) طرخان، ابراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢- ١٥١٧ م، (القاهرة، ١٩٦٠ م)، ص ٢٠٩. وسيشار إليه فيما بعد. طرخان، مصر في عصر دولة.

(٥٣) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٦؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩١.

(٥٤) أرنولد، السير توماس، الخلافة، دار العزاوي للطباعة والتأليف والترجمة والنشر، (بغداد، ١٩٥٧ م)، ص ١٠٠. وسيشار إليه لاحقاً. أرنولد، الخلافة.

(٥٥) أرنولد، الخلافة، ص ٨٩؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٢٨٨.

(٥٦) أرنولد، الخلافة، ص ٨٩.

(٥٧) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٦؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩١؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٢٨٨.

(٥٨) أرنولد، الخلافة، ص ٨٩- ٩٠.

(٥٩) أرنولد، الخلافة، ص ٩٣. طرخان، مصر في عصر دولة، ص ٢٠٧- ٢٠٨. أنيس، الدولة العثمانية والشرق، ص ١١٤. سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٠؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ١٩٠. أفاد مصدر بأن سليم تسلم- علاوة على البردة والسيف- بيرق الرسول (ﷺ). انظر المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ٧٦؛ كما ذكرت بعض المصادر، أن السلطان سليم أعلن نفسه خليفة في أول صلاة جمعة في حلب بعد معركة مرج دابق أي في يوم الجمعة ١٥١٦/٨/٢٩م. عند خطبة الجمعة حيث لقب الخطيب السلطان سليم بـ (حاكم) الحرمين إلا أن السلطان سليم تدخل وأبدل كلمة (حاكم) إلى (خادم) وأصبح يلقب بخادم الحرمين الشريفين، ومن الجدير بالذكر أن كل الخلفاء العثمانيين الذين جاؤوا بعد السلطان سليم لقبوا بصورة رسمية حتى سنة ١٩٢٤ م، بلقب (خادم

الحرمين الشريفين). المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ١٩٣. اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٢٥.

(٦٠) جودت، أحمد، تاريخ جودت، ترجمة: عبد القادر الدنا، (بيروت، ١٣٠٨ هـ)، ج ١، ص ٤٤. وسيشار إليه لاحقاً. جودت، تاريخ.

(٦١) أرنولد، الخلافة، ص ٩٣؛ طرخان، مصر في عصر دولة، ص ٢٠٨.

(٦٢) اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٤٣.

(٦٣) اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، المجلد الأول، ص ٢٢٤.

(٦٤) سرهنك، اسماعيل، حقائق الأخبار عن دول البحار، (مصر، ١٣١٢ هـ)، ج ١، ص ٥٣١.

(٦٥) سورة الأنعام، آية ١٦٥.

(٦٦) أرنولد، الخلافة، ص ١٠١.

(٦٧) المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ٧٦؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٢٩٢.

(٦٨) الحصري، ساطع، البلاد العربية والدولة العثمانية، (مصر، ١٩٥٧ م)، ص ٢٠٩.

(٦٩) سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٢.

(٧٠) أرنولد، الخلافة، ص ٩٥.

(٧١) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٦؛ سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩١.

(٧٢) طرخان، مصر في عصر دولة، ص ٢٠٩.

(٧٣) عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، (بيروت، د.ت)، ص ٨٥.

(٧٤) أرنولد، الخلافة، ص ١٠١؛ عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٨٥.

(٧٥) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٧.

(٧٦) أرنولد، الخلافة، ص ٩٨.

(٧٧) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٦-٨٧.

(٧٨) أرنولد، الخلافة، ص ٩٧.

(٧٩) أرنولد، الخلافة، ص ٩٥.

(٨٠) سلطان، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٩٢.

(٨١) مصطفى، في أصول التاريخ، ص ٨٧.

(٨٢) أرنولد، الخلافة، ص ٩٥.

(٨٣) عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، ص ٨٦- ٨٧.

(٨٤) أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، استانبول، ١٣٠٩ هـ، ج ٢، ص ٩٥.

(٨٥) يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، القاهرة، ١٩٩٥ م، ص ٤٦.

(٨٦) قانون الفاتح سنة ١٤٦٢ هـ الذي أباح للسلطان الحاكم أحقية قتل أخوته لم يبقَ له أخاً وللمزيد، حكمت قفلجملي، التاريخ العثماني، تعريب: فاضل لقمان، دمشق، ١٩٨٧ م، ص ٧٦.

(٨٧) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٤.

(٨٨) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢؛ اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٦.

(٨٩) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢. (حدث اللجوء فقط من قبل جام ابن الفاتح وأحمد ابن بايزيد الثاني.

(٩٠) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ٢٥- ٢٦.

(٩١) آصاف، عزتلو يوسف، تاريخ بني عثمان من أول نشأتهم حتى الآن، تقديم: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، (القاهرة، ١٩٩٥ م)، ص ٣٨- ٣٩.

(٩٢) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢.

(٩٣) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٦.

(٩٤) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٤. ومن الجدير بالذكر أن هناك من يفند قانون (نامه) الذي أصدره السلطان محمد الثاني (الفاتح) وإن هذا القانون الذي تتداوله المصادر إما مزور أو مدسوس عليه. لويس، استنبول، ص ٧٢.

(٩٥) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ٩؛ طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢.

(٩٦) سورة النساء، آية ٩٣.

(٩٧) سورة الإسراء، آية ٣٣.

(٩٨) لويس، استنبول، ص ٦١.

(٩٩) لبيب، حسين، تاريخ العثمانيين الأتراك، مطبعة الواعظ (مصر، ١٩١٧ م). وسيشار إليه لاحقاً. لبيب، تاريخ العثمانيين.

(١٠٠) لبيب، تاريخ العثمانيين الأتراك، ج ٢، ص ٣٧؛ المحامي، تاريخ الدولة العلية، ص ٧٢؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٧٢.

(١٠١) القرماني، أحمد بن يوسف (ت ١٠١٩ هـ/ ١٦١٠ م)، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق: أحمد حطيط وفهمي سعيد، عالم الكتب، (بيروت، ١٩٩٢ م)، المجلد الثالث، ص ٤٧. وسيشار إليه لاحقاً. القرماني، أخبار الدول؛ العدول، الدولة العثمانية إبان، ص ٧٤. طلب الأمير قرقود قبل أن يُعدم أن يكتب رسالة إلى أخيه السلطان سليم يؤنبه فيها. ثم بعد أن وصلت الرسالة إلى السلطان سليم وقرأها بكى بكاءً شديداً وتظاهر بالحزن الشديد فأعلن الحداد العام ثلاثة أيام متتالية. كما أمر بقتل جماعة من التركمان الذين

دلوا على مخبأ أخيه قرقود، وذهبوا إلى بورصة لطلب المكافأة. لبيب، تاريخ العثمانيين، ج ٢، ص ٣٨.

(١٠٢) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢.

(١٠٣) ابنالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٦.

(١٠٤) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢.

(١٠٥) قازان، سلاطين بني عثمان، ص ٦٠.

(١٠٦) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٧.

(١٠٧) لويس، استنبول، ص ٦١.

(١٠٨) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٧.

(١٠٩) طقوش، تاريخ العثمانيين، ص ٥٦٢.

(١١٠) اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء، ص ٩٧.

قراءة وثائقية في تاريخ أرمن الدولة العثمانية وموقف السوريين منهم

أ.د. محمود عامر

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

❖ تمهيد تاريخي:

تمكنت الدولة العثمانية من بسط سلطانها ونفوذها على مساحة كبيرة من المناطق الأرمنية، أسوة بمناطق الأمم والشعوب الأخرى على الرغم من الإمكانات المتوافرة في الشعوب الأرمنية، إلا أنها استطاعت التعايش مع الإدارة العثمانية، غير أن الأرمن بما يمتلكون من طاقات ومهارات فنية تمكنوا من التوصل إلى مناصب مفصلية في الإدارة العثمانية لدرجة أن العثمانيين منذ المراحل الأولى وثقوا بالأرمن وعهدوا إليهم مهام لم يوازها في الأهمية سوى مناصب اليهود وقلة من مسيحي الدولة العثمانية. هذا التمايز دفع الدولة العثمانية إلى إطلاق مصطلح (الملّة الصادقة) نتيجة إخلاصهم في العمل وتفانيهم في دقته وهذا يتطابق مع مصداقية الأرمن في إنجاز المهام الموكلة إليهم مهما كانت.

لم تفد المصادر والمراجع بأن العثمانيين اشتكوا من تصرفات الأرمن رغم الخلافات التي نشبت بينهم وبين كنسية روما، وقد وقف العثمانيين حيال هذا الخلاف العقائدي على الحياد، مادام الأرمن يعلنون الولاء للعرش العثماني ويؤدون ما عليهم من واجبات متجاهلين في مراحل كثيرة أدنى حقوقهم، لأنهم وبالقياس إلى الأمم والملل الأخرى تصدروا قمة الإنتاج العسكري باختراعاتهم الفنية والالتزام الإداري، وهاتان الصفتان تفرد بهما الأرمن طوال المراحل الأولى لتكوين الدولة، وقد قدر العثمانيون خلال المراحل الأولى لدولتهم جدية الأرمن وأسلوبهم الحضاري.

يرى بعض الباحثين لتاريخ الأرمن بأنهم الملة المنحوسة من جهة، والمميزة علمياً وأخلاقياً من جهة أخرى، علماً بأن العثمانيين لم يألوا جهداً في إحاطة الأرمن بالعناية والرعاية طوال القرون الأولى، لكنها رعاية فارغة من محتواها، انتهت بتوقف الفتوحات من جهة وتلكؤ بعض الأرمن عن القيام بمهامهم حسب المصادر العثمانية من جهة أخرى، علماً بأنه لم يثبت أنهم تلكؤوا أو خانوا.

صحيح أن أرمينيا تشكل جغرافية متميزة عن بقية المناطق التابعة للدولة العثمانية وظلت الجغرافية المتميزة ناقوس يدق رأس كل أرمني شريف، لأن هذه الميزة الجغرافية بدت بسبب ارتفاعها كأنها جزيرة وسط بحر يتجاذبه الغزاة والطامعين من كل حدب وصوب، وكان العثمانيون من جملة من غزا المناطق الارمنية.

وبهذا الصدد وصف المؤرخ الأرمني جاك دي موغان بلاده بالقول: (اعتبر القدماء جبل آرات بالجبل العظيم الذي تنبعث منه قوة خارقة للطبيعة وأنه موطن للأرواح التي كانت تسمى بالأصل (دراكونا) حيث تعيش تلك الأرواح فوق قمته العالية[١]).

صحيح أن جبل آرات وما فيه من أرواح خارقة رافقت كل أرمني هاجر أو هُجّر ولهذا ظل المجتمع الأرمني متماسكاً فيما بينه، ولم يشبه عيب سوى انصراف الاكليروس للصراع مع كنيسة روما، أما أرستقراطية الأرمن فقد تعاونت مع الإدارة العثمانية تاركة فقراءها لمصيرهم، وهذا مذهب الأرستقراطية مسيحية كانت أم إسلامية، في حين تتفرد الأرستقراطية اليهودية عن غيرها من الأرستقراطيات بالاهتمام بمصالح أبناء مجتمعهم[٢].

لقد عاش الأرمن في الدولة العثمانية على أنهم أقلية لقيت تميزاً واضحاً جاؤوا في المرتبة الثانية بعد اليهود، لكنهم في حالة شتات شبه تامة، ورغم ضخامة الشتات

وقساوته تكمنوا من الحفاظ على هويتهم القومية، علماً بأن الإدارة العثمانية تعمدت توزيعهم في بلاد الأناضول الذي يضم ست ولايات هي: ارضروم وسواس وان، تلبيس، ديار بكر، وخاربون، وكان الأرمن موزعين على تلك الولايات بقصد إبعادهم عن وطنهم الأصلي.

لم يدرك الأمن مضمون هذا الشتات ولا أهدافه إلا في نهاية القرن الثامن عشر وتحديداً مع بداية القرن التاسع عشر (قرن القوميات)[٣].

لا شك أن الأرمن رغم تعرضهم للشتات، ظلوا على حيويتهم ونشاطهم فنياً وصناعياً وحتى تجارياً، وأن طبقتهم أو ارستقراطيتهم، لم تفكر بالوطن الأم بقدر ما فكرت بتحقيق مكاسبها الخاصة حتى ولو على حساب أبناء جلدتها، وقد أدركت الإدارة العثمانية نهم ارستقراطيي الأرمن فأفسحت لها المجال للغرق وسط جشع التجار، وتجاهلت تلك الارستقراطية أن فقراء الأرمن العاملين في مجال الصناعة والزراعة يخضعون لأقلية تركية برمجت مهامها لإسقاط الهوية القومية ليس للأرمن وإنما لكل القوميات بما فيها القومية العربية[٣].

لاشك أن الزعامة الأرمنية تولت مناصب رفيعة في الدولة العثمانية على سبيل المثال لا الحصر داود باشا ١٨٦١- ١٨٦٨ م، الذي عهد إليه بإدارة متصرفية جبل لبنان تناسى هو الآخر أن التهجير الأرمني لم ينقطع عن متصرفيته، ورغم ذلك تجاهل مأساة أبناء جلدته وانساق وراء شهرته، غير أن الزعامة الأرمنية التي سخرت إمكاناتها العقلية والجسدية لخدمة الدولة العثمانية إضافة للدفاع عن الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها وترهلها بقيت وفية وكأنها دولتها[٤].

قد يعتقد القارئ للتاريخ العثماني أن الإدارة العثمانية عاملت الأرمن كغيرها من الأقليات من حيث الاعتماد والثقة بهم ولاسيما خلال المراحل الأولى لنشأة الدولة.

صحيح أن مرحلة القوة العثمانية لم يكن بإمكان أية أمة أو ملّة إبداء أي تأفف مهما كان بسيطاً، لأن مصيرها محتوم بإبادتها إبادة تامة وقد أدرك الأرمن هذه الحقيقة فهم يدركون إن الأتراك العثمانيين لا يعرفون أنصاف الحلول وهم يهللون عندما يقومون بأعمال إبادية.

لقد ظل الأرمن يتطلعون إلى حيز من الحرية أو المساواة طوال تاريخهم الطويل مع العثمانيين، ولهذا كتموا أنفاسهم وعملوا صاغرين كخدم وكفنيين للإدارة العثمانية التي كانت مكافأتها التنكيل بهم والإبادة(٥). ولا شك أن الإصلاحات والتنظيمات التي أُجبرت الدولة العثمانية على إجرائها منحت الأمم أو الملل الخاضعة للإدارة العثمانية حيزاً من الحرية أعلاها وأفضلها المساواة مع المسلمين، ورغم هذا الحيز الذي يسمى المساواة، ظل كابوس الظلم والجبروت العثماني مفروضاً حتى بعد صدور شريف همايون خطي سنة ١٨٥٦ م من قبل السلطان عبد المجيد ١٨٣٩-١٨٦١ م لكن هذه المساواة كانت منذ البداية منقوصة برأي عقلاء الأرمن الذين رأوا أن المعاناة الارمنية لم تتبدل بل على العكس من ذلك فقد أصبحت في القرن التاسع عشر مبرمجة تهدف إلى الإقصاء من جهة والتشرذم الأرمني من جهة أخرى(٦).

تصور الأرمن أن وصول السلطان عبد الحميد الثاني إلى العرش قد يحقق لهم بعض الميزات وليس كامل الحقوق، لكن آمالهم كانت وهماً كبيراً، لقد أطلق العثماني بقواته تذبحهم وتشردهم فعانوا من حكمه أكثر ما عانوه طوال تاريخهم وعدّت سنوات ١٨٩٤- ١٨٩٥ م سنوات بداية تشريد الأرمن وتهجيرهم.

تسابقت الأقلام بشأن معاناة الأرمن لدرجة أنها ساوت بمضمونها وابعادها القضية الفلسطينية حيث وضعت احتمالات دفعت الأرمن إلى الاحتجاج، غير أن السلطان عبد الحميد الثاني تناسى خدماتهم وحتى صلة القرابة، فباشر بضربهم والتنكيل بهم وعدّ تصرفه هذا تسويغاً لمن يخلفه بإدارة الدولة (٧).

مهما يكن الأمر، فالأرمن لم يثوروا للمطالبة بالحرية فقط وإنما بالعودة إلى أرمينيا ولاسيما الغربية منها، متصورين أن الإدارة العثمانية ستقدر جهودهم في سبيل خدماتهم ولاسيما الصناعية منها، فالمدافع التي امتلكها السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠ م وغيره من السلاطين كانت بفضل خبرات الأرمن ومهارتهم اللامحدودة، كما أن طواقم عرباتهم أسهم الأرمن إسهاماً كبيراً في تطويرها وتحديثها، ولم يكن للأرمن أي دور في الفساد أو الترهل، ومع ذلك فقد حملتهم الإدارة العثمانية مسؤولية الفساد المتنامي في دولتهم[٨].

يخطئ من يعتقد أن احتجاجات الأرمن خلال الفترة الحميدية كانت تهدف إلى زعزعة العرش الحميدي أو التحالف ضده مع جمعية الاتحاد والترقي، بل لإعادتهم إلى أرمينيا الغربية من جهة ورفع الظلم عن الأرمن الذي مارسه العثمانيون عليهم من جهة أخرى، وليس ما نقل عن السلطان عبد الحميد صحيحاً (فلو تصفح أي قارئ لتاريخ الدولة العثمانية لأدرك أن الأقلية الأرمنية كانت على الدوام غنية، كما أنهم استلموا أعلى المناصب الوظيفية في الدولة لدرجة أن بعضهم استلم منصب الصدر الأعظم، وأن الأرمن أُعفوا من الخدمة العسكرية مقابل بدل نقد رمزي[٩].

صحيح أن الأرمن استلموا مناصب مهمة بما فيها منصب الصدر الأعظم، لكن تولوا هذه المناصب ليس لأنهم أرمن بل لأنهم وجدوا فيهم الكفاءة لتأمين سلامة دولتهم، وأن هؤلاء الأشخاص أخلصوا للدولة العثمانية ولم يخونوا بما أسند إليهم من مهام، أما بشأن الخدمة العسكرية فقد دفعوا بدلاً نقدياً لأنهم مسيحيون وليس لأنهم أرمن، فالأقلية المسيحية أعفيت وقبلت الإدارة منها بدل نقدي[٩]. وقد تناسى السلطان عبد الحميد الثاني أن طبيب مراد الخامس كان أرمنياً وتعاطفه مع السلطان عبد الحميد الثاني لأن أمه أرمنية الأصل وتقرير هذا الطبيب هو الذي أوصله إلى العرش.

لم تفد المصادر الأرمنية وحتى العثمانية أن الدولة العثمانية عاملت الأرمن معاملة سيئة أكثر من غيرهم قبل فترتي التسعينيات من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والخلاف في الظلم العثماني الذي مورس على الأقليات الأخرى كان عشوائياً وعلى الأرمن كان مبرمجاً، ولهذا شعر الأرمن بقساوة ظلم الأتراك وجبروتهم(١٠). وإن الممارسات الحميدية دفعت الأرمن للتوجه إلى روسيا القيصرية التي أعلنت الحرب على العثمانيين سنة ١٨٧٧ م بسبب الاضطهاد الذي مورس على البلغاريين، هذا الاندفاع الروسي أسهم في إقامة تقارب مع الروس، بعد انقطاع تزامن مع العداء العثماني للروس وقد تصور الأرمن أن العثمانيين سيقدرون للأرمن خدماتهم وعدم تعاطفهم مع روسيا رغم المحاولات التي بذلها الروس للتواصل مع الأرمن.

إن خشية البريطانيين من تزايد النفوذ الروسي دفعها إلى إقامة معاهدة سرية مع الباب العالي بعدما استولوا على قبرص، ونصت معاهدة سان سيتفانو إلى إجراء مفاوضات جديدة أسهمت في عقد مؤتمر برلين في ١٣ تموز سنة ١٨٧٨ م وقد اشترك الأرمن في هذه المفاوضات وأكدوا فيه إيصال الأرمن إلى حكم ذاتي وليس الاستقلال عن الدولة العثمانية وجاء في المادة السادسة عشرة:

١) يتعهد الباب العالي دون أي تأخير بتحقيق الإصلاحات وإدخال التحسينات التي تقتضيها ظروف المقاطعات التي يقطنها الأرمن وضمان سلامتهم، وسيقدم الباب العالي – دورياً – بياناً بالخطوات التي يتخذها بهذا الصدد إلى الدول المعنية بمراقبة عملية تنفيذ هذه الطلبات(١١).

لقد نظر الأرمن إلى مؤتمر برلين أنه أنقص من حقوق الأرمن وإن ما حصلوا عليه في معاهدة سان ستيفانو كان أفضل مما حصلوا عليه فيما بعد، وما حققه الأرمن من مؤتمر برلين أنه نقل قضيتهم إلى المحافل الدولية، علماً بأن الإصلاحات التي وعدت بها الدولة العثمانية ظلت حبراً على ورق، لأن بريطانيا

أولاً وبقية دول أوروبا تطلعت إلى تحقيق مصالحها الذاتية على حساب الأرمن[١٥].

رد الأرمن على التجاهل العثماني أولاً والدولي ثانياً بتأسيس أحزاب سياسية طالبت في أواخر القرن التاسع عشر بحقوق الأرمن المشروعة وتكونت الأحزاب الأرمنية، الرامكافار (الحزب الديمقراطي، الحزب الدستوري، حزب ارمنياكان) وفي سنة ١٨٨٥ م تأسس حزب هنشاليان الاشتراكي الديمقراطي وعرف فيما بعد مختصراً (الهينتشاق) واتخذ جنيف مقراً دائماً له، أما حزب الاتحاد الثوري الأرمني (الطشناق) فقد تأسس سنة ١٨٩٠ م في تفليس، وفيما اختلفت الأحزاب السياسية في العقيدة السياسية، لكنها أجمعت على ضرورة تحسين أوضاع الأرمن الاجتماعية في الدولة العثمانية، ولم تأخذ هذه الأحزاب الأرمنية موقفاً حازماً وصارماً من الإدارة العثمانية إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

لقد نشطت الأحزاب السياسية الأرمنية في الحياة السياسية للدولة العثمانية لدرجة أن حلت بعد سنة ١٩٠٨ م محل الكنسية التي كانت تحظى باهتمام الدولة والمشورة منها[١٣].

رد العثمانيون على النشاط الأرمني بإطلاق مصطلح الأحزاب المعادية للدولة، وفيما بعد أطلقوا عليها مصطلح المنظمات الإرهابية الساعية إلى الاستقلال.

❖ المجازر الحميدية ١٩٨٤- ١٨٩٦ م:

ذكر البحث سابقاً أن الأرمن استبشروا خيرا من تربع عبد الحميد الثاني على العرش سنة ١٨٧٦ م، ولأنهم طالبوه ببعض الحقوق التي أقرها الدستور العثماني سنة ١٨٧٦ م، ولأنه هُزم أمام روسيا سنة ١٨٧٨ م وأجبر على توقيع معاهدة سان ستيفانو ضمر الحقد لأخواله (أخوة أمه)، وتجاهل عن قصد ما ورد في البند السادس عشر من معاهدة برلين التي حاول السلطان عبد الحميد تأجيل تطبيقها، وباشر ببث

الدعايات المغرضة بأن الأرمن لم يشكّلوا في أية ولاية من الولايات أغلبية وأن التقارير الأرمنية بشأن الانتهاكات في معظمها مبالغ فيها وأنها كاذبة في معظم إعلاناتها وهم يعملون مع الدول الأوروبية كوسيلة وأداة لزعزعة الدولة العثمانية وتفتيتها[١٤].

على ضوء ما أشيع يتحمل السلطان عبد الحميد الثاني مسؤولية التوجه إلى إبادة الأرمن ففي سنة ١٨٩٠ م أنشئ كتائب شبه عسكرية عرفت باسم (الحميدية) معظمها من الأكراد الذين عهد إليهم بمهمة التصرف بحياة الأرمن عامة. ولإثارة الأرمن وزيادة احتجاجاتهم لجأت الإدارة العثمانية إلى زيادة الضرائب أكثر من قدرتهم على تحملها، فرد الأرمن على زيادة الضرائب بالإعلان عن عدم التزامهم بالدفع، فلجأت الكتائب الحميدية إلى تأديب الأرمن من خلال ممارسة القمع والذبح فيهم، وتفاقم الوضع ونهضت في الأرمن الروح القومية المطالبة بالاستقلال الذاتي قابلها السلطان عبد الحميد الثاني في سنة ١٨٩٤ م بأسلوب قمعي قاسٍ فقتل من الأرمن في مدينة صماصون حوالي عشرة آلاف أرمني[١٥].

تدخلت الدول الأوروبية واستنكرت هذه المجازر وطالبت فرنسا وروسيا وإنكلترا بتشكيل لجنة تحقيق دولية، لكن تقرير اللجنة طوي في المحافل الدولية، وتسرب عنه بعض نقاط الاتفاقية ومنها التالي:

١- إنقاص عدد الولايات بما يتفق مع الظروف والطوارئ.

٢- ضمان انتخاب الولاة من ذوي الجدارة والأهلية.

٣- العفو عن الأرمن الصادرة بحقهم أحكام مختلفة.

٤- عودة الأرمن المهاجرين أو المنفيين إلى بلادهم.

٥- تفقد حالة السجون والمساجين.

٦- تعيين لجنة عليا لمراقبة الإصلاحات ويكون مقرها استانبول.

٧- تعويض خسائر الأرمن نتيجة حوادث صماصون.
٨- العناية بشؤون الأرمن في الولايات الأرمنية في تركيا.

صحيح بأن هذه التوصيات لم ينفذ منها بند واحد، علماً بأنها رضائية للأرمن ومتجنبة توجيه اللوم إلى الإدارة العثمانية وإلى شخص السلطان عبد الحميد الثاني وفي سنة ١٨٩٥ م تجمع قرابة ٢٠٠٠ أرمني للمطالبة بتطبيق الإصلاحات، فردت كتائب عبد الحميد بأسلوب دموي ذهب من ورائه عشرات القتلى[١٦]، وعلى أثر مذابح استانبول تحرك الأرمن في طرابزون وبتليس ووان وديار بكر وسيواس وأضنه وغيرها ونتج عن ذلك تخريب المدن المتواجد فيها الأرمن وقتل ٣٠٠٠ أرمني.

ويمكن القول بأن الأرمن كانوا ضحية خطط عبد الحميد البوليسية التي ترمي إلى إبادتهم والتخلص منهم[١٨].

❖ الأرمن والحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨م:

تنامى نفوذ الشباب التركي المعادي للسلطان عبد الحميد ففي سنة ١٩٠٢ م عقدوا أول مؤتمر لهم في باريس، وشارك فيه أتراك وعرب وأرمن ويونانيون وأكراد والبانيون وجركس ويهود، وخرج المؤتمرون بضرورة المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية وتطبيق الإدارة الذاتية المحلية، وفي سنة ١٩٠٧ م، عقد الاجتماع الثاني، وأسفر عن رأي موحد يهدف إلى إسقاط نظام السلطان عبد الحميد الثاني بكل الوسائل وبأسرعها مع تشكيل حكومة تمثيلية[١٩].

تألفت حركة الاتحاد والترقي من مجموعتين أساسيتين، الدستوريون التحرريون العلمانيون، والقوميون، وتحالف الأرمن مع المجموعة الأولى، أما المجموعة الثانية فكانت قومية متعصبة لا تسامح في مبادئها، وقفت هذه القومية من الأرمن منذ البداية موقفاً معادياً، كما صبت نار حقدها على العرب أيضاً، وفي سنة ١٩٠٨ م وجهت جمعية الاتحاد والترقي برقية إلى البلاط الحميدي بإعادة فورية

للدستور، وباشرت زحفها إلى قصر يلدز مقر إقامة السلطان عبد الحميد مطالبة بخلعه، وبذكاء وافق السلطان على المطالب كافة وعَدتها المشروطية الثانية، واحتفظ بعرش لا يحمل منه سوى لقب السلطان وعلى دور كخليفة للمسلمين، وأجبر على التخلي عن منصب قائد الجيش كما جرد من أية قوة سياسية(٢٠).

رحب الأرمن بالخطوة، وعَدّوا ذلك انتصاراً لهم، وتحولت الأحزاب الأرمنية من السرية إلى العلنية وافتتحت النوادي وأصدرت الجرائد ونافست في مجلس المبعوثان، لكن نار التعصب القومي هيأت لمأساة أخرى عربية وأرمنية، وطبق الاتحاديون في أرمينيا سياسة تتريك مخيفة، ولزيادة مأساة الأرمن شارك الاتحاديون بالحرب الأولى ودفعوا بالشباب الأرمني إلى أتون الحرب، وتوسل بطريرك الأرمن للتخفيف من تجنيد الشباب الأرمني، ولكن وساطته باءت بالفشل الذريع، فلجأ الأرمن إلى الاحتماء بالدول الأوروبية، وتظاهرت فرنسا وروسيا بأنها مع الشعب الأرمني، أما ألمانيا فكان تخطيطها مختلف لأن مصالحها مع تركيا الاتحادية كانت أهم من قضية الأرمن(٢١). وقد تعرض الأرمن في سنة ١٩٠٩ م بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني إلى نهب ما يزيد عن ١٢٠,٠٠٠ أرمني أثر مجازر أضنه، وأيضاً يتحمل منهج السلطان عبد الحميد مسلسل الإبادة الجماعية للأرمن، وإذا كان الاتحاديون قد حَملوا الأرمن مسؤولية بداية الاعتداء على قوات الشرطة، فإن وزير الداخلية التركي ما بين سنة ١٩١٢- ١٩١٣ م اعترف في سنة ١٩٢٠ م بأن الأرمن في أنطاكيا وقرن خان (٤٠ منزل) لم يهاجموا القوات التركية، لأنهم في الواقع لم يكن بوسعهم الدفاع عن أنفسهم بسبب الهجوم المباغت عليهم من قبل قواتنا(٢٢).

تعليقاً على تصريح وزير الخارجية التركية رغم مصداقية ما صرح به فمن غير المعقول القول إن الأقليات في الدولة العثمانية لم تعانِ ظلماً مزدوجاً ولاسيما في القرن الثامن عشر للأسباب التالية:

١) الحروب توقفت بشأن توسيع ملكية الدولة العثمانية.
٢) توقف الحروب أسهم في ترهل الجيش الذي التفت للداخل لملء فراغه بمشكلات الموطنين[٢٣].
٣) احتجاب السلاطين وعدم سعيهم لتحديث الجيش وتطوره.
٤) زيادة الترهل يسهم في ارتكاب ظلم للقوى الضعيفة.
٥) طبيعة الأتراك التحرش بالغير، إما التحرش بالغير وإما التحرش بالجيران أو ممارسة الظلم على الأقليات المذهبية الخاضعة لنفوذهم.
٦) معاناة الأرمن ليست بالظلم وإنما بالتهجير، ولهذا فإن معاناتهم مزدوجة.
٧) لم تبقَ ملة من ملل الدولة العثمانية قومياً أو مذهبياً إلا وتعرضت للظلم والقهر أما الإبادة فكانت من نصيب الأرمن قياساُ بغيرهم من الأقليات.
٨) معيب أن يحمل السلاطين مسؤولية فرض الظلم، فسلاطين ما بعد القرن السادس كانوا سلاطين مقهورين ومراقبين من قبل خدمهم وحشمهم ونسائهم[٢٤].

❖ الأرمن والحروب البلقانية:

دخلت الدولة العثمانية الحرب إلى جانب دول المحور (ألمانيا – إيطاليا – تركيا) وباشرتها تركيا بمهاجمة دول الحلفاء من خلال الدولة البلقانية، وقد سبقت الحرب الأولى تعرض الدولة العثمانية لهزيمة حيث فقدت أملاكها في البلقان ما يقارب ٨٥ %، وتوجهت أنظار الشباب التركية إلى مأواهم الأول والأخير الأناضول، وبتوجههم وجدوا أن الأرمن المستقرين في ولايات الأناضول يشكلون عبئاً ثقيلاً عليهم، فمارسوا عليهم عواقب هزائمهم في البلقان، كما طردوا جميع مسلمي الأناضول أيضاً (جراكسة وشيشان) لأنهم عدّوهم غرباء قومياً عنهم[٢٥].

توزع المسلمون (جراكسة وشيشان) المهجرون من الأناضول على موطن تواجد الأرمن، فمارسوا عليهم ظلماً برمجته الزعامة التركية، والمسلمون الذين

هجّروا فاقت أعدادهم ٨٥٠,٠٠٠ رجل، مارسوا ظلمهم على الأرمن وظلمهم مزدوج الكراهية مضاف إليه الغيرة من الرفاه الاقتصادي الذي يعيشه الأرمن قياساً بالجراكسة والشيشان.

تجدد الاهتمام الأوروبي عقب حروب البلقان بالمسألة الأرمنية واتفقت الدول الأوروبية على ضرورة التسوية الأرمنية، وتمتع الأرمن بحكم ذاتي محلي تحت إشراف أوروبي وذلك قبيل بدء الحرب العالمية الأولى[٢٦].

نظر الأرمن الذين كانوا يأملون جدية أوروبة في تطبيق مضمون تسوية سنة ١٩١٤ م على أنها ترضية لهم وهي تخلو من الجدية، وأن هذه التسوية لم تكن أفضل من سابقاتها، والأتراك الجدد مستمرون في عدائهم للأرمن، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل استعدوا مسلمي الأناضول بالولايات الست (أرضروم وسيواس وخربوط وديار بكر وتبليس وفان (وان)[٢٧]. ما حققه الأرمن من تسوية ١٩١٤ م أن قضيتهم دوّلت (دولية) لكن المعاناة زادت فقد مورس عليهم التهجير وعلى مرأى من أعين الأوربيين مجتمعين، وقد جاهر الأتراك بعدائيتهم للأرمن حيث نشر تعميم مفاده (إن الشعب الأرمني لا يؤتمن جانبه)[٢٨]. وفي ١٦ أيلول سنة ١٩١٤ م قبل الحرب العالمية الأولى نشر تعميم مشفّر مفاده، وضع كل الزعماء والأحزاب السياسية الأرمنية تحت مراقبة مشددة ولاسيما في المناطق الآهلة بالأرمن). هذا قبل دخول تركيا الحرب وقّعت الزمرة الاتحادية مع ألمانيا برئاسة أنور باشا وطلعت باشا تحالفاً سرياً ينص على إنشاء مملكة تركية جديدة تمتد إلى ما وراء القوقاز وآسيا الوسطى، وفي ٢ تشرين الثاني دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول المحور، وبدخولها تحول الشرق الأوسط إلى مسرح حرب ارتكب أثناءها عملية إبادة ضد الأرمن، وغلفت الحملات القوقازية والحملة الفارسية وحملة غليبولي بطابع عدائي مخيف ضد الأرمن[٢٩]. ومع بدء الحرب باشر الجنود الأتراك بالهرب وكان من جملة من هرب

من العسكر العثماني الأرمن، ولجأ الهاربون بما فيهم الأرمن إلى الجبال لدرجة أن ليمان فون ساندرز القائد العام للجيش العثماني وهو ألماني الجنسية صرح بالقول: (يجول في جبال الأناضول وقراه قرابة ٣٠٠,٠٠٠ هارب، وعدد هؤلاء يساوي عدد الجنود الذين هم فعلياً تحت السلاح)(٣٠).

إن فشل أنور باشا وهزيمته في صار يقاميتش أمام القوات الروسية في ٢٤ كانون الأول سنة ١٩١٤ م دفعته للانتقام من بقايا الأرمن بحجة أنهم كانوا يؤيدون الروس، فشن عليهم حروب إبادة يصعب وصفها، وقد حُمل الأرمن مسؤولية الخيانة والعمالة من جهة وإيوائهم الفارين من الأرمن وغيرهم من جهة أخرى، وحللت الباحثة هيلين فاين جريمة إبادة الأجناس من قبل القوات التركية بالقول، (إن الضحايا الذين تعرضوا لجريمة الإبادة أجناس متعددة وبصورة علنية في القرن العشرين (الأرمن، الغجر، اليهود).

على ضوء أحداث الحرب الأولى يمكن استنتاج التالي:

١) تاريخ الصراع بين الترك والأرمن طويل ومذابح الأرمن تمت تدريجياً.
٢) زيادة التكاثر لدى الأرمن عدُّها الأتراك ظاهرة خطيرة.
٣) ممارسة الاضطهاد من قبل الأتراك الجدد أسهم في انفصال ولايات كثيرة عن الدولة العثمانية.
٤) تطبيق قانون بحق غير المسلمين لدعم الجيش المشارك بالحرب لوجيستياً أطلق عليه ما يسمى كتائب عمالية(٣١).

إن تكرار هزيمة الجيش التركي في صار يقاميتش سنة ١٩١٥ م دفعت أنور باشا إلى إصدار قرار بتسريح الأرمن من الجيش ونزع السلاح منهم، بحجة أنهم عملاء للروس وسيتعاونون مع القوات الروسية. ويذكر نعيم بك في مذكراته أن إبادة الأرمن كانت مبرمجة من قبل جمعية الاتحاد والترقي ولاسيما للكتائب الأرمنية

المجندة في الجيش العثماني، وإن إعدام الجنود الأرمن تم من قبل عصابات تركية محلية، وبالرجوع إلى مرحلة ما قبل الحرب نجد أن تكوين هذه العصابات السرية العدائية تعود إلى برمجة السلطان عبد الحميد الثاني.

وقد أقرت جمعية الاتحاد والترقي عشر وصايا بحق الأرمن وهي:

١) اعتقلوا كل الجاليات الأرمنية ولاسيما الذين عملوا ضد الحكومة سابقاً ولاحقاً وأرسلوهم إلى الولايات مثل بغداد والموصل وفي الطريق مارسوا عليهم الإبادة.
٢) صادروا أسلحة الأرمن مهما كانت.
٣) أثيروا رأي المسلمين ضدهم بوسائل مناسبة ولاسيما في ارضروم وأضنه.
٤) أوقفوا العمل التنفيذي على السكان في ولايات ارضرم وفان ومعمورة العزيز وبتليس، وساعدوا السكان في مناطق أضنه وسيواس وبورصه وأزمير[٣٢].
٥) طبقوا إجراءات الإبادة على كل الذكور تحت سن الخمسين والكهنة والمعلمين واتركوا البنات والأطفال لكي يتم تحويلهم إلى مسلمين.
٦) أبعدوا العائلات جميعاً وطبقوا إجراءات لقطع تواصلهم بوطنهم الأصلي.
٧) اطردوا جميع الأرمن من الوظائف الرسمية لأنهم قد يكونون جواسيس.
٨) اقتلوا بطريقة ملائمة الأرمن العاملين في الجيش.
٩) باشروا عمليات الإبادة في وقت واحد، ولا تتركوا لهم وقفاً لاتخاذ إجراءات دفاعية.
١٠) انتبهوا إلى سرية الأوامر واحذروا عدم إفشائها، وعدم السماح بمعرفتها لأكثر من شخصين[٣٣].

دأب موظفو جمعية الاتحاد والترقي على تنفيذ مضمون الوصايا العشر، وفي ١٩ نيسان ١٩١٥ م طلب جودت بك من مدينة وان (فان) تزويده بـــ٢٠٠٠ عسكري من الأرمن بحجة التجنيد، وقد أدرك السكان الأرمن مضمون طلب جودت بك الرامي

إلى إنهاء كل أرمني سليم تخوفاً من الدفاع عن أهل بيته وقومه(٣٤). ومن الصعوبة بشيء استعراض أحداث "فان" وضحايا الأرمن الذين قتلوا في تلك المدينة، ولم يستطع الأرمن مقاومة الحملات العسكرية التي شنت عليهم لأكثر من شهر، فاعتقل أناس كثير من شيوخ وأطفال وطبق على المعتقلين القتل العلني في ساحات المدينة وبتوجيه من استانبول(٣٥). أما بشأن تهجير الأرمن واعتقال رجالاتهم حتى المسنين، فإن وزير الداخلية آنذاك محمد طلعت بك جمع ٢٥٠ من زعماء الأرمن الدينيين والمثقفين في استانبول وأمر بتهجيرهم ونفيهم إلى مجاهل الأناضول وأمر بقتلهم، وسمي يوم جمعهم بـــ (الأحد الأحمر) وذلك في ٢٤ نيسان ١٩١٥ م(٣٦).

❖ أحداث وان:

لم تكتف الإدارة العثمانية بجمع ٢٠٠ شاب أرمني من مدينة وان (فان) بل طالبت جودت بك المسؤول العسكري في جبهة الأناضول بزيادة العدد إلى ٤٠٠ شاب أرمني، و وقد حاول الأرمن الاحتجاج لم يتمكنوا من مواجهة الكتائب المكلفة بجمع شبان الأرمن، ففي ٢٠ نيسان ١٩١٥ م حدث نزاع مسلح في أثناء محاصرة المدينة، وقتلت امرأة أرمنية ورجلان أرمنيان لمحاولتهما مساعدة المرأة القتيلة، لكن كتائب الاتحاديين مارست حرب إبادة ضد الأرمن الذين أظهروا تأييداً بل تعاطفاً مع أبناء جلدتهم، وقد تحول دفاع الأرمن إلى ما يشبه المقاومة الشعبية حيث استمرت المقاومة الأرمنية في مدينة وان (فان) شهراً كاملاً برغم افتقارها إلى وسائل الدفاع وقد تزامنت مقاومتهم مع وصول القوات الروسية إلى المنطقة، غير أن أوامر استانبول باعتقال الأرمن سبق دخول القوات الروسية، ونفذت إعدامات كثيرة في المدينة وساحاتها.

إن انشغال القوات الروسية بالقوات العثمانية المكلفة بإشغال الروس عن المكلفين بحماية الأرمن أفسح المجال أمام إدارة الاتحاديين فجردوا سكان وان من

السلاح، وفتشت المنازل منزلاً منزلاً وسرقت ونهبت أموالهم، كما لوحقت الجماعة الهاربة من المجزرة(٣٧).

❖ اعتقال أعيان الأرمن وتهجيرهم:

لقد أدركت القوات العثمانية المتمركزة على الجبهة القوقازية عدم تمكنها من تحقيق انتصارات حربية، لذا انشغلت في ملاحقة الأرمن فارتكبت مجازر بحق أهالي بلدة زيتون، وأحرقوا الأرمن الذين اختبؤوا في الكنيسة (الدير) وهجّروا باقي سكان البلدة وفي الطريق مات من مات وقتل من قتل، ولم تكتف القوات العثمانية بما فعلته في بلدة زيتون بل تعرضت إلى مدن شداخ وارحيش ووادي الأرمن (هايوتس دزور).

لم يكن أمام الكنيسة الأرمنية وسيلة سوى اللجوء إلى أوروبة، فأرسلت نداء مساعدة مقروناً بالاحتجاج على ما تفعله جمعية الاتحاد والترقي بأبنائها لدرجة أن السفير الأمريكي في الدولة العثمانية كتب إلى وزير خارجيته بواشنطن بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٩١٥ م (بأن السفير الروسي قد لفت انتباهنا إلى طلب من قبل كاثوليك الكنيسة الأرمنية أن تستخدم حكومتنا خدماتها الحميدة مع الحكومة التركية لمنع مذبحة الأرمن المسالمين على أراضي تركيا، ويتابع، اجلبوا رجاء المسألة إلى انتباه الحكومة تحفيزاً عليها استعمال الأساليب الفعالة من أجل حماية الأرمن من العنف على أيدي المنتميين إلى الديانات الأخرى)، كما أضاف (بأن الروسي يدعو للانتباه إلى أن هناك العديد من المسلمين في الأراضي الروسية وأن هؤلاء يتمتعون بميول إلى الاضطهاد الديني(٣٨). كما ورد في رسالته إلى وزير خارجيته أن أكثر من مئة أرمني من النخبة قد اعتقلوا برغم منع الدعاية الثورية،وإن الوزارة ابرقت لسفيرها ليحث الحكومة التركية على حماية الأرمن(٣٩).

تجاهل الاتحاديون كل الندوات الفردية والرسمية، وفي أيار ادعى وزير الداخلية طلعت باشا بأن الأرمن ليسوا أهلاً للثقة ويمكن أن يقدموا المساعدة والمؤازرة للعدو، وهم يعيشون في دولة تقف على أبواب عصيان قومي وشيك الانفجار(٤٠).

أمر وزير الداخلية طلعت باشا بتهجير الأرمن من مناطق الحرب إلى مراكز التوطن- الصحارى السورية وصحارى بلاد ما بين النهرين، وبفعلته أكمل مخطط من سبقوه في تشريد الأرمن من أوطانهم ما عدا استانبول وأزمير لأن الدبلوماسيين والتجار يجتمعون فيها، في حين نقل الأرمن الذين يخدمون في الجيوش العثمانية إلى كتائب العمل (طوابير السخرة) غير المسلحة، وفي غفلة من الدول اقتيدوا في صفوف وارتال وتم اعدامهم وذلك بناء على توجيهات من ضباط أتراك وعملائهم(٤١). ولم تكتف جمعية الاتحاد والترقي بالإجراءات التي اتخذها وزير الداخلية بحق الأرمن من قتل وتهجير وتشريد، بل دأبت كتائب الاتحادين تذبح مسيحيي ديار بكر، وقد التقطت رسالة وزير الداخلية طلعت باشا المرسلة إلى ولاية ديار بكر بتاريخ ١٩ حزيران سنة ١٩١٥ م ورد فيها ((وصلنا نبأ: أن في داخل الولاية إلى جانب الأرمن ذبح أيضاً المسيحيون الآخرون في ماردين، وعلى وجه الخصوص أخرج ٧٠٠ شخص من السكان المسيحيين الذين يعيشون بين الأرمن وكاهن أرمني أُخذوا من المدينة ليلاً من قبل أناس مرسلين من ديار بكر وذبحوا مثل الخراف، ولحد الآن يقدر عدد المقتولين في تلك المذابح بـــ ٢٠٠ ألف شخص وإن لم يتم إيقاف ذلك قطعاً وعلى الفور هناك مخافة بأن المسلمين العائشين في المناطق المجاورة أيضاً سيتمردون وسيذبحون المسحيين بأكملهم(٤٢). ومما ورد أيضاً في رسالة طلعت (والأن ليس مناسباً البتة أن تشمل الأساليب السياسية المتخذة (قانون التهجير) بالنسبة للأرمن وتدابير ابقائهم تحت سيطرة المسيحيين الآخرين، ينبغي وضع حد فوري للأحداث من هذا النوع، فأنها

أحداث ستترك أثراً سيئ جداً على الرأي العام، وخاصة استعرض حياة المسيحيين للخطر(٤٣).

لم تتوقف حكومة الاتحاد والترقي عن ممارسة الضغط على الأرمن بحجة المال من أجل المجهود الحربي والقبض على الجنود الفارين، فهاجمت قرى أرمنية عديدة ولا سيما في ولايات الأناضول الشرقية ونهبت وسلبت وقامت بارتكاب مجازر محلية شارك فيها قوى تركية متعددة الاختصاصات وقد تعهد الدكتور ناظم باشا والدكتور بهاء دين شاكر بتشكيل جماعات سميت التشكيلات الخاصة، وكلفت بإبادة الأرمن وقد كلفت (cete الجتا) أي لصوص متطوعين بهذه المهمة، وكانت الوحدة تتألف من (٢٠٠ – ٢٥٠) رجلاً، وتفيد المصادر أن هذه التشكيلات دربت خصيصاً لتنفيذ المجازر، وقد عدّ الأرمن بأنهم وباء ولا بد من القضاء عليهم، وقد مارست هذه المجموعات أعمالاً وحشية في أماكن تواجدها، مما دفعت حكام الولايات إلى مطالبة الحكومة بإيقاف تلك الوحدات(٤٤).

لقد حوّلت الإدارة العثمانية الوحدات الندائية المتطوعة والعاملة على الجبهة القوقازية إلى قوات ردع داخلية بحسب زعم وزير الداخلية حيث وجه اتهامات صريحة إلى الزعامات الأرمنية بأنها تشجع أبناءها وأتباعها على تخريب الدولة، ونتيجة للارتكابات الكبيرة بحق الأرمن، حملت حكومة الاتحاديين مسؤولية ارتكاب مجازر وفي ١٥ تموز سنة ١٩١٥ م وجهت المحكمة العسكرية التركية اتهامات إلى قوات الدرك والمجرمين وقطاع الطرق في ارضروم بأنهم منظمو هجمات قتل واغتصاب وحملت الدكتورين ناظم باشا وشاكر مسؤولية تشكيل الفرق الخاصة للقتل مستغلين انشغال الحكومة بمجريات الحرب الكونية الأولى(٤٥).

لقد شار البند الثامن من قرار المحكمة إلى الدكتور ناظم بشكل واضح وأنه كان شخصياً من صانعي القرار، وأنه مهندس ذابح الأرمن في حين يشير وهيب باشا

قائد الجيش الثالث بالقول (إن ذبح وفناء الأرمن وسلب ممتلكاتهم كان نتيجة قرار من حزب الاتحاد والترقي وأن بهاء الدين شاكر هو الرجل الذي جاء بجزاري البر إلى منطقة الجيش الثالث ثم قادهم واستخدمهم في تلك الفظائع) وقد شبه بعض الباحثين هذه الفرق بمكتب أمن الرايخ للرئيس النازي[٤٦].

❖ سياسة التهجير:

لم يكن التهجير جديداً على الإدارة العثمانية، فلقد عاشوا عقوداً مهجرين من مكان لآخر، لا يعرفون الاستقرار، وحينما دخلوا الاناضول ومنحوا قطعة أرض ومن ثم توسعوا بامتلاك أراضي الدولة البيزنطية المتداعية، عاشوا لذة الاستقرار وحلاوته وفي مطلع القرن السادس عشر هجروا التركمان إلى سورية مع دخول السلطان سليم وانتصاره في مرج دابق سنة ١٥١٦ م ودأبوا على تهجير الأكراد وغيرها من القوميات الأخرى، كما اتبعوا في سورية تهجيراً مخيفاً شمل مختلف المناطق السورية. إذاً ليس التهجير بالسلوك الغريب عن الإدارة العثمانية، وسمى وزير الداخلية طلعت باشا توطين الأرمن في مناطق أخرى (أعمال الشغب والمذابح من قبل الأرمن التي اندلعت في عدد من مناطق الدولة) علماً بأنه وجه كتاباً إلى الصدر الأعظم سعيد حليم باشا بضرورة توطين الأرمن في غير مناطقهم[٤٧].

❖ موقف السوريين من الأرمن:

عُدّت حلب وأعالي الجزيرة من أكثر المناطق السورية استقبالاً للأرمن الذين نجوا من المذابح العثمانية، وبحسب ما ذكرت جريدة المقطم العدد ٢/١٨٦م ١٩١١ م عن مسلمي ومسيحي حلب بالقول: امتازت حلب على أكثر أخواتها البلاد السورية – إذا لم نقل – كلها بما بين أهلها على اختلاف اديانهم من الألفة والمودة و الائتلاف

إذا بحثنا عن أسباب تآلف المسلمين والمسيحيين في هذه المدينة لا تجد من سبب غير ما تطلُع إليه الأهالي عموماً من كرم الأخلاق ولين العريكة ورقة الجانب، وأضاف المقال مخاطباً علماء حلب بضرورة زيادة التآلف وأن ينتبهوا لأقل ما يوجب التنافر والتنازع[٤٨].

أفاضت المصادر أن حلب استقبلت أعداداً كبيرة من الأرمن وأروام الأناضول، وقد تفاوتت الأعداد من ٧٠٠-١٢٠٠ خلال المراحل الأولى، وبحسب ما ورد في جريدة التقدم في عددها ١٥٧٠ لسنة ١٩٢٢م[٤٩] إن هذا التوافد سبب أزمة في تأمين حاجيات الوافدين الجدد، وقد فسر بعض الأرمن ذلك بأنه تأفف بعض الأهالي من كثرة المهاجرين الأرمن، لكن معظم الجرائد الحلبية حملت عناوين ترحيب وحضت الأغنياء على ضرورة الاسهام بتقديم مساعدات عينية لهؤلاء المهجرين الذين مزق الجنود الأتراك أجساد بعضهم أشلاء[٥٠]، ويضيف، جلال نوري، أن مدينة حلب استقبلت الأرمن بشكل لا يمكن تصوره لدرجة أن الحلبيين أضافوا برهاناً جديداً على ما عرفوا به من كرم الضيافة وسماحة النفس[٥١].

لم يكتفِ أهالي حلب باستقبال الأرمن وتأمين المأوى والملبس والطعام للأرمن الذين بدأ توافدهم يتزايد يوماً بعد يوم لدرجة أن الشوارع غصت بهم، بل شكلوا لجنة لمساعدة أهل الأرمن الذين يفتك بهم الجوع، وقد باشرت اللجنة بجمع التبرعات (عينية – ونقدية) من أهل البر والإحسان.

أصر الحلبيون على مشاركة الأرمن في محلاتهم التجارية ومصانعهم ومعاملهم، وقد أسهم النشاط الأرمني في تفعيل التجارة والصناعة بشكل خاص لَمَا يملكه الأرمن من خبرات صناعية أوصلت الصناعة العثمانية إلى أوج قمتها، وإن الحرص على استقبال الأرمن وإشراكهم في أعمالهم الصناعية والتجارية، أفادت الأرمن من جهة وأفادت الحلبيين من جهة أخرى[٥٢]. وأفادت جريدة التقدم أن البعثة

الفرنسية قامت بتوزيع المهاجرين على البلاد السورية، فقد وجهت قافلتين من المهجرين الأرمن إلى مدينة اللاذقية وبلغت (١٤٣) أرمنياً و(٧٣) رومياً إلى بيروت وكانت البعثة تنتظر قدوم كثير من المهجرين الأرمن[٥٣].

وقد وجه مهاجرو الأرمن رسالة إلى صاحب جريدة التقدم جاء فيها: (قرأنا في العدد ١٥١٠ من جريدتكم أن عدد المهجرين الأرمن الذين بلا مأوى يتراوح (٣٥) ألفاً وهم مقيمون تحت الخيام الباردة. وجاء في الرسالة أنهم ينتهزون هذه الفرصة لبيان الشكر نحو الحلبيين والأمة العربية النجيبة لعواطفهم السامية، ولأنهم لم يردوا اللاجئين خائبين، بل قبلوهم ومدوا لهم يد الاسعاف والمساعدة[٥٤]. وأفادت المصادر السورية أن عدد المهجرين الأرمن زاد عن (١٣٠) ألف أرمني[٥٥].

وقد نجا من المجازر التركية قسم من الأرمن وذلك بوصولهم إلى سورية وتوطينهم في الجزيرة وأعالي الفرات ويزيد عددهم عن (٤٧٠٠) أرمني ما بين أطفال ونساء وشيوخ و(١٢٥) ألف توجهوا إلى البنان، كانوا قد هجروا تهجيراً قسرياً إثر عقد اتفاق انقرة سنة ١٩٢١ م التي تضمنت انسحاب القوات الفرنسية عن كيليكيا، وفي سنة ١٩٢٥ م هجّر ما يزيد عن تسعين ألفاً، استوطنوا مناطق كسب ورأس شمرا، وبعد أشهر وزعوا على المدن السورية[٥٦].

اختلف توضع الأرمن في بيروت عن بقية المدن السورية، ففي بيروت وبمساعدة المفوضية الفرنسية شكل لجنة لمساعدة اللاجئين الأرمن، وفعلا قدمت لهم المساعدات المادية، وقرر تخصيص حي خاص للأرمن في بيروت، في حين رفض السوريون ذلك، وعدوا الأرض جزءاً مكملاً للنسيج السوري، كذلك فإن السوريين قدموا مساعدات عادية إلى أرمن اسكندرون لإنقاذهم من واقعهم المعاشي المزري وإصلاح المستنقعات التي ارغمتهم الدولة التركية على العيش بالقرب منها، كما أمنت

آلاف الفرص ولاسيما الصناعية للراغبين بالقدوم من اسكندورنة إلى أية مدينة سورية.

بدأ الأرمن الذين استقروا في حلب بعد تحسين أوضاعهم، بالبحث عن أماكن للعيش في غير حلب، فتوجه في سنة ١٩٣١ م قرابة (٩٠٠) أرمني إلى دمشق و(٥٠٠) إلى بيروت وما لا يقل عن (٤٠٠) أرمني إلى شرقي الأردن[٥٧].

ما يمكن قوله إن السوريين تلمسوا مأساة الأرمن، وشهدوها عن قرب، لهذا عاملوهم معاملة حسنة علاوة على ذلك فالسوريون ما اعتادوا التأفف من غريب مسالم، والأرمن برغم كل الأقوال، فإنهم لم يكونوا عبئاً ثقيلاً على سكان البلاد، لأنهم منتجون وصناعيون، ولديهم خبرة واسعة في أعمال الصيرفة والمحاسبة والصناعة المعدنية الثقيلة، وكانوا قد رفعوا مكانة الصناعة الحربية في البلاد العثمانية التي أباحت دماءهم، فكيف بسوريا الكبرى قبل قدوم الفرنسيين، حتى في ظل الوجود التركي رحبوا بهم، وقدموا لهم مساعدات (عينية ونقدية) وأقاموا محلات تجارية وصناعية خاصة بهم، كما أسلفنا أما عن تقديم السوريين مساعداتهم للأرمن فقد حاولت السلطات الفرنسية المنتدبة إلغاء دور السوريين، فلجأ السوريون إلى تشكيل لجان شعبية، جمعت التبرعات للمتضررين من الأرمن، وتفيد المصادر الأرمنية أن السوريين الذين أمنوا للعمال الأرمن العمل في متاجرهم أو مزارعهم، ضاعفوا لهم الأجر، ومنحوهم مميزات اعترف الأرمن بها في مذكراتهم ومصادرهم.

حاول بعض العقلاء السوريون ولاسيما منذ المراحل الأولى إعطاء الأرمن طابع اللجوء ليس كرهاً بهم، وإنما لتنمية ذاكرتهم في العودة إلى وطنهم، وقد منح الأرمن امتيازات في البلاد السورية، فلقد فتحت لهم أبواب الجامعات والمعاهد، وأجازت لهم ممارسة مهنة التعليم والتدريس في مختلف المدارس والجامعات[٥٨].

إذا كان عرب بلاد الشام قد رحبوا بالأرمن وأفسحوا لهم مجالات العيش وأجازت لهم العمل بالمهن التي يرغبونها، ورفعوا عنهم الضرائب والغرامات، فإن الأرمن أيضاً أيدوا العرب في جميع قضاياهم العادلة، كما أيدوا العرب في مؤتمر باريس بضرورة تطبيق اللا مركزية، وأن تكون اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب العثمانية[٥٩].

ومما يذكر بأن اللجوء إلى سورية ليس جديداً، ولم يكن وقفاً على الأرمن وحدهم وأنما شمل العديد من الأكراد الذين توافدوا إلى سورية في ظروف غامضة.

وهناك بعض العائلات التركية والكردية أصبحت إقطاعية بفضل المنح السلطانية والامتيازات التي قُدمت لهم.

❖ الخاتمة

يصعب على أي بحث استيعاب الأحداث التي تعرضت لها الأقليات الخاضعة للإدارة العثمانية، علماً بأن هذه الأقليات (قومية أو مذهبية) أسهمت مع أفراد القبيلة في توسيع أملاك دولتهم التي أقاموها بحد السيف من جهة وبالمصاهرة ومجاهلة للمسيحيين بادئ الأمر من جهة أخرى، ولم تفكر تلك الأقليات يوماً بالانفصال عن الدولة العثمانية لا سابقاً ولا لاحقاً، غير أن متطلبات القرن التاسع عشر وأحداثه حتمت ضرورة تطبيق الحكم الذاتي معتمدين على فرماني ١٨٣٩ و١٨٥٦ م، وقد خول فرمان ١٨٥٦ م للأقليات العرقية أولاً ضرورة انتخاب من يمثلهم في المحافل الرسمية، وكان الأرمن من جملة من طالب بإقامة حكم ذاتي.

هذه المطالبة لم تكن من قبل الأرمن تهدف لأكثر من الالتزام بمضمون بنود الدستور العثماني الذي أجاز إقامة إدارة محلية ذاتية، لكن التعصب التركي وكراهيتهم للغير نفذ أوامر عكس الفرامانات تخلو من الإنسانية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فالسلطان عبد الحميد الثاني عرف عنه كراهيته للغير، لأنه تصور نفسه

أمير المؤمنين حتى للمسلمين الذين يسكنون الهند والصين وأنه محرم عليهم تنفس الهواء بدون إذن جلالته، وبغضبة غضبها سنة ١٨٩٤- ١٨٩٥ م سفك بالأرمن لميلهم إلى حكم ذاتي وسلط عليهم قواته وجند عليهم منظماته الإرهابية.

تألم الأرمن من سوء المعاملة في أثناء فترة حكم عبد الحميد وفي عهد جمعية الاتحاد والترقي. ومما زاد من آلامهم قتل أبنائهم العاملين في الجيش العثماني، ولم تكتفِ الإدارة الحميدية ومن تلاها بالقتل بل حضت المسلمين على كراهية الأرمن ومضايقتهم في أوطانهم وأماكن تواجدهم.

لقد لجأ الأرمن قبل المطالبة بالاستقلال إلى إتباع الحلول السلمية، فلجؤوا إلى تكوين أحزاب سياسية وعهدوا إليها التفاوض مع الإدارة الحميدية، لكن الإدارة الحميدية سلكت مسلكاً قاسياً أطرته بدماء آلاف الأرمن، وخلفه الاتحاديون حاملين على اكتافهم عبئاً قومياً مشحوناً بالحقد والبغضاء، فطبقوه على الأرمن وباشروا تطبيقه فعلياً منذ سنة ١٩٠٩ م و١٩١٢ م و١٩١٤ م وحتى ١٩١٨ م وأول هذه السياسة الحمقاء فقدان الأرمن لخيرة شبابهم ومثقفيهم وتشريدهم عالمياً، وكان الوطن العربي ولاسيما بلاد الشام الحضن الدافئ والأمين، فلقد قدموا حاملين تراثاً مؤطراً بالدماء وآثار مذابح لا يزال صراخ من ماتوا وقتلوا وعذبوا تئن في أذهان وعقول الأرمن الذين لا يزالون يبكون قتلاهم وتبكي الإنسانية على بكائهم وليس الفلسطينيون ببعيدين عن مأساة الأرمن فهم يعيشون أيضاً ألام قتلاهم وأنين أطفالهم، وإذا كان الأرمن قد عاشوا هذه المأساة فإن الفلسطينيين يشردون ويقتلون يوماً بيوم وساعة بساعة من قبل صهاينة العصر.

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) جبل آرات، جبل بركاني يقع في القسم الأرمني من تركيا، يقع على الحدود بينهما وبين إيران وروسيا، والعرب يسمونه جبل الحارث، للمزيد: أديب السيد، أرمينيا في التاريخ العربي، بيروت ١٩٧٢ م، ط ١، ص ٤٢.

(٢) مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ، دار نوبل، دمشق ١٩٨٢ م، ص ٧٠-٧١.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ٣٩١.

(٤) dJadrian vahahn, Arman Tarihde London, ١٩٤٥.s.١٤١.

(٥) جريدة الصمت لسنة ١٩٢٠ م، العدد ١٣، ص ٣.

(٦) نعيم اليافي، مجازر الأرمن وموقف الرأي العربي منها، اللاذقية، دار الحواء للنشر والتوزيع، ط ١، لعام ٢٠٠٠ م، ص ٢٢-٢٤.

(٧) المدور، مرجع سابق، ص ٣٩٨.

(٨) السلطان عبد الحميد، مذكراتي السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧ م، ط ١، ص ٣٢ وما بعد.

(٩) نوفل نعمة الله نوفل، الدستور ١٣٠١ هـ، ج ٧، ص ٢٩٧.

(١٠) محمد عبد المنعم السيد الراقد، الغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٧٢ م، ص ٢٦١ وما بعد.

(١١) Akşam nur, Armaniler dvri, London ١٩٤٩.s.١٧.

(١٢) Akşam, Op. Cit. PP ٤١.

(١٣) تانير اكجام، الهوية القومية التركية والقضية الأرمنية، ترجمه عن التركية الكسندر كشيشان، مشروع الجمعية الخيرية الأرمنية، (د. ت) ص ٧٥.

(١٤) برقية محمد جودت باشا إلى أنور باشا بتاريخ١٧/٥/١٩١٤ م.

(١٥) اكجام، مرجع سابق، ص ٧٧.

(١٦) نعيم اليافي وخليل موسى، نضال العرب والأرض ضد الاستعمار العثماني،

اللاذقية، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط ١، ١٩٩٥ م، ص ٤٤.

(١٧) اليافي وموسى، نضال العرب، مرجع سابق ٤٢-٤٤.

(١٨) يوسف الجمهاني، تركيا والأرمن، دار حوران، ط ١، ٢٠٠١ م، ص ٣٦.

(١٩) اكجام، مرجع سابق، ص ٨٥.

(٢٠) مجموعة من المؤلفين، عبد الحميد دور سلطنتي، استانبول ١٩٣٦ م، ص ١٤٧.

(٢١) تصريح وزير الخارجية التركية، ١٤ حزيران ١٩٢٠ م.

(٢٢) واهاكن دادريان، دور الأطباء الأتراك في المذابح الأرمنية أثناء الحرب الأولى، ترجمة الكسندر كشيشان، اللاذقية، دار الحوار للطباعة والنشر، ١٩٩٥ م، ص ١٧.

(٢٣) الجهماني، تركيا والأرمن، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢٤) اكجام، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٢٥) مادريان، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢٦) الأرشيفات البريطانية، المملكة المتحدة، دائرة السجلات العامة، صنف ٣٧١.

(٢٧) الأرشيفات البريطانية، السجلات الدبلوماسية، الوثيقة ٣٨٨.

(٢٨) المصدر السابق، وثيقة ٣٨٦.

(٢٩) دادريان، مرجع سابق، ص ٨٩.

(٣٠) اليافي وموسى، مرجع سابق، ص ٤٦ وما بعد.

(٣١) أرشيف لندن، دائرة السجلات العامة وثيقة رقم ٣٨٥.

(٣٢) أرشيف لندن، دائرة السجلات العامة وثيقة رقم ٣٨٦.

(٣٣) اكجام، مرجع سابق ص ٨٥.

(٣٤) يافي دموس، نضال العرب والأمن، مرجع سابق ص ٤٥.

(٣٥) اكجام، مرجع سابق، ص ٩.

(٣٦) ارشيف الولايات المتحدة الامريكية مجموعة السجلات ٥٩ الوثيقة رقم ٤٠١٦/٥٨٨.

(٣٧) ارشيف الولايات المتحدة الامريكية الوثيقة ٤٠١٦/٥٨.

(٣٨) ارشيف الولايات المتحدة الامريكية ٦٧/ ٢٠١٦ وثيقة رقم ٥٩.٨٦٧ RG.

(٣٩) ارشيف الولايات المتحدة الامريكية رقم ٢٠١٦/٦٧،، ٥٩.٨٦٧ RG.

(٤٠) نسخة الوثيقة العثمانية الموقع Turk Tarih kurumu.

(٤١) اكجام، مرجع سابق، ص ٨٦.

(٤٢) الأرشيفات البريطانية، المملكة المتحدة، دائرة السجلات العامة، صنف ٣٧٢.

(٤٣) ارشيف الولايات المتحدة الامريكية مجموعة السجلات ٦٠ الوثيقة رقم ٤٠١٦/٥٨٩.

(٤٤) المصدر السابق نفسه وثيقة ٤٠١٦/٥٨٩.

(٤٥) وثائق المؤتمر العربي الأول ١٩١٣ م بيروت ١٩٨٥ م.

(٤٦) إن النهج الذي اتبعه العثمانيون حيال الأرمن، دفعهم إلى الانتقام من الاتحاد والترقي ففي سنة ١٩٢١ قام سوغومون تهلي يان باغتيال باشا في برلين، وقام ارشافية شيراكان بإطلاق النار على سعيد حليم الذي عهد إليه بإبادة الأرمن. للمزيد: نيقولاي هو منها نيسيال، الكتابات التاريخية العربية عن الإبادة الأرمنية، القاهرة ٢٠١١م، ص١٢٦.

(٤٧) وثائق المؤتمر العربي الأول بيروت ١٩٨٥ م، ص ١١٧.

(٤٨) وثائق المؤتمر العربي الأول بيروت ١٩٨٥ م، ص ١٢٢.

(٤٩) الكسندر كشيشان، الأحوال الأرمنية والعربية في الدولة العثمانية والبلاد الشامية، منشورات الجمعية الخيرية والعمومية الأرمنية (بدون تاريخ) ص ١٤٩.

(٥٠) نيقولاي هوفها نسيان، الكتابات التاريخية العربية عن الإبادة الأرمنية، القاهرة

٢٠١١ م، ص ١٩.

(٥١) جريدة التقدم، العدد ١٣١٠ لسنة ١٩٢١ م، المهاجرة من حلب.

(٥٢) جريدة التقدم، العدد ٢٨٠٠ لسنة ١٩٢٧ م، نشرت (المجلة الدولية لصليب الأحمر) مقالة للدكتور ده غيل، استعرض فها اوضاع الأرمن

(٥٣) جريدة التقدم، العدد ٣٠١٨ لسنة ١٩٢٨ م، استعرضت فيه رأي جريدة اميركية في الأرمن المهجرين.

(٥٤) الأرمن في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، القاهرة، ١٩٦٩ م.

(٥٥) جميل خبر، الأرمن واللبنان (المدينة) رقم ٢٤ بيروت لسنة ١٩٧٤ م، ص ١١٥.

(٥٦) عثمان الترك، صفحات من تاريخ الأمة الارمنية، حلب ١٩٦٠ م، ص ٩٧.

(٥٧) صالح زهر الدين، الأرمن شعب وقضية، بيروت ١٩٨٨ م.

(٥٨) يوسف يزبك، ادورار الأمن في أزمة تاريخية بين الفاتكان وباتريك استيفان (المدينة)، بيروت رقم ٢٤.

(٥٩) وثائق المؤتمر السوري، بيروت، ١٩٨٥ م، ص ٢١.

النفوذ البريطاني في الخليج العربي ومشيخات الساحل العماني منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية

حتى الانسحاب (١٦٠٠-١٩٧١ م)

د. مؤيد باسم حمزة

قسم التاريخ- كلية الآداب/ جامعة دمشق

المحتوى

مقدمة:

تعدُّ دراسة تاريخ الخليج العربي عموماً ومشيخات الساحل العماني على وجه الخصوص من الدراسات التي ما زالت حتى وقتنا هذا شائكةً لتداخل المصالح الاستعمارية في هذه المنطقة المهمة من وطننا العربي والعالم، نظراً لوقوع الخليج العربي على طريق الهند ومحاولة تلك الدول السيطرة على ذلك الطريق وبسط نفوذها وهيمنتها عليه.

وكون الخليج العربي كان خاضعاً اسمياً للدولة العثمانية التي تركت أمر شؤونه الداخلية لحكامه المحليين وضعف الحكم المركزي فيه، وعدم اهتمامها فيه إلا بعد افتتاح قناة السويس ١٨٦٩ م من جهة، وتفكك إماراته ومشيخاته وعدم وجود التنسيق والوحدة فيما بينها من جهة أخرى، فقد أدى ذلك لسهولة سيطرة تلك الدول ولا سيما بريطانيا، وحيث كان من الصعوبة بمكان توحيد تلك الإمارات والمشيخات لتعدد ولاءاتها وقبائلها والصراع على السلطة ودور بريطانيا اللا انساني في تأجيج نار الصراع بين المشيخات وإثارة النعرات، فقد شكل ظهور دولة الإمارات العربية المتحدة إلى الوجود منعطفاً تاريخياً مهماً، وإشكالية كبرى في تاريخ الخليج العربي، بسبب الانقسام السياسي القبلي والحزبي (غافرية، هنائية) الذي كان قائماً بين مشيخات الساحل العماني، حيث ردّ بعض الباحثين ذلك الاتحاد لانسحاب بريطانيا من الخليج العربي في عام ١٩٧١ م بعد أن ضمنت مصالحها فيه من خلال الاتفاقيات الثنائية، فيما يعتقد الباحث أن التنافس الأوروبي على الخليج العربي وخاصة بعد الاكتشافات النفطية، وظهور الولايات المتحدة الأميركية كقوةٍ كبرى بعد ضعف مركز بريطانيا لاسيما بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ م، وتوجه أنظارها نحو الخليج العربي من جهة، وظهور الوعي الوطني والقومي لسكان تلك المشيخات وتأثرها بحركة المدّ القومي في العراق وسوريا ومصر وضرورة توحدها في ظل دولة لها

وزنها السياسي والاقتصادي، ولا سيما أنّ ما يجمعها رابطة الدين واللغة والعادات والتقاليد، والتاريخ المشترك، بغض النظر عن انتماءاتها من جهة أخرى، مما دفع بتلك المشيخات إلى التوحد في كيانٍ له وزنه وثقله السياسي في الخليج العربي في ظل عالمٍ عربي مفكك بسبب التبعية السياسية والاقتصادية للدول الاستعمارية.

انطلاقاً من ذلك، فإن مهمة البحث في هذا الموضوع هي تتبع مراحل النفوذ البريطاني من خلال العودة للمصادر والمراجع التاريخية ذات الصلة وبخاصة المخطوطات والوثائق، واعتماد الأسلوب والمنهجية العلمية، وإظهار الجوانب المشرقة من تاريخ هذه المشيخات العربية بموضوعية، وتتبع تاريخها في إطاره الزماني والمكاني في الخليج العربي.

أولاً- تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية ونشاطها في الهند:

يرتبط الاستعمار في العصر الحديث بالخليج العربي بصلة وثيقة بالبرتغال ثم بالإمبراطورية البريطانية في الهند. ويعدّ القرن السابع عشر الميلادي القرن الذهبي في التاريخ البريطاني والأوربي، إذ تغيرت في هذه السنوات روح وشخصية الشعب الانجليزي والشعوب الأوروبية. وبدأت إنجلترا وأوروبا ترث السيادة في العالم، التي كانت يوماً من نصيب العرب والدولة العثمانية. وتحررت إنجلترا في ثورة الإصلاح الديني من سيطرة الكنيسة، وكان هذا تعبيراً صادقاً عن عصر النهضة الأوربية في إنجلترا.

ومع أن الإمبراطورية العثمانية ودولة المغول بلغتا أقصى اتساعهما وقتذاك وكانتا تسيطران على مقاليد السياسة والاقتصاد في العالم، فإن هذه الإمبراطورية والدول الإسلامية أصابها الوهن، مما سمح للتفوق الأوروبي الذي قادته شركة الهند الشرقية البريطانية[١].

في الثلاثين من كانون الثاني عام ١٦٠٠ م، أصدرت ملكة بريطانية إليزابيث امتيازاً لتأسيس شركة تجارية أطلقَ عليها اسم (شركة مدراء وتجار لندن للمتاجرة في جزر الهند الشرقية) عرفت فيما بعد باسم شركة الهند الشرقية البريطانية. وتمكنت هذه الشركة للتجارة الشرقية في عام ١٦١٢ م من أن تجد لها موطئ قدمٍ في مدينة سورات على شاطئ الهند الغربي قرب مدخل الخليج العربي(٢). وصدر فرمان من الشاه جهانكير المغولي، سلطان دلهي (١٦٠٥- ١٦٢٧ م)، بهذه الاتفاقية. وسرعان ما تعاون الشاه عباس الصفوي (١٥٧١- ١٦٢٩ م)، مع التجار الانجليز الذين قدموا له أسطولهم البحري، وقاموا بحملة مشتركة ناجحة ضد البرتغاليين في جزيرة هرمز. وكانت معركة هرمز من المعارك الفاصلة في التاريخ، لأنها أنهت التفوق التجاري البرتغالي في الهند والشرق، وأرست أسس التفوق الانجليزي.

كان على البريطانيين أن يفرضوا أنفسهم على منافسيهم الهولنديين أيضاً الذين أسسوا عام ١٦٠٢ م، شركة الهند الشرقية الهولندية، المنافسة لشركة الهند الشرقية البريطانية، ودخلت الشركتان في مزاحمة حادة للسيطرة على مناطق النفوذ، من السواحل الإندونيسية والهند الشرقية إلى الخليج العربي، وفي وقت لاحق، وبفضل التحالف الفارسي – البريطاني، استطاعت شركة الهند الشرقية البريطانية تأمين موقع لها في ميناء جاسك الواقع على بعد من ١٥٠ كم من ميناء هرمز، وهكذا سجل البريطانيون نقطتهم الأولى(٣).

ومع مرور الوقت، تمكنت شركة الهند الشرقية البريطانية من الحصول على ثلاثة مواقع محصنة، تحميها مدافع الأسطول ولا تخضع للحكام الهنود. وهذه المواقع في جزيرة بومباي التي انتقلت إليها في عام ١٦٨٧ م إدارة الشركة وانتقلت مخازنها إليها من سورات، والموقع الثاني حصن سان جورج في كلكتا، والموقع الثالث في مدينة مدراس(٤).

ومن هذه المواقع التجارية الحصينة الثلاثة تمكنت الشركة من الزحف إلى مراكز السلطة السياسية والإدارية في الهند، ومن إسقاط سلطنة المغول في دلهي. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف استطاع بضعة مئات من التجار الإنجليز أن يسيطروا على شبه القارة الهندية. ولكن المؤرخ الهندي بانيكار أجاب عن هذا السؤال الصعب وبيَّن كيف كانت سلطنة المغول في بداية القرن الثامن عشر الميلادي في حالة انهيار وأصاب أجزاء الإمبراطورية الانفصال، واتجاه حكام المقاطعات لتحدي السلطة المركزية في دلهي، وحروبهم فيما بينهم، وكيف استعان هؤلاء الحكام بالحصون الانجليزية لتقديم الذخيرة والسلاح مقابل تنازلهم للإنجليز عن امتياز إدارة الأرض وملكيتها. كما يشرح لنا كيف قامت طبقة جديدة من التجار حول الحكام بالقصور، وتعاملت هذه الطبقة مع التجار الإنجليز. وحينما تنبَّه الحكام في الهند إلى هذا الخطر، ثاروا على هذا الوضع، ولكن هزمهم جيش الشركة البريطانية الحديث بقوة مدافعه الجديدة، وامتد نفوذ الشركة أكثر فأكثر(٥).

تصدى لمقاومة النفوذ البريطاني في داخل الهند الأمير حيدر علي وابنه تيبو سلطان على هضبة الدكن. وفي عام ١٧٨٢ م، مات الأمير حيدر علي وتولى ابنه تيبو سلطان الحكم، وجرت بينه وبين الإنجليز أربع حروب تسمى الحروب الميسورية، وكان تيبو سلطان عدوّاً خطيراً للحكم البريطاني في الهند لاتصاله المستمر بالفرنسيين في جزيرة فرنسا واستخدامه لعدد كبير من الضباط الفرنسيين في جيشه. وفي عام ١٧٩٩ م جرت آخر معركة بين الأمير تيبو سلطان وقضي على إمارة ميسور في جنوب الهند. وكان لاستشهاد تيبو سلطان رنة أسى بين العرب والمسلمين. واليوم يعدّه المؤرخون في دولة الهند بطلاً قومياً من أبطال مقاومة الاستعمار الإنجليزي(٦).

وهكذا توطدت الأمور والظروف المناسبة في بداية القرن التاسع عشر الميلادي للإنجليز في الهند واتجهوا بكل ما يملكون من قوة لتحقيق هدفهم الثاني، وهو امتداد نفوذهم العسكري والسياسي إلى منطقة الخليج العربي، لتأمين الطريق إلى الهند.

ثانياً- دور حكومة الهند البريطانية في الخليج العربي:

عرفت شركة الهند الشرقية البريطانية في أيامها الأولى النشاط في الخليج العربي، وفتحت وكالة لها في أصفهان عام ١٦١٧ م، وأخرى في شيراز عام ١٧١٨ م. وبعد معركة هرمز وطرد البرتغال نهائياً من الجزيرة، أقامت لها وكالة في ميناء جمبرون عام ١٦٢٢ م، وسمي هذا الميناء الجديد باسم الشاه عباس الصفوي، وعرفت السفن الانجليزية طريقها إلى ميناء البصرة عام ١٦٣٩ م، وتمكنت من فتح وكالة فيها عام ١٦٤٣ م، لأجل الاهتمام بخط بريد الصحراء بين البصرة وحلب الذي رعته الشركة، إذ تتولى الوكالة الإنجليزية التابعة لشركة شرق البحر الأبيض المتوسط نقل البضائع والبريد إلى انجلترا. ويستغرق وصول البريد بين الهند وبريطانيا عن هذا الطريق خمسة أشهر، بينما تستغرق طريق رأس الرجاء الصالح أحد عشر شهراً.

ولما دمر الأسطول الفرنسي وكالة بندر عباس في عام ١٧٠٩ م، أغلقت الشركة الإنجليزية هذه الوكالة، ونجح رجالها في الحصول على موافقة حاكم شيراز كريم خان في فتح وكالة جديدة لهم في ميناء بوشهر عام ١٧٦٣ م. وهكذا انتقل مركز نشاط الشركة في أواخر القرن الثامن عشر من مدخل الخليج في بندر عباس إلى البصرة وبوشهر. وقدرت تجارة الخليج العربي مع الهند في عام ١٨٠٠ م بستة عشر مليون روبية ٩٠ % لصالح شركة الهند الشرقية البريطانية. فقد أصبح بذلك الإنجليز سادة التجارة في المنطقة بلا منافس. وحاولت الشركة في بومباي أن تفتح لها وكالة في مسقط، ولكنها فشلت في ذلك؛ لأن حكام آلبوسعيد كانوا يتعاملون مع الفرنسيين في

المحيط الهندي[٧] وفي بداية القرن التاسع عشر، تطورت الأحداث في منطقة الخليج العربي إلى صدام بحري بين القواسم وبين حكومة بومباي الإنجليزية. وأدى هذا الصدام في النهاية إلى قيام حكومة بومباي بحملتها الكبيرة ضد رأس الخيمة عام ١٨١٩ م، والتي أرست لها قاعدة لنفوذها أضافت إلى جانب نفوذها التجاري سيادتها السياسية والعسكرية[٨]. وكي ندرس كيف تطورت الأحداث ونفسر دوافعها وأسبابها التاريخية، لابد لنا من أن نتفهم الأمور التالية:

أولاً: تهديد نابليون للوجود البريطاني في الهند، إذ وقعت في يد الأسطول البريطاني رسالة من نابليون في القاهرة بعد حملته على مصر عام ١٧٩٨ م يطلب فيها من سلطان مسقط أن يساعده في حملة إلى الهند. وسارعت إنجلترا بإرسال تعليماتها إلى ميرزا مهدي علي خان، مقيم الشركة في بوشهر، الذي تمكن بإنفاقه المال وحسن سياسته من توقيع اتفاقية خطيرة في ١٢ تشرين الأول ١٧٩٨ م، حقق فيها أغلب سياسة حكومة بومباي، وفيها التزم السيد سلطان بن أحمد، حاكم عمان، جانب الإنجليز في الصراع الدولي القائم بين فرنسا وإنجلترا، وقطع معاملته التجارية مع فرنسا ما دامت الحرب قائمة بينهم وبين الإنجليز. وفي مقابل ذلك، وعده الإنجليز بالمساعدة الحربية في صراعه مع أعدائه وخاصة نزاعه مع القواسم[٩].

ظهرت في بداية القرن الثامن عشر في مشيخات الساحل العماني تكوينات سياسية جديدة: الأولى حلف القواسم وعاصمتهم رأس الخيمة وتتحالف معها إمارة الشارقة وعجمان وأم القيوين والفجيرة؛ والثانية هي حلف بني ياس وعاصمته أبو ظبي، وتمتد على ساحل المشيخات من منطقة العديد، من مدينة دبي. وبعد أن قامت أسرة آلبوسعيد عام ١٧٤١ م بحكم عمان على أثر سقوط دولة اليعاربة، لم يستطع الإمام أحمد بن سعيد مؤسس الدولة إخضاع القواسم

لحكمه، وكان تحالف القواسم يمثل قوة بحرية وتجارية، وكان أسطولهم يتألف من ثلاث وثمانين مركباً كبيراً وصغيراً، وبلغت بحارتهم تسعة عشر ألف مقاتل. وكان يحكمهم في ذلك الوقت الشيخ سلطان بن صفر القاسمي الذي حكم هذا الحلف من عام ١٨٠٣ م إلى عام ١٨٦٦ م. كما ورث هذا العداء للقواسم السيد سعيد بن سلطان الذي حكم عمان بين عام ١٨٠٦ و١٨٥٦م. وقد ترتب على محالفة الإنجليز لسلطان مسقط تطور خطير في الأحداث في الخليج العربي، أدت في النهاية إلى الصدام بين الإنجليز والقواسم[١٠].

ثانياً: كان لامتداد نشاط الدولة السعودية الأولى (١٧٤٤- ١٨١٨ م) إلى عمان واتخاذها من واحة البريمي قاعدة لنشاطها أثر كبير في صدام القواسم بالإنجليز. حيث اعتنق القواسم المذهب الوهابي وأصبحوا يمثلون القوة البحرية لهذه الدولة. وقاومت عمان النشاط السعودي فيها، وحرصت حكومة بومباي على أن يسلم ميناء مسقط من النفوذ السعودي. وقد وجد القواسم في تأييد الدولة السعودية للدفاع عن مشيختهم ضد طموحات دولة آلبوسعيد دعماً وسنداً قوياً يقف إلى جانبهم. ومع أن الشيخ سلطان بن صقر القاسمي كان ذا عقل راجح وقيادة حكيمة وقدرة على جمع القبائل للحرب تحت قيادته، رأى بثاقب نظره خطورة الصدام مع السفن الحربة البريطانية[١١].

ثالثاً: كان الإمام أحمد بن سعيد مؤسس أسرة دولة آلبوسعيد تاجراً، ومهتماً بالتجارة، إذ أن ميناء مسقط يقوم على توزيع البضائع من الهند إلى الخليج. كما أسست مدينة رأس الخيمة على أنقاض مدينة جلفار التاريخية ذات التاريخ التجاري العريق في القرون الوسطى. وعملت إمارة القواسم بالتجارة وتنافست مشيخة رأس الخيمة مع مسقط. والآن دخلت بالمنافسة حكومة بومباي التي أرادت أن

تحتكر كل تجارة الخليج لنفسها. ويمكن تفسير الصدام بين القواسم والانجليز من جوانبه إلى التنافس التجاري(١٢).

وبعد سقوط الدرعية عاصمة السعوديين على يد إبراهيم باشا عام ١٨١٨ م، تقرر إرسال حملة ضخمة ضد رأس الخيمة نوفمبر ١٨١٩م، وفيها حطمت الحملة قلاع رأس الخيمة وتحصيناتها وأحرقت سفن القواسم، كما حطمت قلاع حلفاء القواسم في أم القيوين والعجمان والشارقة. واستغرقت هذه الحملة عدة أشهر. ووقع أمام الجنرال كير، قائد الحملة البحرية في رأس الخيمة، كل شيوخ الساحل على اتفاقية السلام الدائم عام ١٨٢٠ م، وفي مقدمتهم الشيخ سلطان بن صقر القاسمي والشيخ شخبوط بن ذياب آل نهيان. وتتألف اتفاقية السلام الدائم التي عقدت مع حكام الإمارات من إحدى عشرة مادة:

(المادة ١) تمتنع الأطراف الموقعة على هذه المعاهدة عن ممارسة جميع أنواع السلب والنهب في البر والبحر بشكل دائم.

(المادة ٢) يباح دم ومال أي كان من العرب الموقعين على تلك الاتفاقية في حال قيامه بمهاجمة أي شخص مسافر مهما كانت جنسيته.

(المادة ٣) ترفع سفن القبائل العربية الموقعة على المعاهدة، علماً أحمراً خلفيته بيضاء اللون لتدل على جنسيتها، ويحرم عليها استعمال علم آخر غيره.

(المادة ٤) تكون العلاقات بين القبائل العربية وبين شركة الهند الشرقية البريطانية علاقات صلح وسلام.

(المادة ٥) تحمل السفن العربية وثيقة بأسماء بحارتها، وحجم السفينة، واسم مالكها، ويكون صك الملكية موقع من شيخ المنطقة التابعة له.

(المادة ٦) يرسل رؤساء القبائل العربية مندوبين عنهم بتلك الوثائق إلى المقيم البريطاني العام في الخليج العربي، لتوقيعها، لسهولة دخولهم الموانئ ومن أجل

عمليات التفتيش.

(المادة ٧) تشترك القبائل العربية بالعمليات العسكرية ضد أي قبيلة تقوم مستقبلاً بأي عمل حربي في مياه الخليج العربي، ويمكن أن تشترك شركة الهند الشرقية البريطانية في إيقاع العقوبات على القبيلة المخالفة للمعاهدة (المادة ٨) يعد قتل الأسرى بعد تسليم أسلحتهم، خرقاً للمعاهدة، يستلزم مواجهته.

(المادة ٩) منع شراء الرقيق من الساحل الشرقي لإفريقيا بشكل نهائي.

(المادة ١٠) يسمح للسفن العربية التي ترفع العلم الخاص بها الدخول إلى الموانئ البريطانية، وكذلك موانئ حلفاء بريطانيا، والتجارة فيها بحرية.

(المادة ١١) تُعدّ جميع الشروط المذكورة معاهدة عامة، يجوز لمن شاء من الزعماء العرب الآخرين الدخول فيها بنفس الشروط التي وافق عليها الموقعون(١٣).

ووفقاً للمادة الأخيرة فإن شيخي البحرين سلمان وعبد الله ابنا أحمد آل خليفة قررا الانضمام إليها، وأرسلا السيد عبد الجليل إلى الشارقة في الخامس من كانون الثاني ١٨٢٠ م، حيث وقع على المعاهدة.

كانت هذه الحملة درساً قاسياً لحكومة بومباي التي قررت منذ ذلك التاريخ ألاّ تتدخل أبداً في الجزيرة العربية وشؤونها، وإنما تكتفي بالتعامل مع الحكام على الساحل حيث يمكن استخدام مدافع الأسطول للإرهاب دون خسارة ما، وهي السياسة التي ستسير عليها حكومة الهند في الإمارات والخليج حتى نهاية الحرب العالمية الثانية(١٤).

ويعدّ هذا الصدام بين البريطانيين والقواسم خلال هذه الفترة أول مواجهة بين بريطانيا، وهي تبني إمبراطوريتها في الهند والمشرق العربي في العصر الحديث، مع بلد في العالم العربي. وقد ترتب على انتصار البريطانيين في معركة رأس الخيمة وضع أسس النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادي البريطاني في الخليج منذ عام

١٨٢٠ م، وهو نفوذ امتد قرابة خمسين ومائة عام حتى الانسحاب البريطاني من الخليج في عام ١٩٧١ م.

وقد أطلق المسؤولون البريطانيّون في حكومة بومباي لقب القرصنة على مهاجمة سفن حلف القواسم للسفن البريطانية؛ كما سموا ساحل عُمان برسائلهم وخرائطهم ساحل القرصنة. ومن المهم أن يعرف المؤرخ أن القواسم كانوا تحالفاً معترفاً به سياسياً وعقدت بريطانيا معه معاهدات عدة، فلا يمكن أن نسمي هؤلاء بالقراصنة. وقد دحض المؤرخون العرب المحدثون، هذه التسمية للقواسم، وعدوها من مخلفات العصر الاستعماري البريطاني، ويعارضون هذا الوصف للصدام بين القواسم والبريطانيين.

ويتساءل كلين بالفور، الباحث والدبلوماسي الذي عمل فترة في معتمدية دبي، في كتابه **نهاية إمبراطورية الشرق الأوسط**، the end of empire in the middle east الذي صدر في كامبردج عام ١٩٩٤ م:

إن سلامة السفن البريطانية تطلبت تحطيم أسطول القواسم. وهذه هي حملة ١٨١٩ م، بينما نظر كيرزون نائب الملك في الهند لمسألة انتشار السلام البريطاني وما تطلبه من القيام بهذه الحملة كأنصع صفحة في التاريخ، وأصبحت مقولة كيرزون، بعد الحرب العالمية الثانية، محل النقد. وهنا نتساءل هل القواسم قراصنة أو تجار بحر تقليديون أصبحت سفنهم عقبة أمام احتكار بريطانيا للتجارة في الخليج؟ إن القرصنة على كل حال كلمة نسبية وننقل نصاً للإسكندر الأكبر حول هذا الموضوع منذ ألفي سنة. بعد القبض على قرصان أزعج السفن اليونانية في البحر، سأله الإسكندر كيف تجرؤ يا رجل على إزعاج الملاحة في البحر؟ أجابه الملاح وكيف تجرؤ أنت على إزعاج كل العالم؟ هل يطلق علي أنا قرصان، لأنني أفعل ذلك بسفينة صغيرة فقط؟ أما أنت، فحين تزعج الآخرين بأسطول ضخم، تسمى إمبراطوراً ؟ (١٥).

وفي نهاية البحث، يقول شارلز ديفيدز: ولكن، في نهاية الأمر: ما الذي دفعني لتلك الدراسة الطويلة؟ والسؤال هل القواسم قراصنة؟ إذا أردت إجابة بسيطة ومباشرة، أقول لك: كلاّ بالتأكيد[١٦].

ومن المظاهر الجديدة في ساحل عُمان بعد عام ١٨٢٠ م تعيين حكومة بومباي لوكيل سياسي محلي من أبناء الخليج العربي (الملا حسين) عام ١٨٢٨ م يمثل حكومة بومباي في الشارقة. مهمته جمع المعلومات وإرسالها إلى المقيم البريطاني في بوشهر ليكون على إطلاع دائم بما يجري على ساحل عُمان. وقد فرض نظام مراقبة ودوريات بحرية للساحل تقوم به سفن الأسطول الإنجليزي من قاعدة باسيدو[١٧].

ثالثاً- بريطانيا تعدّ الخليج بحيرة بريطانية:

عقدت حكومة الهند سلسلة من الاتفاقيات مع حكام مشيخات الساحل العماني وطدت بها نفوذها في المنطقة. ومن أهم هذه الاتفاقيات اتفاقية السلام البحري الدائم في عام ١٨٥٣ م. في هذه الاتفاقية منعت حكومة بومباي الإنجليزية اقتتال الإمارات في البحر بصورة دائمة لضمان أمن وسلامة تجارتها وسفنها في مياه الخليج. ومنذ ذلك التاريخ، تغير اسم الساحل في الخرائط والتقارير البريطانية من ساحل القرصنة إلى الساحل المهادن أو ساحل الإمارات المتصالح. وامتد النفوذ البريطاني شمالاً في الخليج ليشمل البحرين التي عقدت اتفاقية مماثلة سنة ١٨٨٢ م لاتفاقية السلام البحري الدائم في الإمارات[١٨].

وتعددت المصالح البريطانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ممثلاً في شركات الملاحة التجارية وخدمات البرق والبريد. وازدهر ميناء لنجة على الساحل الفارسي بصفته مركزاً تجارياً مهمّاً في جنوب الخليج. وقد اعتمدت مشيخة الساحل المتصالح على هذا الميناء لتلبية حاجياتها من البضائع الهندية والبريطانية،

وكانت البواخر البريطانية تفد إلى هذا الميناء بانتظام، كما استقر في هذا الميناء عدد من التجار الهنود الذين كانوا يعملون وكلاء للشركات البريطانية والهندية، كذلك استقر في موانئ دبي والشارقة وأبو ظبي ورأس الخيمة عدد من هؤلاء التجار الذين كانوا يتمتعون بالجنسية البريطانية. وبذلك أصبحت لهم امتيازات خاصة في المعاملة والحماية [١٩].

وبعد أن ظن البريطانيون أنهم سيطروا على أغلب أراضي الهند اندلعت ثورة في الجيش الهندي على يد المسلمين والهندوس في البنغال عام ١٨٥٧ م، وانتشرت هذه الثورة في أرجاء الهند. وقد تكلف البريطانيون كثيراً في إخماد هذه الثورة. وبعد دخول البريطانيِّين العاصمة دلهي، اتهم إمبراطور شاه علم بالمشاركة في هذه الثورة. وفي أول نوفمبر عام ١٨٥٧ م، صدر قرار من برلمان في لندن لتحسين أوضاع الحكم في الهند. وجاء في هذا القرار لإلغاء شركة الهند الشرقية الانجليزية، وقيام التاج البريطاني بمسؤولية إدارة حكومة الهند وأعطى حاكم الهند العام لقب نائب الملك[٢٠].

ويذكر المؤرخ الأمريكي لاندون أنه حدث في السنوات العشرين، من عام ١٨٦٢ م إلى عام ١٨٨٢ م، تغيير جذري في تجارة الخليج، وتضاعفت تجارة الهند مع الخليج سبع مرات بفضل خطوط الملاحة البخارية البريطانية وخطوط التلغراف التي انتشرت في الخليج، وأصبح الخليج يلقب في الدوائر الدولية بأنه بحيرة بريطانية. وبلغت التجارة البريطانية في الخليج عام ١٩٠٠ م واحداً وعشرين مليون جنيه إسترليني، بينما كانت التجارة الروسية المنافسة لها بمليوني جنيه إسترليني فقط[٢١].

وقد أثار النمو البريطاني في الخليج عداء كل من بلاد فارس والدولة العثمانية، وهما الدولتان المحلِّيتان في المنطقة. ولم تعبأ بريطانيا بهذا العداء، نظراً لضعف هاتين الدولتين. ولكن حينما أصبح الخليج العربي مسرحاً للمنافسات الدولية بعد عام

١٨٩٠ م، أحس البريطانيون بالتحدي الحقيقي لوجودهم وسيادتهم. حيث ظهر النشاط الفرنسي والروسي والألماني في موانئ الخليج، وبدأت هذه الخطوات بالتحدي العثماني عندما سيطروا على ساحل الإحساء عام ١٨٧٠ومدوا نفوذهم إلى شبه جزيرة قطر. وقد رافق هذه الحملة العثمانية إشاعات عدت ساحل عُمان جزءاً من إقليم نجد، ورفضت الحكومة العثمانية المعاهدات البريطانية مع حكام الساحل العماني. كما طلبت الحكومة العثمانية نسخاً من المعاهدات البريطانية للساحل العماني، ولكنها رفضت أن تعترف بها(٢٢). والخطوة الثانية جاءت من جانب بلاد فارس. بعد احتلالهم لجزيرة صري عام ١٨٨٧ م، وأشاعت أنها تنوي احتلال جزيرة طنب وأبو موسى. ومما أزعج البريطانيِّين كثيراً أن هذا التوسع الفارسي على الساحل الجنوبي كان وراءه روسيا القيصرية(٢٣). وفي عام ١٨٩١ م، ظهر تاجران فرنسيان هما: شابوي (Shaboy) والثاني تريمر (Trimmer) على ساحل الإمارات، وعرض هذان الفرنسيان على شيخ أم القيوين مزايا رفع العلم الفرنسي على سفنه، كما فعلت قبيلة بني بوعلي في صور بعمان. هنا شعر البريطانيون بدنوٍّ الخطر، وسارعت حكومة الهند بعقد الاتفاقية المانعة مع حكام الإمارات عام ١٨٩٢ م والتي منعت حكام الإمارات من منح الامتيازات للدول الكبرى وعدم الاتصال المباشر مع التجار الأوربيين. ونص هذه الاتفاقية كالتالي(٢٤):

١- أتعهد أن لا أتعاقد أو أتراسل مع أي دولة مهما كانت الأسباب عدا الحكومة البريطانية؛

٢- لن أوافق على إقامة وكيل لأي حكومة في أراضي وفي إمارتي دون موافقة الحكومة البريطانية؛

٣- لن أتنازل عن أي جزء من أراضي الإمارة أو أبيعها أو أرهنها للاستغلال في أي ظروف إلاَّ للحكومة البريطانية. وجاء في هذه الاتفاقية تعهد شفوي بمسألة الحماية البريطانية (٢٥).

ومن الممكن القول: إنّ هذه المعاهدة الصغيرة تشكل إسفيناً للسياسة البريطانية وتوضح النزعة الاستعمارية فيها، وتُظهر بشكل سافر أن أيّ إدعاء منها بأنها لا تتدخل في الشؤون الداخلية للمشيخات، بل تتدخل في شؤون أمن سفنها في الحليج العربي ما هو إلا كذبة كبرى. وبعد توقيع هذه الاتفاقية المانعة التي عزلت حكام الإمارات عن العالم الخارجي، أصبحت منطقة الخليج مسرحاً لمنافسات حادة بين الدول الأوربية الكبرى. وناقشت هذه الدول الأوربية مسألة الاعتقاد السائد لدى البريطانيين في حقوق قديمة لهم بالسيطرة السياسية والتجارية على الخليج. وحين عرض على حكام المشيخات التعاون مع الأوربيين في مجالات التجارة، شعر الحكام بقيود هذه الاتفاقية. وقد منعت بريطانيا الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان عام ١٨٩٦ م من السماح لشركة الملاحة الفرنسية مساجير مارتيم من الرسو بسفنها في أبو ظبي. وحاولت فرنسا إقامة مرفأ لها في بندر جصة في جنوب مسقط عام ١٨٩٨ م. ولكن حكومة الهند هددت بقصف قصر الأمير فيصل بن تركي آلبوسعيد وأجبرته على إلغاء هذا الاتفاق مع الفرنسيين، كما خططت روسيا لبناء قاعدة شهبار على الساحل الفارسي، وفتحت خطاً بحرياً روسياً عام ١٩٠٣ م من أوديسا على البحر الأسود إلى الخليج العربي. أما الألمان، فقد أخذوا امتيازاً من الدولة العثمانية بمد خط حديدي إلى بغداد، وتقرر أن ينتهي هذا الخط في البصرة أو الكويت في عام ١٩٠٠ م. ولكن بريطانيا حققت انتصاراً كاملاً أمام كل هذه المنافسات في الخليج بالخطوات القوية والحازمة التي اتخذتها، ففرضت حمايتها على الكويت عام ١٨٩٩ م وأجهضت مشروع السكة الحديد الألماني، كما عقدت سلسلة من الاتفاقيات مع الدول الكبرى، وفيها اعترفت هذه الدول بالخليج بحيرة بريطانية: فقد وقعت فرنسا في عام

١٩٠٤ م الاتفاق الودي الذي تركت بموجبه فرنسا لإنجلترا منطقة الخليج العربي نظير ما فرضت فرنسا حمايتها على المغرب. أما روسيا، فقد عقدت معها اتفاقية عام ١٩٠٧ م، وفيها قسمت بلاد فارس إلى منطقتي نفوذ: الشمال يتبع روسيا، أما الجنوب والخليج العربي، فيتبع النفوذ البريطاني. وأخيراً، في عام ١٩١٣ م عقدت بريطانيا مع الدولة العثمانية اتفاقاً اعترفت فيه بالسيادة البريطانية على منطقة الخليج[٢٦]. وفي عام ١٩٠٦ م كانت شركة فونكهاوس الألمانية قد حصلت على امتياز استغلال المغر في جزيرة أبو موسى. وفي هذا العام أجبرت بريطانيا حاكم الشارقة، الشيخ صقر بن خالد القاسمي، على إلغاء هذا الاتفاق[٢٧]. وقد حاول الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان، في أبو ظبي أبو ظبي (١٨٥٥ - ١٩١٩ م) من إقامة أول اتحاد بين المشيخات بالتحالفات الشخصية، ولكن الحكومة البريطانية أفشلت هذه المحاولة. ولا شك في أن المنع من التعامل التجاري مع غير البريطانيين قد أضر باقتصاد المشيخات، وأحدث ضيقاً لدى الحكام والتجار. ولقد عبر الشيخ بطي بن سهيل آل مكتوم، حاكم مشيخة دبي، عام ١٩٠٦ م عما يجول في نفوس الشيوخ والأهالي؛ إذ انتقد الشيخ في مجلسه علناً منع البريطانيين حكام المشيخات من الاتصال بالتجار الأجانب[٢٨]. ومن المفيد ذكره أن سياسة العداء البريطانية نحو حلف القواسم قد تغيرت في بداية القرن العشرين بسبب قضية الجزر العربية. وكان شعور السفير البريطاني في طهران أن روسيا القيصرية هي التي تدفع إلى توسع بلاد فارس على السواحل الفارسية، وأعلن عن هذه السياسة الجديدة التي تبناها البريطانيون اللورد كيرزون في زيارته للخليج العربي في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٠٣ م وخطبته على سفينته البحرية في اجتماع ضم حكام مشيخات الساحل العماني أعلن فيه أن منطقة الشميلية، التي كان فيها ثورات على حكم القواسم، إنما هي أرض تابعة للقواسم. وحينما أقدمت مجموعة من رجال الجمارك الفارسية في نهاية آذار عام ١٩٠٤ م، واحتلت جزر طنب وأبو موسى، وأزالوا الأعلام العربية، ورفعوا مكانها الأعلام الفارسية، أمر اللورد كيرزن أن

تتوجه سفينة حربية بريطانية لإزالة الأعلام الفارسية من الجزر العربية، كما قامت السفينة البريطانية بنقل الحراس الفرس من هذه الجزر ورفعت الأعلام العربية مكانها(٢٩).

رابعاً- المصالح البريطانية في الخليج العربي في القرن العشرين:

بلغ النفوذ البريطاني في الخليج العربي والمشرق ذروته في أعقاب الحرب العالمية الأولى، إذ دخلت بريطانيا العراق منذ عام ١٩١٤ م ونجحت في فرض انتدابها على فلسطين. وفرضت حمايتها على مصر عام ١٩١٤ م، في ظل غياب معظم القوى الأوروبية التي نافستها في منطقة الخليج العربي عن المسرح السياسي.

وفي بداية القرن العشرين، ظهر فجر جديد للمشيخات يخرجها من عزلتها التي فرضها عليها البريطانيون. وحدثت نهضة اقتصادية وثقافية تعود إلى أربعة عوامل هي:

١- ازدهار تجارة اللؤلؤ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي.

٢- نمو ميناء دبي في عام ١٩٠٣ م كميناء رئيس على ساحل المشيخات.

٣- ظهور موارد مالية جديدة في الثلاثينيّات، نتيجة لإنشاء مطار الشارقة وعدد من المطارات الضرورية في بعض المشيخات لخط الطيران الإمبراطوري الجوي البريطاني(٣٠).

٤- توقع ظهور النفط في المشيخات والمنافسة الشديدة بين الشركات الأمريكية والبريطانية على امتيازات البحث عن الذهب الأسود.

كانت التجارة والغوص وراء اللؤلؤ وبناء السفن مصادر الدخل الرئيسة بجانب الزراعة. ونتيجة لانتعاش تجارة اللؤلؤ في ذلك الوقت، اكتسب تجار اللؤلؤ الذين يزورون بومباي في كل عام لبيع اللؤلؤ، مكانة كبيرة لدى الشيوخ وصار لهم دورهم في الشؤون الداخلية في الإمارات. وكان نمو ميناء دبي أحد مظاهر التطورات

الاقتصادية المهمة في بداية القرن العشرين. كانت معظم تجارة المشيخات تصلها في الماضي عن طريق ميناء لنجة. ولكن بعد عام ١٩٠٣ م وهجرة تجار لنجة إلى دبي، أصبحت شركات الملاحة البخارية البريطانية تفد إلى دبي أثناء رحلتها في الخليج العربي. وتطور ميناء دبي وأصبح ميناءً رئيساً واحتلت دبي تجارة الترانزيت التي كانت للنجة في الماضي(٣١). ولم يقتصر ازدهار التجارة في ميناء دبي على النمو الاقتصادي، بل كان له أثر في التقدم الثقافي والوعي القومي العربي في المشيخات. وبالرغم من أن الاتفاقية المانعة في عام ١٨٩٢ م قد عزلت المشيخات عن العالم الخارجي، فإن ميناء دبي وتجار اللؤلؤ قد فتحوا نوافذ عديدة للقضاء على هذه العزلة الثقافية في هذه المشيخات. جلبت خطوط الملاحة البريطانية الهندية عند عبورها قناة السويس الكتب والجرائد العربية إلى بومباي التي نقلتها إلى دبي مع التجار العرب. وقد أعاد ارتباط الخليج الثقافي بمصر والشام بعد عزلة دامت ثلاثة قرون. وبالرغم من أن الخليج لم تكن به طباعة عربية قبل الحرب العالمية الأولى، فإن الكتب العربيّة قد تدفقت عليه من القاهرة، وبدأت المراسلات بين البراعم النامية في الساحل والكتاب والأدباء العرب في الخارج. وهكذا خلق وعي أدبي وسياسي بين الجماعات المثقفة في الإمارات المتصالحة. ونجد كثيراً من أعداد مجلة "**الفتح**" التي كان يصدرها في القاهرة الأديب والمفكر العربي الإسلامي محب الدين الخطيب تصل إلى الإمارات المتصالحة عن طريق السفن الملاحية المتوجهة من بومباي إلى دبي. حيث أدت دوراً في اتساع انفتاح المشيخات على الانتفاضات العربية وأحداث الحركة الفكرية والأدبية الحديثة في الأقطار العربية(٣٢).

قد أدّت بومباي في نهاية القرن التاسع عشر دوراً ثقافياً إلى جانب دورها الاقتصادي. كانت بومباي وقتذاك مدينة أوربية حديثة بها المنشآت التعليمية من المدارس والكليات، وكانت بها المستشفيات الحديثة، وكانت بها محطة سكك حديدية.

وقد نقلت بومباي صورة عن الحياة الغربية والحضارة الإنجليزية في تلك الفترة. وأثارت زيارة تجار اللؤلؤ في كل عام ما كانوا يقرأونه في الصحف العربية عن الحركات الإصلاحية، ورغبوا في أداء دورهم في الحياة الثقافية في بلادهم للحاق بركب الأمم المتقدمة. واتجه هؤلاء التجار للعناية بالتعليم وإنشاء المدارس في الإمارات. وفي عام ١٩٠٣ م، أنشأ تجار اللؤلؤ ثلاث مدارس هامة على ساحل الإمارات: المدرسة الأولى التيمية وهي في الحيرة، والمدرسة الثانية الأحمدية في دبي، والمدرسة الثالثة النهيانية في أبو ظبي. وتعددت بعد ذلك نشأة المدارس، وكانت الخطوة الأولى التي وضعت أسس النهضة الحديثة في الإمارات(٣٣). وقد تغير المسرح السياسي في الخليج العربي بعد الحرب العالمية الأولى. فقد ظهرت تكوينات ثلاثية سياسية هي دولة العراق الحديث التي اعتلى عرشها فيصل بن الحسين في عام ١٩٢١ م، وقد سيطر الملك عبد العزيز بن سعود على أراضي الجزيرة العربية وكوّن المملكة العربية السعودية في عام ١٩٢٤ م. ويضاف إلى هذا انقلاب الجنرال رضا شاه واستيلاؤه على الحكم في طهران عام ١٩٢١ م(٣٤).

جرت مفاوضات بين الحكومة السعودية والحكومة البريطانية ممثلة لإمارة أبو ظبي حول حدود المملكة على أثر عقد اتفاقية مع شركة أرامكو عام ١٩٣٣ م التي تساءلت عن حدود المملكة الجنوبية الشرقية في الثلاثينيّات من القرن العشرين. بدأت المفاوضات في عام ١٩٣٤ م، وانتهت عام ١٩٣٨ م دون حل مرضٍ، وتوقفت بسبب قيام الحرب العالمية الثانية(٣٥). في عام ١٩٢١ م تقلد السلطة في بلاد فارس الجنرال رضا شاه في انقلاب عسكري، وأسس حكومة مركزية قوية لم تشهدها إيران من قبل في تاريخها الحديث. وقد أنشأ رضا شاه جيشاً قوياً مزوداً بالمعدات الحديثة. وأمر في عام ١٩٢٩ م ببناء ست سفن في إيطاليا. ووصلت هذه السفن إلى بلاد فارس عام ١٩٣٢ م، ووجه رضا شاه ضربات ضد الامتيازات الأجنبية، وخاصة البريطانية في

عام ١٩٢٨ م. عندما ضايق الفرس وجود مقيم سياسي بريطاني في بوشهر لرعاية المصالح البريطانية في الخليج العربي. وكان يحمي دار المقيمية في بوشهر جنود من الجيش في الهند. ويحرس المقيم في تنقلاته في بلاد فارس فصيلة من الخيالة الهنود. وقد وضع تحت تصرف المقيم سفينة حربية لتنقلاته، وطلبت فارس في هذا الوقت نقل المقيم السياسي في بوشهر إلى مكان آخر على الساحل العربي. كما ركزت فارس طلباتها في الانسحاب من القواعد البحرية الإيرانية في جزيرة هنجام ومدينة باسيدو في جزيرة القشم. وتقدمت السفارة البريطانية في طهران بمشروع لمعاهدة أنجلو – فارسية عام ١٩٢٩ م، لمناقشة أمور الاختلاف. واستمرت المفاوضات إلى عام ١٩٣٥ م بنهاية عقيمة. وكان من موضوعات المعاهدة قضية جزر طنب وأبو موسى، وكذلك قضية مطالبة فارس بجزيرة البحرين[٣٦].

في فترة ما بين الحربين العالميتين، حدث تغير جذري في احتكار بريطانيا للمصالح التجارية في الإمارات والخليج بسبب المنافسة الأمريكية للحصول على امتيازات البترول في هذه المنطقة الغنية بالذهب الأسود. غضب مجلس الشيوخ الأمريكي حينما وقعت فرنسا وإنجلترا اتفاقية سان ريمو في عام ١٩٢٠ م، تلك الاتفاقية التي أعطت فرنسا نصيباً في شركة بترول العراق. وأصرت الولايات المتحدة الأمريكية على تطبيق سياسة الباب المفتوح أمام الشركات الأمريكية في المشرق العربي. واعتبرت ذلك شرطاً أساسياً للاعتراف الأمريكي بالانتداب الفرنسي والبريطاني في هذه المنطقة. ولذلك أُعطي الجانب الأمريكي فوراً ما يعادل ٢٣,٥ % في شركة بترول العراق. ونجحت الشركات الأمريكية أخيراً في الحصول على الامتياز الكامل ببترول البحرين عام ١٩٢٨ م. وقد عثر على البترول في البحرين عام ١٩٣٢ م، وجاء ذلك مفاجأة كاملة؛ كما كان نقطة تحول في صناعة البترول في الخليج. وكذلك حصلت شركة بترول كاليفورنيا على امتياز للبترول في الحسا عام ١٩٣٣ م، لأن الملك عبد

العزيز بن سعود كان غير راض عن التسويات البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى، إذ أحاطت به دول الأشراف في الأردن والعراق. وقد بدأ الإنتاج في الظهران عام ١٩٣٩ م[٣٧].

وبعد جهد مضنٍ، نجحت بريطانيا في تقرير المناصفة بينها وبين أمريكا في امتياز بترول الكويت. وهكذا وجدت الشركات البريطانية في ساحل عُمان منافسة شديدة بين الولايات المتحدة وبريطانية. وقد كون البريطانيون في عام ١٩٣٥م شركة بترولية جديدة مقرها البحرين، وهي شركة تطوير بترول الساحل المتصالح. وتمكنت هذه الشركة من عقد عدة امتيازات في تشرين الثاني عام ١٩٣٥م. وكانت هذه الامتيازات قصيرة الأجل؛ وبين عام ١٩٣٥ و١٩٣٧م وقع شيوخ الساحل اتفاقيات طويلة الأجل. وقعت الشارقة اتفاقاً مدته خمسة وسبعون عاماً في عام ١٩٣٧ م[٣٨]، وكذلك وقعت دبي في العام نفسه اتفاقية مدتها خمسة وسبعون عاماً. وفي عام ١٩٣٨ م حصلت الشركة على امتياز في كلباء مدته خمسة وسبعون عاماً. وبعد مجهودات كبيرة، منح الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان امتيازاً للشركة البريطانية مدته سبعون عاماً [٣٩].

في الأول من نيسان ١٩١٨ م، ظهر سلاح الطيران الملكي البريطاني ووكل إلى هذا السلاح الذي استقرت طائراته في مطار الحبانية قرب بغداد، مهمة الدفاع عن العراق، وحماية آبار البترول في الخليج العربي من أي تدخل خارجي. وكانت شركة الخطوط الجوية الإمبراطورية، وهي الخط المدني البريطاني، تقوم باستعداداتها، لبدء خدمات جوية بين القاهرة وكراتشي، في سلسلة إنشاء حلقة جوية كاملة بين لندن وأستراليا. وفي كانون الثاني ١٩٢٨ م، بدأ وصل هذا الخط بين القاهرة والبصرة. وطلبت الشركة من القيادة الجوية في العراق أن تقدم المساعدة لهذا الخط بالقيام بمسح جوي لمنطقة الخليج بقصد تحديد أماكن هبوط الطائرات في هذه المنطقة. وهنا تبين أن إنشاء الخط الجوي ليس بالأمر الهين، لوجود مشاعر الغضب الوطنية في بلاد

فارس ضد الإنجليز. وقد رأى سير هيو ترين شارد، رئيس أركان حرب القوات الجوية، أن أي تصدع في حلقة الطيران المضروبة حول الخليج سيكون كارثة على القوات الجوية تشبه تماماً إغلاق قناة السويس في وجه الأسطول البريطاني[٤٠].

وقد تركز أخيراً إنشاء الخط الجوي على الساحل العربي لفشل المفاوضات مع إيران وكذلك فشلت المفاوضات في دبي ورأس الخيمة. وأخيراً، استجاب الشيخ سلطان بن صقر القاسمي لإنشاء المطار في الشارقة. وفي الأول من تشرين الأول عام ١٩٣٢ م، افتتحت الخطوط الجوية الإمبراطورية خطها الجوي الجديد على الساحل العربي وهبطت أول طائرة في الشارقة في طريقها إلى الهند[٤١].

وعندئذ ظهرت الحاجة إلى مطارات في مدن أخرى. وفي أوائل عام ١٩٣٤ م، وافق شيخ دبي سعيد بن مكتوم (١٩١٢-١٩٥٨ م) على منح تسهيلات للتزوُّد بالوقود في مشيخة دبي. وكذلك اختارت الشركة صير بني ياس ومدينة أبو ظبي للتزوُّد بالوقود ومهابط اضطرارية للطائرات[٤٢].

وبالنتيجة نجد أنّ بريطانيا حققت أمرين مهمين من الاتفاقيات الجوية مع مشيخات الساحل العماني، يتمثل الأول بضمان إيرادات مالية جديدة لخزينة الحاكم، والثاني قيام بريطانيا بترسيخ سياسة التمزق والتجزئة والتشتت بين المشيخات مع ضمان بقائها الحكم الذي يفصل بين الحكام في ما يستجد من أمور بينهم. وأصبحت سلامة الطائرات وأمن التزوُّد بالوقود وانتشار الأمن لجماعات البحث والتنقيب عن البترول أموراً مهمة في سياسة الحكومة البريطانية، وهو أمر جديد يتطلب كسب رضا الحكام والأهالي. وهنا ذهبت إلى ما رجت منه السياسة البريطانية المتمثلة في الإرهاب وقصف القلاع بمدافع الأسطول التي سادت طوال القرن التاسع عشر الميلادي.

خامساً: التحول في السياسة البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية.

بعد الحرب العالمية الثانية، واجهت بريطانيا تحديات صعبة كان أهمها الانسحاب من الهند عام ١٩٤٧ م. وعلى الرغم من ارتباط النفوذ البريطاني في الخليج العربي بالإمبراطورية الهندية، إلا أن الخليج العربي ومشيخات ساحل عُمان بقيت بعد الانسحاب البريطاني من الهند منطقة حيوية للإستراتيجية البريطانية، وذلك لسببين:

أولاً: الاكتشافات البترولية في المنطقة التي أصبحت عنصراً رئيساً في النظام الحالي في منطقة الإسترليني.

ثانياً: ازدياد أهمية موقع الخليج العربي بصفته حلقة رئيسة في المواصلات الجوية العالمية[٤٣].

في عام ١٩٣٦ م، قررت الحكومة البريطانية في لندن وحكومة الهند في دلهي، أمام موجة الغضب الفارسية، نقل مقر المقيم البريطاني من بوشهر إلى البحرين. ولكن الكولونيل فاول، وكان من المقيمين ذوي النفوذ الكبير في الخليج العربي تباطأ في تنفيذ هذا الأمر، لأنه رأى في ذلك أن الإمبراطورية البريطانية تخفض رأسها أمام التيار القومي في بلاد فارس أيام رضا شاه. وحالما انتهت الحرب العالمية الثانية، طلب سفير بريطانيا في طهران من حكومته نقل دار المقيم السياسي في الخليج من بوشهر إلى البحرين. وفعلاً، صدرت الأوامر للمقيم الجديد في عام ١٩٤٦ م للانتقال إلى البحرين. وقد انحصر أمر الأشراف على شؤون بريطانيا بعد اختفاء حكومة الهند البريطانية إلى وزارة الخارجية البريطانية في لندن. وأبلغ جميع حكام الخليج العربي بهذه التغيرات الدستورية في حكومة الهند والخليج العربي وأن علاقتهم منذ نيسان عام ١٩٤٨ م ستصبح مع وزارة الخارجية البريطانية، وذلك عن طريق المقيم البريطاني في البحرين، ونلاحظ من سجل أسماء المقيمين السياسيين بين

عامي ١٩٤٨ و١٩٧١ م، أننا لا نجد عناصر ضباط الجيش الهندي الذين شغلوا منصب المقيم البريطاني في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. وستظهر أسماء موظفين دبلوماسيين من وزارة الخارجية، وهؤلاء بحكم تكوينهم بصفتهم رجالاً دبلوماسيين. هذا، إلى جانب أن السياسة الجديدة للحكومة البريطانية بعد الحرب العالمية الثانية مخالفة للعصر الإمبراطوري قبل الحرب. كتب هؤلاء المعتمدون السياسيُّون تقارير مفيدة تنم عن علم بتاريخ المنطقة وكياسة في القرار. نقرأ في هذه التقارير ما كتبه هولي، المعتمد السياسي في دبي، بين عامي ١٩٥٨ و١٩٦١ م، من تقارير عن التعليم وامتداد التيار القومي العربي إلى المشيخات وقضايا التنمية وموضوع تعريب قوة ساحل عمان(٤٤).

ونظراً للمكانة التي بدأت تحتلها دبي، خصوصاً بعد ظهور البنك البريطاني بها في عام ١٩٤٦ م ونشاط الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم في توسيع الميناء وتطويره في دبي، قرر البريطانيون في ٢٠ أيار عام ١٩٥٣ م، مواكبةً لهذه التغيرات الجديدة، نقل مقر الوكالة البريطانية من الشارقة إلى دبي، ورفعت وظيفة الضابط السياسي إلى معتمد سياسي.

وكان لقرب ظهور البترول في إمارة أبو ظبي وزيادة الاهتمام بهذه الإمارة أن رأى البريطانيون إنشاء مقر لمعتمد سياسي في مدينة أبو ظبي عام ١٩٥٥ م(٤٥).

وتغيرت السياسة البريطانية الجديدة بعد الحرب عن السياسة القديمة، وهي حرص حكومة الهند على ألا تتدخل في الشؤون الداخلية للمشيخات بعد تجربة هزيمتها أمام قبيلة بوعلي في عام ١٨٢١ م. ولكن بعد الحرب العالمية الثانية وازدياد المصالح البريطانية من أجل العثور على البترول، بدأت بريطانيا سياستها الجديدة بالتدخل في الشؤون الداخلية للمشيخات، وأهملت شؤون التنمية فيها. وتمثل هذا التدخل في الأمور التالية:

١- الاهتمام بالأمن الداخلي وإنشاء فرقة كشافة ساحل عمان المتصالح.
٢- ترسيم الحدود الداخلية للمشيخات وحدودها مع عمان تلبية لطلبات الشركات البترولية.
٣- تلبية توجه المشيخات نحو الاتحاد وإنشاء مجلس الإمارات المتصالحة.
٤- بداية مشروع التنمية البريطانية(٤٦).

بدأت بريطانيا إنشاء هذه القوة العسكرية البدوية في عام ١٩٥١ م، وذلك تحت إدارة المقيم البريطاني، باسم قوة ساحل عمان المتصالح. وهي مجموعة شرطة حديثة التسليح لضبط الأمن في الإمارات المتصالحة، وكان مقرها الشارقة. وسرعان ما تفاعلت هذه القوة وتطورت إلى فيلق عسكري عالي التسليح. وقد أطلق عليها اسم كشافة ساحل عمان المتصالح.

واتجهت السياسة البريطانية ـ كما نصح مستر هولي المعتمد السياسي في دبي ـ إلى ضرورة إحساس الحكام والأهالي بأن قوة كشافة الساحل هي جيشهم الذي سيتولى الدفاع عنهم في المستقبل. وقال هولي إنه من الضروري أن يحس الحكام بأن كشافة الساحل هي قوة تابعة لهم تحترم إرادتهم وليست وحدة في الجيش البريطاني، ونصح مستر هولي بوجوب التوجه إلى تعريب هذه القوة العسكرية. ومنذ ذلك الحين، بدأ بتجنيد عدد من المواطنين في هذه الفرقة. ومنذ عام ١٩٥٧ م أرسل هؤلاء المواطنون إلى بريطانيا لأخذ دورات تدريبية متقدمة في كلية الضباط هناك(٤٧).

ويرجع إنشاء مجلس الإمارات المتصالح إلى التغيرات الجذرية في السياسة البريطانية نحو المشيخات. وقد اقترح المقيم ربورت هاي في بداية عام ١٩٥٠ م إنشاء مجلس للحكام لتطوير الأحوال الداخلية حيث أن قدوم عصر البترول وتقدم خطوط الطيران قد عزل الإمارات عن العالم الخارجي. ووافق وزير الخارجية، بتاريخ ١٢ نيسان ١٩٥١ م، على فكرة مجلس الإمارات المتصالح. وفي ٢٣ آذار ١٩٥٢ م عقد الاجتماع

الأول لمجلس الإمارات المتصالحة. وناقش في هذه الاجتماعات قضية المياه في المشيخات وقضية تطوير التعليم وقضايا الزراعة والصحة والري والأمن الداخلي في المدن. وكان يتبع للمجلس لجان استشارية، وفي بداية عام ١٩٦٥ م تمّ تعيين مستشاراً قانونياً للمجلس(٤٨).

أما رسم الحدود بين المشيخات، فقد امتد بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٣م، حينما قام قسم الأبحاث بوزارة الخارجية البريطانية برسم خريطة الحدود بين المشيخات لأول مرة في هذا العام معتمداً على دراسة وجهود مساعد المعتمد البريطاني في دبي جوليان ووكر. ويعتبر رسم هذه الحدود أحد المظاهر الرئيسة في سياسة التدخل البريطاني في الشؤون الداخلية للمشيخات بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك لارتباط مسألة الحدود بموضوع الأمن والاستقرار، ولأنها الإجابة على السؤال الملح لشركات البترول: ما حدود امتيازها مع كل حاكم في ساحل الإمارات؟ (٤٩). في يناير عام ١٩٥٠ م، حصلت دار الاعتماد في دبي من جميع الحكام على تعهد مكتوب بقبول التحكيم البريطاني في قضية الحدود، وأبلغت المعتمدية البريطانية بقرارها حكام المشيخات وقالت إن هذه الخريطة هي الأساس للتفاوض حوله وإدخال التعديلات عليه(٥٠). وعندما تولى الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حكم مشيخة أبو ظبي، قدم مليوني جنيه إسترليني. وكان هذا المبلغ الذي قدمته أبو ظبي هو نصف ميزانية المكتب في هذا العام. وفي عام ١٩٦٨ م، ساهمت أبو ظبي بنسبة ٩٠ % من هذه الميزانية. أما في العام التالي (١٩٦٩ م)، فقد تحملت أبو ظبي ٩٥ % من ميزانية المكتب. وفي خطة أبو ظبي الخمسية التي بدأت في عام ١٩٦٨ م، خصص مبلغ ٣٠ مليون دينار بحريني لمجلس التطوير. وخُصِّصَ هذا المبلغ لرصف طرق طولها ٢٥٠ كلم، ومحطة كهرباء، ومساكن شعبية. لذلك تعلقت قلوب شعب الإمارات بشخصية الزعيم والقائد الذي يفكر في أمرهم أثناء تفكيره في تطوير إمارة أبو ظبي وتحديثها. وفي ميدان التعليم الحديث، ظهرت في الإمارات ملحمة تعليمية بين عامي ١٩٥٢ و١٩٧١ م. كان

التعليم الحديث قبل قيام دولة الاتحاد مظهراً من مظاهر الرغبة العارمة في التغيير في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وكان التعليم الحديث أحد المجالات الفريدة التي تم فيها تقدم سريع بجهد الشيوخ والآباء والطلاب، وأصبح التعليم قوة دافعة زادت من سرعة التغير الثقافي والفكر السياسي. ويحس المرء، من دراسة قصة التعليم الحديث، مدى الاهتمام الكبير الذي أولاه الشيوخ للجيل الجديد، فتيات وطلاباً،كما يلمس الحماس من جانب الطلاب وذويهم الذين هاجروا بأولادهم في كثير من الأحيان إلى بلدان الخليج المجاورة لاستكمال تعليمهم الذي لا يتيسر في إمارتهم[٥١].

سادساً- الانسحاب البريطاني وتأسيس دولة الإمارات العربية المتحدة:

لم يكن الانسحاب البريطاني من الهند في نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٧ م هو نهاية الانسحابات البريطاني في منطقة الشرق الأوسط. فقد انسحبت بريطانيا من فلسطين عام ١٩٤٨ م، كما انسحبت من مصر عام ١٩٥٤ م. مع قيام ثورة عبد الكريم قاسم في العراق عام ١٩٥٨ م. انسحبت بريطانيا من قواعدها في مطار الحبانية في العراق.

لكن عدّت بريطانيا تواجدها العسكري في منطقة الخليج العربي منذ العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ م جزءاً من إستراتيجية عامة سميت بإستراتيجية شرق السويس، حيث ارتكزت هذه الإستراتيجية على توزيع القواعد البريطانية الثابتة سواء للأسطول أو الطيران بين أربع مناطق وهي: *الخليج العربي*، *عدن*، *سنغافورة*، *وبقايا ممتلكاتها في جزر الهند الشرقية*[٥٢]. وقد تركزت الدراسات والتحليلات البريطانية على قرار بريطانيا انسحابها على نقطتين أساسيتين:

١- كيفية المحافظة على وصول الإمدادات النفطية الآتية من الخليج العربي.

٢- مساعدة الحكومات الصديقة في منطقة الخليج العربي[٥٣]. ويعدّ استقلال الكويت

عام ١٩٦١ م حدثاً مهماً في تاريخ الخليج العربي الحديث وبداية لانسحاب بريطانيا خلال عقد من الزمن. كما يعدّ الانسحاب البريطاني من الخليج العربي في آخر عام ١٩٧١ م من الأحداث التاريخية المهمة في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة. ولقد عجل في هذا الانسحاب البريطاني من الخليج عوامل عديدة، منها الدولية، ومنها المحلية الإقليمية، ومنها أيضاً الداخلية في بريطانيا وفي الإمارات ذاتها. كان المناخ العالمي بعد الحرب العالمية الثانية مناهضاً للاستعمار، مما جعل بريطانيا تفقد مكانتها رويداً رويداً. وكان لظهور الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بصفتهما قوّتين عُظْمَيَيْن، أثر كبير في إضعاف مركز بريطانيا الدولي في الشرق الأوسط والخليج، مع أن بريطانيا والولايات المتحدة تحالفتا سياسياً لكبح جماح توسع الاتحاد السوفيتي نحو إيران والخليج العربي. إلا أن بريطانيا واجهت منافسة اقتصادية شديدة من شركات البترول الأمريكية في هذه البلاد مما أضعف مكانتها السابقة في منطقة الخليج. وبالإضافة إلى كل هذا، تحدت الدول المحلية الثلاث، إيران والمملكة العربية السعودية والعراق، السيطرة البريطانية في المنطقة بصورة إيجابية بعد الحرب العالمية الثانية، كما أضعف من مكانة بريطانيا في الخليج انتشار القومية العربية الحديثة في تلك الفترة. وبدا الشعور القومي يفرض وجوده في أحداث وتغيرات متعددة في المنطقة، ومنها إمارات الساحل. ولا شك في أن تغير الرأي العام البريطاني واستجابته لتصفية الاستعمار وظهور أزمات اقتصادية في بريطانية دعاها إلى إعلان سياستها الجديدة المعروفة بشرق السويس(٥٤). أدت كل هذه الظروف والعوامل مجتمعة دورها في انسحاب بريطانيا من قاعدة عدن في نهاية عام ١٩٦٧ م. رغم كل ذلك وفي تشرين الثاني ١٩٦٧م قام وزير الدولة للشؤون الخارجية البريطاني في حكومة العمال روبرت جورنوي (Robert Jornway) بزيارة إلى مشيخات الساحل العماني ثم أجرى محادثات مع طهران، حيث صرح : " أنه في لقائه مع حكام

المشيخات العربية المشمولة بالحماية البريطانية، أن بريطانيا ستبقى في الخليج العربي طالما كان ذلك ضرورياً من أجل حفظ السلام والاستقرار." [٥٥].

ولا شك في أن تصريح رئيس مجلس الوزراء في مجلس العموم في ١٦ كانون الثاني عام ١٩٦٨ م بالانسحاب من الخليج في إطار الانسحاب عسكرياً شرق قناة السويس يعتبر سبباً مباشراً لقيام الاتحاد، إذ أن الانسحاب البريطاني يعني إلغاء اتفاقية عام ١٨٩٢ م المانعة والتي تقضي بحماية بريطانية لهذه الإمارات. وقد وضع هذا التصريح حكام الإمارات وجهاً لوجه أمام مسؤوليات الدفاع العسكري وتحمل مسؤوليات علاقتهم الخارجية. ولم يكن من وسيلة أمامهم إلا أن يتحدوا ويحافظوا على وجودهم[٥٦]. وأوضح وزير الخارجية البريطاني عام ١٩٧٠ م دوجلاس هيوم (Douglas Hioum) أن حكومته أبلغت حكام المشيخات العربية عن استعدادها لتقديم الآتي:

١- معاهد صداقة تتضمن تعهداً للتشاور المتبادل عند الحاجة.
٢- تسليم كشافة ساحل عُمان البالغ عددها ١٥٠٠ رجلاً يتألف معظمهم من البريطانيين لتشكيل نواة جيش اتحادي، وعلى بريطانيا تزويدها بالمعدات، ويتولى الاتحاد المسؤولية المالية التامة عن قواته.
٣- يمكن لقوات بريطانية بما فيها فرق التدريب البقاء إذا رغب الاتحاد الذي سيشكل بذلك.
٤- القيام بمناورات تدريبية مشتركة ومنتظمة بين وحدات من الجيش الوطني وسلاح الطيران البريطاني.
٥- قيام سفن الأسطول البريطاني بزيارات منتظمة للموانئ[٥٧].

وقبل ذلك بفترة قصيرة كان المبعوث البريطاني السير وليم لومس (William Lomes) قد أبلغ حكام المشيخات بأنّ الحكومة البريطانية ستتمسك بالقرار الذي

اتخذته الحكومة العمالية السابقة بالانسحاب من الخليج العربي قبل نهاية عام ١٩٧١م[٥٨]. وخلال سنوات ثلاث ما بين ١٩٦٨ و١٩٧١ م، جرت نشاطات كثيرة في الخليج أدت إلى ظهور أربعة كيانات سياسية جديدة في الخليج، وهي حكم السلطان قابوس في سلطنة عمان، ودولة قطر المستقلة، ودولة البحرين المستقلة، ودولة الإمارات العربية المستقلة. ولا شك في أن تدفق الثروة النفطية في إمارة أبو ظبي ودبي كان عوناً رئيساً لتحقيق طموحات الوحدة وقيام دولة الإمارات العربية المتحدة، وظهور القيادات الواعية، وفي مقدمتهم صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبي، والمرحوم الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم حاكم دبي. التقى صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان مع المرحوم الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم في دبي في ١٨ شباط ١٩٦٨ م وأعلنا قيام اتحاد دَعَوَا إخوانهما بقية حكام إمارات الساحل، بالإضافة إلى حاكم قطر والبحرين إلى الانضمام إليهما. وقد لبَّى جميع الحكام هذه الدعوة، ووقعوا اتفاق دبي وإعلان دولة الاتحاد في ٢٥ شباط ١٩٦٨ م. وتمَّ انتخاب صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبو ظبي رئيساً لهذا الاتحاد والمرحوم الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم نائباً للرئيس[٥٩]. وسرعان ما تحركت الوفود بين الإمارات التسع (الإمارات العربية حالياً والبحرين وقطر) بعد أن وقع الحكام اتفاقية دبي في ٢٧ شباط عام ١٩٦٨ م، وأعلنوا قيام الاتحاد في هذا الاجتماع، وأصبحت اتفاقية دبي محوراً للنشاط واللقاءات السياسية بين الإمارات التسع بين عامي ١٩٦٨ و١٩٧٠ م. واستبشر الكثيرون في منطقة الخليج وفي جنبات العالم العربي خيراً كثيراً لهذه الأنباء السارة. وكانت دولة الكويت والمملكة العربية السعودية تتابعان عن كثب خطوات الحكام واجتماعاتهم، ولكن أخفقت أخيراً مساعي الاتحاد التساعي، وصارت الأحداث متلاحقة، وأعلن اتحاد بين إمارات الساحل في ١٨ تموز

١٩٧١ م، بينما نالت البحرين استقلالها في ١٤ آب عام ١٩٧١ م. وكذلك أعلنت قطر استقلالها في الأول من أيلول ١٩٧١ م[٦٠].

بدأ حكام مشيخات الساحل العماني السبع اجتماعاتهم في العاشر من تموز ١٩٧١م في دبي لدراسة إعلان مشروع الإتحاد بينهم، حيث تمّ بحث اختصاصات المجلس الأعلى للدولة الاتحادية المرتقبة في المجالات كافة، وبعد أسبوع من الاجتماعات المستمرة أذاعت وكالات الأنباء في ١٨ تموز ١٩٧١ م خبر اتفاق ست من المشيخات على دستور اتحادي يجمع بينها في اتحادٍ سياسي قبل انسحاب بريطانيا العسكري من المنطقة، ويعرف باسم اتحاد الإمارات العربية المتحدة.

وفي الأول من كانون الثاني ١٩٧١ م، زار سير جفري آرثر، المقيم البريطاني، الإمارات السبع لإلغاء الاتفاقية السابقة مع الحكام، وأعلن الحكام قيام الدولة في ٢ كانون الثاني ١٩٧١ م. عدا رأس الخيمة.

ولم يمض شهران حتى وافق الشيخ صقر حاكم رأس الخيمة الانضمام للاتحاد بسبب الضغوط الشعبية في مشيخته ولقلة النفط في مشيخته، حيث أذاع بياناً بعد الاحتلال الإيراني للجزر قال فيه: إنه مستعد للانضمام إلى الاتحاد **(شريطة أن تعلن دولة الإمارات تمسكها بالجزر وأن تمتنع عن إقامة علاقات دبلوماسية مع إيران)**، ولكن الواقع كان أقوى من هذه الشروط[٦١].

لهذا انتهى الأمر برأس الخيمة للانضمام بتاريخ ١٠ شباط ١٩٧٢ م.

وهكذا كانت الإمارات آخر أرض عربية غربت عنها شمس السيطرة البريطانية. وقد أبدى كثير من الدبلوماسيين البريطانيين في الخليج وكثير من الدبلوماسيين في الخارج تخوفهم من أن دولة الإمارات تجابه العواصف الشديدة وهي دولة فتية. وها هي الإمارات قد أثبتت قدرتها على تخطي الصعاب، واستقرت أمورها الداخلية ونشطت في السياسة الخارجية. وفور قيام دولة الإمارات، تبوأت مقعدها في

الجامعة العربية وفي هيئة الأمم المتحدة. وشاركت دولة الإمارات في الاجتماعات العربية والدولية. وساهمت عام ١٩٨١ م في قيام مجلس التعاون الخليجي.

الخاتمة:

بعد الدراسة لتاريخ النفوذ البريطاني في الخليج العربي ومشيخات الساحل العماني منذ تأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية حتى الانسحاب (١٦٠٠- ١٩٧١ م) والأحداث والمنعطفات التاريخية التي مرّت بها منطقة الخليج العربي والمشيخات على وجه الخصوص بالاعتماد على المصادر والوثائق والمراجع التاريخية ذات الصلة بالبحث، يمكن تسجيل النتائج التالية:

١. يعدّ غياب التنسيق بين القوى الإقليمية في منطقة الخليج العربي (العرب، الفرس، العثمانيون) وعدم قدرتها على الاتفاق حول آليات التعاون وإيجاد نوع من العلاقات المتوازنة السبب الرئيس الذي هيأ الظروف المناسبة لدخول القوى الأوروبية، وبخاصة بريطانيا وهولندا إلى حلبة التنافس في المنطقة، وجعلها تنتقل مباشرة من تحت مظلة السيطرة الاستعمارية البرتغالية إلى مشاريع السيطرة الاستعمارية البريطانية التي حملت إلى المنطقة مشاريع التقسيم وإنشاء الكيانات السياسية الضعيفة (المشيخات) والمتصارعة فيما بينها، ونصبّت نفسها حكماً يضمن استمرار السيطرة المباشرة عليها.

٢. شكل القواسم في عصر قوّة دولتهم بما كانوا يمتلكونه من قوّة عسكرية بحرية ضاربة قوّة مقاومة كانت الدول الأوروبية، وبصورة خاصة بريطانيا، تحسب لها ألف حساب، وبالتالي كان لا بد من القضاء عليها كي لا تكون مثالاً للأمم المستضعفة والشعوب المستعمرة، فوظفت بريطانيا إمكانات عسكرية واقتصادية كبيرة للقضاء عليها، فهي تمثل مظهراً خطيراً من مظاهر التصدّي لأكبر قوّة

استعمارية في القرن التاسع عشر الميلادي، ليس فقط في منطقة الخليج العربـي، وإنما في العالم كله.

٣. دلّت اتفاقات بريطانيا ومعاهداتها مع حكام المشيخات في المرحلة ما قبل النفطيـة على سياسة ممنهجة لفرض نفوذها على المنطقة، وتوسيعه بدءاً بالتجارة وانتهـاءً بالسياسة الإستراتيجية، حتى انتهت السياسة البريطانية بتحقيق الأهداف الاقتصادية السياسية من خلال تلك الاتفاقات.

٤. إنّ انتقال بريطانيا من سياسة شبه حماية على المشيخات إلى حماية رسـمية بعـد الاتفاقية المانعة يعود إلى عاملين اثنين، إقليمي ودولي، فخلال مرحلة شبه الحماية كانت بريطانيا تكتفي، عندما تتعرض مصالحها للخطـر الخـارجي أو الـداخلي، بإطلاق بوارجها وسفنها الحربية في عرض الخليج العربي لاستعراض القوى مع إطلاق بعض القذائف المدفعية، وتذكير الشيوخ بمعاهداتهم السابقة، لكـن عنـدما أصبحت منطقة الخليج العربي مركز تنافس وتجاذب بين القوى الكبرى، كان على بريطانيا أن تضفي على علاقاتها بالمشيخات صفة رسمية ومن هنا جاء تطـوير بريطانيا لاتفاقاتها مع مشيخات الساحل العماني وتتحول إلى حماية رسمية.

٥. كان للاكتشافات البترولية أثراً كبيراً وواضحاً بشكل غير مباشـر علـى وحـدة مشيخات الساحل العماني من خلال انخراط المشيخات الصغيرة غير البترولية في ذلك الاتحاد كرأس الخيمة وعجمان والفجيرة، ولعل انسحاب رأس الخيمـة مـن مفاوضات الاتحاد ثم انضمامها عام ١٩٧٢م يقدم الدليل على صحة هذه الفكرة.

٦. لم تكن بريطانيا يوماً من الأيام تفكر بتوحيد مشيخات الساحل العماني لا قبل التفكير بنية انسحابها ولا بعده

٧. كان اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة بالنهاية ناجماً عن تلاقي المصالح في المجالات المختلفة بين المشيخات، فما يربطها هو العادات والتقاليد المشتركة والتاريخ المشترك، والأرض والدين واللغة، وكان نتاجاً لطموحات العرب الدائمة في التوحيد.

الحواشي والتعليقات الختامية

(١) محمد مرسي عبد الله، قراءة حديثة في تاريخ الإمارات، ثلاثة أجزاء، دار الساقي للنشر، لندن، ٢٠٠٣ م، ج ١، ص ١٨٥.

(٢) محمد أمين، التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والأقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السادس، نيسان ١٩٦٣ م، ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٣) حسين عبيد غانم غباش، عُمان الديمقراطية الإسلامية ١٥٠٠-١٩٧١ م، دار الجديد ط ١، بيروت ١٩٩٧ م، ص ٩٨.

(٤) k.m. Panikkar, *Asia and Western Dominance*, London, George Allen, ١٩٥٣, p. ٢٠.

وكلكتا مدينة هندية. وهي عاصمة ولاية البنغال الغربية . وتُعد ميناءً رئيساً للتجارة مع شرقي وجنوب شرقي آسيا. أما مدراس المدينة الهندية التي تسمي تشيناي عاصمة ولاية تايل نادو الهندية فقد تأسست عام ١٦٦١ م. وهي ميناء مهم على المحيط الهندي.

(٥) محمد مرسي عبد الله، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨ م، ص ٢١٦- ٢١٧.

(٦) **المرجع نفسه**، ص ١٥٦.

(٧) **المرجع نفسه**، ص ١٥٨.

(٨) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥ م، ص ٣٢٣.

(٩) عبد الله، إمارات الساحل وعمان، **مرجع سابق**، ص ١٥٦.

(١٠) **المرجع نفسه**، ص ١٦٢.

(١١) Hughes. R.T, Treaties agreements and engagements between the honorable east India company and the Native Princes, Chiefs and States in western India, Bombay education society's press, ١٨٥١, p.p. ٢١-٢٥.

(١٢) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنكلو – مصرية، د.ط، القاهرة ١٩٩١ م، ص ١١٣.

(١٣) الحياة الاقتصادية في عهد اليعاربة، محاضرة للدكتور محمد حبيب صالح في سلطنة عُمان، نزوى، ٢٠٠٥ م.

(١٤) عبد الله، إمارات الساحل وعمان، **مرجع سابق**، ص ٢٦١.

(١٥) Glen Balfour, The End of Empire in the Middle East, Cambridge, London, ١٩٩٤, pp. ٩٨-٩٩.

(١٦) Charles Davies, The Blood-Red Arab Flag. An Investigation Into Qassimi Piracy, ١٧٩٧-١٩٢٠, ١٩٩٧, p. ٢٧٦.

(١٧) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم،علاقة ساحل عُمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٢ م، ص ٢٧٥.

(١٨) Aitcheson , C, U: a collection of treaties , Engagements and Sanads Relating to India and Neighboring Countries , Delhi , ١٩٣٣, p ٢٤٩.

(١٩) محمد مرسي عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها،دار القلم، الكويت، ١٩٨١ م، ص ٢٩.

(٢٠) المرجع نفسه، ص ١٤٦.

(٢١) عبد الله، قراءة حديثة في تاريخ الإمارات، ج ١، ص ٤١٨.

(٢٢) Landen, *Oman Since* ١٨٥٦, New Jersey, ١٩٦٧, p. ١٣٩.

(٢٣) عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة، المرجع السابق، ص ٣١.

(٢٤) Aitcheson, op. cit, P ٢٥٦. See also: F.O: ٣٧١/١/١٠٩٨١٧, exclusive agreement, p ٤٠

الموجودة في مركز البحوث والوثائق في أبوظبي

(٢٥) عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة، المرجع السابق، ص ٣٣١.

(٢٦) جمال زكريا قاسم، بريطانيا والخليج العربي في الحرب العالمية الأولى، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع٣، الكويت، ١٩٧٥ م، ص ٩٧.

(٢٧) فاطمة الصايغ، دولة الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، العين ٢٠٠٠ م، ص ١٦٥.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٢٥٣.

(٢٩) وليد حمدي الأعظمي، النزاع بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران حول الجزر الثلاث في الوثائق البريطانية ١٧٦٤ -١٩٧١ م، دار الحكمة، د.ط، لندن، د.ت، ص ٤٧.

(٣٠) (I. O) L& R. L /P& ٥/١٢/١٩٦٦ , Air communications ,No: ١٢٦/٥٨٧.June ١٩٣٢,

(٣١) (I.O) L & R.R / ١٥/٤/٤. ٢٢ July ١٩٣٢.

(٣٢) عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة، المرجع السابق، ص ١٥١.

(٣٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠.

(٣٤) مانع سعيد العتيبة، البترول واقتصاديات الإمارات العربية المتحدة، الكويت، ١٩٩٠ م، ط ١، ص ٢٢٨.

(٣٥) محمد حسن العيدروس، الجزر العربية والاحتلال الإيراني نموذج للعلاقات العربية الإيرانية (رضا خان والجزر العربية ١٩٢١- ١٩٤١ م)، دار العيدروس للكتاب الحديث، الكويت ٢٠٠٢ م، ص ١٥.

(٣٦) أحمد جلال التدمري، الجزر العربية الثلاث دراسة وثائقية،، تحقيق خالد بن صقر القاسمي، مطبعة رأس الخيمة الوطنية ــ ط١، رأس الخيمة ٢٠٠٠ م، ص ٧٩.

(٣٧) العتيبة، البترول واقتصاديات الإمارات، مصدر سابق ، ص ٢٢٩.

(٣٨) R/١٥/٢/٢٠٠٢, Agreement between Sheikh Sultan Bin Saqer ,ruler of Sharjah and petroleum Concession Limited Company , ١٩٣٧, p ٧٠ –

(٣٩) العتيبة، البترول واقتصاديات الإمارات، المصدر السابق، ص ٢٢٩.

(٤٠) (India. Office) L/P &S /١٨- B٤١٤. Air communications in the Persian Gulf, ٢٣ Aug , ١٩٢٨.

(٤١) (I.O) & L R.R / ١٥/٤/٤. ٢٢ July ١٩٣٢.

(٤٢) الصايغ، الإمارات العربية المتحدة من القبيلة، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٤٣) David Halden , The Persian Gulf, Foreign Affairs, Vol.٤٩, No.٤, ١٩٧١, p, ٧٢١.

(٤٤) Donald Hawley, the Trucial States , ١st Ed , London , p. ١٩٢.

(٤٥) عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة، المرجع السابق، ص. ٦٣.

(٤٦) سيف محمد بن عبود البداوي، بريطانيا والخليج العربي سنوات الانسحاب، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط١، الكويت ٢٠٠٧ م، ص ١٣٥.

(٤٧) المرجع نفسه، ص ١٤٠.

(٤٨) أنشأ مجلس التطوير على أثر انعقاد مؤتمر القمة العربي الثاني في الإسكندرية عام ١٩٦٤ م ومن مهامه دراسة المشروعات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية لمشيخات الساحل العماني ومدها بالخبرات الفنية اللازمة لذلك.

(٤٩) عائشة السيار، التاريخ السياسي لدولة الإمارات العربية المتحدة ،مكتبة الجامعة، أبو ظبي، ١٩٩٦ م، ط ١، ص ٤١.

(٥٠) عبد الله، دولة الإمارات العربية المتحدة، المرجع السابق، ص ٢٤٦- ٢٥٠.

(٥١) الصايغ، دولة الإمارات العربية، المرجع السابق، ص ٢٠٤.

(٥٢) البداوي،بريطانيا والخليج العربي، المرجع السابق، ص ٢٦٣.

(٥٣) Frankel,J, East of Suez, the After math, the year book of world affairs, Auspices of the London institute of world affairs, Stevens sons, London , ١٩٦٩, p ٢١

(٥٤) Neville Brown , Britain and the Gulf , Don't go just yet please the Wisdom of withdrawal reconsidered. New Middle east. No ٢٤ September,١٩٧٠, p ٤٣.

(٥٥) جان ناتو، إتحاد الإمارات العربية، مراجعة صديق بطرس، ط ١، ١٩٧١ م، ص ١٩٣.

(٥٦) السيار، التاريخ السياسي، المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٥٧) وتعتمد هذه السياسة بإعادة بريطانيا تمركز قواتها شرق قناة السويس والخليج العربي وسحب الجزء الأكبر منها والحفاظ على علاقات ثنائية مع حكام المنطقة عبر اتفاقيات عسكرية واقتصادية تحفظ فيها مصالحها.

(٥٨) أحمد زكريا الشلق، فصول من تاريخ قطر السياسي، مطابع الدوحة الحديثة، الدوحة، ط ١، ١٩٩٩ م، ص ١٧٢.

(٥٩) Halden, op-cit, p ٧٢١.

(٦٠) المؤثرات السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج، جمال زكريا قاسم، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٦، القاهرة، ١٩٦٩ م، ص ١٢٠.

(٦١) طلب الانضمام رقم ع خ ٢٢٥/٧١/ ١٠ شباط ١٩٧٢ م. في مركز الوثائق والبحوث في أبو ظبي.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: الكتب العربية:

١. أحمد جلال التدمري، الجزر العربية الثلاث دراسة وثائقية، تحقيق خالد بن صقر القاسمي، مطبعة رأس الخيمة الوطنية ــ ط ١، رأس الخيمة ٢٠٠٠ م.

٢ . أحمد زكريا الشلق، فصول من تاريخ قطر السياسي، مطابع الدوحة الحديثة، ط ١، الدوحة، ١٩٩٩ م.

٣. جان ناتو، إتحاد الإمارات العربية، مراجعة صديق بطرس، ط ١، ١٩٧١ م.

٤. جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات في عصر التوسع الأوروبي الأول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥ م.

٥. حسين عبيد غانم غباش، عُمان الديمقراطية الإسلامية ١٥٠٠-١٩٧١ م، دار الجديد ط ١، بيروت ١٩٩٧.

٦. سيف محمد بن عبود البداوي، بريطانيا والخليج العربي سنوات الانسحاب، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ط ١، الكويت ٢٠٠٧ م.

٧. صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنكلو – مصرية، د.ط، القاهرة ١٩٩١ م.

٨. عائشة السيار، التاريخ السياسي لدولة الإمارات العربية المتحدة، مكتبة الجامعة، ط ١، أبو ظبي، ١٩٩٦م.

٩. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، علاقة ساحل عُمان ببريطانيا، دراسة وثائقية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٨٢ م.

١٠. فاطمة الصايغ، دولة الإمارات العربية المتحدة من القبيلة إلى الدولة، العين ٢٠٠٠ م.

١١. مانع سعيد العتيبة، البترول واقتصاديات الإمارات العربية المتحدة، الكويت، ط ١، ١٩٩٠ م.

١٢. محمد حسن العيدروس، الجزر العربية والاحتلال الإيراني نموذج للعلاقات العربية الإيرانية (رضا خان والجزر العربية ١٩٢١ -١٩٤١ م)، دار العيدروس للكتاب الحديث، الكويت ٢٠٠٢م.

١٣. محمد مرسي عبد الله، قراءة حديثة في تاريخ الإمارات، ثلاثة أجزاء، دار الساقي للنشر، لندن، ٢٠٠٣ م.

١٤.ـــــــــــــ إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٨ م.

١٥. ـــــــــــــ دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، دار القلم، الكويت، ١٩٨١ م.

١٦. وليد حمدي الأعظمي، النزاع بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران حول الجزر الثلاث في الوثائق البريطانية ١٧٦٤ -١٩٧١ م، دار الحكمة، د.ط، لندن، د.ت.

المقالات والمجلات والمحاضرات:

١. الحياة الاقتصادية في عهد اليعاربة، محاضرة للدكتور محمد حبيب صالح في سلطنة عُمان، نزوى، ٢٠٠٥م.

٢. جمال زكريا قاسم، السياسية للحرب العالمية الأولى على إمارات الخليج، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٦، القاهرة، ١٩٦٩ م.

٣. ———— بريطانيا والخليج العربي في الحرب العالمية الأولى، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، ع ٣، الكويت، ١٩٧٥ م.

٤. محمد أمين، التنافس بين الشركات التجارية الانكليزية في منطقة الخليج العربي والأقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد السادس، نيسان ١٩٦٣ م.

ثانياً: الكتب الأجنبية:

١. Aitcheson , C, U: a collection of treaties , Engagements and Sanads Relating to India and Neighboring Countries , Delhi , ١٩٣٣.

٢. Charles Daives, *The Blood-Red Arab Flag. An Investigation Into* Qassimi Piracy, ١٧٩٧-١٩٢٠, ١٩٩٧.

٣. David Halden, The Persian gulf , forein affairs,Vol ٤٩, No.٤, ١٩٧١.

٤. Donald Hawley, the Trucial States , ١st Ed , London.

٥. Frankel,J, East of Suez, the After math, the year book of world affairs, Auspices of the London institute of world affairs, Stevens sons, London , ١٩٦٩.

٦. Glen Balfour, *The End of Empire in the Middle East*, Cambridge,London, ١٩٩٤.

٧. Hughes. R.T, Treaties agreements and engagements between the honorable east India company and the Native Princes , Chiefs and States in western India, Bombay education society's press, ١٨٥١.

٨.. k.m. Panikkar, *Asia and Western Dominance*, London, George Allen, ١٩٥٣.

٩. Landen, *Oman Since* ١٨٥٦, New Jersey, ١٩٦٧.

١٠. Neville Brown , Britain and the Gulf , Don't go just yet please the Wisdom of withdrawal reconsidered. New Middle east. No ٢٤ September, ١٩٧٠.

ثالثاً: الوثائق الأجنبية غير المنشورة: (الموجودة في مركز الوثائق والبحوث في أبو ظبي)

١. F.O: ٣٧١/١/١٠٩٨١٧,exclusive agreement, p ٤٠

٢. (India. Office) L/P &S /١٨- B٤١٤. Air communications in the Persian Gulf, ٢٣ Aug , ١٩٢٨.

٣. (I. O) L& R. L /P& ٥/١٢/١٩٦٦ , Air communications ,No: ١٢٦/٥٨٧.June ١٩٣٢.

٤. ٤. R.R / ١٥/٤/٤. ٢٢ July ١٩٣٢. &٤. (I.O) L ٥. R/١٥/٢/٢٠٠٢, Agreement between Sheikh Sultan Bin Saqer ,ruler of Sharjah and petroleum Concession Limited Company , ١٩٣٧.

قراءة في الفكر القومي أثناء الحكم المصري لبلاد الشام
١٨٣٠-١٨٤١ م

د. أحمد الخضر

قسم التاريخ/ جامعة دمشق

مخطط البحث

➢ تمهيد تاريخي:

في أثناء الحكم المصري لبلاد الشام أصبحت خطط محمد علي لإقامة دولة عربية واضحة وبارزة، وقد عمل ابنه إبراهيم على تحقيق ذلك عن طريق السير نحو الهدف بحذر فسعى لاستمالة أهل الشام إليه وعمل على تحقيق ذلك منذ لحظة وصوله للشام مظهراً وبصورة علنية عواطفه نحو أهلها، وكان يعدّ نفسه عربياً، وظهرت آراؤه في إقامة وحدة عربية في وقت كانت البعثات التبشيرية الغربية والامتيازات الأجنبية تمد نفوذها في المنطقة العربية وخاصة في مصر والشام والعراق، فكان هناك من يؤيد إما لمصلحة شخصية أو لاعتقاده بصحة أفكار محمد علي وابنه إبراهيم، حيث كانت لكل منهم آراؤه الخاصة أو لوقوعهم تحت الضغط العثماني، فكانت حرية الرأي مصادرة ومكبوتة ولا تستطيع الإفصاح عن رأي يخالف السياسة العثمانية في المنطقة.

بعضهم ينظر إلى الأمور من جانب واحد وبعين واحدة، فيقعون في الأغلاط المنهجية البعيدة عن الحقيقة والمغيّبة لها، وخير مثال تناولته في بحثي هذا، وهو موضوع البعثات التبشيرية فبعضهم يقول كانت لها آثارها السلبية على المنطقة العربية، والبعض الآخر يقول بالرأي المعاكس بأن البعثات التبشيرية كانت لها كل الفائدة على المنطقة العربية، ومن الحياديين من يقولون بأن البعثات لها بعض الآثار الإيجابية وبعض الأثار السلبية.

هدف البحث التوصل للحقيقة التاريخية، بعيداً عن التعصب لطرف ما، دون التأثر بأي رأي بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية التي يمكن من خلالها قراءة بروز الفكر القومي الذي برز مع المجاهرة بما يسمى وحدة عربية.

كذلك فقد مهدت الإصلاحات الفرنسية لتطور اقتصادي في مصر خلال القرن التاسع عشر، وقد قام نابليون ببحث أحوال مصر على أسس علمية ولا ننسى أن الطباعة دخلت عن طريق الفرنسيين.

كما أن الحملة هذه ساعدت على إيقاظ الروح الوطنية في نفوس الشعب في مصر والشام، وكان لها الأثر في نمو الوعي السياسي بين أفراد الشعب.

وبعد جلاء الفرنسيين عن مصر شهدت البلاد فترة من الفوضى والاضطرابات، فقد تصارع على الحكم ثلاث قوى: العثمانيون والمماليك والإنكليز، وبعد خروج الإنكليز سنة ١٨٠٧م حاولت الدولة العثمانية استعادة سلطتها، وأبعدت الأمراء المماليك عن الحكم(١).

اتسم القرن التاسع عشر بغزو عسكري للبلاد العربية وحركة إصلاحية واسعة لم تشهدها من قبل، تمثلت في انفتاح مصر والشام في عهد أسرة محمد علي على الحضارة الغربية وفي ظهور حركة التنظيمات العثمانية وما رافق ذلك من غزو ثقافي غربي ونهضة فكرية اتخذت اتجاهات عديدة في الدين والسياسة والاجتماع والعلم والأدب والفن(٢).

خير ما يقال في هذا المجال أن الفكر القومي في تلك المرحلة لم يدرك دعاته أبعاد الاتجاهات الفكرية، لأن البنية التحتية للإدراك لم تكن قد تبلورت بشكل يؤهلها للإقناع، ولهذا ماتت الفكرة القومية قبل ولادتها، ورغم ذلك فقد ولدت الأمل في أن تطبق الرؤى التي حاول إبراهيم باشا تجسيدها في الأذهان.

➢ الأوضاع الدولية والعثمانية وتطورها قبل القرن التاسع عشر وبدايته:

إن العلاقات الدولية المتبادلة تختلف باختلاف هذه الدول حضارياً وعسكرياً واجتماعياً واقتصادياً، وبقوة دولة ما وضعف دولة أخرى، تتم سيطرة بعض الدول على مقدرات غيرها متذرعة بالقوانين والأعراف الدولية(٣).

إن التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، أحدثت تغييراً في المفاهيم القديمة في أوربا والعالم، وأثرت هذه التطورات على الوطن العربي حيث أخذت

تظهر بوادر النهضة الفكرية منذ اواخر القرن الخامس عشر وأدت الكشوف الجغرافية إلى اكتشاف طرق إلى الشرق الأقصى دون المرور بالوطن العربي، فانتقلت السيادة العالمية من المشرق العربي إلى أوروبا الغربية(٤) وكانت الثورة الصناعية أهم تطور اقتصادي في أوروبا منذ القرن الثامن عشر، حيث بوشر بالتوجه نحو الخارج للبحث عن أسواق لتصريف المواد المصنوعة، وكانت أسواق المشرق هي أهم الأسواق، ومنها قامت حركات الاستعمار نحو المشرق في بداياتها الحملة الفرنسية على مصر والشام في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر بعدها تتابع احتلال البلاد العربية في القرن التاسع عشر حيث عمدت أوروبة إلى قضم الدولة العثمانية من أطرافها.

وفي القرن التاسع عشر مرت الثورة الصناعية بمرحلتين: أولها كان الاعتماد على الجانب التقني والتصنيعي وتزعّمت بريطانيا هذه المرحلة أما الثانية فكانت بيد الولايات المتحدة الأمريكية حيث تضاعفت ثروة أمريكا فتقدمت الصناعة كثيراً(٥).

سارت القوى البرجوازية التي كانت مفككة في أوروبا في القرن السادس عشر إلى الوحدة المجتمعية والمؤسساتية عبر مقوماتها القومية، واستطاعت تطوير إنتاجها وتحقيق ثورتها العقلانية، في حين سارت الدولة العثمانية على النقيض تماماً من القوة والاتساع إلى الانهيار الاقتصادي والعجز وكان سقوطها المدوي قبيل الحرب العالمية الأولى حيث لقبت بالرجل المريض(٦).

لقد تحققت للدولة العثمانية في عهد سليمان القانوني ١٥١٢-١٥٦٦م القوة والنفوذ والتوسع، ووصلت الدولة العثمانية إلى دولة كبرى إبان الفترة السابقة للقرن السابع عشر عندما احتلت الأقطار العربية بدءاً من سنة ١٥١٦م وهددت الدول الأوربية في عقر دارها، وعندما طرحت مجموعة من شعارات أرغمت شعوبها على

الوقوف ضدها، وأصبحت من عوامل تفكك هذه الدول فيما بعد(٧).

في حين كانت القوى البرجوازية في أوروبا تتجه نحو الوحدة وتحقيق الدول القومية بعدما طورت الإنتاج وحققت الثورة الصناعية والعلمية في حين كانت الدولة العثمانية تسير نحو الانهيار الاقتصادي والسياسي(٨).

ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت ملامح عصر جديد بدأ بالتشكل في بلاد الشام حيث جرت تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية أحدثت بتأثير محاولات الإصلاح العثماني، تجددت بحكم محمد علي باشا لبلاد الشام، ثم التدخل الأوربي الاستعماري، ورافقهما نمو الوعي القومي العربي(٩).

وفي بداية القرن التاسع عشر توجهت الدولة العثمانية نحو الإصلاح والتجديد الذين تجسدا من خلال الحكام والسلاطين مثل إلغاء الإنكشارية ١٨٢٦م وسبب ذلك أن الإصلاحيين رأوا ما يحدث في العالم من تطورات اقتصادية واجتماعية وسياسية بالإضافة إلى تحسين الجيش بعد خساراته المتكررة ليقف جديداً بوجه الجيوش الأوربية المتطورة.

وهنا وإرضاءً للدول الأوربية من جهة، وخوفاً من ازدياد النقمة التي بدأت تظهر من جهة أخرى أصدرت السلطنة العثمانية خط شريف كلخانة ١٨٣٩ م.

وكان لكسب الدول الأوروبية إلى جانب السلطنة ضد إبراهيم باشا وإخراجه من بلاد الشام سنة ١٨٤١م، كما أصدرت شريف همايون ١٨٥٦م للحصول على دعم الدول الأوروبية في حرب القرم ضد روسيا(١٠).

إن خطوة السلطان محمود الثاني ١٨٠٨-١٨٣٩ م إبادة الإنكشارية، هيأ لدولته الاستناد على الخارج أو الاستقواء به، ضد أخطار تواجه بلاده بحسب الرؤية الغربية، علماً بأن الغالبية العظمى من المؤرخين تشير بطرف خفي إلى أن مهاجمة الدولة العثمانية من قبل محمد علي، وهي فكرة فرنسية بامتياز وذلك لدفع السلطان

العثماني على الاستعانة به، ولم يدرك سلاطين القرن التاسع عشر، أن دولتهم بدأت تتآكل من أطرافها وهو مخطط أعدّ لها منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر[١١].

➢ ضم بلاد الشام:

إن القراءات الاستراتيجية للدولة العثمانية وتراجعها أمام الدول الأوربية، جعلت محمد علي يعمل على إنقاذ مشروعه التجديدي وذلك بالمضي قدماً والإسراع باتجاه الإمساك بالوضع الداخلي للدولة العثمانية، فتحقيق هذا الهدف سوف يمكنه من إمتلاك مصادر قوة جديدة تتيح له كسر الهجوم الاستراتيجي الأوروبي، وكانت سوريا خيار محمد علي الأوحد لذا بادر إلى اقتحام بلاد الشام سنة ١٨٣٤ م ولم تكن حسابات محمد علي في غير محلها، فقد حقق إبراهيم باشا انتصاراته المتعددة[١٢].

ولقد جسّد محمد علي باشا فكرة الوحدة العربية وذلك من خلال رغبته في إقامة دولة عربية كبرى حيث كان يرى بأن بلاد الشام تكون منطقة طبيعية متكاملة مع مصر وحدودها متلاصقة معها.

وقد أعرب محمد علي باشا عن رغبته في ضم الشام أمام ممثلي الدول الأوربية الكبرى حيث كان يرى أنه لا بد من وحدة الإقليمين المصري والشامي تحت يد واحدة، وأن حدود مصر الدفاعية تكون في طوروس وليس في الشام.

لذلك سعى لدى السلطان العثماني لمنحه ولاية الشام، ولما رفض السلطان العثماني مطلب محمد علي باشا المتكرر في الحصول على ولاية الشام، صمم على أن يحقق هدفه بالقوة، ووضع السلطان العثماني أمام الأمر الواقع[١٣].

وهكذا عمل محمد علي باشا على استكمال إنشاء الدولة العربية الكبرى فسعى لعقد صلح مع الدولة العثمانية حقناً للدماء بعدما أصبحت دولته تضم كل من مصر والجزيرة العربية والسودان والشام فتقدم باقتراحات إلى الحكومة العثمانية نصت على ما يلي:

١- اعتراف الحكومة العثمانية لمصر بالبلاد التي احتلها وترك إدارتها المحلية إليها.
٢- أن تدفع مصر للحكومة العثمانية سنوياً الأموال التي كانت تجبيها من هذه البلاد.
٣- اعتراف مصر بسيادة الدولة العثمانية على هذه المقاطعات.

فتظاهرت الدولة العثمانية بقبولها هذه المقترحات في محاولة لكسب الوقت حتى تتمكن من حشد جيشها في قونية، فأدرك محمد علي هدف الدولة العثمانية من المماطلة والتسويف، فوجه الجيوش المصرية لحرب الدولة العثمانية حيث اندفعت هذه الجيوش إلى ما وراء جبال طوروس نحو هضبة الأناضول وفي ديسمبر سنة ١٨٣٢م ألحقت جيوش محمد علي الهزيمة بالجيش العثماني الكبير بالقرب من قونية وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً إلى الآستانة أمام القوات المصرية(١٤).

وفي هذه الأثناء أعلن محمد علي باشا أنه سينقذ الإمبراطورية من السلطان الفاسد الذي قضى على التقاليد الإسلامية، واتبع الحياة الغربية.

وهذا القول كان مثار دهشة بالغة، لأن محمد علي باشا الذي بدأ برنامجه الإصلاحي المبني على البنية الغربية الحديثة، وهي فكرة جديدة أظهرها وسعى إلى تطبيقها، لكن الدول الأوروبية لن تسمح له بتحقيق فكرته هذه(١٥). غير أن الدول الأوروبية، تدخلت لوقف مشروع محمد علي في إنشاء دولته العربية الكبرى حيث أرعبها قيام هذه الفكرة، واستطاعت إجبار محمد علي على توقيع معاهدة لندن عام ١٨٤٠م وتسوية عام ١٨٤١م لتقضي بذلك على حلم محمد علي باشا في تحقيق مشروعه في إقامة دولة عربية حيث عادت مصر إلى حدودها الطبيعية(١٦).

وكان إبراهيم باشا يرغب في إنشاء دولة عربية، وذلك عن طريق التمسك بالشريعة الإسلامية، ونلاحظ ذلك من خلال الرسالة التي وجهها لوالده محمد علي بعد أن فتح الطريق أمامه لبلوغ استانبول، ويقول في الرسالة:

(وطالما يتربع على العرش –السلطان محمود- فسوف لا نصل بقضيتنا إلى حل مقبول، وأنه بالرغم من الظروف والأحوال التي قد تظهر في صالحنا، فإنه سيعمل كل ما في وسعه لتنفيذ مآربه الظالمة، مما يجعل الأمة الإسلامية لا تعيش في سلام، وذلك فإن التزاماتنا الدينية والشخصية نحو العالم الإسلامي تتطلب منا ألا نفكر في مصالحنا فقط، بل وفي صالح رفاهية وسعادة الأمة الإسلامية، وعلى ذلك سنحاول جهد طاقتنا لطرد هذا المخلوق اللعين، لكي يجلس على العرش العثماني وريثه حسبما يتفق مع سياستنا السابقة، وباتخاذ هذه الخطوات يمكن إنهاض العالم الإسلامي، وإذا طرأ في ذهن أي أحد من أن هذه الإجراءات سوف لا توافق عليها الحكومات الأوروبية، وليس هناك خوف من تدخلهم، وإذا لم يرضوا بإجراءاتنا، فلن يستطيعوا معارضتنا والوقوف أمامنا، فإذا أحيطوا علماً بما تم نكون قد وضعناهم أمام الأمر الواقع)(١٧).

وفي رسالة من محمد علي إلى الصدر الأعظم (٢٣ شباط ١٨٤٠ م) حذر محمد علي الباب العالي من مخاطر الدول الأوروبية، ويقول في رسالته:

(إذا لجأ الباب العالي إليها (الدول الأوربية) فسيخضع بذلك لمصالح سياستها، تريد هذه الدول أن تبقى تركيا في حالة ضعف دائم، وأن تعمها الاضطرابات حتى تتمكن في اللحظة المناسبة من اقتسامها بسهولة.

ذلك أن الفكرة تراودها منذ سنين طويلة، وإذا كانت قد تحالفت فيما بينها، فذلك لمنع أي إجراء يؤدي إلى تقوية تركيا ليس إلا، إنها تريد أولاً أن تضعف مصر وهي سند تركيا بأمل إنهاكهما معاً عن طريق إثارة حروب دائمة بينهما، لهذا أعتقد أنه من الأفضل ألف مرة أن نموت منذ اليوم ونحن ندافع عن شرف وطننا بما يمليه علينا ديننا الحنيف من شجاعة من أن تنهار بعد خمس سنوات وقد وصمنا بالعار، ولذلك فإنني أستعد للحرب متحسباً لكل أمر..)(١٨).

➢ **الدوافع الرئيسة لضم الشام:**

١- الدوافع السياسية:

كان محمد علي يرغب في أن يكون على رأس ولاية الشام (دمشق)، وقد طلب من السلطان العثماني إبعاد سليمان باشا عن ولاية الشام لأن هذا الأخير، كان قد تحالف مع المماليك الذين فروا من مصر إلى السودان بعد مذبحة القلعة سنة ١٨١١ م وأخذ يحرضهم على جمع قوات يغزون بها مصر من الجنوب، بينما يقوم هو بقواته بغزوها من الشمال، بالإضافة إلى رغبته في إقامة دولة عربية موحدة[١٩].

٢- دوافع اقتصادية:

- غنى بلاد الشام بالأخشاب ومناجم الفحم والنحاس التي كان إنتاجها غير اقتصادي.
- رغبة محمد علي بإقامة سوق مشترك بين بلاد الشام ومصر[٢٠].

وطبعاً هذا من أهم مقومات الوحدة.

٣- دوافع استراتيجية:

يرى محمد علي أن الشام قد تكوّن منطقة طبيعية متكاملة مع مصر وحدودها متلاصقة معها، وقد رأى محمد علي أن الدفاع عن مصر يتطلب وحدة الإقليمين المصري والشامي تحت يد واحدة، وأن حدود مصر الدفاعية في طوروس وليس في الشام[٢١].

٤- الدافع الديني:

وكان يهدف إبراهيم باشا إلى حماية (الملة المحمدية)، التي بدأت تضعف بضعف الدولة العثمانية وعجزها عن حماية هذه الملة، بالإضافة إلى وجوب الصمود أمام طمع أوروبا وجشعها ودفع شرها عن الملة[٢٢].

➢ **أعمال إبراهيم باشا الداخلية في بلاد الشام:**

حاول محمد علي بعد ضمه لبلاد الشام أن يطبق نظام الاحتكار والحماية الجمركية على عمليات التبادل السلعي بشقيها الداخلي والخارجي، فقد بادرت دولة محمد علي منذ عام ١٨٣٣ م إلى فرض سياسة شراء ما تحتاجه مصانعها من الحرير، كما حاولت تطوير هذه السياسة باتجاه احتكار تجارة الحرير والصوف في حين سعت إلى حاولت رفع التعرفة الجمركية على السلع الأوروبية المستوردة بنسبة ٣ % مما هي عليه[٢٣].

بادر إبراهيم باشا بعد استقرار سلطته في بلاد الشام إلى إحداث تحولات جذرية في الأجهزة السياسية والمالية والإدارية، إن لجهة مبانيها أو لجهة الوظائف المنوطة بها وفق منهج يجعل من فلسطين ولبنان وسوريا ومنطقة أضنة إدارة سياسية واحدة يديرها حاكم واحد مقره في دمشق، على أن تقسم البلاد إدارياً إلى عدد من المحافظات، تشرف على تسيير شؤونها مجالس شورى تختص بمعالجة الشؤون المالية والحقوقية المختلفة كافة[٢٤].

أما القضاء فيظل تابعاً للسلطة المركزية في استانبول، وقام محمد علي بفرض نظام ضريبي مثل: (ضريبة العشور، ضريبة الإعانة، ضريبة نقل الملكية، ضريبة الأملاك الموقوفة الجزية) ومن الملاحظ أن توجهه في حكم إدارته لبلاد الشام هو نفسه التوجه المعمول به في مصر[٢٥].

لقد حاول محمد علي أن يطبق في بلاد الشام نظام الاحتكار المعمول به في مصر، لكن هذا التوجه اصطدم مباشرة بمصالح التجارة الأوروبية[٢٦].

كما أن محمد علي أنشأ سنة ١٨٣٤م المجلس العالي الذي ضم نظار الدواوين ورؤساء المصالح واثنين من العلماء واثنين من التجار واثنين من الأعيان عن كل مديرية من مديريات مصر السبع[٢٧].

وقد حمل إبراهيم باشا رسالة والده إلى الشام، وبدأ بتوطيد الأمن، فامتنع عن إرهاب الأهالي وعمل على تأمينهم وعدم اتباع سياسة التخويف والتهويل، وكان قد استدعى منذ البدء (في أعمال ضم الشام)، الأمير اللبناني بشير الشهابي للتداول معه، وقد أكبر لعلمه هذا مواهب الأمير وخبرته وأصالة رأيه وإخلاصه، ونتج عن هذا التداول أن أقصى إبراهيم عدداً لا يستهان به من ولاة الأمور في البلاد، وأحل محلهم من وجد فيه الكفاءة، وتحاشى أسباب الجور والاعتساف وأمن الطرقات والمسالك، وقضى على حياة (الخوة) فأصبحت مسالك البلاد حرة يسلكها التجار بأمان.

ويذكر أسد رستم أن الشام لم تنل من العدل في أي عهد مضى منذ أيام عمر بن الخطاب ما نالته في ظل إبراهيم باشا.

وقد تشاكى كبار الموظفين من انتشار الرشوة في دوائرهم في ولاية الشام، فأمر إبراهيم باشا بوجوب التثبت مما يقال وسمح بالشنق لمن تثبت إدانته، وسمح لمجالس المشورة النظر في الدعاوى الحقوقية التجارية.

وفي توحيد القلوب كتب إبراهيم باشا في أوائل عهده بالشام إلى متسلم اللاذقية يقول: وإن التعرض إلى الرعايا وعدم مواساتهم هذا مخالف لرأينا لأن الإسلام والنصارى جميعهم رعايانا فيلزم أن يكون كل في مجاله المؤمن يجري إسلامه والعيسوي كذلك ولا أحد يتسلط على أحد وقد أبدى إبراهيم باشا احترامه للزعامة المسيحية ولزعامة الموحدين في لبنان كما احترامه لزعامة إخوانهم المسلمين في سائر الأقطار الشامية، ولم يتأخر عن إنصاف المسيحيين والموحدين عند ثبوت الاستحقاق(٢٨).

فعرض على الشهابي الكبير الأمير بشير الثاني حاكمية جميع الأقطار الشامية قبل أن يرشح محمد شريف باشا للمنصب نفسه، وقد عمل على ترقية العديد من المسيحيين في مراكز مهمة مثل حنا بحري (مدير عام للمالية) وهو أول مسيحي في الأقطار العربية

نال هذا اللقب.

كما عمل إبراهيم باشا على منح هذا اللقب نفسه لأربعة من موحدي لبنان ومن أساليب العدل التي مشى عليها إبراهيم باشا أنه امتنع عن إحضار الموظفين المصريين إلى الشام ولم يستقدم أحداً منهم إلا ما استوجبت الضرورة إحضاره والاستفادة منه.

وحينما اشتد النزاع بين مصر والباب العالي، شعر إبراهيم باشا بأهمية العرب فخرج عن تقاليد الإدارة المصرية ووافق على ترقية البارزين من أولاد العرب في القراءة والكتابة إلى رتبة يوزباش، وأكد إبراهيم لوالده أن نسبة المخلصين من العرب الملتحقين بالخدمة كانت أعلى من نسبة المخلصين من الأتراك وحبذا لو أُفسح المجال لترقية بعض العرب إلى رتبة بيكباشي*.

ونوه أيضاً إلى فضل العرب على المدنية في التاريخ ومما ساعد على توحيد القلوب أنه فرق في سياسته بين وطني آمن وبين أجنبي طامع فشمل الأول بعطفه وحذر بطش الآخر، وفضل مصلحة العربي على الأجنبي.

وعمل على منح التجار الوطنيين الامتيازات نفسها التي تمتع بها التجار الأجانب. وقد عمد محمد علي بعد موافقة ابنه إبراهيم إلى سليمان باشا الفرنساوي بمراقبة شؤون الأجانب في بر الشام، فحاول هذا ضبط هديتهم وأمر بتطبيق قوانين التجول المتبعة في البلدان الأوروبية(٢٩).

لعل أهم ميزات حكومة إبراهيم باشا وأقربها إلى نزعة العرب في هذه الأيام أنها سبقت أخواتها في سائر الأقطار العربية في ميدان الوطنية والعروبة فقدمت الوطني على الأجنبي، وعنيت بطبع الكتب العربية وبنشرها بين الناس وقبلت العرب

* **بكباشي**: وهي الكاف التركية تلفظ نوناً أي بنباشي أي: قائد الألف، وهو مصطلح عسكري.

في الوظائف الهامة وقللت من الأتراك[٣٠].

وقد أقام إبراهيم باشا مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة وأقام نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم، وبطلت في أيام إبراهيم باشا المصادرات، وتقرر حق التملك وأحييت الزراعة والتجارة والصناعة[٣١].

وأكد كثيرون أنه بعمله هذا استعادت أكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها عمرانها القديم، قرب العلماء والشعراء.

وكان لنظام التعليم الذي أدخله إبراهيم أثره الفعال في حفز التعليم القومي، وخاصة بين المسلمين، وكان للبداية التي بدأ بها أثر بعيد المدى إذ أن هذا النظام كان يرمي عامداً إلى إيقاظ الوعي العربي القومي بين التلاميذ[٣٢].

- **المدارس والكليات العلمية:**

انفتح محمد علي باشا على الحضارة الغربية وجعل من دولته دولة عصرية حيث أوفد البعثات العلمية إلى العواصم الأوروبية استقدم الأساتذة والخبراء والمدربين وأنشأ المدارس والمعاهد المختلفة فأرسل أول بعثة علمية إلى إيطاليا ١٨١٣م ثم توجه بنظره إلى فرنسا وبلغ مجموع ما أوفده محمد علي من طلبة إلى المعاهد الأوروبية بين عامي ١٨١٣-١٨٤٧ م (٣١٩) طالباً، وكان لهؤلاء دور بارز في حياة مصر العلمية[٣٣].

وقد أنشأ محمد علي مدرسة الطب في أبي زعبل ١٨٢٧م واختير أول فوج للدراسة فيها من بين طلبة الأزهر، والخريجون المتفوقون أرسلوا لمتابعة دراساتهم العليا في باريس، وبلغ عدد الطلاب فيها (١٩٠) طالب عام ١٨٣٧م[٣٤].

➢ **موقف الدول الأوروبية من سياسة محمد علي وابنه إبراهيم باشا:**

إن مواقف الدول الأوربية من محمد علي، لم تبق على حالها نتيجة لما حققه من انتصارات كذلك فهي بدورها تعرضت لتحولات متسارعة الأحداث، الأمر الذي يعني أن رؤية محمد علي لطبيعة مواقف الدول عشية توجهه نحو الشام، بعد انتصاره في قونية وكوتاهية أصبحت شيئاً من الماضي، والخيط الجامع لمواقف الدول الأوروبية حكَمته المعادلة التالية: تنوع وتفاوت هذه المواقف عشية حملة الشام وسعي كل دولة لتبنّي استراتيجيتها الخاصة بغية الاستفادة من حالة التجاذب والصراع بين محمد علي والسلطة المركزية العثمانية، لأن نجاح محمد علي في الوصول إلى أبواب الأستانة والتعرف على طبيعة وآفاق مشروعه القاضي بإحياء (القوة العثمانية) شكل انقلاباً استراتيجياً بالنسبة للدول الأوروبية دفعها إلى تجاوز سياساتها السابقة ومصالحها المباشرة، باتجاه بلورة استراتيجية أوروبية عامة تقضي إجهاض المشروع التجديدي لمحمد علي وهنا تبلورت مواقف الدول الأوربية كافة ففرنسا لم تبد أي معارضة لمحمد علي في حملته نحو الشام، كانت ترى في ذلك تفجيراً لأزمة تبعد أنظار الجميع عن واقع امتلاكها للجزائر.

غير أن تقدم محمد علي باتجاه الشمال وانتصاراته المتلاحقة أثارت مخاوف الدولة الفرنسية، فاندفعت فرنسا لتقف إلى جانب السلطة المركزية وكانت سياسة فرنسا تنص على إبقاء محمد علي كوالي ضمن إطار وحدة الدولة العثمانية حيث يمكن توظيف موقعه لصالح فرنسا في مواجهة النفوذ الروسي والبريطاني عندما يحين استحقاق اقتسام (تركة الرجل المريض)(٣٥).

أما بريطانيا:

وأمام اندفاع روسيا للجنوب، وانتصارات محمد علي، ولهذين السببين لم يكن من مصلحة بريطانيا في البداية إتخاذ موقف محدد وبذلك تركت بريطانيا القوى العثمانية المتصارعة تستنزف بعضها البعض، ريثما تحين فرصة التدخل المناسبة.

وأمام تعاظم انتصارات محمد علي في كانون الأول عام ١٨٣٢م وتدخل روسيا المباشر، بلورت بريطانيا سياستها الخاصة، وأبلغت محمد علي رفضها سياسته القاضية بإحداث تغيير في بنية السلطة المركزية، ورفضها أيضاً لسياسته الداعية إلى الاستقلال وقصدت بريطانيا من وراء هذه السياسة كسر استراتيجية محمد علي مع بقاء قوته تحت سقف السلطة المركزية من أجل أن تكون قوة موازية للقوة الروسية، وهنا تستطيع بريطانيا اقتحام العاصمة التي تقع تحت رحى روسيا ومحمد علي كقوة منفذة للسلطة المركزية.

أما روسيا:

وبعد شهرين من توقيع اتفاقية كوتاهية عمقت السلطة المركزية حق اتهامها لروسيا عبر معاهدة /هنكار اسكه سي/، والتي قضت بوضع هذه السلطة تحت حماية روسيا مقابل إقفال الدردنيل بوجه كافة السفن الحربية مع إبقاء سرية التحرك الروسية، ثم مضت روسيا بتحقيق مكتسبات استراتيجية بتوقيع اتفاق ميونخ مع النمسا أيلول ١٨٣٣ م وجُذبت هنا بروسيا فاستطاعت روسيا أن تنشئ محور أوروبي قواه الدول الثلاثة هذه، وكل هذا كان لتصفية مشروع محمد علي[٣٦].

وهنا ولكي تفك السلطة المركزية الطوق الذي وضعته روسيا على عنقها، قامت بفتح أبواب استانبول أمام بريطانيا باعتبارها الأقدر على حفظ وحدة الإمبراطورية واستقلالها، عندها اندفعت الدول الأوروبية تباعاً وبأشكال مختلفة نحو الالتقاء حول هدف استراتيجي جامع قوامه: تصفية المشروع التجديدي لمحمد

علي[٣٧].

لقد أثار النجاح العسكري الذي حققه محمد علي في حملاته، استياء الدول الأوروبية الكبرى، وجعلها تعده مصدر خطر على مصالحها في الشرق، وكانت إنجلترا على رأس الدول الأوروبية المناهضة لفكرة قيام دولة عربية كبرى، وكان رئيس وزرائها (بلمرستون) يرى أن امتداد نفوذ محمد علي باشا قد أكسبه سيطرة قوية ثم (أن مشروع إقامة الدولة العربية لو تحقق لمكنه من ربط البلاد التي فتحها برابطة وثيقة فتكون وحدة قوية يصبح إذن المرور فيها منوطاً بإرادة محمد علي القوية)، وكان بلمرستون يعتقد أن هدف محمد علي باشا هو إقامة مملكة عربية تضم جميع البلاد التي تتكلم اللغة العربية وسيؤدي ذلك إلى تقطيع أوصال الدولة العثمانية وهذا ما لا يرضيه.

وعارضت النمسا بزعامة (مترنيخ) فكرة إقامة دولة عربية كبرى، لأنه كان يناهض كل اتجاه قومي.

وقد انتهى الأمر بتحالف الدول الأوروبية الكبرى مع السلطان العثماني ضد محمد علي باشا، وبمعاهدة لندن ١٨٤٠م أمكن وقف التوسع المصري، ورد مصر إلى حدودها الطبيعية كولاية عثمانية عادية، كما تم عرقلة النهضة الإصلاحية في داخلها[٣٨].

➢ الاحتكاك مع الغرب:

لقد قام العثمانيون بالاطلاع على التفوق الغربي، وكان ذلك عن طريق التجارة والبعثات الدبلوماسية الأوروبية المقيمة في استانبول بالإضافة إلى البعثات العلمية التي كانت ترسل بين فترة وأخرى إلى أوروبا بالإضافة إلى أن وجود لاجئين في الغرب قدموا إلى الدولة العثمانية بعد أن نزحوا إليها في أعقاب فشل الثورات القومية في أوروبا الشرقية[٣٩].

وقد أدرك محمد علي باشا أهمية استخدام أساليب المدنية الغربية الحديثة لتحقيق التطور والتقدم، وذلك لنقل البلاد من جالة الجمود والتخلف إلى الحياة العصرية المتطورة ومن ثم اتجه إلى الأخذ والاقتباس عن الغرب واستعان في ذلك بالخبراء الأوروبيين ولا سيما الفرنسيين.

كما أرسل البعثات العلمية إلى أوروبا لإعدادهم لتولي المناصب المهمة في المجالات المختلفة والاستغناء بهم عن العسكريين وغيرهم من الخبراء الأجانب، وقد اقتبس محمد علي باشا عن الغرب العلوم والصناعات الحديثة، ونظام التعليم الحديث والأساليب الحديثة في تنظيم وتدريب الجيش والنظم الاقتصادية والإدارية والصحية.

كما أدخل الأساليب الحديثة من الفن المعماري، وتنسيق البساتين، وظهر لك جلياً في قصوره هو وأسرته وفي قصور كبار رجال الدولة التي تم تشييدها(٤٠).

- **العناية بالتعليم الحديث:**

المدارس العليا: أنشأ مدرسة المهندسخانة، ومدرسة الطب البشري والصيدلة والزراعة والطب البيطري ومدرسة الألسن ومدرسة الفنون والصناعات وغيرها وكان الطلبة يلحقون بها بما بشبه التجنيد الإجباري وقد جعل التعليم مجانياً.

- **البعثات الدراسية إلى الخارج:**

لقد أرسل المتميزين من خريجي المدارس العليا في بعثات دراسية إلى أوروبا لاستكمال دراستهم العليا ومن بين النابغين الذين تخرجوا من هذه المدارس رفاعة رافع الطهطاوي، محمد بيومي، علي مبارك، وكان لهم دور كبير في النهضة العلمية والإصلاحية في البلاد(٤١).

أ- الامتيازات الأجنبية:

- **تعريف الامتيازات:**

إن قضية الامتيازات في سورية والولايات العربية التي منحها السلطان العثماني، بدأت على أنها مكرمة من السلطنة العثمانية يجوز لها العدول عنها أو التعديل فيها، وانتهت إلى أن تكون امتيازاً للأجنبي، يتذرع بها فلا يخضع لإدارة البلاد ولا لقضائها أو تشريعها، ومعنى الكلمة: هي الاتفاقات والاتفاقات الخاصة التي ميز بها السلطان العثماني (الحاكم) الدول الأوروبية وخصهم بها وتميزوا بموجبها بالمعاملة من قبله وعلى أرضه ومنع غيرهم منها(٤٢).

والامتيازات هي الوثائق والمعاهدات التي اتخذت منها الدول الأوربية حجة لتثبيت رعاياها على أرض بلاد الشام وذريعة للتدخل في شؤون الدولة العثمانية الداخلية في كل مناسبة، وهذان القرنان السادس عشر والسابع عشر حدث تطور لهذه الامتيازات من مجرد معاهدة تجارية بين دولتين إلى امتيازات تتمتع بها إحدى الدولتين المتفقتين في أراضي الدولة الأخرى، ثم إلى جوازات رسمية تسمح لها بالتدخل في شؤون الأخرى(٤٣).

إن الأوروبيين لم يحترموا التسامح الإسلامي الحضاري الراقي والمعاملة الحسنة بل استغلوهاأبشع استغلال أثناء ضعف السلطنة وانحطاطها، فكانت الامتيازات وسيلة لتحقيق مآربهم الاستعمارية والإمبريالية وتثبيت نفوذهم في أنحاء الإمبراطورية، ومن ثم غدت تلك الامتيازات منافية للمفهوم القومي للدولة وسيادتها على أرضها، وحوربت بعنف لأنها كانت الركيزة القانونية لحق الأوروبيين في بلاد الشام وغيرها من بلاد العرب(٤٤).

وبعد أن حاول محمد علي القيام بمشروعه بادرت بريطانيا للتحالف مع فرنسا ضد محور (روسيا - النمسا - بروسيا) وحققت خرق اقتصادي داخل الدولة

العثمانية بتوقيعه معاهدة بلطي ليمان ١٨٣٥م، التي تقضي بإلغاء نظام الاحتكار، وهو أحد مرتكزات مشروع محمد علي، وتوجت بريطانيا سياستها في انتزاعها اتفاقية تجارية في آب ١٨٣٨م ألغي بموجبها نظام الاحتكار في المناطق التي تخضع لسلطة محمد علي في سوريا ومصر وحصلت على امتيازات مهمة بشأن الملاحة في الفرات، وبذلك فتحت أسواق الدولة العثمانية أمام السلع البريطانية ومن ورائها الفرنسية(٤٥).

إن سياسة بريطانيا في دعم السلطة المركزية وسياستها في تحقيق مكتسبات اقتصادية وسياستها في التدخل المباشر في بلاد الشام كل ذلك كان يخدم بدرجات متفاوتة مصالح جميع الدول الأوروبية.

وكان من نتائج الاتفاقيات التي فرضتها الدول الأوروبية، تحطيم إنجازات محمد علي في حقول الاقتصاد والتعليم كافة، التي كانت تدفع باتجاه بناء دورة اقتصادية داخلية مستقلة توفر للدولة إحدى ركائز شروط استقلالها(٤٦).

- **موقف محمد علي وابنه إبراهيم من الامتيازات:**

لقد قام محمد علي بضرب الامتيازات التجارية حيث كانت البضائع الأجنبية تدخل إلى السلطنة دون حماية جمركية وبأسعار محدودة، فعمل محمد علي من رفع رسوم الوارد على السلع الإنكليزية، وهنا بدأت إنكلترا ووكلائها في بلاد الشام بمحاولة الوقوف ضد محمد علي وسياسته القائمة على الاحتكارات الحكومية(٤٧).

ب- البعثات التبشيرية:

إن القارئ يجد عدداً من المؤرخين، قد ردوا أسباب الانحطاط والتخلف الذي عانت منه البلاد العربية ولا سيما بلاد الشام فترة الحكم العثماني الطويلة إلى عزلتها عن الغرب المتفتح للحضارة والمتقدم في شتى المجالات والميادين، ويؤكد أن السلطنة العثمانية كانت سبباً مهماً في إغلاق هذا العالم عن أوروبة، ولكن يظهر من خلال

الوثائق والاطلاع على تاريخ المنطقة في الفترة العثمانية أن الاتصال بين بلاد الشام وأوروبة لم يتوقف بل ازداد وتفرع، فإذا لم يذهب السوريون إلى الغرب، كان الغرب وأوروبة يأتون إليهم عن طريق العديد من البعثات، إما على شكل مجموعات مقيمة أو سياح أو زوار حج أو رجال دين مبشرين(٤٨).

لكن في فترة إبراهيم باشا في الشام لم تأخذ البعثات التبشيرية حجمها الكبير، كما أخذته في الفترة التالية لحكم إبراهيم باشا في بلاد الشام.

يظن بعض القراء أن المبشرين يأتون إلى الشرق لنشر الدين على أنه هدفهم الأسمى والحق أن نشر الدين أمر ثانوي جداً في جميع الحركات التبشيرية(٤٩).

إن غريغوريوس السادس عشر الذي أصبح بابا عام ١٨٣١م قد شجع اليسوعيين على المجيء إلى سورية، وأمرهم بالعمل فيها، ومن أحد وسائل التبشير كانت عن طريق التعليم، وكان في الكلية الإنكليزية في القدس طلاب مسلمون ونصارى ويهود، وقد استغل المبشرون التعليم، لأن للتعليم أثراً فعالاً، بل هو أقوى وسائل التبشير وعلى هذا الأساس بدأ المبشرون بإنشاء مدارسهم حتى أنهم أنشؤوا أول مدرسة للبنات في الإمبراطورية العثمانية عام ١٨٣٠م في بيروت(٥٠).

إذ أن سلالة إبراهيم باشا كانت متسامحة، إلا أن الغرب لم يفكروا بالبعثات إلا بعد أن قوي نفوذ إبراهيم باشا، فقام الغرب بعد إسقاطه بالبحث عن أساليب يسهل عليه السيطرة على المشرق، وكانت إحدى هذه الوسائل البعثات التبشيرية.

شهد القرن التاسع عشر حركة تبشيرية واسعة في البلاد العربية، ونشطت في بناء المدارس وتأسيس الجمعيات العلمية والأوروبية ـ وتعد مدرسة عينطورة أقدم مدارس الإرساليات في لبنان إذ أنشئت عام ١٨٣٤م من قبل المبشرين العازاريين، وفي عام ١٨٣٥م أنشأ القس وليام طومسون الأمريكي مدرسة في بيروت(٥١).

إن اليقظة القومية عند العرب بدأت مع بداية النهضة الفكرية العامة، وكانت وليدة

هذه النهضة، وقد سبق المسيحيون العرب المسلمين منهم إلى التحسس بالشعور القومي وإلى المجاهرة بالحركة القومية، ففي بداية القرن التاسع عشر دخل المذهب البروتستانتي إلى البلاد العربية، وترجم الإنجيل إلى اللغة العربية، وأخذت طوائف الروم الأرثوذوكس في بلاد الشام تطالب بتعريب كنيستها، وكانت الكنائس الكاثوليكية بما فيها الموارنة قد استقلت عن روما حيث أصبح لها بطاركة وموارنة من العرب، وغدت لها مدارسها العربية، وتخرج من المعاهد التي أنشأتها الإرساليات التبشيرية والطوائف المختلفة رواد الحركة القومية العربية[٥٢].

إن الباحث في الديانة المسيحية يجد أن التبشير بالمسيحية واجب على الرهبان في المجتمعات والبلاد غير المسيحية، والتبشير داخل البلاد العربية منذ الحروب الصليبية التي كان الهدف منها إخضاع البلاد، لكن عندما خرج الصليبيون مهزومين، غيروا طريقتهم في الغزو، وبدلوا القوة المستعملة من نشر الأسلحة إلى غزو البلاد من خلال التعليم.

ومن أجل هذا قامت الإرساليات المسيحية البروتستانتية والكاثوليكية بإنشاء وإقامة الكنائس والمستشفيات والمصحات والملاجئ، ودور العجزة والمسنين والمدارس والمعاهد والجامعات في أكثر البلاد العربية.

وإذا نظرنا إلى العصر الذهبي للتبشير المسيحي في البلاد العربية، نجد أنه نما وترعرع في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين وأخذ يتقهقر في النصف الثاني من القرن العشرين[٥٣].

ومن جهة المؤسسات العلمية التبشيرية كالتعليم مثلاً فإن المدارس لم تجبر التلميذ أو الطالب المسلم على حضور القداس الخاص بالصلوات المسيحية في تلك المدارس، كذلك عدم تدريس مادة الديانة المسيحية لهؤلاء الطلبة والتلاميذ المسلمين ويجب تدريس مادة الديانة الإسلامية لهم.

ومن حيث باقي المواد، فلا بد من أن تكون خاضعة لإشراف وزارة التربية والتعليم إلى آخر ما هنالك من شروط تتفق مع البيئة الإسلامية، وقامت تلك المدارس بتحديد مكان كمصلى يصلي فيه التلاميذ والطلاب المسلمون، وهذا كان بشهادة الدكتور أحمد سعد الدين البساطي.

لقد أصبح التبشير المسيحي علماً يدرس في الجامعات الإسلامية والعربية، وأصبح الباحثون والدارسون يقومون بالبحث والدراسة، ويعدون رسائل في ذلك العلم، ناهيك عن المؤلفات حول التبشير حيث نجد أكثر المؤلفات التي كتبت هي مؤلفات المسلمين في مصر ويليها سوريا فلبنان.

ومن الجدير ذكره أن أحد قساوسة مصر، وكان يدرس العقائد واللاهوت والإسلام وكان زميلاً للمرسلين في الإرساليات التبشيرية الأمريكية والسويسرية والألمانية وأنه ألف كتاباً بعد اعتناق الإسلام، حول التبشير والاستشراق وهذا القس كان قد تعلم في أحد المدارس التبشيرية(٥٤).

ويذكر الكاتب البساطي أن البعض يرى أن التبشير بالمسيحية بدأ في البلاد الإسلامية منذ مطلع القرن التاسع عشر وذلك لأن قوى التبشير وجدت الطريق أمامها مفتوحاً وميسراً مع العوامل التي أعدها لها النفوذ الاستعماري وأهمها الامتيازات الأجنبية(٥٥).

وفي عام ١٨٣٤م انتشرت البعثات التبشيرية في بلاد الشام ونقلت الإرساليات الأمريكية مطبعتها من مالطة إلى بيروت وانتقلت الإرساليات شيئاً فشيئاً إلى الشام(٥٦).

أما عمل إرساليات التبشير فقد انحصر في مجالين:

الأول- تكوين الجمعيات الدينية المسيحية.

والثاني- إنشاء المدارس والجامعات المسيحية*.

وأول جمعية تكونت جمعية سميت بـــ(جمعية الفنون والعلوم) بلبنان، وقد أنشئت عام ١٨٤٧م وكان هدفها نشر العلوم بين الكبار على شكل ندوات ومحاضرات تشمل الكثير من العلوم الغربية(٥٧).

وأول مدرسة أقيمت كانت على يد رئيس البعثة التبشيرية (فاندليك) الذي وصل إلى بيروت عام ١٨٤٠م وأقام مدرسة عبية بعد وصوله مباشرة وذلك بمساعدة أحد اللبنانيين (بطرس البستاني)(٥٨).

ومن الجدير ذكره أن إبراهيم باشا طور سياسته في الحكم، فقد فتح المجال أمام البعثات التبشيرية الأجنبية، فتقاطر المبشرون إلى بيروت ومنها انطلقوا إلى سائر أنحاء الشام، وكانت سنة ١٨٣٤م سنة تحول ففيها عاد اليسوعيون، ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا إلى الفئة القليلة التي سبقتهم وبدأ التنافس على النفوذ والغلبة بين الكاثوليك والبروتستانت، وقد وصلت حدة هذا التنافس أحياناً إلى التناحر، وكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت خلال زمن قصير من الأدب إلى السياسة(٥٩).

- **سياسة إبراهيم باشا:**

كان إبراهيم باشا يرغب في إنشاء دولة عربية وذلك عن طريق التمسك بالشرعية الإسلامية، ونلاحظ ذلك من خلال الرسالة التي وجهها لوالده بعد أن فتح أمامه الطريق لبلوغ استانبول ويمكن تلخيصها بما يلي:

١- وعي إبراهيم القومي في رسالة وجهها إلى الباب العالي يحذره فيها من مخاطر الدول الأوروبية.

---

* أكدت معظم الدراسات أ ن المبشرين لم يحققوا في هذا المجال نجاحات تذكر، لأن الطابع القومي وحّد المشاعر ما بين المسيحيين والمسلمين.

٢- رغبة محمد علي بإقامة سوق مشترك بين بلاد الشام ومصر وطبعاً هذا من أحد أهم مقومات الوحدة العربية.

٣- لو لم تكن أفكار إبراهيم باشا أفكاراً قومية لما قامت الدول الأوروبية بترك خلافاتها وعملها على بلورة استراتيجية أوروبية هدفها إجهاض مشروع محمد علي وابنه.

٤- معارضة النمسا بزعامة مترنيخ فكرة إقامة دولة عربية كبرى لأنه كان يناهض كل اتجاه قومي.

٥- إن اتفاق الدول الأوروبية وتوقيع معاهدة بلطة ليمان (١٨٣٥م) قضت إلغاء نظام الاحتكار وهو إحدى مرتكزات مشروع الوحدة.

٦- كان من نتائج الاتفاقيات الأوروبية العثمانية، تحطيم إنجازات محمد علي التي كانت تدفع باتجاه دورة اقتصادية داخلية مستقلة توفر للدولة إحدى ركائز شروط استقلالها.

٧- قيام محمد علي وابنه إبراهيم بضرب الامتيازات الأجنبية لأن الأوروبيين لم يحترموا التسامح الديني وإنما استغلوه لتحقيق مآربهم الاستعمارية والإمبريالية، وهنا كانت هذه الامتيازات منافية للمفهوم القومي للدولة وسيادتها على أرضها.

٨- لقد قام إبراهيم باشا وأبوه محمد علي بالاتجاه نحو العوامل المثبّتة للقومية وذلك باستخدام المدنية الغربية الحديثة لتحقيق التطور والتقدم والاستعانة بالخبراء الأجانب وبالإضافة إلى البعثات العلمية إلى أوروبا وهناك تم الاطلاع بشكل مباشر على الأفكار القومية.

٩- إن سياسة إبراهيم باشا المتسامحة قد شجعت على البعثات التبشيرية التي أقامت المدارس والجامعات والجمعيات، وهنا تم التعرف على الحضارة والعلوم الغربية، حيث تم نقل بعض المطابع إلى البلاد العربية وهذا ما أدى مستقبلاً إلى انتشار الفكر بسبب انتشار الطباعة، وإن التنافس بين الكاثوليك والبريسبيريين

أدى إلى انتعاش اللغة العربية فقامت حركة فكرية انتقلت خلال زمن قصير من الأدب إلى السياسة.

١٠- إن نظام التعليم الذي أدخله إبراهيم باشا له أثره الفعال في حفز التعليم القومي وخاصة بين المسلمين وكان للبداية التي بدأ بها أثر بعيد المدى، إذ أن هذا النظام كان يرمي عامداً إلى إيقاظ الوعي القومي العربي بين التلاميذ.

١١- إن الامتيازات الأجنبية أخذت طابع تعميق النزعة الفردية والمصلحة الذاتية وكانت حجة لتثبيت الرعايا الأجانب في بلاد الشام ولهذا قامت حركة مضادة تناهض وتقف بوجه الامتيازات الأجنبية وتمثلت بوعي قومي عربي كان له البذور الأولى في نشوء فكرة القومية العربية.

١٢- **أخيراً**: المقولة الشهيرة التي قالها إبراهيم باشا لأحد الفرنسيين:

(أنا لست تركياً فقد أتيت إلى مصر عندما كنت فتياً ومنذ ذلك الوقت، غيرت شمس مصر دمي وجعلته عربياً خالصاً).

هنا نرى أن إبراهيم نفى التعصب العرقي وذاب بالقومية العربية.

الخاتمة:

لقد حقق إبراهيم باشا في إدارته بلاد الشام فكرة القومية العربية، فقد بعثت دون شك الفكرة العربية ولا سيما أن هذا الحكم ابتعد عن الممارسات الطائفية الموروثة وأظهر إمكانية قيام تنمية وتطوير قومي عربي منفصل عن الطائفية والمذهبية وقوى الارتباط بين مصر وسورية، فأخذ الكثير من اللبنانيين والسوريين في الهجرة إلى مصر وفتحت لهم أبواب العمل في مصر في جو من الحرية والمودة (التجارة، الإدارة، التعليم، الحركة الأدبية، الصحف، الفن) بالإضافة إلى الدراسة في الأزهر منذ القديم.

ثم أن الامتيازات الأجنبية أخذت طابع تعميق النزعة الفردية والمصلحة الذاتية وكانت حجة لتثبيت الرعايا الأجانب في بلاد الشام، ولهذا قامت حركة مضادة تناهض وتقف بوجه الامتيازات الأجنبية وتمثلت بوعي قومي، كان له البذور الأولى في نشوء فكرة القومية العربية.

وتميز النصف الثاني من القرن التاسع عشر بظهور عدد من الجمعيات العلمية والأدبية في بلاد الشام حيث أدت دوراً كبيراً في النهضة الفكرية العربية.

(لقد كانت دولة محمد علي القصيرة العمر عربية بفضل الجغرافيا، فالتوسع المصري كان لا بد له في البدء أن يكون توسعاً في البلدان العربية، ونجد ما يشير إلى أن محمد علي كان يتوخى إنشاء وحدة عربية من خلال أقوال ابنه ومساعده الأكبر إبراهيم باشا، فهو يقول: (أنا لست تركياً فقد أتيت إلى مصر عندما كنت فتياً ومنذ ذلك الوقت، غيرت شمس مصر دمي وجعلته عربياً خالصاً).

ولقد استشهد الكثيرون بهذه العبارة التي قالها إبراهيم باشا إلى زائر فرنسي كما استشهد بتعليق هذا الزائر عليها إذ قال أن هدف إبراهيم باشا إنما كان تأسيس دولة عربية خالصة يعيد بها لـــ (العنصر العربي) قوميته ووجوده السياسي، وفي ذلك

الوقت نفسه كتب إبراهيم باشا إلى والده كتاباً يكاد ينم عن المعنى نفسه، يقول فيه إن الحرب مع الأتراك كانت حرباً وطنية، إن على الإنسان أن يضحي بحياته في سبيل أمته (لكن الحركة القومية العربية الصريحة وأهدافها السياسية، لم تظهر إلا أواخر القرن التاسع عشر)[٦٠].

ومن الجدير ذكره أن هنالك اختلاف بين سياسة محمد علي وابنه إبراهيم باشا تجاه الوحدة العربية، فمحمد علي باشا عمل على إقامة الوحدة العربية كوسيلة لبلوغ الهدف الخاص، والذي يتمثل بنواياه للحصول على مكسب شخصي، أما ابنه إبراهيم فقد كانت الوحدة العربية هي هدفه الذي يعمل على الوصول إليه وكانت وسيلته في ذلك ما رأيناه في سياسته في بلاد الشام القائمة على التسامح الديني والابتعاد عن كل ما يضر المسلمين والمسيحيين على حد سواء، وما فعله من استقطاب وإرسال البعثات العلمية التي كان لها الفضل في التطور العلمي والتقني في المنطقة العربية عامة وبلاد الشام خاصة.

لقد عمل إبراهيم باشا بذكاء على الاستفادة من النظام الضرائبي الذي اتبعه والذي استخلصه من الغرب، كما استفاد من الناحية الإيجابية للبعثات التبشيرية، حيث لم يكن للبعثات هذه وجهها السلبي فقط الذي تمثل بتنصير العرب، وإنما كان لها وجهها الإيجابي بما حملته من علوم عمل إبراهيم باشا على الاستفادة منها وإفادة أهالي المنطقة منها بكل ذكاء دون الوقوع في فخ التبشير السلبي.

الحواشي

(١) حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧ م، ص ١٢٢.

(٢) علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤ م، بيروت، الشركة الأهلية، ١٩٨٠ م، ص ٢٣.

(٣) ماري دكران سركو، الامتيازات الأجنبية وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على سورية (بلاد الشام) من ١٨٨٥-١٩٠٨ م، إشراف: د. سمر بهلوان، جامعة دمشق، ٢٠٠٣ م، ص ١٥.

(٤) ليلى صباغ، المجتمع العربي في مطلع العهد العثماني، دمشق، منشورات دار الثقافة، ١٩٧٣ م، ص ٣.

(٥) ماري دكران سركو، المرجع السابق، ص ١٧-١٩.

(٦) ماري دكران سركو، المرجع السابق، ص ٢٣.

(٧) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط٧، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧ م، ص ٤٠١-٤٥٧.

(٨) عبد الكريم رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، ط ٥، ١٩٨٥ م، ص ٣.

(٩) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، ط ١، ج ٢، بيروت، فرانكلين للطباعة والنشر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م، ص ٢٤٧.

(١٠) سركو، مرجع سابق، ص ٢٦-٢٧.

(١١) أحمد جودت باشا، تاريخ جودت، استانبول، ١٣٠٩ هـ، ج ٤، ص ١٥٨.

(١٢) حسن الضيقة، دولة محمد علي والغرب: الاستحواذ والاستقلال، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢ م.

(١٣) حلمي محروس إسماعيل، تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الطبعة الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧ م، ص ١٤٧.

(١٤) حلمي محروس إسماعيل، المرجع نفسه، ص١٧٨.

(١٥) عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢ م، دار النهضة العربية، ١٩٨٥ م، ص ٣١٧.

(١٦) حلمي محروس إسماعيل، المرجع نفسه، ص ١٧٩.

(١٧) الضيقة، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(١٨) الضيقة، المرجع نفسه، ص ١٧٣-١٧٤.

(١٩) عبد العزيز نوار، تاريخ مصر الاجتماعي منذ فجر التاريخ حتى العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٨ م.

(٢٠) إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٧٤.

(٢١) نوار، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢٢) أسد رستم، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨-١٩٤٨ م، مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠ م، ص ١٠٧.

(٢٣) لطيفة حسن سالم، الحكم المصري في بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤١ م، ط ٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩ م، ص ١٧٥.

(٢٤) الضيقة، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

(٢٥) أسد رستم، حروب إبراهيم باشا المصري في سورية والأناضول، القاهرة، المطبعة السورية، ١٩٢٧ م، ص ٥.

(٢٦) الضيقة، مرجع سابق، ص ٢٠٩.

(٢٧) إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٢٨) أسد رستم، ذكرى البطل الفاتح، ص ١٠٨-١١٢.

(٢٩) أحمد لطفي باشا، تاريخ لطفي، ٣ أجزاء، استانبول، ١٢٩٨ هـ، ج ١، ص١٣٢.

(٣٠) رستم، ذكرى البطل الفاتح، ص ١٢٨.
(٣١) محمد كرد علي، خطط الشام، ط ٢، ج ٣+٤، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٠ م، ص ٥٦.
(٣٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، ط ١، بيروت، نيويورك، دار العلم للملايين، ١٩٦٢ م، ص ١٠٢.
(٣٣) المحافظة، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
(٣٤) المحافظة، مرجع سابق، ص ٢٠٥.
(٣٥) الضيقة، مرجع سابق، ص ١٦٧.
(٣٦) المرجع السابق، ص ١٦٨-١٧٠.
(٣٧) لطفي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٨٠.
(٣٨) لطفي، تاريخ لطفي، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٩٥.
(٣٩) عبد الكريم رافق، بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦-١٧٨٩ م، ط ١، ١٩٦٧ م، ط ٢، ١٩٦٨ م، ص ٣٩٦.
(٤٠) إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٢٨.
(٤١) جودت، مصدر سابق، ج ٥، ص ٤١٦.
(٤٢) سركو، مرجع سابق، ص ٤١.
(٤٣) ليلى الصباغ، الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين (١٦ و١٧ م)، ط ١، ج ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩ م، ص ٢٤٣.
(٤٤) عبد الكريم غرايبة، سورية في القرن التاسع عشر، محاضرات ألقيت في عامي ١٩٦١-١٩٦٢ م، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ص ١١٢.
(٤٥) الضيقة، مرجع سابق، ص ١٧١.
(٤٦) إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٢٩ وما بعدها.
(٤٧) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧ م، ص ٢٤٣.

(٤٨) سركو، مرجع سابق، ص ٤٢.
(٤٩) مصطفى الخالدي، عمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية عرض لجهود المبشرين، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٥٣ م، ص ٣٤.
(٥٠) الخالدي وفروخ، مرجع سابق، ص ٧٧.
(٥١) محافظة، مرجع سابق، ص ٢٥.
(٥٢) المرجع السابق، ص ١٢٩.
(٥٣) أحمد البساطي، التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، القاهرة، مكتبة الغيمان، ١٩٨٩ م، ص ٣-٥.
(٥٤) المرجع السابق، ص ٥-٧.
(٥٥) أنور الجندي، مخططات التبشير والاستشراق، القاهرة، دار الاعتصام، د.ت، ص ١٩.
(٥٦) البساطي، مرجع سابق، ص ٢٠.
(٥٧) الجندي، مرجع سابق، ص ٢١.
(٥٨) جودت، مصدر سابق، ج ٤، ص ٣٧.
(٥٩) أنطونيوس، مرجع سابق، ص ٩٩.
(٦٠) ألبرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ م، ترجمة: كريم عزقول، ط ٤، دار النهار للنشر، ١٩٨٦ م، ص ٣١٣.

المصادر والمراجع

١- أحمد سعد الدين البساطي: التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية، القاهرة، مكتبة الإيمان، ١٩٨٩ م.

٢- أسد رستم: ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨-١٩٤٨ م، مجموعة أبحاث ودراسات تاريخية، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠ م.

٣- أسد رستم: حروب إبراهيم باشا المصري في سوريا والأناضول، القاهرة، المطبعة السورية، ١٩٢٧ م.

٤- ألبتر حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ م، ترجمة: كريم عزقول، ط٤، دار النهار للنشر، ١٩٨٦ م.

٥- أنور الجندي: مخططات التبشير والاستشراق، القاهرة، دار الاعتصام، د.ت.

٦- جورج أنطونيوس: يقظة العرب (تاريخ حركة العرب القومية)، ترجمة: ناصر الدين الأسد، إحسان عباس، ط١، بيروت، نيويورك، دار العلم للملايين، ١٩٦٢ م.

٧- حسن الضيقة: دولة محمد علي والغرب: الاستحواذ والاستقلال، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٢ م.

٨- حلمي محروس إسماعيل: تاريخ العرب الحديث من الغزو العثماني إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧ م.

٩- ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧ م.

١٠- عبد العزيز نوار: تاريخ مصر الاجتماعي في العصر الحديث، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٨ م.

١١- عبد الكريم رافق: بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث، ط ٥، ١٩٨٥ م.
١٢- عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون ١٥١٦-١٧٨٩ م، ط ١، ١٩٦٧ م، ط ٢، ١٩٦٨ م.
١٣- عبد الكريم غرايبة: سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠-١٨٧٦ م محاضرات ألقيت في عام ١٩٦١-١٩٦٢ م، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٢ م.
١٤- علي المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤ م، بيروت، الشركة الأهلية، ١٩٨٠ م.
١٥- عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢ م، بيروت، دار النهضة العربية، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م.
١٦- فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة: كمال اليازجي، ط ١، ج ٢، بيروت، فرانكلين للطباعة والنشر، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥ م.
١٧- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، ط٧، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٧ م.
١٨- لطفي أحمد باشا: تاريخ لطفي، ٣ أجزاء، استانبول، ١٢٩٨ هـ.
١٩- لطيفة محمد سالم: الحكم المصري في بلاد الشام ١٨٣١-١٨٤١ م، ط ٣، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٩ م.
٢٠- ليلى صباغ: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين (١٦ و ١٧)، ط ١، ج ١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩ م.
٢١- ماري دكران سركو: الامتيازات الأجنبية وانعكاساتها الاقتصادية والاجتماعية على سورية (بلاد الشام) من ١٨٠٨-١٨٨٥ م، إشراف: د. سمر بهلوان، جامعة دمشق، ٢٠٠٣ م.

٢٢-محمد كرد علي: خطط الشام، ط ٢، ج (٣+٤)، بيروت، دار العلم للملايين، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.
٢٣-مصطفى الخالدي، عمر فروخ: التبشير والاستعمار في البلاد العربية، عرض لجهود المبشرين، بيروت، المكتبة العلمية، ١٩٥٣ م.